روجيه غارودي

فلسطين
أرض الرسالات السماوية



ترجمة: قصي أتاسي - ميشيل واكيم



دمشق ـ أوتوستراد المزة
هاتف
٢٤٤١٢٦ ـ ٢٤٣٩٥١ ـ ٢١٣٨٢١
تلكس: ٤١٢٠٥٠
ص.ب: ١٦٠٣٥
العنوان البرقي
طلاسدار
TLASDAR

ريع الدار مخصص

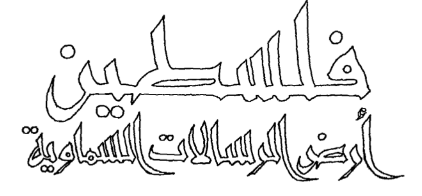
لصالح مدارس ابناء الشهداء في القطر العربي السوري

فلسطين

أرض الرسالات السماوية

طبعة عــام ١٩٩١

روجيه غارودي



ترجمة: قصي أتاسي - ميشيل واكيم

الآراء الواردة في كتب الدار تعبر عن فكر مؤلفيها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

كلمة الناشر

• ويبقى الحوار هو المطلوب.
• وتبقى الكلمة الحرة ضماناً لكل تقدم.
• وتبقى ترجمة الآثار العالمية نافذة يطل منها القارىء العربي على معطيات الآخرين علماً وأدباً وفكراً وفناً.
• روجيه غارودي في كتاب جديد عن فلسطين... فيه الدراسة الجادّة الموضوعية المتقصيّة، وفيه العرض التاريخي المنهجي... فيه المواقف المعبرة عن وجهة نظر صاحبها.
• ويبقى الحوار هو المطلوب، وتبقى الكلمة الحرة ضماناً لكل تقدم.

دار طلاس
للدراسات والترجمة والنشر

مدخل

ماذا تعني «فلسطين»؟

تعرّف الموسوعة البريطانية ـ شأنها شأن الموسوعة الفرنسية الجامعة أونيفرسالس ـ فلسطين بأنها المنطقة التي خضعت للانتداب البريطاني منذ عام ١٩٢٣ وحتى عام ١٩٤٨. وهكذا اختُصرت واحدة من أعرق الحضارات في التاريخ في فترة زمنية لا تتعدى ربع القرن، كما اقتُصر في النظر إلى حدودها الجغرافية على وجهة النظر النابعة من علاقات الصراع بين القوى الاستعمارية، وهذا ماأقرته هيئة الأمم المتحدة بعد الحرب العالمية الأولى.

ومهما بدا ذلك غريباً فنحن لا نملك تعريفاً جغرافياً آخر لفلسطين غير ذلك التعريف الذي أخذناه عن (الاستعمار). وماكان للأمور إلا أن تكون على هذه الصورة؛ فالاستعماريون وقد مزقوا الأمة العربية ـ الإسلامية تبعاً لمنطق علاقات القوة فيما بينهم (كما فعلوا في مؤتمر برلين عام ١٨٧٥ بإفريقيا السوداء) هم الذين ربطوا مصير فلسطين بالحل الذي كان منوياً إجراؤه للمسألة الشرقية، أي لتلك القضايا التي نجمت عن تدهور الامبراطورية العثمانية.

وهكذا في أثناء الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨ تقاسمت القوى الاستعمارية سلفاً تركة الامبراطورية التركية قبل أن يحرز الاستعماريون النصر على ألمانيا حليفة تركيا. إن الانتداب البريطاني بكل انقلاباته وتغيراته التي كان الصهاينة وقد نفد

صبرهم يعملون على تسخيرها لتسريع مجرى الأحداث ... قد تميز باتجاه أساسي حدده منذ عام ١٩٢١ السير هوبرت يونغ أحد المسؤولين في (مكتب الاستعمار) بقوله: «إن القضية التي يجب حلها الآن تهدف إلى البحث عن (تكتيك) لا عن (استراتيجية). إن المبدأ الستراتيجي العام ــ كما أراه ــ هو في هجرة متزايدة لليهود إلى فلسطين بغية تأمين أكثرية ساحقة لهم في هذا البلد ... ولكنني أشك في قدرتنا على مصارحة العرب بحقيقة سياستنا وماهيتها».

إذن يمكن أن نعرّف فلسطين على امتداد القرن الأخير من تاريخها منذ مؤتمر بال عام ١٨٩٧ وحتى عام ١٩٨٥ بأنها ذلك الجزء من العالم العربي الذي حنث الاستعمار جهراً وعلانية بوعوده له بالاستقلال. ومن هنا تحددت لهذا البلد حدوده الجغرافية من قبل الانتداب البريطاني.

وإذا نحن نحينا جانباً هذا التعريف الاستعماري لفلسطين وحدودها فبماذا نعرّف فلسطين تاريخياً؟ هل هي (أرض التوراة)؟ أهي (أرض الميعاد) أم الأرض التي جرى احتلالها؟... وهل ننسى أن (أرض الميعاد) من النيل إلى الفرات قد حُددت بنوع من التحريف والتضليل بتلك الأرض التي جرى احتلالها في عهد مملكة داوود؟ (فالوعد) المحدد في التوراة في الألف الثاني قبل الميلاد لم يرد مكتوباً على أبعد حد إلا في عهد مملكة سليمان أي بعد أكثر من ألف عام من تاريخ ذلك الوعد.

أم تراها إقليم بلاد الشام في الامبراطورية العثمانية؟ أم إنها (أرض اسرائيل)، ذلك الاسم الذي قلّ أن يرد في التوراة ولكنه ذاع وانتشر على يد أحبار اليهود واستغلته الدولة الصهيونية؟ ولكن هل ننسى أن المنطقة الساحلية ولاسيما عكا وحيفا في الشمال وغزة في الجنوب لم تكن خاضعة للدولة اليهودية ولا لمملكة داوود نفسها... وهكذا أصبح تعبير (أرض اسرائيل) الأسطورة التي تقوم عليها الدولة الصهيونية.

إن كل هذه الألوان من التعريف والتحديد المتعلقة بواقع فلسطين التاريخي هي من صنع الغزاة أو المستعمرين الذين تعاقبوا عليها من يونان ورومان وبيزنطيين وإنكليز وصهاينة.

بين صحارى شبه الجزيرة العربية في الجنوب وبين هضاب الأناضول القاحلة في الشمال، وبين الدلتا الخصبة لنهري دجلة والفرات في الشرق وبين دلتا النيل في الغرب تمتد هذه المنطقة البهيجة التي سماها المؤرخ الأمريكي (بريستد) في بداية القرن العشرين (الهلال الخصيب) الذي يمتد من الخليج العربي وحوض الفرات ومجرى العاصي مروراً بشاطىء البحر المتوسط... وحتى دلتا النيل. أما فلسطين فتقع في الزاوية الغربية من هذا (الهلال الخصيب). إن موقعها وبنيتها وحدودها الجغرافية وماعبر بها من شعوب عبر التاريخ لم يعين لفلسطين دورها فحسب، بل وهبها ماأهّلها لذلك الدور المتميز في عملية التطور الروحي للإنسان في منطقة الهلال الخصيب.

إن فلسطين لم تكن كياناً منعزلاً إلا بفعل مطامع الوافدين إليها من الخارج (اجتياح الرومان ـــ غزوات الصليبيين ـــ الاستعمار الانكليزي ثم الصهيوني)؛ وإذا أردنا أن نحدد (فلسطين) عبر التاريخ فلا بد من أن نعي مجموعة حقائق وثوابت امتدت ودامت على مدى ثلاثة آلاف من الأعوام:

أولها ـــ لم تكن فلسطين إلا عضواً في (كيان عضوي) أوسع وأشمل؛ فهي لم تنفصل منذ ماقبل التاريخ عن مجموعة الهلال الخصيب أي عن تلك المنطقة التي لم تنقطع الهجرات إليها والاستقرار فيها انطلاقاً من مهد العرب على نحو شبه دائم من قبل البدو الوافدين من شبه الجزيرة العربية الذين كانوا يستقرون مؤقتاً أو دائماً في بلاد مابين النهرين أو فيما نسميه اليوم سورية ولبنان وفلسطين.

ومهما تعددت الأسماء التي نطلقها على أصحاب تلك الهجرات ـــ من عموريين في نهاية الألف الثالث قبل الميلاد وآراميين في نهاية الألف الثاني أو مايطلق عليهم اسم الكنعانيين بوجه عام ـــ فإن هذه الأسماء لا تعني تعدداً في الأجناس البشرية بل تعني تتابعاً في النفوذ والسيادة مارسته شعوب تنتمي إلى المجموعة السامية التي ترجع بجذورها إلى الجزيرة العربية.

هذا؛ ومن التعسف أن نقابل في هذه المجموعة البشرية على نحو صارم بين بدو رحّل وحضر مستقرين؛ فتعبير (البدو الرحّل) له أكثر من دلالة: فهناك بدو خلّص

لا يعرفون الاستقرار ، وبدو آخرون يمارسون رحلات منتظمة دورية يستقرون خلالها من فصل إلى فصل ليكونوا مزارعين ، وفريق ثالث من البدو يسهمون من حين إلى آخر في الحياة المدنية عن طريق التجارة أو بعض الأعمال الأخرى قبل أن يقوموا برحلة جديدة. إذن ليست الفروق كبيرة حادة بين هؤلاء البدو الرحّل والحضر المستقرين من سكان مدن أو مزارعين؛ فنحن نجد كل هذه الأصناف (من بدو خلّص وبدو شبه مزارعين أو شبه حضريين ومن حضر مزارعين أو سكان مدن) داخل القبيلة نفسها تربط فيما بينهم رابطة الدم والنسب. وهكذا لا يمكن أن نؤسس (تاريخاً) قائماً على نظرة تبسيطية تأخذ بالتقابل الصارم بين بدو وحضر. بل إن الأمر على العكس من ذلك؛ فهذه الألوان من التداخل والتناوب بين أنماط الحياة قد خلعت على مجموعة سكان الهلال الخصيب ضرباً من الوحدة بفضل ذلك التماسك الذي دام ألف عام فيما بين الشعوب الناطقة باللغة الساميّة والمنحدرة من أصل واحد.

وقد تجلت هذه الوحدة في التكامل والتعاون بين مجتمعات ذات بنى وأهداف مختلفة: فلقد كانت (صور) عاصمة (الجليل)، وكان لأهل الجليل مشاريعهم التجارية في (صور) بينما كان لأهل صور مراكزهم التجارية في الجليل. وهذه العلاقات ذاتها كانت قائمة بين صيدا ودمشق وبين طرابلس وحمص.

وهكذا كانت سلسلة العلاقات الدائمة تربط فيما بين الجنوب وشاطىء البحر المتوسط من طرف وبين بلاد مابين النهرين المنتهية بالخليج العربي من طرف آخر.

ثانيا ـــ لقد عبّرت هذه الوحدة عن نفسها على المستويين الثقافي والروحي؛ فالاكتشافات التي تمت منذ قرون ولاسيما اكتشافات رأس شمرا (أوغاريت) و (ماري) و (إيبلا) منذ عام ١٩٧٥ والتي تقع فيما يسمى اليوم سورية تقدم الدليل على أهمية هذه المنطقة. لقد كانت (إيبلا) المركز الأهم في الشرق الأدنى منذ الألف الثالث قبل الميلاد (٢٣٠٠)؛ أما أوغاريت التي كانت مأهولة منذ العصر الحجري فقد بلغت أوج حضارتها في منتصف الألف الثاني حينما استقر فيها الكنعانيون الذين كانوا يتكلمون اللغة العربية القديمة أي الساميّة وهي لغة أجدادهم في الجزيرة العربية. إن هذه المنطقة كانت مركز اللقاء الرئيسي بين شعوب وثقافات عديدة.

نعم؛ لقد ولد من تعاقب الشعوب على هذه المنطقة ضرب من الترسب الثقافي بل لون من التطور العضوي لثقافة واحدة بطريق التداخل والتكامل والتمازج بين مكتسبات متعاقبة، لا بطريق المجابهة والرفض. وكان للاكتشافات الحديثة دلالاتها: ففي إيبلا اكتشفت عام ١٩٧٥ لغة خاصة بها قريبة من اللغة الكنعانية، وهي لغة ساميّة تستخدم كتابة السومريين المسمارية منذ (٢٣٠٠) ق.م. يقول بيير أمييت: «كان السوريون انطلاقاً من قاعدة شاملة في الشرق الأدنى يستخدمون النمط المسماري في الكتابة واللغتين السومرية والأكادية في آنٍ معاً. وفي (ماري) وفي إيبلا يستخدمون كذلك النمط نفسه في كتابتهم... وهذه اللغات كلها كانت قريبة جداً من الأكادية وهي لغة ساميّة كذلك».

والظاهر أن البدو العموريين المنتشرين في بلاد مابين النهرين قد تمثلوا بسرعة تلك الحضارة الرفيعة التي أنجزها السومريون والأكاديون. ولقد أسسوا على أنقاض مملكة (أور) سلسلة من الممالك ذات النشاط والنفوذ منها مملكة بابل، وهي الأحدث من بينها (١٨٩٤) ق.م، هذه المملكة التي ستستعيد في ظل ملكها السابع حمورابي (١٧٢٨ــ١٦٨٦) ق.م الوحدة المفقودة... وهكذا نشأت مجموعة من الأمم كانت مهداً لحضارة عريقة.

إن الرسائل المئة والخمسين التي خلفها حمورابي تشهد باهتمامه الشديد بـ(الأشغال العامة) التي تعمل على تأمين المواصلات عبر الهلال الخصيب، سواء منها الأقنية والطرقات والمعابد. وتدل مجموعة شرائع حمورابي المنقوشة على أحد الأنصاب التي اكتشفت عام ١٩٢٠ والمحفوظة في متحف اللوفر على المشروع الثقافي والسياسي الخاص بالهلال الخصيب.

إن حمورابي لا يدعي أنه يبدأ من الصفر؛ ففي شريعته معطيات سومرية وساميّة أكادية. ولقد كانت قوانين حمورابي شريعة مجتمع من التجار بينما لم يكن القانون الروماني بعد ثلاثة عشر قرناً سوى تشريع لفلاحين بدائيين؛ وجاءت شريعة موسى بعد ثمانية قرون متخلفة بالقياس إلى شريعة حمورابي.

وهكذا راحت تنضج بهدوء على امتداد أراضي الهلال الخصيب كبرى المسائل الروحية اللاحقة المتعلقة بالمطلق وماوراء الحياة ووحدة الإله والنبوة التي توحي بها الإرادة الإلهية. لقد كان ذلك كله تراثاً مشتركاً بين شعوب الهلال الخصيب إذ تسربت منذ القرن السادس عشر ق.م النظرة العلوية الشاملة إلى العالم من أرض حمورابي إلى مصر أخناتون (١٣٥٠) ق.م عن طريق الهكسوس.

وفي هذا الصدد وعلى ذكر الهكسوس والآشوريين من بعدهم الذين استولوا على مملكة (ماري) عام ١٢٠٠ ق.م يجدر بنا أن نصحح على ضوء التنقيبات الأثرية الحديثة تلك الرؤية التاريخية المغلوطة؛ فلم يكن هؤلاء وأولئك برابرة يهدمون باندفاعهم الحضارات السابقة، بل الأمر على العكس من ذلك؛ فنحن حينما ننتقل من الأكاديين إلى الآشوريين إلى بابل الجديدة لا نجد أنفسنا أمام أصول عرقية مختلفة وإنما أمام سلالات ملكية؛ وهكذا يتعاقب الحكام على البلد ولكن استمرارية الحضارة تتوطد وتترسخ. لقد كان الهم منحصراً في مراقبة شبكة الطرق الواسعة في الهلال الخصيب وتأمين حمايتها من غزوات البدو الرحّل. والمحافظة على إمكانيات التمازج التجاري والثقافي في الوقت نفسه كان لابد لها أن تثير غضب جماعات البدو الذين كانوا يأملون باستغلال الفوضى (وأنت تجد صدى هذا الغضب في التوراة على لسان الأنبياء: يوناس وناحوم وسوفونيا). وماتزال وجهة النظر هذه تجد لها أنصاراً حتى أيامنا الحاضرة إذ يوصف الآشوريون والهكسوس بأنهم هدامون مخربون؛ ففي القرن الثالث عشر ق.م حينما سيطر الآشوريون على طرق المواصلات في المنطقة حتى البحر المتوسط وجزء من إفريقية حافظوا للمنطقة على وحدتها وأمنها، ولم يمارسوا فيها أي تخريب. نعم لم يقم الآشوريون بتخريب الثقافة الآرامية حينما استولوا عام (٧٣٢) على دمشق آخر عاصمة آرامية؛ بل إنهم حفظوها ورعوها ونشروا في المنطقة الواسعة التي سادوا فيها لغة دمشق الآرامية التي أصبحت فيما بعد اللغة المشتركة على مدى ألف عام... ثم أصبحت الآرامية لغة المسيح بعد سبعة قرون.

لقد تمثل الآشوريون ثقافة الآراميين وجعلوا منهم وزراء وموظفين ومربين. وطالما تحدث المؤرخون في كتبهم عن الأساليب الوحشية والفظائع التي يرتكبها الأعداء

المتحاربون... والأمر المؤسف أن تلك الأساليب سمة خاصة بكل المنتصرين؛ فرعمسيس الثاني الذي يمجده المؤرخون يتباهى بمذابحه في كل النقوش البارزة في قصره. ولكن المؤرخين قلما يتحدثون عن مكتبات الآشوريين المكتشفة حديثاً وعن دورها الذي لعبته في عملية التمازج الثقافي. نعم كان الآشوري يهدم قصور المغلوبين وحصونهم، ولكنه لم يكن يمس معابدهم أو لغتهم أو ثقافتهم؛ بل إنه عمل على جمع تراثهم ونشره وإذاعته.

وكذا الأمر فيما يتعلق بالهكسوس الذين لم يكونوا أبداً مخربين بدائيين بل كانوا جماعة من العموريين جمعوا الإرث الثقافي والديني لبلاد مابين النهرين وسورية؛ ولقد نشروا مالها من كنوز على طول شاطيء البحر المتوسط. هذا؛ ولم تكشف التنقيبات الأثرية فيما يخص عبورهم بفلسطين في القرن السادس عشر ق.م عن أي تخريب للثقافة أو الديانة الخاصة بالكنعانيين في القرنين الثامن عشر والسابع عشر ق.م. لقد حملوا معهم إرث أجدادهم إلى مصر التي ستعرف بعد قرنين ازدهاراً سريعاً قصير الأمد في عهد أخناتون الذي سيواجه رفض طبقة الكهنة لمبدأ التوحيد العموري.

ثالثها ــ أن وحدة الحضارة والعقيدة في هذه المساحة الشاسعة من الهلال الخصيب لا يمكن أبداً قياسها إلى حضارة امبراطورية كالامبراطورية الرومانية المتحصنة داخل (قوقعتها)، المحمية بجنودها التابعين لها والتي ترى ــ كما يرى اليونان ــ أن كل من لا يتكلم لغتها ولا يشاطرها ثقافتها ليس إلا (بربرياً) من غير طينة البشر لم يولد إلا ليكون عبداً من العبيد. نعم لم يعرف الهلال الخصيب مثل هذا التوجه؛ فحضارته الكبرى لم يكن يحميها جيشها فحسب، بل ثقافتها التي تتيح لتلك الحضارة أن تعمل على تحضير غالبيها وجعلهم يتمثلونها(١).

١ ــ أنا مدين في هذه الدراسة للسيد يوسف الأشقر؛ فهو الذي فتح أمامي آفاقاً تاريخية وفلسفية في موضوع الهلال الخصيب ووحدته على أنه ملتقى للحضارات؛ وهذا ما يناقض أية وحدة ذات طراز استعماري تسلطي. وهذه الفكرة الرائدة تتيح لنا أن نفهم على نحو عميق كيف أن الهجرات والاجتياحات وضروب السيطرة في الهلال الخصيب قد تم احتواؤها وتشذيبها وصقلها في الداخل بفعل الثقافة ولم تُرفض وتطرد خارج الحدود بفعل السلاح. أضف إلى ذلك أن السيد الأشقر قد أتاح لي أن أنظر إلى قضية المقابلة الحادة القاطعة بين البدو والحضر نظرة نسبية بحيث لا نفسر بهذه المقابلة على نحو ساذج حركة المجتمعات القديمة.

إن العلاقات بين البدو والحضر، وهذه القدرة على الانفتاح والاندماج سبق أن تجلت في ملحمة جلجامش، التي كانت تراثاً مشتركاً مشاعاً على مدى قرون لكل منطقة الهلال الخصيب، ولم تكن ملكاً لسومر وحدها ذات اللغة غير الساميّة ووريثة التقاليد الخاصة بالاندماج والانفتاح والتواصل والتمثل المتبادل. إن البطل جلجامش أمير المدينة ينازل وجهاً لوجه الراعي البدوي أنكيدو؛ ولقد تغلب عليه، ولكن المواجهة لم تنته بالقتل بل انتهت بالنقيض... فحينما تمثل أنكيدو ثقافة الحضر ولدت بين البطلين صداقة وأخوة حميمة وراحا فيما بعد يخوضان معاً مغامرة الحصول على الخلود والبحث عما وراء العالم المادي؛ وقد تجلى ذلك في رغبتهما الملحة في الوصول إلى المطلق. وحينما مات أنكيدو في سبيل حماية صديقه عبّر جلجامش بحزنه ويأسه عن جوهر وجدانه المتأثر بهذه الثقافة.

وقد يكون ذا معنى ودلالة ماورد في نص سوري سابق لنص التوراة في معرض الصراع بين قابيل وهابيل إذ لم ينته الصراع بمقتل هابيل وإنما بالمصالحة. أما في النص التوراتي الذي كتب بعد زمن متأخر جداً من رواية النص السوري فطبقة الأحبار المسيطرين الذين قطعوا صلتهم بالتقاليد الساميّة ترفض التمثل والاندماج لتبحث عن العزلة القبلية عن طريق تصفية الآخرين. (ولسوف نرى ذلك في سفر يوشع صاحب الإبادة المقدسة).

وهكذا على امتداد الهلال الخصيب لم يصطدم الغزاة القادمون من وسط آسيا بالحدود والجيوش فحسب وإنما واجهتهم حضارة تدافع عن (الحضارة) ـــ فالحضارة لا يمكن ولا يكفي أن يدافع عنها بقوة السلاح ـــ؛ وهؤلاء الغزاة الوافدون من سهوب آسيا على الرغم من تغلبهم بقوة السلاح قد احتوتهم ثقافة المغلوبين فتمثل الغزاة حضارة هؤلاء: هكذا كان شأن (الكاشيين) الذين بعد أن اندمجوا في هذه البقعة وحضارتها أسسوا مملكة في بلاد مابين النهرين دامت من ١٥٩٥ إلى ١١٥٥ ق.م. وعلى نقيض ذلك رفض (الغوطيّون) ٢٢٥٠ ـــ ٢١٢٠ ق.م الوافدون من سهوب آسيا التمثل والاندماج ولم تدم سيادتهم إلا قرناً واحداً.

وهذا مثال آخر من الحثيين (١٦٥٠ ـــ ١٢٣٠ ق.م) الذين لم تدم سيطرتهم

على سورية إلا بعد اندماجهم وانصهارهم، شأنهم في ذلك شأن الكاشيين. أما المثال ذو الدلالة الأوضح فينطبق على تدمر، مركز التمازج والإشعاع في الثقافة والفنون للمنطقة كلها... إذ هضمت المؤثرات البارثية والهيلينية وصبتها في صيغة فن شرقي؛ ولقد حققت لنفسها استقلالاً نسبياً في بداية القرن الثالث الميلادي بسبب من ضعف الامبراطورية الرومانية واستطاعت بذلك أن تكون بديلاً للامبراطورية العاجزة في صد الغزاة القادمين من أواسط آسيا؛ نعم لقد نجحت في هذا العمل بفضل قوة حضارتها. ولذا صمم الامبراطور أورليان عام ٢٧٢ م على هدم تدمر وأصر عليه. ولأن الامبراطورية الرومانية لا تفهم الدفاع إلا بالوسائل العسكرية راحت تفاوض القبائل البربرية على حدود الراين والدانوب؛ وهكذا تحطمت (القوقعة) ولم تسلم روما نفسها من موجة اجتياح القوط.

* * *

ترى لماذا لم يدرك المؤرخون هذا القانون التاريخي العميق لحضارة الهلال الخصيب التي دامت ألف عام؟ إن السبب الأساسي في ذلك يعود إلى مزاعم ذات طبيعة دينية: ففلسطين، تلك (الأرض المقدسة) بما لها من أهمية في مخيلة الشعوب سنأتي على دراستها في القسم الثاني من هذا الكتاب المخصص لنشأة الأسطورة المتعلقة بامتياز العبريين.

إن تبني الغرب للمسيحية على أنها مكملة للوعود التي وعد بها (الأجداد)، مضافاً إليه المفهوم اللاهوتي القائل بأن العهد القديم ليس إلا (كناية) عن العهد الجديد... قد أدى إلى إعطاء هذه النصوص أهمية فائقة بحيث طمست ماعداها. وكان لعملية إسقاط اللاهوت على التاريخ أن أدت إلى النظر إلى الرموز اللاهوتية الكبيرة في التوراة على أنها وقائع حقيقية. لقد بقيت النصوص التوراتية حتى بعد خضوعها للنقد الجاد سلاحاً أو نقطة انطلاق في كل تحليل لتاريخ الشرق الأوسط لدى المؤرخين الذين لا يأخذون باليهودية أو المسيحية.

وسنظهر لدى دراستنا لعصور ماقبل التاريخ في هذه المنطقة وللحضارة الكنعانية إلى أي مدى عملت هذه المسلمات اللاهوتية عن وعي أو غير وعي في تضليل آراء علماء الآثار.

هذا وستكون مهمتنا الأساسية في القسم الأول من هذا البحث الإسهام في إزالة هذه العراقيل التي تكبل البحث التاريخي. ولكن المزاعم الدينية ليست وحدها التي تثقل كاهل التاريخ؛ فهناك في الغرب مزعم ثقافي قد ترسخ في الأعماق منذ عصر النهضة لا يتصل (بالامتياز اليهودي) فحسب، بل يتعداه إلى الامتياز اليوناني أي (المعجزة الإغريقية).

ومثلما صور المزعم الديني القائل (بالامتياز اليهودي) مبدأ وحدانية الإله على أنه قد بزغ كالبرق وسط خواء ديني فبنى انطلاقاً من هذا مسيرة للتاريخ تبدأ بابرهيم لتنتهي بفلسفة التاريخ لدى هيغل... استخدم المزعم الثقافي القائل (بالامتياز اليوناني) الطباق نفسه بين (البرق) و (الصحراء) الخاوية فطرح (المعجزة الإغريقية) مقابل (البربرية) المحيطة بها. وكأنما الثقافة الهيلينية قد خرجت ـــ أو كادت تخرج ـــ من العدم خروج مينرفا كاملة مكتملة من رأس جوبيتر.

إنهم يطلقون اسم (الفلاسفة اليونان) في المرحلة السابقة لسقراط على تلك المجموعة من المفكرين العباقرة من أمثال تاليس وأنكسيمين وأنكسيماندر وبارمينيد وهرقليطس الذين ينطقون جميعاً باليونانية ولكنهم ولدوا وأبدعوا في أقاليم مختلفة من الامبراطورية الفارسية وآسيا الصغرى وميليه وإيليه وأفسوس، وكانت أفكارهم تمتح من ثقافة آسيا بدءاً بفارس والهلال الخصيب وانتهاء بالهند. وهكذا ينسبون إلى اليونان كل مالم ينحدر من ماضي اليونان بل ينبع من أصول آسيوية.

وقل الشيء نفسه عما يسمى (آباء الكنيسة اليونان) في تاريخ المسيحية إذ ازدهرت أيما ازدهار علوم اللاهوت المولودة أصلاً في أرض آسيوية والنابعة من ثقافة شعت من منطقة الهلال الخصيب، مهد الرسالات السماوية. وإليك أهم هذه المراكز والأسماء بدءاً من أنطاكية في سورية وكابادوقيا أو قيصرية في تركيا واسكندرية القديس

إينياس الأنطاكي في مصر وجوستين المولود في نابلس بفلسطين وترتليان المولود في قرطاجة بتونس والذي تربى في مدرسة القديس مونتانوس في آسيا الصغرى وكليمانت الاسكندري وأوريجين المصري وآباء الكنيسة غريغور ويوحنا فم الذهب وأفرام السوري وكيريلوس في القدس وكيريلوس في الاسكندرية ... وانتهاءاً بيوحنا الدمشقي.

وهكذا ولدت أروع الدرر الروحية للفكر المسيحي الحي في الهلال الخصيب ــ حيث ولد المسيح نفسه ــ إذ انتشر إشعاع هذا الفكر فيما بعد في آسيا الصغرى وفي شمال إفريقية. إن هذه القرابة التي تجاهلتها الكنيسة الرومانية ستكون أثمن وأغلى إرث للكنيسة الشرقية ... ثم أدى الزعم بالتفوق الغربي إلى ذلك الانقسام الكبير في الكنيسة.

علينا إذن لكي نضع تاريخ فلسطين ضمن إطار الهلال الخصيب أن نلغي التفوق العرقي الغربي بدءاً من الأسطورة المزعومة للمعجزة الإغريقية. وإذا أردنا مثالاً على مساوىء إزاحة الآخرين عن ساحة التاريخ لمصلحة الغرب والحضارة الهيلينية فنحن نذكر هاهنا تدمر، مركز الإشعاع لكل ثقافات الشرق الأوسط التي نظر إليها في الأغلب على أنها ممثل أو وكيل للحضارة اليونانية ــ الرومانية. وواقع الأمر أن تدمر كانت عاصمة قامت بتنظيم كل طرق المواصلات وعملت على مزج الثقافات وتفاعل التجارب الروحية بدءاً من البحر المتوسط حتى الهند.

وأدهى من ذلك وأمرّ أن بعض علماء الآثار حاولوا تفسير رأس شمرا (أوغاريت) على أنها وسيط تجاري للقبارصة منطلقين من الزعم القائل بأن اليونان مهد الحضارات وأصل لها؛ بينما ــ كما سنرى ذلك ــ دلت الاكتشافات التي أنجزت في ذلك الموقع على أن (أوغاريت) كانت مركزاً ثقافياً شع على منطقة الهلال الخصيب كلها.

تلك هي النتائج (السياسية) لهذه الرؤية الثقافية المغلوطة: فلقد فضلت الامبراطورية الرومانية أن تهدم تدمر عام ٢٧٢ م لأنها لم تكن رومانية إذ لم تر الامبراطورية صورة نفسها في حضارة تدمر ذات الخصائص الشرقية؛ وكان حرياً بها أن

ترى فيها مركزاً حضارياً يستطيع أن يصون التراث الإنساني من سطوة الغزاة القادمين من آسيا الوسطى.

وهناك ــ أخيراً ــ مزعم ثالث قد أثقل كاهل تاريخ فلسطين؛ إنه المزعم السياسي ــ العسكري المتعسف للامبراطورية الرومانية ومفهومها للمواطنة... ومن التقاليد الغربية أن التاريخ العبري هو النموذج الأمثل للدين، وأن (المعجزة الإغريقية) هي النموذج الأمثل للثقافة... وكذلك الامبراطورية الرومانية فهي النموذج الأمثل للوحدة السياسية. وهكذا كانت رقعة الامبراطورية الرومانية منعزلة داخل حدودها يحميها جيش مسؤول عن حمايتها من الهجمات (البربرية) أي من الأمم كافة، وكان الشعب خاضعاً لقانون واحد عماده تشريع جوستنيان الذي كان النموذج الأمثل والذي أعاد نابليون فيما بعد صياغته وتطبيقه.

إن هذا الطراز من المجتمعات المغلقة استمر لدى جميع الممارسات القومية والعرقية بدءاً من القومية السلافية وانتهاءاً بالقومية الجرمانية، من موريس بار إلى شارل مورا، ومن موسوليني إلى هتلر. ونحن الآن لسنا بصدد دراسة المضامين السياسية لتلك الظواهر وإنما سنعنى بالأضرار الثقافية التي جرّتها إذ حجبت عنا استيعاب مايمكن أن تعطيه المجتمعات المنفتحة التي قدم الهلال الخصيب النموذج الأول لها وكأنه شبكة مواصلات حضارية توطدت فيها واغتنت مجموعات حضارية متفاعلة متداخلة.

إن مشروع حمورابي في القرن السابع عشر ق.م كما يبدو من رسائله له دلالته الخاصة إذ يعبر عن تقديره للخصائص المحلية على جميع الصُّعد سواء منها الإدارية واللغوية والدينية والتشريعية؛ وهو على النقيض من المشروع الروماني.

لقد ولد في خضم هذه الحركة من التبادل والتركيب والتمثل والتداخل (عالم) حضاري متكامل، ولم تولد مجموعة امبراطوريات؛ عالم حضاري يوحد دون أن يسيطر، ويمدّن دون أن يستلب، عالم حضاري منفتح يأخذ ويعطي... وهو مضياف جوّاب ملتصق بأرضه متطلع إلى الأفق البعيد.

إن تاريخ الهلال الخصيب تاريخ مرحلة إنسانية أصيلة، تاريخ راح ينضج على

مدى ألف عام عبر ثورة مستمرة بأبعاده الإنسانية السامية ونزعته المجتمعية التعاونية البناءة. إن تاريخاً كهذا لا يمكن أن ينظر إليه على أنه تاريخ حروب وملوك؛ وليس هناك أي تاريخ يمكن النظر إليه بهذا المنظار. وإذا كان صحيحاً ماورد عند ابن خلدون ومونتيسكيو من أن التاريخ المعترف به ليس تاريخ السلالات الملكية والمواقع الحربية فحسب فلا يجوز إذن أن ننسى الجانب الهام في التاريخ، جانب السيطرة والهيمنة.

ليس للتاريخ معنى إنساني حق إلا حين يأخذ بيدنا لاستشراف المستقبل ويدفع بنا إلى تصور مشروع سياسي يستمد معناه الإنساني من نظرته إلى التاريخ في صيرورته. وإن محاولتنا التي نقوم بها لتحديد تاريخ فلسطين على أنها مهد للرسالات السماوية تقودنا إلى طرح مشكلة أوسع سنتناولها بمزيد من الاهتمام والأمل؛ فمصير كوكبنا اليوم مرتبط بحل هذه المشكلة: هل نختار نموذج المجتمعات (المغلقة) التي تلد في المستقبل دولاً متجابهة تقوم على توازن الرعب النووي؟ أم نختار نموذج المجتمعات المنفتحة لنصل إلى (عالم) حضاري، عالم الحوار والإغناء المتبادلين.

وهكذا تكون حياة أطفالنا القادمة رهناً بهذا الخيار... فهل ندع عالم التسلط والقهر يدمر نفسه؟ أم نعمل على بناء عالم متجانس متناغم؟

إن بحثنا التاريخي لا معنى له إلا حين يسهم في إيجاد الحل اللازم عبر مزيد من الفحص والتأمل في تاريخ فلسطين، مهد الرسالات السماوية.

تمهيد

(فلسطين) فيما قبل التاريخ

إن التركيب الجغرافي لفلسطين تركيب بسيط؛ فهي تمتد على شاطىء البحر المتوسط متجهة من الشمال إلى الجنوب في ثلاثة محاور متوازية: أولها الأخدود الطويل المنخفض تحت مستوى البحر، الممتد من بحيرة الحولة التي جففت إلى خليج العقبة على البحر الأحمر مروراً ببحيرة طبريا ونهر الأردن والبحر الميت؛ وفي الغرب من هذا الشريط تعلوه مرتفعات صخرية؛ وهذا الأخدود يعين الحدود الشرقية لفلسطين. ثم يوازي هذه المرتفعات الصخرية الشريط الثاني من جبال وهضاب تنحدر متموجة متدرجة نحو الشريط الساحلي؛ وتلك منطقة قديمة مأهولة. وبعد ذلك يأتي الشريط الساحلي المشهور بخصوبته إذ تسقيه مسايل المياه المنحدرة من الجبال.

إن الفرق شاسع بين هذه المنطقة ومنطقتي دلتا الفرات ودجلة ودلتا النيل؛ فعلى جانبي الهلال الخصيب حيث نشأت أقدم الحضارات في العالم، حضارة مابين النهرين وحضارة مصر، تشكل الأنهار الكبرى شبكة مائية كانت عامل تجميع وتوحيد. وكان لابد للوصول إلى كبح جماح المياه الغزيرة من ممالك كبيرة لها مركزيتها التي تمدها بقوة فريدة تدعمها ملايين البشر. أما فلسطين فقد عرفت قبل اليونان بآلاف السنين (الدول ــ المدن) التي سنشير إلى أشكالها المتلاحقة المتقلبة؛ ولكنها خلافاً للممالك الكبيرة ذات المركزية لم تشهد في حياة مجتمعاتها تلك الهوة فيما بين المواطنين والحكام.

وفلسطين لا يمكن النظر إليها على أنها (طريق للعبور) فحسب؛ فلقد كانت حيناً ما ضحية للصراع والمراهنة على السيادة والغلبة بين مملكتين كبيرتين، وحيناً آخر كانت مجالاً تلتقي فيه ثقافات المملكتين لتغتني بها... وحيناً ثالثاً كانت عامل توازن بين هذه القوى فاستطاعت بذلك التأكيد على استقلاليتها وشخصيتها الثقافية. لقد كانت فلسطين ملتقى الطرق بين القارات الثلاث: آسيا وأفريقية وأوربة البحر المتوسط كما كانت بؤرة إشعاع استفادت من الحوار بين الحضارات ومن تمازج الثقافات الرفيعة عبر آلاف السنين فأنجزت (مشروعاً) أصيلاً وهب العالم واحدة من أروع الإنجازات الروحية بدءاً من حضارة كنعان الأولى التي بدأت اكتشافات رأس شمرا عام ١٩٢٩ واكتشافات إيبلا عام ١٩٧٢ توضح لنا غنى تلك الحضارة قبل أن يظهر الأنبياء العبريون وقبل أن يبشر السيد المسيح بمملكة الله وقبل ظهور الإسلام الذي استوعب كافة الرسالات السماوية السابقة وطوّعها لبناء مجتمع متعاون منفتح.

إذن يمكن تعريف الهلال الخصيب بأنه تلك الرقعة الصغيرة من العالم التي أسهمت أكثر من غيرها في الوصول إلى مبدأ التوحيد.

لقد دلت أبحاث علم الآثار الخاصة بما قبل التاريخ على أن الهلال الخصيب وحده قد كان مهداً لتطور الإنسان إلى جانب أبكر الحضارات في العالم. ويشهد السلوك تجاه الموتى في هذه المنطقة على الإيمان بأن الحياة لا تقف عند حدود المستوى البيولوجي؛ وقد يكون هذا أكثر أهمية من ولادة الأداة واستخدامها الذي يدل على تجاوز الإنسان للمستوى الحيواني؛ فالإنسان لا يصنع الأداة فحسب وإنما هو الحيوان الوحيد الذي يقيم القبور والمعابد. وأدوات الإنسان التي اكتشفت في (العبيدية) تشبه الأدوات التي اكتشفت في موقع (أولدوفي) في شرقي أفريقية حيث عثر على أقدم إنسان عرف استخدام الأداة المصنوعة من الحجر. إن إنسان (الكرمل) وكهوف (طابون) و(قفزي) قد حُدد تاريخه بإشعاع الكربون ١٤ بزمن ينحصر فيما بين ٥٢٠٠٠ و ٣٥٠٠٠ عام؛ أي أن الإنسان الموستيري في فلسطين بمدافنه قد كان في مستوى أرقى الحضارات في العالم.

أما مرحلة استقرار البدو الرحّل والانتقال من مرحلة قطف الثمار والصيد إلى

مرحلة الزراعة وتربية المواشي التي أطلق عليها (دوروتي غارو) اسم المرحلة النطوفية بعد تنقيباته في وادي النطوف فقد جرى تحديدها بسبعة آلاف عام ق.م. وفي هذه الحقبة وجدت في أريحا حيث عرف القمح والشعير والماعز آثار مايمكن أن يسمى أقدم (مدينة) في العالم. ومهما يكن من أمر هذا التحضر الأسبق في أريحا وغيرها من مناطق فلسطين فيمكن القول إن الإنسان قد عبَر فيما بين ٧٠٠٠ ـــ ٦٦٠٠ ق.م من اقتصاد يقوم على النهب وجني الثمار إلى اقتصاد يعتمد على الإنتاج.

ولقد هجرت هذه المواقع في النصف الثاني من الألف السابع ق.م لأسباب نجهلها؛ وقد تكون جفافاً طويل الأمد أو غزوات من قبل البدو الرحّل... وهناك مرحلة حضارية جديدة قد اكتشفت معالمها أول مرة في (تليلات غسّول) شمالي البحر الميت؛ وهي تمتاز إلى جانب استخدام الأدوات الحجرية بوجود أدوات من نحاس وسيراميك مزينة بأشكال هندسية؛ أضف إلى ذلك نسيجاً من ألياف نباتية ربما كانت من الكتان. وهناك نظائر لهذه اللُّقى الأثرية وجدت في أماكن متفرقة من فلسطين كـ (تل أبو مطر) و (بير الصفدي) و (خربة البيطار). وقد دامت هذه الحضارة في الألف الرابع ق.م من ٣٦٠٠ إلى ٣٢٠٠ على وجه التقريب ثم اختفت دون أية إشارة إلى تخريبها ودون أن يخلفها خلف؛ فكل ماهنالك أن مواقعها قد هجرت.

ومنذ ذلك الحين بدأ تاريخ جديد مع نهاية الألف الرابع ق.م (٣١٠٠) بهجرات كثيفة في العصر البرونزي القديم؛ تدل على ذلك التاريخ كتابات هيروغليفية مصرية أو كتابات مسمارية فيما بين النهرين.

ومن المحتمل أن هذه الموجات كان منبعها شبه الجزيرة العربية، مهد القبائل الرحّل الذين يغادرون الصحراء ليجدوا طبيعة أرحم فيجوبون عبر الهلال الخصيب مصعدين على مجرى الفرات والعاصي ليستقروا بعد ذلك في أراضي فلسطين الغنية على الدوام بعد اتصالهم بالمدن السورية كبيبلوس (جبيل) المشهورة بتحضرها واستعمالها الآجر في بنائها.

وهؤلاء المهاجرون منذ فجر العصور التاريخية ـــ كما يرى الأب ديفو في كتابه

(تاريخ إسرائيل) ـــ يمكن أن نطلق عليهم اسم الكنعانيين حسب تسمية التوراة التي تطلق هذا الاسم على السكان الساميين في فلسطين قبل وصول الإسرائيليين إليها؛ ولكن علينا أن لا ننسى أن هذه التسمية اصطلاحية لأن (كنعان) لم يرد ذكرها في النصوص غير التوراتية قبل منتصف الألف الثاني ق.م. ولابد هاهنا من التأكيد على أن لفظ (الساميين) لا يدل على عرق أو سلالة بشرية، وإنما يشير إلى مجموعة لغوية في بادىء الأمر. وتمتاز اللغات الساميّة في الأساس بأن أفعالها ذات جذور تتألف من ثلاثة حروف صامتة؛ أضف إلى ذلك أن هذه الأفعال لا تتصرف إلا إلى زمنين هما الماضي التام والماضي الناقص.

وسنرى أن هذه الهجرات العديدة ستتعاقب حتى فتوحات الاسكندر عام ٣٣٣ على صورة موجات (ساميّة) سواء منهم الآراميون الذين استقروا في سورية والعبريون في القرن الثالث عشر ق.م والأنباط في القرن الرابع ق.م الذين لم يتعد نفوذهم (البتراء) والمسلمون القادمون من الجزيرة العربية عام ٦٣٦ للميلاد إلى بلاد هي عربية منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام فحرروها من نير بيزنطة الرومانية. إن اللغتين العربية والعبرية متقاربتان على نحو كبير؛ فالعبرانيون ليسوا إلا مجموعة من القبائل السامية ـــ بين قبائل أخرى ـــ لغتهم الأصلية هي الآرامية أمّ العربية والعبرية في آنٍ معاً. إن الجذر اللغوي السامي المشترك (ع ب ر) يؤدي لدى تغيير بسيط في ترتيب حروفه إلى لفظي (عربي) و (عبري)؛ وهاتان اللفظتان لا تدلان على عرق أو سلالة بشرية وإنما تدلان على نمط في الحياة؛ إنه نمط البداوة[1].

كان العبريون قبائل ساميّة تحدرت من شبه الجزيرة العربية وراحت ترتحل، شأنها شأن سائر القبائل، لتجوب منطقة الهلال الخصيب من بلاد مابين النهرين إلى مصر لتستقر آخر الأمر في فلسطين وتتحضر بعد استقرارها واتصالها بالثقافة الكنعانية. ولقد كان (سيناريو) هذه الهجرات هو نفسه دائماً؛ فالغزاة الرحّل سواء منهم العموريون والآراميون والعبريون والأنباط ومسلمو الجزيرة العربية ينتقلون في الهلال الخصيب من

١ ـــ أي نمط الترحل والعبور من أرض إلى أرض. ومن العبور اشتق اسم العبريين كما يرى بعض الدارسين. (المترجمان).

حياة الترحل إلى حياة الحضر متمثلين الحضارة الكنعانية الأصلية ليرفدوا هذه الحضارة عبر كل موجة بما لدى البداوة من فضائل.

إذن لم تكن فلسطين إلا كياناً من وطن وشعب وثقافة، شأنها شأن غيرها من مناطق الهلال الخصيب. إن قوام فلسطين هو أرض كنعان والشعب الكنعاني والثقافة الكنعانية إذ شكلت منذ خمسة آلاف عام (من ٣١٠٠ ق.م إلى نهاية القرن العشرين) تلك الهجرات السامية الشعب الفلسطيني، ذلك الشعب الدؤوب المبدع الذي كان موئلاً للحضارة. والإنسانية مدينة على نحو خاص للهلال الخصيب بالأبجدية التي ابتكرت في القرن الخامس عشر ق.م أكبر وأروع عملية لتعميم الثقافة ونشرها حينما انتقلت هذه الأبجدية من طريقة الكتابة الهيروغليفية القائمة على الرمز للفكرة بالرسوم، أو من الكتابة المسمارية فيما بين النهرين ذات الحروف التي تعد بالمئات وكانت وقفاً على المتعلمين والكهنة والنساخ... إلى رموز كتابية بسيطة تدل على أصوات لا تتجاوز عشرين رمزاً بحيث تكون في متناول عدد لا يحصى من البشر. إن ابتكار الأبجدية كان إحدى أعمق الثورات الثقافية في الملحمة البشرية.

أما الإنجاز الآخر الذي أسهم به الهلال الخصيب على صعيد أنسنة الجنس البشري فكان تحقيق تطور ملحوظ في تطلع الإنسان صوب المطلق. ونحن لا يمكننا تحديد البعد الحقيقي لهذا الإسهام إلا إذا نظرنا في آن واحد إلى تأثيره في غيره وتأثره بغيره لكي نبرز على نحو واضح مشروعه المتميز الباهر.

من المسلم به أن الهلال الخصيب الذي كان معبراً للقوافل قد تدفق عليه العاج والذهب من أفريقية، والمر والبخور والتوابل من الهند وجنوبي الجزيرة العربية، والعنبر والحرير من الصين وآسيا الوسطى؛ أضف إلى ذلك القمح وخشب الأرز من سورية. وعن طريق البحر كان النحاس يصل إليه من قبرص، وعن طريق بحر إيجه كان يستقبل منتجات جزيرة كريت... أضف إليها منتجات مصر. ومن المعروف كذلك أنه في غمرة حركة المد والجزر لدى الممالك المتعاقبة قد تدفقت على الهلال الخصيب جيوش كافة المحتلين: من مصر الفرعونية وآشور وبابل ومن شعوب البحر وامبراطورية فارس والعبريين وجيوش الاسكندر والرومان والبيزنطيين وفتوحات العرب واجتياح المغول

وغزوات الصليبيين وسيطرة العثمانيين وحملة بونابرت التي وصلت إلى عكا... إلى الاستعمار الغربي البريطاني ثم الصهيوني من بعده. وكانت الجحافل الأجنبية تعبر الطرق نفسها وتتصارع في ساحات المعارك نفسها بدءاً من تحوتمس الثالث إلى نبوخذ نصر، ومن غودفروي الصليبي إلى بونابرت، ومن ابراهيم باشا إلى الجنرال إللنبي. أما أحلام الغزاة فكانت تحوّم تحويم أوراق الأشجار اليابسة فوق هذه الأرض التي ارتوت رمالها بدماء المحتلين.

هذا؛ ولم يبق من كل ألوان التسلط والسيادة العابرة إلا استمرارية شعب بثقافته المتجذرة في صلب الأرض منذ خمسة آلاف عام، من الكنعانيين في فجر التاريخ حتى الفلسطينيين المعاصرين.

ومن الأهمية بمكان أن لا نحط من قيمة الإنجازات الروحية الرفيعة في منطقة الشرق الأوسط كيلا نقع في نزعة الادعاء المتعالية فنزعم أن فكرة الإله الواحد قد نبتت وازدهرت في فلسطين وكأنها زهرة وسط صحراء. لقد عثر عام ١٩٥٩ في (مجيدو) على جزء من ملحمة جلجامش مكتوب بعدة لغات منذ الألف الثاني ق.م. وفي هذه النصوص ترى نزعة التوحيد تضطرب وتمور في وجدان البطل ــ وهو في طريقه إلى الحصول على الخلود ــ حينما يناجي الإله (شمش) الذي يحاول صرفه عن تلك الفكرة. يقول البطل: «إذا كان هذا المشروع لن يتحقق فلماذا ــ أيها الإله شمش ــ بذرتَ في قلبي شهوة القلق؟». وفي القرب من (بيت إيل) عثر على كتابات جنائزية تجد فيها صدى لما ورد في (كتاب الأموات) المصري الذي يعود إلى منتصف الألف الثاني ق.م؛ تقول هذه الكتابات: «أيها الإله الذي تحيا فيَّ كما أحيا فيك...»؛ وعلى بعض الأنصاب المصرية ترى مايشير إلى (صوت الله في الإنسان): «أتستطيع أن تصل إلى الأبدية بسلام من نفسك وبنعمة من الله التي هي في نفسك؟». وهذه هي الوصايا الموجهة إلى الملك (ميريكار) نحو (٢١٠٠) ق.م:

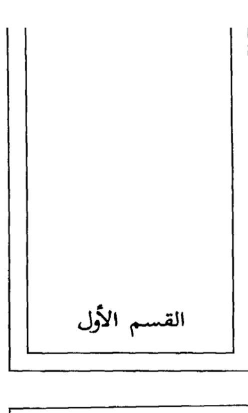
«إذا مات دون أن يرتكب الخطيئة
فسيبقى هناك كأنه الإله
ليمشي بخطواته الحرة نحو الأبدية».

ولقد عرف الهلال الخصيب شرائع حمورابي ملك بابل قبل الوصايا العشر بعدة قرون كما عرف توحيد أخناتون، ذلك الفرعون الموحد مؤلف (نشيد الشمس)، هذا النشيد الذي نرى المزمور ١٠٤ في التوراة يكرر أصداءه وصوره... نعم كان (نشيد الشمس) قبل أن يجيء النبي أشعيا ليعرض أطروحته في التوحيد.

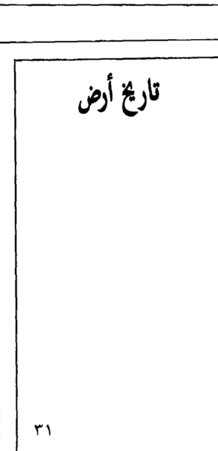
وانطلاقاً من هذا التراث الغني العميق يمكن لنا أن نحدد على وجه أفضل الروافد المتميزة للهلال الخصيب على صعيد العالم الروحي للإنسان، هذه الروافد التي نجد لها أصداء في (التوراة الكنعانية) المكتشفة في رأس شمرا بسورية عام ١٩٢٩ وفي توراة العبريين وأنبيائهم وفي إنجيل يسوع المسيح ورسالة الإسلام.

نعم إن العلاقة المشتجرة المعقدة بين الأرض والشعب والثقافة لا يمكن فهمها في فلسطين إلا انطلاقاً من جذورها التاريخية أي من الحضارة الكنعانية وماااستوعبته من روافد حضارية متعاقبة تمثلتها وأغنتها.

* * *



القسم الأول



تاريخ أرض

١
الحضارة الكنعانية

١ ــ المنابع

إن تاريخ فلسطين كان دائماً عرضة للتشويه والتزوير من جراء التعليلات الدينية والسياسية من قبل الباحثين.

والحق أن الاهتمام التاريخي والعلمي يقتضي أن نعي ماقدمته حقبة ما أو منطقة ما إلى التاريخ البشري، وأن نتساءل عما قدّمه شعب من الشعوب بحضارته إلى الكيان الإنساني. ولكن هذا الاهتمام المتعلق بفلسطين كان يضيع عن وعي أو غير وعي، وذلك في مجال البحث كما في مجال التفسير.

وهكذا منذ البدايات الأولى للأبحاث الأثرية المبرمجة في فلسطين في القرن التاسع عشر شُوه المنظور التاريخي بفعل وهم ديني إذ كانت الوثيقة الأساسية هي التوراة... وانطلاقاً من نصوصه راحت الأسئلة تُطرح. ولكن القضية الكبرى هي مقدار الصحة والصدق في تاريخية هذه النصوص؛ فما مدى صدق ماجاء في التوراة؟

في نيسان عام ١٨٦١ زار (إرنست رينان) فلسطين مرافقاً للحملة العسكرية التي قرر نابليون الثالث القيام بها على دروز جبل لبنان... وسرعان ماكتب فور عودته كتابه (حياة المسيح). وهناك من يرى أن كل مايقوله التوراة صحيح مهما كان الثمن: فحينما أسس في لندن عام ١٨٦٥ أول مركز للتنقيب الأثري في فلسطين باسم

(منظمة اكتشاف فلسطين) كان هدفها محدداً سلفاً إذ حددت وثيقة تأسيس هذا المركز وجوب العمل على «دراسة دقيقة مبرمجة في المجالات الأثرية والطبوغرافية والجيولوجية والعرقية في الأرض المقدسة بغية إلقاء الأضواء على نصوص التوراة».

إن التداخل الدائم بين اللاهوت والتاريخ يقودنا إلى أن نطلب من التاريخ أو من علم الآثار أن يحدد موقفه من الإيمان سلباً أو إيجاباً؛ وهذا مايستتبع رؤية سطحية فقيرة إلى (الإيمان) الذي يلتبس هاهنا بالتصديق، وهو مفهوم وضعي يطالب بوجوب أن يكون مانؤمن به من وقائع ذا صحة تاريخية. وماهذا النوع من الإيمان إلا اعتقاد ساذج؛ فالإيمان هو التجاوز الدائم للواقع، وهو الأمل والحب والإرادة التي لا تشترط شيئاً في سبيل تحقيق (مملكة الله).

ونصوص التوراة في معظمها شواهد رائعة على مايمكن للبشر أن يبدعوه على أنه صورة نموذجية لما هو إلهي في نفوسهم. ونحن ماذا يهمنا في أن يكون البطل في حكاية ابرهيم اسطورياً أو بشراً من لحم ودم؟ فالإيمان ليس رهناً بمثل هذا الخيار الذي قد تأتي المكتشفات الأثرية لتؤكده أو تنفيه. إن الإيمان هو ذلك اليقين بأن في استطاعة الإنسان أن ينجز عبر حياته الدنيوية الانطلاق صوب اللامحدود كما يقول (كيركغارد) في تأملاته الفريدة الواردة في كتابه (ابرهيم فارس الإيمان)؛ وانطلاقاً من هذا اليقين تعمل إرادتنا على أن تكون أفعالنا جواباً غير مشروط لصوت الله كما تجسد ذلك نموذجاً فريداً في تضحية ابرهيم.

وبهذا يتحرر البحث التاريخي من مفهوم وضعي للدين (اليهودي أو المسيحي أو الإسلامي)؛ فقد يلتبس (الحدث الواقع) بـ (الإيمان) على هذا البحث فينسى أن الإيمان خاضع للإرادة وليس خاضعاً للمعاينة والإثبات والتسليم بالواقع الراهن؛ إنه يستجيب لصوت الله كي ينتزعنا من هذا الواقع فنتجاوزه بغية إيجاد مستقبل على صورة إنسانية ــ إلهية.

وحينما يكتب (عمانويل أناتي) قائلاً: «ليس لأي اسم من أسماء الشخصيات الواردة في تاريخ آباء العهد القديم شخصية تماثله في النصوص التاريخية ... وكل مايبرهن

عنه علم الآثار أن هناك مجموعات بشرية تشبه عشيرة ابرهيم كانت تجوب صحراء سورية والأردن وسيناء في هذه الحقبة التاريخية» ... يمكنه أن يعمم ذلك بسهولة على الإلياذة في تحليله التاريخي لها؛ فهي كذلك (حكاية) أي إنها ملحمة كتبت بعد فترة طويلة من الروايات الشفوية، وهذه الروايات الشفوية شأنها شأن (أناشيد المفاخر) في الغرب في القرون الوسطى أو شأن ملاحم الهند (الرامايانا والمهبهاراتا) التي لم تكن نتاج خيال شعري صرف بل كانت تصويراً لألوان من الصراعات التاريخية الحقيقية ولنشاطات الشعوب ... ثم جرى تضخيمها على يد الشعراء لتجد الأجيال اللاحقة في الأبطال من أمثال (هكتور ورولان وراما) نماذج رفيعة لحياة بعض الرجال وتجسيداً حياً لروح حضارةٍ ما.

ومثل هذا يختلف اختلافاً تاماً عن العمل المتميز الذي قام به بعض المؤرخين وعلماء الآثار مثل شليمان عام ١٨٧٠ وداور بفليد عام ١٩٣٨ إذ عثروا على موقع طروادة ونقبوا فيه فوجدوا بقايا أسوارها المحترقة كما كشفوا مدن وقصور الميسينيين الذين غلبوا على طروادة في الحقبة الهوميرية.

إن العظمة الشعرية والأخلاقية والأسطورية لطلائع الأبطال الذين طالما أغنوا الكيان الإنساني لا ترجع إلى ما بين (الحكاية) والتاريخ من مجابهة ومفارقة؛ بينما يؤدي الخلط بين الوقائع الحقيقية والإيمان إلى مواقف ساذجة؛ وذلك حينما تسبق الاستنتاجات (اللاهوتية) البحث التاريخي أو الأثري فتقيده وتوجهه. ومثال ذلك مانشره العالم التوراتي سيلين عام ١٩١٣ عن تنقيباته في أريحا إذ سجل في تقريره أنه قد وجد أسواراً مهدمة وراح يوحي بما يفيد أنه كان يرى تلك الأسوار تنهار بفعل أصوات الأبواق التي نفخ فيها يشوع بن نون! وواقع الأمر أن التواريخ اللاحقة قد أثبتت ــ كما يذكّرنا الأب ديفو ــ «أن الإسرائيليين لدى وصولهم في نهاية القرن الثالث عشر ق.م لم يستولوا على أريحا لأن هذه المدينة كانت قد هجرت». وقل الشيء نفسه فيما يتعلق بالاستيلاء على مدينة (عاي) على يد يشوع؛ فالأب (ديفو) يشير إلى أن «أحداث فتح هذه المدينة قد جرى تفصيلها بإسهاب شديد ولم يرد في هذا التفصيل أية إشارة إلى أية معجزة؛ ومن المؤسف أن الحفريات الأثرية قد كذبت هذا الاستيلاء... فعند

وصول الإسرائيليين إليها لم يكن هناك مدينة بهذا الاسم وإنما هناك أنقاض مدينة قديمة عمرها ١٢٠٠ عاماً».

لقد غلبت أمانة المؤرخ والباحث الأثري في الكتاب القيم للأب ديفو على رغبته الخفية في الاستشهاد بالتاريخ على صدق الروايات التوراتية. ونحن نجد مثل هذه المواقف الانفعالية لدى معظم من أرخوا لفلسطين. إليك مايقوله (عمانويل أناتي): «من المدهش أننا لا نجد في أي نص مصري أدنى إشارة أو تلميح إلى تلك الإقامة الطويلة التي أقامها العبريون في بلاد الفراعنة». وكان لابد لصاحبنا أن تصيبه الدهشة كذلك حينما سيتحقق من أنه لا أثر في النصوص المصرية إلى خروج العبريين من مصر (ماعدا ماورد في العهد القديم) وعبورهم البحر الذي انشق أمامهم بأعجوبة ثم انطبق على جيوش فرعون ليهلكها. وأنت لا تجد في النصوص المصرية أي تلميح إلى حدث على هذه الدرجة من الخطورة، نعني به إبادة جيش كامل في البحر بينما ترى في تقارير حرس الحدود في تلك الحقبة نفسها تفصيلات كاملة عن عبور أصغر القبائل الرحّل للحدود... فلما إذن تصيب الدهشة عمانويل أناتي؟

وهل يهم السيد (أناتي) حقاً أن يعثر على وثيقة تؤكد ماورد في سفر الخروج من خروج الإسرائيليين من مصر؟ فالراوي كان كل مايهدف إليه في حكاية أسطورية كهذه أن يورد لنا مثالاً رائعاً عن أن السلطة نسبية زائلة مهما عظمت ولو كانت سلطة فرعون الذي يدعي أنها مستمدة من الله القدير؛ وكذلك أراد الراوي أن يعطي للقارىء مثالاً رائعاً عن أن الإنسان قادر بفعل نداء الله وإرادته أن ينعتق من ألوان العبودية كافة دون قيد أو شرط.

والأخطر من ذلك أن هذا المنطلق اللاهوتي الذي قد يكون عن غير وعي يقود أحياناً إلى العمى عن رؤية الحقيقة. إن السيد (أناتي) يستشهد بسفر التكوين القائل: «اصطحب طارح ابنه ابرهيم من أور في كلده ليذهب به إلى بلاد كنعان؛ ووصلا إلى حران حيث أقاما فيها. عاش طارح مئتين وخمسة أعوام ومات في حران». وهكذا لم يبد السيد (أناتي) أية دهشة للسن التي عاشها (طارح)؛ ولم يبد أي شك في هذا

التناقض في التوقيت إذ يرد ذكر كلده في زمن ابرهيم بينما لم يظهر هذا الاسم أول مرة إلا في حوليات أشور بانيبال (٨٨٤ ــ ٨٥٩ ق.م)؛ وهكذا لم يكتب مؤلف سفر التكوين هذا النص إلا بعد ألف عام من الحادثة المفترضة الخاصة بابرهيم. ويستطرد السيد (أناتي) معلقاً ليقول: «وهكذا نعلم من هذه الحكاية أن أصل الإسرائيليين يعود إلى كلده»!

ونحن نستطيع أن نشير إلى عدد كبير من علماء الآثار من ذوي الوجدان العلمي؛ ويكفينا أن نبين إلى أي مدى من الحماسة الساذجة قاد هذا التبرير اللامسؤول كثيراً من الباحثين. هذا هو الأب (بوزي) أحد رواد البحث في فلسطين ماقبل التاريخ يصف عام ١٩٢٨ في (المجلة التوراتية) أداة من الصوان وجدها فيما بين (نجف) وسيناء والتي يعود تاريخها إلى عشرة آلاف أو خمسة عشر ألفاً من الأعوام فيقول: «ومهما يكن من أمر الدقة في تحديد أزمان هذه العصور الغامضة فإن المفسرين لا يسعهم إلا أن ينظروا بعين التعاطف والإعجاب إلى إحدى القبائل المجدلانية وهي تعيش وتكدح جنوبي فلسطين... إن كل مايتصل بالأرض المقدسة يهمنا... كما يهمنا أن نعلم أنه على مدى أعوام أو قرون كانت قبيلة مجدلانية تحرس طريق سيناء على مدخل أرض كنعان».

ولكي نشير إلى ذلك المستوى من العنصرية الرهيبة الذي أسفَّ إليه المؤرخ بفعل الاستغلال السياسي للتوراة نكتفي بذكر واحد من أبرز المؤرخين؛ إنه الأمريكي (وليم فوكسويل أولبرايت) في كتابه: (التوحيد وتطوره. من العصر الحجري إلى المسيحية)؛ فهو يبرر عمليات (الإبادة المقدسة) عند اجتياح أرض كنعان لينتقل بعدئذ إلى المرحلة التي كان فيها الغزاة يكتفون بطرد سكان البلاد الأصليين. وقد ورد في سفر القضاة من التوراة ما يلي: «حارب أبناء يهوذا أورشليم وأخذوها وخربوها بحد السيف وأشعلوا النار في المدينة». أما في سفر يشوع فنقرأ ما يلي: «سيطرد الرب الكنعانيين من أمامكم». وفي سفر الخروج نقرأ قوله: «سأطرد الكنعانيين من أمامك طرداً».

وبعد أن يذّكر الكاتب الأمريكي القارىء بطرد الهنود الحمر في بلاده يضيف قائلاً: «وقد يحق لمعظم الأمم المعاصرة ولكن لا يحق لنا نحن الأمريكيين ــ على الرغم من إنسانيتنا الصادقة ــ أن نحكم على الإسرائيليين في القرن الثالث عشر ق.م ما دمنا قد قمنا عن عمد أو غير عمد بإبادة آلاف مؤلفة من الهنود في كل زاوية من مساحة أرضنا الشاسعة ثم عزلنا من بقي منهم في معسكرات خاصة». ويضيف السيد وليم فوكسويل في الصفحة نفسها قوله: «إن فيلسوف التاريخ وهو القاضي النزيه يرى على الأغلب أن من الضروري زوال شعب متخلف ليخلي مكانه لشعب آخر ذي ملكات متفوقة... فقد يؤدي الاختلاط بين العروق البشرية إلى نتائج مدمرة» (كذا)[1]! وهذا ما أتاح لصاحبنا أن يخلص فيما يخص الكنعانيين إلى ما يلي: «كان من حسن حظ التوحيد ومستقبله أن الإسرائيليين المجتاحين كانوا شعباً متوحشاً يملك تلك القوة البدائية مع إرادةٍ للحياة لا نظير لها؛ فإبادة الكنعانيين قد حالت دون الانصهار التام للشعبين المنحدرين من أصل واحد؛ ولو قدّر لهذا الانصهار أن يقع لعمل دون شك على إضعاف ديانة (يهوه) إلى حد بعيد».

إذن كان لا بد لنا أن نذكّر بطبيعة ذلك الجو الديني والسياسي الذي كان يتم فيه البحث في تاريخ فلسطين كي نشير إلى المصاعب التي تحول دون مقاربة هذا البحث بصدق وإخلاص.

إن الحضارة الكنعانية لم تُعرف على مدى طويل (ولعلها لم تعرف أبداً بل شوهت) إلا على يد أولئك الذين يكرهونها؛ ولاسيما محرور سفر (الاشتراع) الميالون إلى نسخها أو إلغائها أكثر من ميلهم إلى وصفها.

كانت أول دراسة جادة للحضارة الكنعانية (بعنوان: كنعان في ضوء الاكتشافات الحديثة) قد ظهرت عام ١٩٠٠ على يد الأب (فانسان) الدومينيكي الذي رافق بعثات التنقيب عن قبر داوود بإشراف (باركر)؛ ولم تقدم لنا هذه الدراسة

---

١ ــ هذه الإشارة التعجبية التهكمية من المؤلف.

(المترجمان).

عن كنعان إلا بعض الحكايات التوراتية. ولم يصبح البحث الجدي ممكناً إلا منذ عام ١٩٢٩ حينما نشرت بواكير المكتشفات الأثرية في ـــ رأس شمرا ـــ وكانت هذه المكتشفات مكتبة حقيقية أتاحت للعلماء إعادة تجميع بعض الأجزاء من (التوراة الكنعانية). وقد ألقي الضوء على مضامين ألواح (تل العمارنة)، وهي رسائل من الكنعانيين إلى أسيادهم الفراعنة أمنفيس الثالث وأمنفيس الرابع (أخناتون) في القرن الرابع عشر ق.م. ثم أخرجت إلى النور سجلات ملوك (ماري) عام ١٩٣٤ على يد (أندريه بارو)؛ وهي تشير إلى هجرات العموريين في بداية الألف الثاني. وفي عام ١٩٧٥ كانت البعثة الايطالية بقيادة (باولو ماتيو) قد اكتشفت (١٧٠٠٠) لوحة في القصر الملكي في (إيبلا) بسورية. وهذه الألواح لاتكتفي بالكشف عن أصالة الحضارة السورية بالقياس إلى بلاد مابين النهرين فحسب وإنما تكشف عن إشعاع ثقافتها الخاصة على مدى مايقرب من ألف عام (من ٢٤٠٠ ـــ ١٦٠٠ ق.م) من الفرات إلى النيل.

تلك هي المنابع الرئيسية التي بفضلها يمكننا اليوم أن نعيد (تركيب) الحضارة الكنعانية وبناء الوحدة التي تميز الهلال الخصيب انطلاقاً من جذورها الخاصة بها وتطورها.

* * *

٢ ــ التشكل

إن الحضارة الكنعانية ــ شأنها شأن الحضارات الكبرى في التاريخ كافة ــ قد ولدت من مزيج أجناس عديدة كانت تتوجه جميعاً عبر القرون صوب الهلال الخصيب . وقد وصلت بعض هذه الأجناس إلى الحدود الغربية من أرض كنعان لتستقر فيها .

ومع هذا يمكن أن نتحدث عن (حضارة كنعانية) لأن استمرارية التطور نفسه تتجلى عبر ما قدمته الأجناس المختلفة ؛ وقد اغتنى هذا التطور على وجه التحديد بما قدمه الساميون من عموريين وآراميين وعبريين وأنباط وهنود آريين وحوريين أو ممن قدموا من كريت في البحر المتوسط كالفلستيين .

يقول الأب (ديفو) : «إن بداية العصر البرونزي القديم ٣١٠٠ ق.م) قد يوافق أول استقرار للساميين في فلسطين . ونحن يمكننا أن نطلق اسم الكنعانيين على هؤلاء الساميين ؛ وذلك حسب تعبير التوراة الذي يطلق هذا الاسم على السكان الساميين لفلسطين قبل وصول الاسرائيليين إليها ؛ ولكن لا بد من أن نتذكر أن هذه التسمية اصطلاحية أي إن اسم (كنعان) لم يرد له ذكر إلا بعد الألف الثاني قبل الميلاد» .

وفي الحقبة التي يسميها علماء الآثار العصر البرونزي القديم (٣١٠٠ ــ ٢٢٠٠ ق.م) كانت فلسطين تابعة لنفوذ ممالك ما بين النهرين كمملكة سرجون أكاد ونارام سين وحمورابي في القرن السابع عشر ق.م. وكانت فلسطين آنذاك بلداً مزدهراً؛ هذا هو الأمير المصري (سنوحي) بعد أن زارها حوالي عام ٢٠٠٠ ق.م يخصها بهذا الوصف الشره إذ يقول: «فيها العنب والتين، وفيها الخمرة الغزيرة كالماء، وفيها العسل المتدفق والزيتون الكثيف، وعلى أشجارها تنبت كل أنواع الثمار». كان ذلك في تلك الفترة التي كادت بابل أن يستولى عليها من قبل الحثيين القادمين من الأناضول عام ١٩٢٦ ق.م والتي أوشك الكاشيون الرحل القادمون من آسيا الوسطى أن يسيطروا فيها على بابل كلها. ولم تكن فلسطين حينذاك تابعة لما بين النهرين ولا خاضعة لمصر التي كان لها نفوذها آنذاك.

إن ماأشار إليه (سنوحي) من ازدهار الزراعة في فلسطين يدل على أن السكان كانوا مزارعين ومربين للمواشي وتجاراً؛ فالتنقيبات الأثرية اكتشفت في هذه الأرض أواني وأسلحة من البرونز والنحاس المجلوب من الأناضول.

كانت هذه المرحلة تمتاز بالأسوار المنيعة الصغيرة (فسور يزراعيل وهو أكبر هذه الأسوار لم يكن محيطه يتعدى الـ ١٢٠٠ متر، وسور أريحا لا يتجاوز الـ ٧٧٨ متراً)؛ ولعل هذه الحصون كانت في أغلب الظن مستودعاً للأغذية وملجأ لصد هجمات الأعداء أكثر مما كانت مساكن دائمة. أما التغذية المائية فيتم تأمينها بأقنية تمتد تحت الأرض فهناك قناة في يزراعيل عمقها ثلاثون متراً وطولها سبعون.

وكانت الحضارة الكنعانية على درجة من القوة تكفي لامتصاص واستيعاب المهاجرين كأولئك الذين وصلوا إلى كنعان نحو عام ٢٦٠٠ ق.م مما وراء القوقاز. تشهد على ذلك أواني السيراميك ذات الطراز الجديد التي عثر عليها في (خربة كيراك)... ولكن سرعان ما ذاب هؤلاء المهاجرون. يقابل ذلك أن الوضع في الهلال الخصيب قد تغير حينما اهتزت هذه المنطقة واضطربت من بلاد مابين النهرين إلى مصر من جراء الاجتياحات العديدة التي امتدت على مدى قرون عديدة.

وكانت أقوى تلك الموجات موجة العموريين؛ ولقد سيطر العموريون القادمون من البادية السورية وسادوا دون منازع. وعلى الرغم من هذه القوة استطاع (شوسين) ٢٠٤٨ ــ ٢٠٣٩ الملك قبل الأخير لسلالة أور الثالثة أن يبني خطاً دفاعياً؛ وقد وجه رسالة إلى خلفه (إبي سين) ٢٠٣٩ ــ ٢٠١٥ نعلم منها أن «العموريين كانوا قد توغلوا في داخل البلاد مستولين على الحصون الكبرى واحداً في إثر الآخر». إن نصوص هذه الحقبة تعبر عن الذعر أمام هؤلاء الناس الذين لم يكونوا يعرفون القمح والبيوت والمدن؛ وهاهي ذي أسطورة زواج الإله (أمورو) الذي أعطى اسمه للعموريين تصف لنا ذلك «الرجل الذي ينبش الكمأة من سفوح الجبال وهو لا يعرف كيف يطوي ركبتيه ليحرث الأرض، ويأكل اللحم النيء والذي لا يملك بيتاً طوال حياته ولا يدفن في قبر بعد موته».

وفي الطرف الآخر من الهلال الخصيب، أي في مصر، لم يكن الخوف والقلق أقل؛ فلقد بنى الفرعون أمينيمس الأول (١٩٩١ ــ ١٩٦٢ ق.م) كذلك خطاً من الحصون عرف باسم (جدار الأمير) الذي يرد ذكره في رواية (سنوحي). وهذا فرعون آخر يحذر ابنه (ميريكاري) من «الأسيوي الشرير... الذي لا يستقر في مكان ولا تكل قدماه أبداً من السعي، وهو في حالة حرب دائمة منذ زمن الإله حوريس لا يغلب ولا يُغلب. وهو لا ينذر بساعة المعركة، وهو قادر قدرة اللص على أن يسلب الشخص الذي ينفرد به ولكنه لا يهاجم مكاناً مأهولاً».

كانت عمليات التسلل إلى مصر مراقبة بينما كانت فلسطين مباحة للتخريب بفعل تلك الموجات البشرية المتدفقة؛ فلقد محيت فيها الحياة الحضرية وهدمت حصونها كحصون (حزور ومجدو وبيسان وأريحا وعاي وخربة كيراك). وهكذا قضي على حضارة العصر البرونزي القديم فليس لمن سلم ونجا إلا أن يسكن الأنقاض... ومع ذلك فلقد تمثلت هذه الحضارة الحية النشيطة جميع الذين اجتاحوها لتعود الحياة الحضرية فتزدهر ثانية.

ويبدو أن البنى الاجتماعية قد تغيرت عبر الآلام والمعاناة؛ ففي أقدم النصوص

الموجودة في الأقصر ١٨٥٠ ق.م نرى أسماء زعماء كثيرين في تلك (الدول ـــ المدن) وكأن هناك رواسب قديمة لديموقراطية جماعية، بينما نرى بعد ذلك في (سقارة) ١٨٠٠ ق.م أميراً واحداً لكل مدينة. وهذه البنية (الاقطاعية) يؤكدها علم الآثار والحفريات التي كشفت عن قصور فسيحة ومترفة للنبلاء وعن أحياء ذات بيوت ضيقة... وتكشف النصوص المتأخرة كذلك عن أن الآلهة التي كانت تعبد آنذاك في فلسطين (وسنرى إلى تطورها في ألواح رأس شمرا) هي في الأصل آلهة زراعية كالإله (حدَد) وهو الاسم الآخر لـ (بعل) إله العواصف والأعاصير وهو في الوقت نفسه إله الغيوم والأمطار الذي يخصب الأرض. إنها مرحلة جديدة تشير إلى الاستقرار النهائي والأخذ بالاقتصاد الزراعي.

وهاهي ذي كنعان تشيد ثانية الأسوار حول مدنها لتشهد في المرحلة البرونزية المتوسطة (١٨٠٠ ـــ ١٥٥٠ ق.م) نهضة حقيقية. ولقد بلغ انتشار النهضة الكنعانية درجة وصلت معها إلى مصر دون قتال؛ والراجح أن الهكسوس الذين ملكوا على مصر على مدى قرن ونصف (١٧٠٠ ـــ ١٥٥٠ ق.م) وتبنوا النظام المركزي في الحكم قد وفدوا من أرض كنعان.

وفي الحقبة التي طُرد فيها الهكسوس من مصر كانت عاصفة جديدة تهب من الشرق على الهلال الخصيب الذي راح يتحمل عواقبها... ففي عام ١٥٩٥ ق.م استولى الحثيون الوافدون من الأناضول على بابل ونهبوها.. ولكن بعد انسحابهم من غزوهم كانت بابل قد اجتاحها الكاشيون القادمون من الجبال الشرقية والذين كانوا يجوبون منذ قرن حدود الأرض الممتدة ما بين دجلة والفرات. أما مملكة حمورابي التي عرفت عصرها الذهبي في القرن الثامن عشر ق.م كما تشير إلى ذلك ألواح (ماري) وأرشيف آخر ملك لها (زمري لين) (١٧٣٠ ـــ ١٧٠٠) والتي شعت حضارتها من الفرات إلى البحر المتوسط... فلقد دمرت وظهر على ساحة تاريخ الشرق الأدنى وافدون جدد هم الحوريون الذين أسسوا المملكة الميتانية في أعلى بلاد ما بين النهرين في النصف الثاني من القرن السادس عشر ق.م. وقد ساد الميتانيون فيما بين النهرين والبحر المتوسط حوالي عام ١٥٠٠ ق.م. هذا ويؤكد التماثل فيما بين أسماء الحوريين

وآلهتهم وبين أسماء آلهة الهند الذي تشهد عليه نصوص (نوزي) المكتشفة قرب كركوك والتي ترجع إلى القرن الخامس عشر ــ على أن الزمرة اللغوية للحوريين هي من أصل آري. «إنه أول دخول الآريين إلى الشرق الأدنى» كما يقول الأب ديفو.

ولقد كانت أول نتائج وصول الحوريين، مؤسسي المملكة الميتانية إلى فلسطين في بداية القرن الخامس عشر ق.م دعم النظام الاقطاعي؛ ولكن الفرسان الحوريين بدروعهم ذات الحراشف البرونزية وعرباتهم الحربية لم يفرضوا لغتهم ولا ديانتهم إذ لم يكونوا إلا أقلية؛ وإنما فرضوا سلطانهم؛ فرسائل (أرمانا) حينما تعدد أسماء الأمراء الفلسطينيين تذكر الحوريين والكنعانيين متساوين في العدد بينما تشير هذه الرسائل إلى أن عدد رعايا الحوريين أقل.

وهكذا مرة ثانية تمثلت الحضارة الكنعانية هؤلاء الغزاة على الرغم من كونهم الطبقة المسيطرة. هذا ولم تدم سيطرة الحوريين على فلسطين مدة طويلة؛ فعندما تسلم السلطة تحوتمس الثالث عام ١٤٦٨ ق.م زحف على غزة وحطم في (مجدو) الأمراء الفلسطينيين المتحالفين. وقد وصل بعد عدة حملات إلى الفرات بالقرب من مدينة (قرقميش) عام ١٤٥٧ ق.م ثم انحسرت مملكة الميتانيين منكفئة إلى حدودها على الفرات ففقدت سيطرتها على الشرق الأوسط إذ كانت السيادة المصرية قد بدأت... وأصبحت فلسطين مقاطعة مصرية وصار أمراؤها تابعين لسلطة الفراعنة.

وفي نصوص (تل العمارنة) في القرن الرابع عشر ق.م معلومات إضافية عن هذه الصفحة الجديدة في تاريخ فلسطين السياسي؛ وهي مجموعة ألواح يبلغ عددها (٣٢٠) لوحاً من الآجر كتبت نصوصها باللغة البابلية بالخط المسماري. كان اكتشاف هذه الألواح بالقرب من قرية (تل العمارنة) على بعد (١٣٠) ك.م من جنوبي القاهرة بين أنقاض العاصمة القديمة التي بناها الفرعون أمينوفس الرابع ١٤٠٢ ــ ١٣٦٤ ق.م حينما أراد أن يتخلص من سلطان الحكم الثيوقراطي الديني الذي يمثله كبار كهنة الإله أمون في (طيبة). إن هذا المصلح الديني الفذ بعد أن قطع كل مايربطه بالعقيدة التقليدية لتعدد الآلهة محا من كل مكان كل ما يشير إلى آلهة متعددة وأصبح مبشراً بإله واحد خالق السموات والأرض، موجد كل حياة ومرشد

الناس إلى طريق الهدى. وكان رمز الإله الواحد قرص الشمس (أتون) الذي تمتد أشعته لتهب الحياة بيديها السخيتين.

وقد لخص مذهبه في الإيمان في واحدة من أجمل القصائد في التاريخ عرفت بـ(نشيد الشمس) الذي سنأتي على ذكره فيما بعد ونوازنه بمزمور داوود رقم ١٠٤ لنرى إلى أي حد أسهم هذا النشيد في إغناء النزعة الروحية في فلسطين والإنسانية كلها[١]. وقد غير هذا الفرعون اسمه الأصلي فسمى نفسه (أخناتون) أي خادم الإله (أتون) وسمى عاصمته الجديدة (أخيتاتون) أي أفق الإله (أتون) ثم نقل إلى العاصمة الجديدة وثائقه ووثائق أبيه الملكية... ثم كانت بينه وبين حكام ما بين النهرين وأمراء كنعان علاقات دبلوماسية استمرت نصف قرن (١٤٠٢ــ١٣٤٧ ق.م). ونحن نجد في هذه الوثائق من المواد الأولية ما يسمح لنا بوصف بنية المجتمع الكنعاني: من ارستقراطية كنعانية وحورية وتجار في المدن الحصينة ومزارعين؛ أضف إلى ذلك أولئك الذي لا يملكون أرضاً ولا ينتمون إلى طبقة؛ إنهم الـ (عبيرو) تلك العصابات المرعبة التي سنأتي على ذكر دورهم والذين طلب أمراء كنعان من الفرعون إرسال قوات لقمعهم، قوات من الشرطة لا تتعدى الخمسين رجلاً لحراسة الاقطاعي لدى خروجه من حصنه؛ فهؤلاء الـ (عبيرو) لم يكونوا غزاة مجتاحين بحاجة إلى جيش مسلح لصدهم. وهاهو ذا ملك القدس (عبدي خيبا) يرسل نداء الاستغاثة إلى الفراعنة قائلاً: «لقد أصاب الخراب أراضي الملك... وأنت لا تلبي النداء. الحكام يذبحون. إذا ما وصلت إلينا هذا العام قوات لحفظ الأمن فستكون أراضي الملك في مأمن؛ وإلا فستسقط البلاد في يد الـ (عبيرو)».

---

١ ــ من المستغرب أن أغلب المؤرخين ينساقون وراء التاريخ الحربي دون غيره؛ فحتى الأب ديفو في كتابه القيم (تاريخ اسرائيل القديم) يكتفي بأن يورد ما يلي: «كان تحوتمس الثالث أكبر الفراعنة المنتصرين؛ وبعد موته خلف لابنه مملكة منظمة تمتد من السودان إلى الفرات». ترى ألا يستطيع مؤرخ مهتم بسيرة الملوك والحروب ولا يخضع لالتزامات التأريخ التقليدي كالأب ديفو أن يكتب عن أخناتون ليقول مثلاً: إنه قد خلف للبشرية أول صورة نبوئية عن وحدانية الله ما تزال منذ ثلاثة وثلاثين قرناً تعتمل خميرة أبدية في قلوب الناس؟

(المؤلف)

وقد استفحل أمر الفوضى؛ فالأمراء يشي بعضهم ببعض ويستخدمون الـ(عبيرو) كمرتزقة ليسخروهم في قتال جيرانهم. وهاهو ذا ملك الحثيين (سوبيلو ليوما) الذي اعتلى العرش عام ١٣٧٠ ق.م يؤجج حدة نيران عداء الأمراء الفلسطينيين لمصر ويدعمهم ليحل هو محل النفوذ المصري؛ وبعد انتصاره على الميتانيين كان هو الخصم الوحيد للفراعنة الذي نجح في استمالة أتباعهم إليه. وعلى الرغم من أن (سيتي الأول) ١٣٠٣ ــ ١٢٩٠ ق.م ورعمسيس الثاني ١٢٩٠ ــ ١٢٢٤ ق.م حاولا استعادة الإشراف على فلسطين، وعلى الرغم من النصر الذي أحرزه رعمسيس الثاني في معركة قادش (١٢٨٦ ق.م) ودر عليه من الغنائم ماغطى به جدران معابد النوبة ومصر... فقد عُقد سلام هش مزغول مع الحثيين في صيغة معاهدة عدم اعتداء يلتزم فيها الحثيون بعدم التدخل في فلسطين. ولكن الفوضى ما برحت تستفحل حتى بلغت أوجها بعد اجتياحات الدوريين في نهاية القرن الثالث عشر وبداية الثاني عشر ق.م حينما قامت (شعوب البحر) من الفلستيين بالنزول على الشاطىء واحتلاله.

في هذه الفترة من الانحلال السياسي في فلسطين كانت موجة جديدة من الساميين من الأصل نفسه الذي ينتمي إليه العموريون والكنعانيون قد جاءت لتبحث عن أرض لها في منطقة الهلال الخصيب؛ وقد سلكت هذه الموجة الطريق ذاتها أي من صحارى جزيرة العرب والهضاب الشرقية وحاولت الاستقرار في دلتا دجلة والفرات في أعلى بلاد ما بين النهرين حول حرّان في سورية، وفي فلسطين كذلك. إنها الموجة الكبرى للآراميين الذين يشكل العبرانيون فرعاً من فروعهم.

وقد عملت هذه الموجة على استقطاب (العبيرو) الذين لا أرض لهم من جميع الأنحاء. ونحن نطلق اسم الآراميين على الشعوب التي لم تتجاوز الحدود السورية وضربت بجذورها فيها بنجاح كبير؛ فلغتهم الآرامية التي كانت لغة رفاقهم العبريين قد أصبحت منذ القرن الخامس اللغة المتداولة في الشرق الأدنى كله وستكون لغة المسيح فيما بعد.

وتسلل العبرانيون إلى فلسطين، وتسلل بعض منهم مع (العبيرو) إلى مصر. وقبل أن نقارب هذه المرحلة الجديدة من تاريخ فلسطين لا بد من عرض منجزات الحضارة الكنعانية لكي نبرز ماستسهم فيه تاريخياً هذه الموجة الجديدة من الهجرات.

إن العبرانيين ـــ شأنهم شأن من سبقهم من مهاجرين رحل متحدرين من جذر واحد ـــ قد استفادوا من الحضارة الكنعانية حينما استقروا في فلسطين وأغنوها على مدى ثلاثة قرون بما لديهم دون أن يلغوا أصالتها واستمراريتها.

* * *

٣ ـ ما أسهمت به هذه الحضارة

إن التاريخ السياسي لفلسطين قد أضاء لنا البنى الاجتماعية فيها؛ ولكي نحدد على وجه أفضل دور الثقافة الكنعانية لا بد أن نتذكر دائماً أن هذا المجتمع الاقطاعي من المزارعين المستقرين كان كذلك في معظمه مجتمعاً تجارياً. نعم في ملتقى الحضارات هذا ذي الأهمية البالغة في العالم القديم أي في الهلال الخصيب أكدت الاكتشافات الجارية في فلسطين تلك العلاقات التجارية والثقافية مع بابل ومصر ومع حضارة البحر المتوسط الميسينية وسورية والأناضول والقوقاز... وذلك عن طريق اكتشاف فؤوس مزينة على الطراز القوقازي وفخاريات من الطراز الميسيني (الذي وصل تأثيره إلى مصر) ومنحوتات برونزية من أوغاريت في سورية ومعابد تمثل فن العمارة فيما بين النهرين وتماثيل قريبة من الفن المصري... أما على الشاطىء فقد اكتشفت منحوتات عاجية تشهد بالبراعة في تصوير الحيوانات.

ولكن العبقرية الفنية الفلسطينية في هذه الحقبة لا تتجلى على صعيد الفنون التشكيلية فحسب بل إن أكبر اكتشاف وأعظم إسهام قدمه الهلال الخصيب إلى الحضارة العالمية هو اختراع الحروف الأبجدية التي قدمت للتجارة الفلسطينية الأداة الضرورية للاتصال، هذه الأداة التي لم يكن بمقدور الرموز الهيروغليفية أو الكتابة المسمارية أن تقدمها لها. وقد أتاحت هذه الأبجدية تعميم القراءة مما نزع من أيدي

الكهنة والنساخ احتكار ثقافة مقصورة على النخبة تقتضي الإلمام بمئات الإشارات والرموز. أضف إلى ذلك أن الأبجدية قد يسرت عملية التدوين الخطي للمأثورات الشفوية والملاحم والأساطير والأناشيد المقدسة التي ستظهر لنا عظمة (التوراة الكنعانية) ومن بعدها التوراة العبرية.

إن أقدم كتابة أبجدية في العالم ذات الثمانية والعشرين حرفاً هي التي اكتشفت في رأس شمرا بلغة أوغاريت. يقول هاريس: «إن أهمية لغة أوغاريت من الآن فصاعداً لا يمكن أن تكون موضع شك. وهي تختلف عن اللغات الكنعانية الأخرى التي نعرفها اختلافاً بيناً؛ ولكن هذه الفروق ترجع جزئياً إلى تطور لهجة أوغاريت الخاصة أو إلى تطور الأسرة اللغوية الكنعانية التي كانت لغة أوغاريت استمراراً لها. وعلى كل حال أسهمت لهجة أوغاريت إسهاماً تاماً في تاريخ الأسرة اللغوية الكنعانية؛ إنها لغة كنعانية».

وقد نقلت إلينا هذه اللغة القصائد التي يسميها (دل ميديكو) «التوراة الكنعانية المكتشفة في رأس شمرا»؛ وكذلك شأن التوراة العبرية التي دونت فيها المأثورات الشفوية المؤلفة من قصائد ترجع إلى أصول وأحقاب عديدة مختلفة. أما الميزة الخاصة التي نلمحها في نصوص رأس شمرا فهي تلك الوحدة الثقافية العميقة التي كانت تسود فلسطين آنذاك من غزة إلى أوغاريت وإيبلا؛ فاللغة واحدة والعبادة واحدة والدين واحد.

وكل مابوسعنا أن نراه على صعيد الديانة الكنعانية في هذه النصوص التي ما تزال غير كاملة أن (الإلهي) في هذه الديانة يتجلى أول مايتجلى في الطبيعة كما هي الحال بوجه عام في المجتمعات الزراعية المستقرة؛ بينما يتجلى (الإلهي) في المجتمعات البدوية أول ما يتجلى في التاريخ. ولكن هذا التقسيم والفصل ليس إلا ضرباً من التبسيط الساذج ومقاربة للأمور في حدودها السطحية؛ فهاتان الصيغتان اللتان يتجلى فيهما (الإلهي) تمتزجان وتشتجران؛ فالإله (إيل) ــ الذي سيصبح (إليوهيم) لدى العبرانيين و (الله) عند العرب ــ يتجلى في الجبال والعواصف والرعد والنار التي ليست

زلا مظاهر على وجود الإله؛ أما المطر الذي يهب الأرض الحياة فليس إلا أكبر وأوضح نعمة من نعمه... ومع الزمن وبدءاً من الكنعانيين فالعبريين فالمسيحيين ثم المسلمين سيصبح الإله مرشد الناس إلى الخلاص وهو (الطريق والحقيقة والحياة) و (طريق الحق) وضمان القيم الخلقية والمسير الأكبر للطبيعة والتاريخ إذ يهب للطبيعة انسجامها الخيّر وللتاريخ معناه وقيمته، ويهب لكليهما ما فيهما من نظام.

كانت الديانة الكنعانية التي أخذت أول الأمر بتعدد الآلهة وبكونهم على غرار البشر تهدف إلى تمجيد الحياة؛ «فهذا الإله (بعل) خليفة (إيل) هو إله الخصب الذي يمتطي صهوة السحب ويمتشق سيف البرق ليأتي معه بالرياح والغيوم والمطر. أما أخته الإلهة (عنات) فهي التي تنضح ماء السماء وتوزعه لتحيي به الأرض وتبعث بالندى عبر النجوم؛ وهي التي تهب للمزروعات بهاءها وتعطي للأرض غذاءها بأن تضع في التربة نسغ السنابل. إنها تصب ماء الحياة في رحم الأرض وتجعل السنابل تنمو على صدر الحقول».

أما أعداء (بعل) و (عنات) فهما الإلهان (موت) و (يمّ) إلها الموت والبحر[1]. أما الأول «فيخمد أنفاس الأحياء» وأما الثاني «فيحكم لجج المياه المالحة الميتة». إن تمجيد الحياة في الطبيعة كلها في الآداب الكنعانية للهلال الخصيب لا ينفصل أبداً عن تمجيد (الجانب الإلهي) الذي يجمع ويوحد بين حياة الإنسان وحياة الكون... وهذه الحياة هي الهبة الإلهية؛ وهذا الإلهي هو قطب كل كائن، وهو الذي يمنحه الحياة. والصراع لا ينقطع ـــ كما هو الحال في زندافستا لدى زرادشت في إيران ـــ بين قوى الحياة وقوى الموت؛ وينتهي الشوط الأول بانتصار (الوجود) في الكون على (الخواء والفوضى) وبتحقيق ملكوت الله.

وهكذا حينما نتجاوز تعدد الآلهة نصل إلى وحدة الإله؛ وهذا ما تشير إليه التوراة العبرية إذ تقول: «فكلم الله إسرائيل في رؤى الليل وقال له: يعقوب يا يعقوب أنا إيل إله

---

١ ـــ يمكن ملاحظة التماثل في اسمي الإلهين (موت) و (يمّ) مع لفظتي الموت واليمّ العربيتين.

(المترجمان)

أبيك».. ثم يصبح اسم (إيل) لدى الاسرائيليين (يهوه)؛ ويهوه هذا في النصوص المقدسة لرأس شمرا لدى الكنعانيين هو ابن (إيل)؛ ولقد تغير اسم يعقوب إلى (إسرا ـ ئيل) الذي يعني (إيل ـ يقاتل) مثلما يعني (اسماعيل) (إيل ـ يلبي أو يسمع): «وأجاب إيل الرحيم قائلاً: اسم ابني (ياو إيلات) أي ابن إيل»... ثم يتخلى إيل عن كونه إلهاً قَبلياً فهو يتجاوز في نصوص رأس شمرا حدود كنعان: «اذهب إلى مصر بلد الإله إيل فمصر ملك لك».

ويبدو أن رجال الدين الكنعانيين استقبلوا برضا مبدأ التوحيد لدى أخناتون، هذا المبدأ الذي لا يرى في أخناتون الإله الأعظم فحسب بل إلهاً واحداً للكون؛ وقد رأى الكنعانيون في أخناتون مثيلاً للإله إيل، وهكذا إذن نحا تطور الديانة الكنعانية المنحى نفسه الذي مشى فيه تطور الديانة اليهودية التي ليست إلا مرحلة على طريق الأولى. يقول (دوسّو) في كتابه (الأصول الكنعانية للتضحية عند الاسرائيليين): «إن مبدأ التوحيد الذي يجهد كهنة إسرائيل في أن يعزوه إلى موسى هو عقيدة متأخرة نسبياً. ونحن نرى في أيامنا أن المؤمنين الذين يرفضون أي رغبة في النقد يتمسكون بكل بساطة بالنصوص المقدسة؛ ولكن حينما نحكم على الأمور بشيء من التحرر فلابد أن نطرح كلياً مقولة رجال الدين. هذا ولم يكن الاسرائيليون في عهد داوود وسليمان قد عرفوا التوحيد بعد؛ ولكن سليمان ـ دون أن ينسى حصة سائر الآلهة من المعابد ـ خصّ مجد (يهوه) بتشييد معبد له ليعبد في طليعة الآلهة».

والذي لا شك فيه أن سليمان كان يأخذ بتعدد الآلهة مع أن الكهان الذين جعلوا منه سيرة لهم قد لاموه في ذلك. والعهد القديم يشهد على نحو قاطع بأن «سليمان قد عبد عشتاروت إلهة الصيدونيين والإله ملكوم الذي يلعنه العمونيون. لقد ارتكب سليمان ما هو شر في نظر الرب... وبنى على الجبل المواجه لأورشليم معبداً للإله كيموش الذي يلعنه المؤابيون، ومعبداً آخر للإله مولك الذي يكرهه بنوعمون؛ وقد بنى كذلك معابد أخرى لآلهة جميع نسائه الغريبات اللواتي كن يقدمن البخور والذبائح لآلهتهن».

إن ما يكشف عنه العهد القديم بصراحة تامة على أنه رجس ولعنة هو التضحية

بالبشر ولاسيما الأطفال؛ ولكن الاسرائيليين قد مارسوا هذا الطقس الدموي كما فعل الكنعانيون في الفترة نفسها؛ فعلى الرغم من تحريم الذبائح البشرية لدى اللاويين أقدم (يفتاح) على التضحية بابنته وفاءاً لنذر نذره ليهوه مقابل انتصاره على أعدائه. وعلى الرغم من الشريعة وتعاليم الأنبياء استمر ملوك إسرائيل ويهودا في تقديم الولد البكر قرباناً بشرياً. ألم يرد في سفر الخروج قول يهوه: «كرسْ لي ضحيةً ولدك البكر من بين أبناء إسرائيل سواء كان بشراً أو بهيمة» وقوله: «تقدم لي الولد الأول من أبنائك... وكذلك من بقرك وخرافك».

ولم يكتف (آحاز) ملك يهودا الذي ملك ستة عشر عاماً على أورشليم في القرن الثامن ق.م «بتقديم القرابين لآلهة ملوك دمشق الذين غلبوه بل أقام أصناماً للإله بعل وضحى بأبنائه بأن أحرقهم في النار». وهذا (منسّى) أحد ملوك أورشليم كذلك (٦٨٧ ـــ ٦٤٢ ق.م) «قد أساء إلى الرب كما أساءت الأمم التي طردها الرب من أمام بني إسرائيل وبنى مذابح لبعل... وهو الذي قدم أبناءه للنار قرباناً». وقد دام حكم هذا الملك قرابة نصف القرن وهو يسلك مسلك رجس الكنعانيين منذ القرن الرابع عشر ق.م. ولكن كل هذا يهون إذا قيس بـ (الإبادات المقدسة) ولاسيما تلك التي يمجدها سفر يشوع حينما يتباهى في كل مرحلة من احتلاله أرض كنعان بذبح النساء والأطفال والشيوخ وذلك عند احتلال أريحا وعاي وإبادة (غابون) وذبح الملوك الخمسة السجناء في مغارة ماكيدا... كما يزهو بأنه لم يترك كائناً حياً من جميع السكان إلى أن «تمت إبادتهم حسب ما أمر به الإله نبيه موسى». ويحكي لنا سفر العدد مآثر (أبناء إسرائيل) الذين تغلبوا على المدينيين؛ «فلقد قاموا امتثالاً لأوامر الله لنبيه موسى بقتل جميع الرجال وسجن النساء وإحراق المدن». وحينما رجعوا إلى موسى غضب عليهم قائلاً: «لماذا أبقيتم على حياة النساء؟ إذن هيا فاذبحوا الآن الأطفال وكل النساء الحوامل؛ أما العذارى فاحتفظوا بهن لأنفسكم».

إن كبار الكهنة الذين كتبوا النصوص المقدسة والذين يمجدون هذه المذابح الوحشية التي قام بها يشوع لكي يظهر جبروت (إله الجيوش) هم نفسهم الذين يبيحون لأنفسهم أن يشهّروا برجس الكنعانيين.

ونحن بعد أن قلنا كلمة حق في هذه الافتراءات الحاقدة لدى كبار الكهنة الذين جمّعوا منذ القرن العاشر وحتى السادس ق.م المأثورات الشفوية وتبنوها ليخلقوا أسطورة (الامتياز العبري)... يمكننا الآن أن نضع المرحلة العبرية من تاريخ فلسطين في سياقها الصحيح لنرى إلى ما استعارته من الحضارة الكنعانية وما قدمته لها. يقول (ديل ميديكو) في كتابه (التوراة الكنعانية المكتشفة في رأس شمرا): «على الرغم من اجتياح البلاد من قبل العبريين ظلت الحضارة الكنعانية هي السائدة حتى سيطرة الآشوريين في عهد حكام يهودا وإسرائيل».

وقد تجلت هذه الاستمرارية في ذلك الإنجاز الذي يعد أسمى ما قدمه الهلال الخصيب للنزعة الروحانية الإنسانية؛ نعني به التوحيد الذي سيجد صيغته لدى أنبياء إسرائيل... ومنهم يسوع المسيح الذي تابع حمل رسالة التوحيد ليجعل منه ديناً عالمياً، وليجيء الإسلام فيما بعد فيستوعب كل الثروات الروحية ليجعل منها مرشداً لسلوك البشر سواء على صعيد الدين القائم على التوحيد والتنزيه أو على صعيد السياسة المؤدية إلى بناء مجتمع التعاون.

ولكي نبرز بوضوح مسار الوحدانية لا بد من دراسة النصوص والمعالم الأثرية دون مواقف سابقة، وبخاصة تلك المواقف التي حالت منذ زمن طويل دون أن نعيش تاريخ فلسطين وتاريخ هذه المرحلة في مضمونها الإنساني الغني؛ ومن هذه المزاعم ما يقول بأن الوحدانية ما كانت لتولد في الشرق الأوسط لولا العبرانيون؛ ومنها ما يقول بأن لاسرائيل كياناً تاريخياً كاملاً منذ بداية الألف الثاني ق.م أيام ابرهيم وبأنها عرفت الوحدانية منذ ذلك التاريخ.

إن هذه المقولة التي تقوم على الأخذ بمسلمات الإيمان بديلاً للحقيقة التاريخية لا تمت إلى الواقع بصلة:

أولاً ــ إن التوجه صوب الوحدانية كان ثمرة مخاض طويل حدث في الشرق الأدنى من بلاد ما بين النهرين إلى سورية وفلسطين ومصر.

ثانياً ــ في النصوص التوراتية التي كتب أقدمها اعتماداً على الروايات الشفوية بيد

الكهنة في عهد سليمان (٩٧٢ــ٩٣٣ ق.م) نجد عناصر من أصل بابلي وحثي ومصري... ولكن أصبح بمقدورنا الآن أن نقدّر الكنعانيين حق قدرهم؛ وذلك بعد اكتشاف نصوص رأس شمرا عام ١٩٢٩ في موقع العاصمة القديمة أوغاريت في سورية.

ونحن إذا عزلنا (التوراة الكنعانية) عن مجموعة الإنجازات الروحية للشرق الأدنى وقعنا في ضلال مماثل للضلال القائل (بالامتياز التوراتي). إن التوراة الكنعانية تسمح لنا بأن نقدر حق التقدير ما خلفته حضارة كنعان التي تعد من المراحل الهامة؛ فهناك «مفردات وعبارات وجمل كاملة من التوراة العبرية يمكن قراءتها حرفياً في نصوص توراة كنعان التي ترجع إلى القرن الرابع عشر ق.م... فهل ستكشف لنا ألواح أوغاريت عن جميع الأصول الكنعانية العميقة لما ورد في العهد القديم؟ هذه الأصول التي استشعر وجودها بعض المفسرين والمؤرخين من زمن طويل».

هذا ويجب علينا أن لا نغض من قيمة الفروق بين ديانة البدو الرحل وديانة الحضر المقيمين كما يجب أن لا نبالغ في قيمة هذه الفروق؛ ديانة الرحل التي كانت ديانة العبريين حتى القرن الثاني عشر حيث يكون الإله المتجلي في التاريخ هو الحافظ لقيم القبيلة واستمرارية تاريخها سواء كان هذا التاريخ حقيقياً أو اسطورياً؛ أما ديانة المزارعين المستقرين كديانة الكنعانيين منذ بداية الألف الثاني فالإله المتجلي في الطبيعة هو الحافظ الضامن لخصب الأرض.

ومنذ المواجهات الأولى بين الكنعانيين والعبريين كان رفض متبادل إذ رفض أتباع يهوه ديانة أتباع إيل ورد عليهم هؤلاء بالمثل... وحينما استقر العبريون في أرض كنعان وحدوا بين إلههم وإله السكان الأصليين وتبنوا اسم الإله إيل وصاغوه في صيغة الجمع فكان (إيلوهيم). وقد توحدت أحياناً خصائص هذه الآلهة، آلهة الطبيعة والتاريخ؛ فيهوه عابر السهول هو بعل الكنعانيين؛ ويهوه هو الذي يهب القمح والزيت والخمر شأنه شأن كل آلهة الخصب الكنعانيين؛ وهو يتجلى في صوت الرعد كما يتجلى بعل... وإله العهد القديم الذي يعتلي العرش ويحكم مجمع أبناء الآلهة شأنه شأن إيل

في أوغاريت... وهكذا يمكننا عن طريق بعض الأمثلة أن نشير بوضوح إلى أهمية التناظر الكبير الذي يمكن أن نلمحه بين النصوص الميثولوجية في أوغاريت والنصوص العبرية في التوراة. وقد أشرنا سابقاً إلى مافي العهد القديم من مخلفات كنعانية، وهي حتى الآن النموذج الوحيد المعروف الذي تم اكتشافه في أوغاريت.

إن هذا التمازج والتكامل ليس مستغرباً؛ فالعبريون منذ استقرارهم في أرض كنعان تبنوا لغة كنعان بدلاً من لهجتهم الآرامية كما يذكرنا بذلك النبي أشعيا؛ وقد تعلم هؤلاء البدو الرحل من الكنعانيين الكتابة الأبجدية التي أتاحت لهم الانتقال في القرن العاشر ق.م من الرواية الشفوية إلى التدوين. وقد تعلم العبريون الرحل كذلك الزراعة من الكنعانيين فأصبحت أنماط حياتهم شبيهة بأنماط أولئك؛ أضف إلى ذلك أن التزاوج فيما بين الطرفين كان يزداد ويطّرد.

وتشهد على ذلك تلك (اللعنات) التي كان يمارسها كبار الكهنة منذ القرن العاشر. جاء في سفر التكوين قوله: «فلتكن كنعان ملعونة...» وفي سفر الحكمة جاء قوله: «فلتكن ذرية كنعان ملعونة من جذورها..». أما التحريم الذي يلح عليه مؤلفو سفر الاشتراع فيما يخص الزواج بالغريبات والذي يُنسب إلى الله نفسه فقد ورد صراحة على لسان ابراهيم: «لن يكون زواج ابني ببنت من بنات كنعان...». أما أحفاد يعقوب صهر الآرامي (لابان) سواء منهم من كانوا من زوجاته الشرعيات أو من خادماته الغريبات أو من محظياته فلم يراعوا هذه القاعدة؛ فيهودا تزوج بكنعانية، وإفرايم ومنسّى ولدا يوسف كانت أمهما مصرية. وحينما قاطع الاسرائيليون رجال قبيلة بنيامين برفضهم تزويجهم من بناتهم قام هؤلاء بإكثار نسل قبيلتهم عن طريق خطف أربعمئة فتاة عذراء... ولقد وبخ الله موسى على زواجه بامرأة كوشية، وكانت جدة الملك داوود مؤابية واسمها (روث)؛ وقد ولدت له زوجته الحثية ابنه سليمان.

وهكذا يتضح من الأمثلة التي استقيناها من أسباط القبائل وموسى والملوك ومما ورد في المأثورات الشفوية أن التزواج المتبادل بين الشعوب كان ممارسة شائعة سائدة. أما أن العبرانيين هم فرع من موجة الهجرة الآرامية فيشهد عليه اعتراف الدين اليهودي

نفسه؛ ففي سفر الاشتراع ورد قوله: «كان أبي آرامياً تائهاً»؛ وفي سفر التكوين أن (لابان) الآرامي كان عم يعقوب وأبا زوجته.

وأما أن التهجين الثقافي والعرقي كان الأساس في استمرارية فلسطين وتكوين شخصيتها فهذا ما يشهد عليه في بداية القرن السادس ق.م النبي حزقيال إذ يقول: «هكذا قال الرب الإله مخاطباً أورشليم: أنت أرض كنعان بالولادة والنشأة؛ فأبوك كان عمورياً وأمك حثية». وهكذا يدين النبي حزقيال في القرن السادس ق.م ذلك التاريخ الذي يراه ضرباً من (العهر) ولكنه يختصر خمسة قرون من الحقيقة التاريخية.

نعم لقد ظل مبدأ التوحيد غامضاً مشوشاً دائماً حتى جاءت المسيحية بتحديدها الصارم له... ثم الإسلام بتحديده الأوضح. إن ما ورد من قصة الخلق والطوفان في الأناشيد البابلية في القرن الحادي عشر ق.م يبرز لنا منذ الألف الثالث أن الديانة البابلية كانت تتجه نحو التوحيد. يقول (ألبرايت): «إن كل الآلهة التي ذكرت في هذه الأساطير لا تمثل إلا مجموعة صفات أو خصائص للإله مردوخ أو مجموعة من مهماته الإلهية؛ أما سائر الآلهة فليسوا إلا مظاهر مختلفة لشخصه». ويستنتج هذا المؤلف في هذا الصدد ما يلي: «عندما نرى أن المظاهر الألوهية المتعددة المختلفة ليست إلا تجليات لإله واحد وأن مملكة هذا الإله العظيم تشمل الكون... فنحن على بعد خطوة واحدة من نوع من التوحيد».

تقول الآلهة عن مردوخ في النشيد البابلي الخاص بالخلق: «إذا كان البشر منقسمين مختلفين فنحن الآلهة نسمي إلهنا مردوخ باسم كل الأسماء التي أطلقناها عليه». أما (شمش) فهو إله الشمس؛ ولكنه في الوقت نفسه الإله العلي. إنه يملي على الملك حمورابي في القرن السابع عشر ق.م شريعة العدالة التي لا تقل بشيء عن (الوصايا العشر) لموسى.

أما الاستشهاد التالي من قبل (ألبرايت) وهو المنحاز إلى جانب المأثورات الاسرائيلية فله دلالته الخاصة: «إن كتاب العهد القديم ليس إلا مجموعة شرائع مجزأة تمشي على النسق نفسه الذي نراه في شريعة حمورابي. والقوانين الحثية في القرن الرابع

عشر ق.م والقوانين الآشورية في القرن الثاني عشر بكل صيغها ترجع إلى التشريع السومري في الألف الثالث ق.م. وكتاب العهد القديم ليس إلا صورة عن مجموعة تشريعات قديمة فيها شيء من التعميم كي تعبر عن الظروف المحلية في أرض كنعان والتي ربما انتقلت إلى أيدي الاسرائيليين في مرحلة حكم القضاة؛ وهي بصيغتها تلك لا يمكن أن ترجع إلى ماقبل القرن الرابع ق.م. لكن هذه الصيغة المستعارة من القرن التاسع ق.م لا تختلف أبداً عن النموذج الكنعاني الأقدم بعدة قرون لأن هناك كلمات عديدة قديمة لها ما يماثلها في بلاد ما بين النهرين سواء من حيث مدلولها أو من حيث صيغها الصرفية. إن قوانين الأوامر والنواهي أصيلة متفردة، أما القوانين الوعظية التي تخاطب الضمير فمشتركة في كل بلاد آسيا الغربية».

إن دراسة مقارنة لشريعة حمورابي بوصايا موسى ستقودنا إلى استنتاج يقول بتفوق شريعة حمورابي من الناحية الحقوقية؛ فهي ــ مثلاً ــ أكثر رحمة ورأفة في موضوع تحرير العبيد (فالعبد يحرر لدى حمورابي بعد أربع سنوات بينما يحرر لدى موسى بعد سبع) وفي موضوع إرجاع الأموال المسروقة (فحمورابي يكتفي بضعفين بينما لا يكتفي موسى إلا بأربعة أضعاف) وكذلك فيما يخص الإساءة إلى الأقربين؛ ولكن شريعة حمورابي تقسو في موضوع رشوة القضاة. والمعروف أن وصايا موسى تدين حتى النية لدى الإنسان؛ فها هنا نحن أمام موقف يتصل بالضمير الأخلاقي الذاتي الذي يتجاوز العقوبات القانونية على الأفعال والأحداث.

ولكن هذا البعد المتصل بالضمير الأخلاقي لا نعدم له مثيلاً في الديانات السابقة لديانة بني اسرائيل؛ ففي الألواح الكنعانية في رأس شمرا نجد هذا المبدأ الأساسي للديانات الموحدة الكبرى الثلاث (اليهودية والمسيحية والإسلام)، ونعني به مبدأ طاعة الله.

وهذا الاعتراف بالتنزيه والتوحيد للإله هو الجوهر الأساسي لحياة إنسانية حقة. تقول توراة أوغاريت: «إخش سهام إيل تكن حينذاك إنساناً»، وكذلك تقول توراة العبريين بعد خمسة قرون: «بداية الحكمة في مخافة الله» وهذا ماسيتكرر قوله في الأناجيل والقرآن فيما بعد.

وهذا التنزيه لإرادة الله في علاقته بالحكمة وأخلاق البشر قد رمز إليه برمز (المتألم الصالح) في التوراة العبرية على صورة تجربة أيوب المؤثرة. أما الأناشيد البابلية الدينية في نهاية الألف الثاني ق.م فتورد القصيدة التالية التي تمجد الإله مردوخ المسير الأول لأقدار البشر:

أريد أن أعظم سيد الحكمة.
إنه مردوخ الذي يزيح الليل وينشر النور.
إنه الإعصار الجامح الذي لا يفلت شيء من غضبه.
إنه النفَس الكريم كأنه نسيم الصباح.
... لقد هجرني الله...
فرأسي الآن على الأرض بعد أن كانت شامخة.
وأنا الآن ذليل خائف بعد أن كنت أختال كالسيد.
... لقد هجرني أصحابي القدامى.
وأسرتي تعاملني وكأني غريب عنها.
وأنا أمضي أيامي منتحباً، كالحمامة.
والدموع تحرق وجنتيّ.
ومع هذا أجد الحكمة في الصلاة.
وأما شريعتي فهي التضحية.
وهكذا كنت أظن أني أخدم الله.
ولكن المشيئة الإلهية البعيدة الغور من يستطيع فهمها؟
من أين يمكن للناس أن يتلمسوا طريق الله؟
مَنْ غير الإله مردوخ يكون سيد البعث؟
وأنتم يامن جبلكم مردوخ من الطين.
غنوا لمجد مردوخ.
في سجودي وصلواتي.
عدت من قبري عند إشراقة الفجر.

وعلى (باب الخلاص) وجدت نجاتي.
وعلى (باب الحياة) تلقيت هبة الحياة.
وعلى (باب الشمس المشرقة).
بُعثت ثانية في عداد الأحياء.

وهناك نموذج مشابه ورد في نصوص رأس شمرا يتناول حكاية (دانيال) الحكيم الصالح الذي عاقبه الله ثم عاد إلى الأرض لينجب أطفالاً من زوجته. وقد عرفه الاسرائيليون لأن حزقيال يستشهد به ويضعه في صف نوح وأيوب في عداد الصالحين والشفعاء.

وقل الشيء نفسه فيما يخص مصر التي عرفت كذلك التوجه صوب الوحدانية والحس الخلقي الوجداني. إن نشيد الشمس لأخناتون ــ حيث يعبد الله بمعزل عن أية صورة مجسدة على أنه الخالق الوحيد للعالم والطبيعة والتاريخ وعلى أنه الإله الواحد الأحد ــ إن هذا النشيد يعبر عن وحدانية حقيقية. نعم إن الإسهام المصري في ولادة مبدأ التوحيد واضح لاشك فيه؛ بل إنه قد بدأ قبل أخناتون في القرن الثالث عشر ق.م؛ ولقد ورد في المزمور رقم ١٠٤ من التوراة نسخ حرفي لنشيد الشمس. وأنت تجد منذ ثلاثة وثلاثين قرناً في (كتاب الأبواب) المصري وفي نشيد (الرياح الأربع) وفي النصوص المحفورة والمرسومة على مدافن وادي الملوك وعلى قبر سيتي الأول بنحو خاص أن اسم الله يرد في المحاورات الجارية بين كهنة أوزيريس وتلاميذهم في حفلات إعدادهم في معبد أبيدوس.

وفي نشيد (الرياح الأربع) يعبَّر عن اسم الله بكتابة هيروغليفية قوامها رسوم تمثل الريش والطير تقابل في الترجمة الأحرف الصوتية لكلمة (ي هـ و ه). أما الحرف الأخير من اسم الإله فقد رمز إليه بمروحتين متقابلتين من الريش للتعبير عن شهيق وزفير هذا الإله الحي المحرم اسمه، لأن تسميته تجعل منه (شيئاً) كسائر الأشياء التي يتم تعريفها بمدلول أو بكلمة. فالله إذن ليس (كائناً) بل هو (فعل)؛ إنه حضور خلاق، وأصل كل وجود، وهو لا يمكن اختصاره بصفة واحدة من هذه الصفات.

إن هذا النضج الطويل لمفهوم التوحيد وظهور هذا البعد الجديد لدى الإنسان، بعد التجاوز والتسامي إلى المطلق... من بلاد مابين النهرين إلى مصر مروراً بكل الهلال الخصيب قد جرى تجميعه على يد المأثورات الكهنوتية العبرية... ثم راح الكهنة بعد ذلك يعيدون كتابة التاريخ بروح عرقية متعصبة ضيقة. هاهو ذا سفر الاشتراع يكرر بإلحاح أن أورشليم هو المكان الذي اختاره الرب ليضع فيه اسمه؛ ويحدد يشوع هذا المكان على جبل (عيبال)؛ وأما أرميا فيحدده في (شيلو).

ويمكننا أن نقيم موازنة حرفية بين (نشيد الشمس) لأخناتون وبين المزمور ١٠٤ في التوراة العبرية والنصوص التوراتية الكنعانية. والحق أن نشيد هذا المصلح الديني) أخناتون لا يعير أهمية لجانب أساسي، نعني به جانب العدالة الاجتماعية؛ ولكن منذ سفر الاشتراع وظهور كبار أنبياء اسرائيل بدءاً بـ (عاموس) تم التأكيد على العدالة الاجتماعية؛ وهذا هو الإسهام الاسرائيلي ذو الأهمية الواضحة؛ فإذا لم يكن الاسرائيليون هم الذين ابتكروا التوحيد الذي كان ينضج منذ قرون في كل الشرق الأدنى فقد جعلوا من توحيدهم الآخذ في الولادة دافعاً إلى حركة تحرر اجتماعي. ولم يقدر لهذا التوحيد لديهم أن ينتصر على نحو نهائي إلا في منتصف القرن السادس أيام أشعيا الثاني.

إن معالم تعدد الآلهة عند العبريين جلية لا شك فيها في المأثورات الشفوية التي نسخت بدءاً من القرن التاسع؛ فسفر يشوع يقول بصراحة: «كان آباؤكم يعبدون آلهة أخرى». ويورد الأب ديفو في هذا الصدد براهين استقاها من التوراة نفسها: «إذا كان تعبير (الموحِّد) يعني التبشير بإله واحد فموسى لا يمكن أن يعد موحداً إذ لا دليل على أنه قد اعتنق عقيدة بإله واحد أحد. ونحن نملك كثيراً من الأدلة القاطعة على أن التسليم بإله واحد لم يكن في صلب الديانة اليَهَوِيّة الأولى. هاهو ذا النشيد الخامس من سفر الخروج يقول: «مَنْ مثلك من بين الآلهة يايهوه؟». وبعد أن سمع (يثرون) حمو النبي موسى بحكاية النجاة من مصر صرخ وهو يتأهب لتقديم القربان إلى يهوه: «أنا أعلم الآن أن يهوه هو أعظم من كل الآلهة». أما الوصية الأولى من الوصايا العشر فلا تنفي وجود آلهة أخرى بل ــ على العكس ــ تفترض وجودها وتحرم عبادتها. ويمكن

أن نتلمس في سفر القضاة الإشارة إلى وجود آلهة أخرى: «ألا تملك ما وهبك إياه إلهك كاموش؟». وإليك ما يقوله الاسرائيليون لأهل مؤاب الذين يسمّون (شعب كاموش) في سفر العدد: «وجميع الذين طردهم الرب إلهنا من أمامنا فإياهم نمتلك». وهذا هو داوود يؤنب حاشية شاؤول على سلوكهم لأنهم يقولون له: «اذهب واعبد آلهة غريبة».

إن عبادة آلهة أخرى لها رواسبها المتأصلة لدى هذا الشعب؛ وعلى الرغم من تحريمها على أنها رجس من الأرجاس قام (منسّى) ملك يهودا (٦٨٧ ـــ ٦٤٢ ق.م) ببناء مذابح لبعل كما فعل قبله (أخاب) ملك اسرائيل (٨٧٥ ـــ ٨٥٣ ق.م) بعد أن تزوج بينت ملك الصيدونيين وأقام المذابح لبعل وسجد له.

ويقابل ذلك أن الجديد الذي أسهم به العبريون هو إبرازهم في مسار تاريخهم، الحقيقي منه والأسطوري، مرحلة التحرر من البؤس والاضطهاد، إنها مرحلة الخروج من مصر. وهناك مقدمة للوصايا العشر تقول: «أنا الله إلهك الذي أخرجك من بلاد مصر، بلاد العبودية»؛ فالتحرر والنجاة من مصر هما الرمز الصريح للخلاص.

إن عيد الفصح لدى الكنعانيين هو عيد الربيع وتجدد الطبيعة؛ وهو لدى الاسرائيليين إحياء لذكرى ذلك الحدث الذي يعدونه المرحلة الحاسمة في تاريخهم؛ إنه حادث الخروج من مصر، أي التحرر من البؤس والعبودية.

ويؤكد على مرحلة التحرر هذا المقطع الرئيسي في (الصلاة) الأولى الذي يلخص عقيدة الاسرائيليين والذي يرد في صيغة تاريخ مقدس فكل حلقة منه مقالة في الإيمان. يقول هذا المقطع: «قد أساء المصريون معاملتنا وأفقرونا وفرضوا علينا عبودية طويلة. حينئذ استنجدنا بالرب إله آبائنا فسمع الرب صوتنا ورأى أننا كنا فقراء تعساء مسحوقين. لقد أخرجنا الرب من مصر... بيده القوية... بجبروته وآيات معجزاته». إن مثل هذا الإلحاح لا يمكن أن يفسَّر إلا بتجربة تاريخية حاسمة في حياة الاسرائيليين... ولكن هذا التاريخ يبدو وكأنه لغز حقيقي. ولا شك في أن قراءة التوراة تقدم لنا ملحمة خارقة قد تكون تاريخاً لاسرائيل.

وهذا التاريخ سيبدأ بتاريخ العالم منذ خلق السماوات والأرض حتى ظهور أول إنسان ... ثم يتم القضاء على هذا الإنجاز عقاباً للناس على أخطائهم فيكون الطوفان الذي لا ينجو منه إلا نوح الذي سيعيد عمران الأرض. أما ابراهيم، أحد أحفاد نوح، فسيعطي بسلوكه المثالي للتاريخ اللاحق معناه، وسيصبح أساس (التاريخ المقدس) بفضل ولده اسحق الذي نجاه الله مكافأة لوالده على امتثاله المطلق لمشيئة الله، وبفضل حفيده يعقوب الذي سمي اسرائيل فيما بعد والذي سيرزق اثني عشر ولداً هم أسباط قبائل اسرائيل.

ثم يعقد عهد بين اسرائيل والله تطيع بموجبه اسرائيل القانون الإلهي، والله يعطيهم أرض كنعان. وقد تحقق هذا الوعد المعطى (للآباء) بعد مغامرات وذنوب عديدة وبعد العقاب الذي أنزله الله بهم. وبعد تشرد طويل من بلاد ما بين النهرين إلى مصر وبعد خضوعهم لعبودية طويلة تحت نير الفراعنة انتزع الله (شعبه) من مصر منجياً إياه منها واهباً هذا الشعب قائده (موسى) الذي أملى عليه الله شريعته التي ستلتزم اسرائيل التقيد بها لتصبح شعبَ الله المخلص. ثم تتوحد القبائل الاثنتا عشرة بزعامة يشوع لتقوم بحرب صاعقة تستولي فيها على أرض كنعان إذ طرد الله أمامهم الكنعانيين المحتلين وأجهز على السكان على يد جيش يشوع.

وبعد انتفاضات عديدة أخمدها (القضاة) رؤساء القبائل أصبحت السيطرة على البلد ميسرة بفضل داوود وابنه سليمان؛ وهكذا في ظل هذه المرحلة الرائعة بدأ تاريخ اسرائيل يدوَّن وكأنه لوحة متماسكة بعد أن مضى عليه زمان طويل وهو ينقل مهوَّشاً عبر الروايات الشفوية. إن هذا الجمع الأول الذي تحقق على يد المفسرين المعروفين باليهويين في القرن العاشر ق.م سيعقبه في منتصف القرن الثامن صنيع جماعة الإيلوهيين، وهم فريق ثان من جامعي المأثورات الشفوية. وهاهنا سنلحظ نوعاً من التخفيف في تلك النظرة إلى الألوهية المتجسدة على صورة الإنسان، هذه النظرة التي كانت سائدة فيما سبق.

وهكذا بين عامي ٧١٦ــ٦٨٧ ق.م تحقق نوع من التركيب والتأليف بين

سفر الاشتراع الذي يؤكد على قضية (العهد) أي على قضية (شعب الله المختار) وبين كل ما ينجم عن الالتزام بهذا العهد... وأخيراً تأتي مرحلة الأصول الكهنوتية التي يعود تاريخها إلى السبي البابلي في القرن السادس ق.م؛ وقد وصفت هذه الأصول بهذا الوصف بسبب تشددها على التقيد الصارم بالطقوس. ونحن نملك فيما يخص مرحلة تمركز العبريين في أرض كنعان النصوص التوراتية التالية: سفر الاشتراع وسفر يشوع وسفر القضاة وسفر صموئيل وسفر الملوك التي نصل معها إلى عام ٥٨٧ ق.م وهو تاريخ سقوط أورشليم في يد البابليين. والمعضلة التاريخية الأساسية أنه ليس هناك أية معطيات أثرية أو وثائقية توافق النص التوراتي وتسمح لنا بالوصول إلى يقين تاريخي.

إن مؤرخاً مهتماً بإنقاذ (تاريخية) التوراة كالأب ديفو يقر ــ شأنه شأن سائر المؤرخين ــ بأنه «لا وجود في أي مكان لأية إشارة صريحة إلى (الآباء) العبريين أو إلى إقامتهم في مصر أو خروجهم منها... ولا إلى احتلال أرض كنعان؛ ومن المشكوك فيه أن تكتشَف نصوص جديدة تنقض ماذهبنا إليه». لقد ظهر اسم اسرائيل مرة واحدة أول ما ظهر في كتابة على إحدى المسلات التي تمجد انتصارات الفرعون مرنفتاح نحو عام ١٢٢٥ ق.م؛ وفي أثناء تعداد هذه الانتصارات ورد أن فرعون حينما استولى على المدن الفلسطينية قام بهدم اسرائيل أيضاً: «لقد محقت اسرائيل ولم يعد لبذرتها وجود». وبعد هذا لم تذكر اسرائيل لا على المسلات ولا في النصوص الأدبية المصرية.

وإليك مثالاً ذا دلالة أكبر على ما نقول: إن داوود نفسه الذي يعد قمة سلطة اسرائيل لم يرد اسمه ولا تاريخه في أي مصدر خارج التوراة؛ فلا نصوص ولا كتابات ولا معالم أثرية. أما موت سليمان «فهو أول حدث في تاريخ اسرائيل يمكن تأريخه» كما يقول (نوث) في كتابه (تاريخ اسرائيل)؛ فنحن يمكننا أن نقيم علاقة تاريخية زمنية لهذا الحدث بتاريخ الامبراطورية الآشورية الجديدة؛ فتاريخها موثوق به ومحدد على وجه اليقين بوساطة الحسابات الفلكية. وهذا مثال نموذجي مستمد من حكاية (الخروج): فهناك تقارير صادرة عن ضباط حرس الحدود فيما بين مصر وكنعان في الحقبة التي يدعي العبريون أنهم خرجوا فيها من مصر نحو ١٢٢٠ ــ ١٢٠٠ ق.م. إن أهون انتقال لموظف أو فصيلة عسكرية أو قبيلة من الرعاة في انتجاعها الكلأ قد أشير إليه في

هذه التقارير ... نعم ليس هناك آدنى إشارة إلى عبور العبريين الذي يورده سفر الخروج القائل بعبور عدة جيوش وبأن كتيبة من العربات المصرية قد ابتلعها البحر وبأن الرب «أغرق فرعون وجيوشه في البحر». ألا ماأغرب سكوت المصريين عن أحداثٍ على هذا الجانب من الخطر والأهمية... والظاهر أن هذا (الحدث) لم يلفت أنظار المصريين البتة!

إن كل ما يمكن لعلم الآثار أن يفعله هو أن يكشف بين الحين والحين عن القرائن التي تشير إلى مضامين هذه الروايات الملحمية... كالهجرات العمورية الموافقة لمرحلة (الآباء) كما يزعمون وكآثار تهديم (حزور) في الحقبة التي يفترض أنها موافقة لتمركز العبريين في فلسطين. والشيء نفسه يمكن أن يقال عن الإلياذة فالتحريات الأثرية قد أثبتت وجود طروادة كما أكدت هدمها؛ وقل الشي نفسه عن الوجود التاريخي الحقيقي لممالك الميسينيين.

وهكذا يبرهن كل ما سبق عن أن المأثورات الشفوية والأساطير تقوم بوجه عام على أساس تاريخي فعلي؛ ويصح هذا على التوراة كذلك. وفي الأغلب يجيء علم الآثار فيكذب الادعاءات المتبجحة؛ وقد سبق أن رأينا ــ مثلاً ــ أن آريحا وعاي لم يكن لهما وجود حينما ادعى يشوع أنه هو الذي هدم أسوارهما كما ورد في سفر يشوع.

زد على هذا أنه لا وجود لأية آثار تثبت ولادة عصر جديد للحضارة في فلسطين بوصول العبريين إليها. وقد قررت (كاتلين كينيون) وهي تحصي ما عثرت عليه من حفرياتها الأثرية ما يلي: «إن إحدى الصعوبات الرئيسية في تحديد توقيت دقيق لدخول الاسرائيليين إلى فلسطين هي عدم وجود أية إشارة أثرية تسمح لنا بالقول بأن هناك برهاناً مادياً عن وصول شعب جديد». ثم تستنتج الكاتبة قائلة: «لا بد من التسليم بأن المجموعات الاسرائيلية التي كانت تصل إلى فلسطين هي من البدو الرحل... ولقد اقتبسوا لدى تمركزهم كل ما لدى سابقيهم في هذه الأرض من أدوات ووسائل... إن الثقافة الفلسطينية كانت في جوهرها كنعانية».

٢

العبريون

١ ـــ أول ظهور تاريخي للعبريين

ترى كيف تم تمركز العبريين في فلسطين والتاريخ في أغلب الظن لا يقول لنا شيئاً عن ماضيهم قبل وصولهم إليها؟ إن المفسرين وعلماء الآثار الذين يدمغون المرويات الشفوية بالتزوير يتفقون على صحة الرأي القائل: «إن الاستقرار السلمي في المناطق القليلة السكان والانتقال من نمط الحياة شبه الرعوي إلى نمط الحياة الزراعية قد تمّ دون أحداث كبيرة مذهلة ودون أن يترك آثاراً عميقة» كما يقول الأب ديفو.

ويؤكد الأب ديفو على «أن (الشعب الاسرائيلي) لم يتكون كما يرى أي مؤرخ معاصر إلا **بعد** استقراره في أرض كنعان». أما المؤرخ (نوث) في كتابه (تاريخ اسرائيل) فيصل إلى النتيجة نفسها إذ يقول: «إن اتحاد اثنتي عشرة قبيلة في اسرائيل... لا يبدو ظاهرة ذات أثر إلا بعد أن احتلت هذه القبائل الأرض ذات الثقافة الفلسطينية... أما تاريخها فلم يبدأ إلا على أرض فلسطين».

إن ماثبت لدينا حتى الآن يتيح لنا أن نستنتج أنه كان لكل قبيلة تاريخها الخاص بها قبل أن تشكل اتحاداً متيناً دائماً في البلاد سمي باسم (اسرائيل). ويتابع (نوث) قوله: «**بعد** تمركز الاسرائيليين في فلسطين تبلورت الفكرة القائلة بأن اسرائيل كان لها تاريخ مشترك قبل تمركزها في فلسطين»؛ فما هو إذن هذا (التاريخ) السابق

الذي عاشته القبائل؟ وكيف تم تشكل وحدته التاريخية؟ نحن نملك للإجابة على هذا السؤال معالم نهتدي بها من التوراة والتاريخ. أول هذه المعالم أن العبريين هم موجة من موجات الهجرة الآرامية الكبرى؛ ثم إن بعض الآراميين لم يجدوا أرضاً لهم طوال مدة مديدة في تلك الساحة التي انداحت فيها موجتهم أي فيما بين النهرين وسورية ومصر وفلسطين. وهناك آثار تدل على هؤلاء (الهامشيين) الذين لا أرض لهم والذين يؤجرون أنفسهم لأي عمل... وهم يشكلون أحياناً كتائب مسلحة مرتزقة لخدمة الأمراء أو يؤلفون عصابات تقطع الطرق وتنشر الرعب في قلوب الضعفاء. إنهم الـ (عبيرو)... وهي كلمة من جذر واحد لكلمة (عبري) كما يتفق على ذلك معظم المفسرين والمؤرخين. وقد ورد ذكرهم في ألواح (ماري) وفي بلاد ما بين النهرين: «لقد غزا الـ(عبيرو) مدينة (لحيقة). وفي مصر يتكلم رمسيس الثاني ١٣٠١ ــ ١٢٣٤ ق.م عن دور الـ (عبيرو) في الأشغال الشاقة فيشير إلى «أنه يمون الجنود والعبيرو الذين نقلوا الحجارة لبناء بوابة الهيكل». وقد ورد في رسائل تل العمارنة أن هناك أميراً فلسطينياً مهدداً يشكو إلى فرعون قائلاً: «فليعلم الملك بأن زعيم العبيرو قد شق عصا الطاعة في البلاد». وهناك نص آخر يقول: «إن الملك قد عقد اتفاقاً مع العبيرو لتشغيلهم في جيشه. وفي (نوزي) شمالي دجلة عثر على نصوص تشير إلى (العبيرو) الذين يتلقون الطعام واللباس من الدولة وإلى آخرين يقدمون الخدمات إلى بعض الوجهاء. وفي نصوص تل العمارنة يشار إلى (العبيرو) على أنهم مرتزقة أو متمردون. وهناك أمر ملكي من الملك الحثي حاتوشيل الثالث يعلن فيه أنه لن يستقبل (العبيرو) الهاربين من مملكة أوغاريت. وفي نصوص رأس شمرا يرد ذكر (العبيرو) على أنهم جماعة يمارسون الأعمال المشار إليها سابقاً كما يرى الأب ديفو.

وقد جرى نقاش عنيف فيما بين الأخصائيين حول مدلول كلمة (العبيرو)؛ أهي تشير إلى عرق بشري أم إلى طبقة اجتماعية؟ ويبدو أن هذا التساؤل لا جدوى منه فالعبيرو يرجعون دون أدنى شك إلى أصول ساميّة لا تنفك تجوب أطراف الهلال الخصيب بدءاً بالعموريين وانتهاءً بالآراميين؛ ولكنهم ينتمون إلى تلك الشريحة الاجتماعية التي لم تجد أرضاً لها فاضطرت إلى عرض خدماتها المأجورة في المجالات الزراعية لدى

الخاصة وفي الأشغال الشاقة للدولة وفي الفرق المسلحة المرتزقة لدى الأمراء؛ وإذا لم يجدوا ما يعملون فيه لجؤوا إلى تأليف عصابات للسطو والنهب.

ويبدو أن أكثر الذين خضعوا للاستغلال هم أولئك الذين يعملون في الأشغال الشاقة لدى رمسيس الثاني في مصر. لقد كانوا متمردين أو هاربين ينتمون إلى مجموعات تعبر من مصر إلى أرض كنعان وكأنهم نواة تمرد أعم وأشمل فاجتذبوا إلى صفوفهم بعض العصاة والخارجين على القانون من كل جنس ولون. ولقد وجدت هذه الحثالة المتمردة أو هذه الثورة الغوغائية أو هذه (الحرب الفلاحية) أرضاً لها تلائمها في فلسطين في الوقت الذي كانت مصر فيه قد فقدت رقابتها عليها وفي الوقت الذي كان الحثيون المنشغلون بالتصدي (لشعوب البحر) عاجزين عن مدّ نفوذهم إلى فلسطين، وفي الوقت الذي كانت مشاحنات الأمراء قد أوصلت البلاد إلى الفوضى والعجز.

ولم يستطع (العبيرو) القادمون من كل أرجاء الهلال الخصيب السيطرة على المدن الكبرى ذات الأسوار المنيعة المحروسة بالعربات المعدنية. ورد في سفر يشوع قوله: «إنه لم يكن من المستطاع طرد سكان السهول لأنهم كانوا يمتكلون عربات من حديد». ويقول سفر القضاة: «إنهم لم يستطيعوا الاستيلاء على (مجدو) ولا على (يزراعيل) ولا على (صيدون) ولا على مدن أخرى عديدة». أما أورشليم فلم يتم فتحها إلا بعد قرنين في عهد داوود. وفي سفر القضاة أن سكان أورشليم اليبوسيين قد سكنوها مع أبناء بنيامين وأن الملك داوود نفسه لم يطرد اليبوسيين منها حينما احتلها. ولكن (العبيرو) أو (العبريين) توصلوا بالتسلل إلى المدن ولاسيما الجبلية منها أو بإقامة تسويات صلحية مع مدن أخرى، إلى احتلال بعض المدن كمدينة (حزور) عن طريق القتال المسلح فلقد كان من بينهم جنود مرتزقة قد تمرسوا بالقتال. أما الكنعانيون فلم تجر إبادتهم كما يزعم سفر يشوع؛ بل إن سفر القضاة ــ على العكس ــ يؤكد أن الكنعانيين قد ظلوا يسكنون البلاد؛ ولكن حينما قويت شوكة الاسرائيليين فرضوا أعمال السخرة على الكنعانيين.

ولقد دام هذا التسرب البطيء إلى البلاد مدة طويلة لعلها استمرت قرناً أو قرنين؛ ومما يثبت صحة هذه الفرضية القائلة بأن سيطرتهم على فلسطين كانت بفعل

تجمعهم البطيء المتسلسل... أنه لم ترد أية إشارة هامة إليهم في أي نص من النصوص بعد استقرارهم في فلسطين. ويرجح (مند نهل) الفكرة القائلة بحدوث ثورة فلاحية على المدن الكنعانية. ولعل من الضروري أن نشير إلى أن حركتهم كانت حركة (حرب) فلاحين لا أرض لهم أو شبه بداة هائمين في الهلال الخصيب طلباً للعيش؛ وربما كانت هناك ضرورة إلى الاعتراف بوجود عدة عوامل خارجية: كأن يكون هناك مجموعات من الأسرى الوافدين من مصر، أضف إليهم جماعة من الذين لا أرض لهم قدمت من كل أنحاء الهلال الخصيب.

وإذا أردنا الصراحة والوضوح أمكننا القول بأن الموضوع موضوع ثورة اجتماعية أكثر مما هو موضوع اجتياح عسكري... وكما حدث بعد ثمانية وعشرين قرناً في (حرب الفلاحين) في ألمانيا بزعامة (توماس مونزر) يمكن القول بأن أساس التلاحم والتماسك لتلك الجماعات كان في هذه الرؤية الدينية الخلاصية لدى (معذبي الأرض) هؤلاء، هذه النظرة التي نجم عنها التعارض بين إله القبائل، إله الصحراء ذي الطقوس الزراعية التي يمارسها المعدمون وبين الديانة الأرستقراطية للمدن الممتلئة حيث السيادة لبعل إله الوفرة والغزارة والحيوية.

إن (العبيرو) أو العبريين وغيرهم من مختلف الشعوب التي تحالفت معهم هم من البداة الجفاة القادمين من الصحراء والبوادي؛ وهم لم ينتفضوا في وجه اضطهاد الأغنياء فحسب وإنما في وجه أسلوبهم في الحياة ونظرتهم إليها.

ونحن لا نملك المواد الضرورية اللازمة لنصف مراحل ديانة العبريين في تسلسلها الزمني لأن تجميع المأثورات الشفوية وتدوينها لم يتم إلا في القرن العاشر ق.م إذ جرى آنذاك صياغة وترتيب هذه العقيدة وفق نظام وأسس اقتضتها الحاجات السياسية والروحية لهذه المرحلة. إلا أن الإسهام الرئيسي للديانة الاسرائيلية كان في تغليب النزعة الخلاصية والنظرة الميتافيزيكية ومفهوم ملكوت الله والخلاص التي سيتخذ ظهورها أشكالاً جديدة وعديدة لدى الأنبياء بدءاً بـ (عاموس) وانتهاءاً بالمسيح. لقد تأصلت هذه العقيدة وتجذرت عبر هذه التجربة من المقاومة والتحرر وتمرد (العبيرو) كما يشهد

بذلك واقعة انتزاعهم من مصر؛ ويهوه نفسه يقول في سفر الخروج مخاطباً موسى: «أنا يهوه الذي أخرجتك من مصر»؛ ويذكّر يهوه كذلك بأن (الآباء) لم يعرفوه بهذا الاسم، فاسمه لم يظهر إلا مع عملية تحريرهم بإخراجهم من مصر. وهكذا راح (التاريخ المقدس) لاسرائيل منذ الآن ينتظم بدءاً من الصفة الأساسية ليهوه: إنه ذاك الذي أنكر سلطة فرعون وخلص العبيد من عبوديتهم؛ فالعبادة إذن له وحده. جاء في سفر الخروج: «إن من يقدم الأضاحي لآلهة غير يهوه سيحيق به الدمار». تلك هي صرامة إله الصحراء، الإله المحرر.

أما التجربة الجوهرية التي مرت بها قبيلة يوسف التي ستنمو وتتفرع إلى قبيلتيْ أفرايم ومنسّى والتي شهدت خروج العبريين من مصر... فتنسجم مع سائر تجارب القبائل الأخرى الوافدة من البوادي المحاطة بالأراضي الزراعية؛ ولكن تجربة قبيلة يوسف نموذج مثالي للتحرير، ولهذا كان الإله الذي قادها هو يهوه الذي سيفرض نفسه على كل القبائل الأخرى.

إن هذه القطيعة مع سائر القبائل وتبني قبيلة يوسف — باسم الوحي الإلهي — في عملية تسخير التاريخ لواقعة الخلاص... ستكون (وثيقة إيمان) أساسية لكل القبائل. وهذا ما يفسر دون شك مغزى مجمع (شكيم) الذي ورد ذكره في سفر يشوع حيث ستتحقق أول عملية توحيد للقبائل بعد أن ذكّر يشوع بالصنيع العظيم ليهوه؛ فالتحرر من مصر (بيت العبودية) يطرح على كل القبائل، ومنها تلك التي لم تعش تجربة الخروج الحاسمة، السؤال الجوهري الحاسم: «عليك الآن أن تختار سيدك الذي تخدمه. أتختار يهوه إله الخروج أم آلهة كنعان؟».

وبعد أن اختارت القبائل كلها جانب يهوه عقد يشوع عهداً مع الشعب في ذلك اليوم يفرض فيه عليه قوانينه وتقاليده الدينية. إنها القوانين والتقاليد نفسها التي كان موسى قد فرضها على شعبه في الصحراء وحرّم فيها عبادة أي إله آخر غير يهوه. ومهما يكن نصيب هذا العهد من الصحة التاريخية وما جرى عليه لاحقاً من بلورة حينما أصبحت المأثورات الشفوية مدونة بعد عدة قرون فيجب أن لا ننسى (العهد) الأولي

الذي توحدت القبائل بموجبه حول عبادة إله مشترك، عبادة يهوه. ومهما يكن من أمر المخالفات اللاحقة لشريعة هذه العبادة (وما أكثرها) فإن العقيدة المطلوبة من الجميع هي الإيمان بيهوه، الإله الذي «أخرج شعبه من مصر».

تلك هي (الوثيقة المطلوبة) التي عملت على تكوين اسرائيل. يقول (فون راد): «لقد أظهر البحث التاريخي أن (اسرائيل) هي اسم لاتحاد ديني للقبائل تم في فلسطين بعد دخولها إلى هذا البلد».

٢ ــ من الحلف الديني إلى حكم الملوك

وهكذا تشكلت حول هذه النواة عبر النصوص التي دونت في القرن العاشر ق.م خلاصة عقائدية ترى في التاريخ أملاً لها؛ وهذا التاريخ يستمد معناه من المشيئة الإلهية.

وقبل أن تتشكل وتدون هذه اللوحة الشاملة كانت هناك تجارب تاريخية جديدة تنمو وتتطور فيما بين فترة استيلاء العبريين على السلطة واتحاد القبائل وبين إقامة دولة الملوك.

إن عدد القبائل المحدد باثنتي عشرة قبيلة لا يمت إلى الحقيقة التاريخية بصلة. إن هذا العدد كان يتضمن حينذاك فكرة (الكمال)؛ فهناك اثنتا عشرة قبيلة (سبطاً) لاسرائيل، ومثلها لأبناء اسماعيل، ومثلها- اثنتا عشرة قبيلة آرامية، ومثلها للأدوميين. وقائمة الاثنتي عشرة قبيلة أو سبطاً لاسرائيل تتغير ولكن العدد (١٢) يبقى على حاله؛ فحينما ألغيت قبيلة اللاويين جرى ترميم النقص بمضاعفة قبيلة يوسف فأصبحت قبيلتيْ أفرايم ومنسّى، بينما حلت قبيلة (جاد) محل (لاوي) في سفر العدد.

والذي يهمنا هاهنا هو بنية هذا الحلف الديني الذي يوازنه (نوث) بما كان لدى اليونان من مجلس مندوبي المدن، هذا الحلف الذي يجتمع على عبادة مشتركة. إن

التطورات والمعارك التي رافقت تمركز الاسرائيليين في فلسطين قادت القبائل إلى تمتين روابطها الداخلية بغية الدفاع عن نفسها أو احتلال الأرض.

في أول الأمر كان هناك تحالفات موقتة وجزئية تحت إمرة الرؤساء الذين تدعوهم التوراة (القضاة). ولهذه الكلمة مدلول خاص؛ فالقضاة في التوراة لا يمارسون إلا مهمات قضائية، بينما كان القضاة في واقع الحال قادة سياسيين وزعماء حربيين. ولكن إطلاق صفة (القضاة) عليهم يدل على أن الشريعة والقانون الإلهي والامتثال لهما هي العامل الجوهري في التضامن بين القبائل؛ فالدور الرئيسي للزعيم هو إذن السهر على الالتزام بهذا القانون والخضوع له. وحينما كانت الأخطار تكبر والحرب تستفحل كانوا يتوجهون إلى جعل هذه السلطة دائمة بل وراثية. وقد رفض جدعون تاج الملكية الذي عرض عليه قائلاً: من الواجب أن لا يحكم أحد اسرائيل سوى يهوه. يقابل ذلك أن (أبيمالك) في مجمع (شكيم) يتآمر لينصَّب ملكاً على غرار الملوك الكنعانيين القدامى.

وفي مواجهة المخاطر، ولاسيما تهديد الفلستيين المتزايد وهم أسياد المنطقة الساحلية الغنية المنتصرون على مملكة الحثيين، فرضت وحدة الحكم الملكي نفسها على يد شاؤول مترددة أول الأمر لتنتصر في النهاية في حكم الملك داوود نحو عام ١٠٠٠ ق.م.

كان ذلك منعطفاً رئيسياً؛ فالحلف الديني قد تحول إلى سلطة سياسية قاطعاً كل ما يربطه بتعاليم يهوه التي سبق لجدعون أن أشاد بها؛ وراحت هذه السلطة تقلد أنماط الحكم الملكي لدى الشعوب الأخرى من فراعنة وأمراء كنعانيين. وحينما استنفرت أحلاف القبائل قواتها كاملة — أول مرة — في وجه الفلستيين وغُلب جيشها وبعد أن استولى الفلستيون على (تابوت العهد) ذاق شعب اسرائيل مرارة البؤس والشقاء.

حينذاك ساد الاعتقاد بمجيء الرجل الذي أرسلته العناية الإلهية: لقد حلت روح الله على شاؤول الذي بدا أنه المنقذ بعد انتصاره على العمونيين. وفي داخل المعبد

القديم في جلجال أي أمام يهوه قام الشعب كله فأعلن شاؤول ملكاً ... وهاهنا لم يكن الحلف الديني هو الذي قام بالانتخاب كما كانت الحال أيام (القضاة) وإنما (الشعب) هو الذي انتخب شاؤول. وهكذا بدأ الانتقال من السلطة الدينية إلى السلطة السياسية؛ ويبدو أن مدون هذه الروايات قد أزعجه أن تصبح (اسرائيل) قوة سياسية بعد أن كانت ذات رسالة دينية تستوحي تعاليم التوراة. ولكي يتغلب المعارضون على رفض جدعون لتاج الملكية ــ وهو رفض تكرر من قبل المعارضين في مجمع جلجال المتشككين في هذا التجديد الذي وصفه صموئيل الأول بأنه فساد وشر ــ أكد نص التوراة على أن المبادرة هي من الله الذي أوحى إلى صموئيل أن يتوج شاؤول باسم الدين. ولكن (المغامرة) انتهت إلى مأساة؛ فلقد انتحر شاؤول بعد انهزامه المريع أمام الفلستيين؛ ولم يدم ملكه إلا عامين على الأرجح... حينذاك بدأ الصعود الصاعق لداوود الذي سيجعل من اسرائيل قوة سياسية.

لم يكن داوود في أول أمره إلا حارساً مرافقاً لشاؤول؛ وقد أبعده هذا لأنه حسده على نجاحه في محاربة الفلستيين، بل إنه حاول قتله فهرب داوود إلى الجبال الواقعة جنوبي الضفة الغربية حيث ألف مثل (العبيرو) القدامى عصابة مسلحة تعيش على الغزو. وقد انتقل داوود مع مرتزقته إلى صف الفلستيين الذين كانوا في حرب طاحنة في وجه اسرائيل... ثم ضاعف داوود ورجاله عدد سطواته خدمة للملك الفلستي أخيش. جاء في سفر صموئيل الأول: «كان داوود يذبح السكان ولا يوفر امرأة أو رجلاً ويسرق الثياب والماشية من حمير وإبل». ولم يكن الموضوع هاهنا موضوع (إبادة مقدسة) منذورة لإرضاء يهوه كما كان الأمر في عهد يشوع، ولكنها مجموعة عمليات في السلب والنهب بالقوة ليست من الدين في شيء ستمهد لإضفاء الطابع الدنيوي والسياسي على مملكة داوود التي ستقوم لا على القوات المختارة من القبائل وإنما على جنوده المحترفين المنتمين إلى كل جنس ولون والذين دللوا على فعالية رهيبة.

وما انفك داوود يقيم علاقات بينه وبين قبائل الجنوب من زمرة يهودا؛ ولهذا ــ على الرغم من أن داوود كان على استعداد لقتال اسرائيل ــ لم يكن الأمراء الفلستيون يريدون المجازفة بدعمه... فقد يخونهم في المعركة. ومنذ أن علم داوود بموت شاؤول توجه

بعد انقضاء مدة الحداد مع مرتزقته إلى (حبرون) المركز الديني التقليدي لقبائل الجنوب. ولما كان متزوجاً بنت شاؤول (ميكال) فهو صهر الملك الراحل؛ وهذا ما يدعم شرعية خلافته له. جاء في سفر صموئيل الثاني: «قدم رجال يهودا ومسحوا بالزيت على رأس داوود ملكاً على بيت يهودا».

ويشير (فون راد) إلى أن تسلم السلطة من قبل داوود قد تحقق دون أية صلة له بالتقاليد الخاصة بإسرائيل فيقول: «أصبح داوود ملكاً على اسرائيل هذه التي هي شعب يهوه المتجمع حول تابوت العهد. وبفضل نبوءة (ناثان) وحدها تمت عملية اندماج داوود في التقاليد الدينية لاسرائيل».

وحينذاك تدخل الفلستيون للمرة الأخيرة فتغلب عليهم داوود لا بجيوش قبائل اسرائيل وإنما بمرتزقته الأشداء... واستطاع داوود من الآن أن يبني دولته فاختار أول الأمر عاصمة لها أورشليم التي كانت قد تأسست في مطلع الألف الثاني ق.م ولم يسبق للاسرائيليين أن احتلوها. ودخل داوود بمرتزقته هذه المدينة الكنعانية القديمة التي كان يسكنها اليبوسيون. ولم تُلحق المدينة ــ التي كانت همزة وصل بين فئتين من القبائل ــ لا بإسرائيل ولا بيهودا. لقد أصبحت (مدينة داوود) واليبوسيون ما زالوا يسكنونها، ولكنها استقبلت الملك الجديد ببلاطه ومرتزقته. وقد انتزع داوود من المدينة الكنعانية (قرية يحاريم) تابوت العهد الذي استرده من الفلستيين ووضعه في أورشليم ليجعل من هذه المدينة ــ رمزياً ــ مركز تحالف الأسباط الاثني عشر بربطها بالتقاليد الدينية المقدسة. ثم أقام داوود مملكة متعددة الجنسيات؛ فالكنعانيون وجدوا لهم مكاناً بين دولتي يهودا واسرائيل، وخضع الفلستيون والمؤابيون لسلطانه ثم لحق بهم آراميو دمشق الذين كانوا يؤدون له الضريبة.

وهكذا تم تأسيس دولة تجاوزت بحدودها الدولة اليهودية فكانت مملكة فلسطينية ترتبط عناصرها المتعددة بشخص الملك وحده. ولقد سهلت الظروف الدولية مهمة داوود؛ فمصر كانت تمزقها الصراعات الداخلية، وبلاد ما بين النهرين يحكمها الكاشيون، والحثيون قد سحقهم اجتياح (شعوب البحر) فلم يستطع كل هؤلاء الوقوف في وجه امتداد مملكة داوود.

أما في الداخل فقد اضطر إلى أن يسحق محاولة ابنه أبشالوم الاستيلاء على السلطة؛ وقد أظهر مرتزقة داوود تفوقاً ملحوظاً على جيش أسباط اسرائيل التي جندها أبشالوم. وجلس داوود على عرشه الذي كان قد هدده ابنه فترة ما. وقد سحق داوود كذلك عصيان أسباط اسرائيل الذين كانوا ينادون قائلين: «لا صلة لنا بداوود... كلٌ إلى خيمته يااسرائيل!».

وكان على داوود أن ينظم مسألة خلافته... وكان قد اختطف (بَتْشبع) الحثية زوجة أحد ضباطه (أوريا) بعد قتله؛ وقد ولدت له هذه المحظية ولداً، وكان قد وعدها بتنصيب ابنها ملكاً فكان سليمان خليفته.

وفي عهد سليمان ٩٧٠ــ ٩٣٠ ق.م بدأ ما أنجزه أبوه من أعمال ينحل ويتفكك. وكان منذ توليه العرش قد أعدم (يوآب) أحد أبرز قادة أبيه العسكريين فهب الأمير الأدومي (حدَد) المنفي إلى مصر واستعاد سلطة مملكته، وقام رئيس عصابة آرامية ويدعى (رازون) فاستولى على دمشق. يقابل ذلك أن سليمان قام بتنظيم تجارة بحرية تدر عليه الربح الوافر وذلك في خليج العقبة بمساعدة البحارة الذين زوده بهم حيرام الفينيقي لقاء نصيب له من الأرباح. وقد استفاد من العائدات الأسطورية بما فيها الضرائب التي فرضها على أتباعه فمارس سياسة عمرانية باذخة مترفة ولاسيما في أورشليم وبنى داخل قصره معبداً أسطورياً يأتي سفر الملوك على وصفه مفصّلاً.

لم يكن لدّى القبائل الرحل تقاليد فن معماري فتلقوا الحضارة العمرانية من الكنعانيين؛ وهكذا قام الفينيقيون ببناء (المعبد) على نمط المعابد السورية ــ الفلسطينية في كنعان. كان سليمان يحلم بعظمة الفراعنة وترف الآشوريين فاقتبس ما اقتبس من مصر وبلاد ما بين النهرين. وراح في الحين نفسه يقلد الممالك الأخرى حيث كانت العربات تلعب دورها الكبير في فن الحرب؛ وعلى الرغم من أنه لم يقم بأية حرب قام ببناء الاسطبلات الواسعة في (مجدو) لخيول عربات القتال ليعرضها في المهرجانات الاستعراضية.

ولكي يضفي سليمان مزيداً من البهاء على بلاطه جهز جناحاً فخماً خصصه

لـ(حريمه) . إليك ما جاء في سفر الملوك في هذا الصدد : « كان لسليمان سبعمئة امرأة من سلالة الأمراء وثلاثمئة من المحظيات » . ويضيف هذا السفر قائلاً : « لقد حولت نساء سليمان قلبه صوب آلهة أخرى ... فعبد عشتاروت إلهة الصيدونيين وملكوم الذي يلعنه العمونيون ... وبنى على الجبل المواجه لأورشليم مزاراً لكاموش الذي يلعنه المؤابيون ، وآخر لموليخ الذي يكرهه أبناء عمون ... وكذلك فعل لعبادة آلهة نسائه الغريبات اللواتي كن يقدمن البخور والأضاحي لآلهتهن » .

٣ـ ولادة التوراة

هناك ما يشهد على تأثير العبادات الكنعانية في الاسرائيليين لدى استقرارهم في الأراضي الزراعية حيث كانت العبادة تؤدى لبعل. وسيقوم يوشع بفضح هذا التيار فيقول: «لقد ضحوا لبعل وأحرقوا القرابين في النار لأصنام منحوتة».

ولقد تغير نمط حياة العبريين تغيراً جذرياً لدى انغمارهم في قلب الحضارة الكنعانية؛ نعم لقد هجر هؤلاء البداة الجفاة خيامهم ليقيموا لهم بيوتاً على نمط بيوت الكنعانيين؛ ولقد خلعوا عنهم لباس جلود الخراف ليرتدوا الأنسجة الصوفية الملونة. ومع هذا كان هناك اختلاف بين أولئك الذين تمركزوا في السهول الشمالية فسكنوا المدن أو الأرياف الخصبة وبين أهل الجنوب الذين سكنوا الجبال واستمسكوا فيها زمناً طويلاً بأخلاق البدو وعاداتهم. وإذا ضربنا صفحاً عن تلك الفترة الوجيزة التي توحدت فيها مملكة داوود فإن ذلك الاختلاف المشار إليه سابقاً سيكون أحد أسباب الانقسام الذي تم بعد موت سليمان بين سكان الشمال الأغنياء في اسرائيل وبين سكان الجنوب في يهودا وما استتبعه هذا الانقسام من عداوات ونزاعات.

وكان لاختلاف الشروط المعاشية أثره في الحياة العقلية؛ ففي المدن ولدى المزارعين المستقرين كان الكنعانيون منذ زمن طويل يعبدون (بعل) إله الخصب والترف

والغنى؛ وهذه ديانة أرستقراطية تنسجم مع ذلك التفاوت العميق بين الأغنياء والفقراء. أما يهوه فقد أصبح إله التائهين في الصحراء وحامي الفقراء.

وسنرى كيف فضح الأنبياء بحماسة وحمية ولاسيما إيليا وأليشع وعاموس هذا الانحلال والترف و (العهر) في الإيمان.

وقد تشكلت في الجنوب نفسه شيع راحت تمجد قسوة حياة الرعاة وترفع من سيرة (الآباء) الذين عاشوا هذه الحياة ومارسوا إيمانهم بصرامة وتشدد... مثلاً أعلى لها، ورفضت هذه الشيع كل إغراءات المدن المترفة واعتصم أصحابها بالجبال ليعيشوا حياة النساك دون أن يلوثوا أنفسهم بأي نشاط مدني؛ وسيكون هذا البرنامج الانفصالي الحاد(الذي جاء ردة فعل على الانحلال وتكريساً للحياة لوجه يهوه وحده) شعاراً للركابيين كما سيكون شعار الرهبان الأسينيين في دير قمران بعد عدة قرون حيث قدمت المخطوطات المكتشفة في البحر الميت معلومات مفصلة عنهم.

وقد بدا أن الإيمان بيهوه نفسه يتهدده الخطر فكانت هذه الردة المتشددة العنيفة؛ فالعبريون ولاسيما الشماليون لم يكونوا يقتبسون من الكنعانيين نمط حياتهم ويسهمون في تجارتهم فحسب وإنما قلدوا نظام حكمهم السياسي الملكي. جاء في سفر صموئيل الأول: «نصّب علينا ملكاً يحكمنا مثل سائر الأمم». وهذا ما سيقتضي نتائج دينية: فلا بد إذن من أن تفسَّر الملكية على أنها حلف جديد مع يهوه— بعد أن جاء داوود وسلالته— يجعل من نظام للحكم أجنبي غريب سنةً في التاريخ المقدس.

وحتى (المعبد) نفسه بني على طراز أجنبي في مخططه وزخارفه حيث تمت مخالفة تحريم الصور ذات الوجوه الملائكية. وهناك مزامير عديدة قد استوحيت من الطراز الكنعاني كما تشهد بذلك نصوص رأس شمرا؛ وهناك مزامير أخرى ولاسيما المزمور ١٠٤ كأنها نسخ للأناشيد المصرية. وقد رفض عاموس الأخذ بعبادة البابليين للنجوم. وفيما بعد ستدخل عبادة الإله تموز ثم عشتار من بلاد ما بين النهرين... ثم ستقدم فيما بعد إلى (إله الشمس) الخيول المقدسة وعرباتها على غرار الطقوس الآشورية.

في هذا الجو من التلفيق والتوفيق ستولد الأسفار الخمسة (التكوين والخروج واللاويون والعدد والاشتراع) وهي نواة التوراة التي تتضمن جوهر العقيدة اليهودية.

وفي ظل حكم داوود وسليمان ظهرت أولى الوثائق المدونة وهي الحوليات التي حررها مؤرخو سير الملوك والتي تعد المرجع الصريح للنصوص التوراتية. ويشير سفر صموئيل الثاني إلى اسم أحد النساخ من بين موظفي داوود؛ وسفر الملوك يشير إلى أمينين للسر لدى سليمان. وفي سفر الملوك الأول إحالة على كتاب حوليات سليمان التي ترى مقاطع منها في أسفار الملوك وأخبار الأيام.

وهكذا ولد أدب تاريخي حقيقي؛ وهو أدب لا يكتفي بنقل الأحداث ووصفها، وإنما يعنى بمعناها ومغزاها، فهذه الأحداث آيات على وجود الله ووحيه ومشيئته وعلى أنه مسير تاريخ البشر: لقد حلت روح الله على شاؤول ثم غادرته. ويقول سفر صموئيل: «لقد ازداد داوود قوة... وهاهو ذا يهوه إله الجيوش إلى جانبه».

وخطوة فخطوة وانطلاقاً من تاريخ عاصره محرروه وعايشوه قامت عملية لملمة للمأثورات الشفوية لتشمل تاريخ العالم كله منذ بدء الخليقة كي تتم البرهنة على أن استقرار العبريين في أرض فلسطين وإقامة الحكم الملكي لداوود هما الإنجاز الكامل للتاريخ وتحقيق للوعد الإلهي... وكان نتاج عملية اللملمة هذه هو (التوراة) التي يدعوها المسيحيون أسفار موسى الخمسة. وعلى مدى ما يقرب من ألفي عام اعتبرت هذه الأسفار على أنها بقلم موسى نفسه؛ والمؤرخ فلافيوس جوزيف ٣٨ ـــ ١٠٠ م والفيلسوف الاسكندري فيلون ٢٠ ق.م ـــ ٤٥ م والإنجيلي القديس يوحنا هم مقتنعون بذلك. هذا ولم ينكَر هذا الزعم إلا في القرن الثاني عشر الميلادي على يد (بن عزرا)؛ ولم يظهر أي امتحان نقدي له إلا في القرن السادس عشر حينما نبه (كارل شتات) إلى أن موسى لم يكن ليستطيع أن يروي حكاية موته بنفسه. وبعد قرن من الزمن في عام ١٦٧٨ قام الكاهن (ريشارد سيمون) بنشر كتاب بعنوان (التاريخ النقدي للعهد القديم) يبرز فيه اللامعقولية في التأريخ إلى جانب ألوان التكرار والفوضى في السرد واختلاف الأساليب نافياً بذلك أن تكون أسفار موسى الخمسة كلها من صنع رجل واحد. نعم لقد أحدث ظهور كتاب هذا الكاهن فضيحة كبرى.

هذا ولم يكن بالإمكان ولادة نقد تاريخي حر- إلا في القرن الثامن عشر م حينما فقدت الكنيسة الكاثوليكية كثيراً من سطوتها الفكرية؛ ففي عام ١٧٥٣ قام أستروك طبيب الملك لويس الخامس عشر بنشر تكهناته حول المذكرات الأصلية التي يبدو أن موسى قد استفاد منها في تأليف سفر التكوين. وقد أشار إلى واقعة أولية أساسية هي أنه كان على سفر التكوين أن يورد نصين متمايزين ما دام الله يسمى حيناً ألوهيم وحيناً آخر يهوه. وبعد سنوات أي في عام ١٧٨٠ قام أيشهورن فعمم هذا الحكم على الأسفار الأربعة الأخرى. وفي القرن التاسع عشر توصلت الأبحاث اللاحقة إلى هذه النتيجة القائلة: إن أسفار موسى الخمسة هي نتاج لملمة مأثورات شفوية مغرقة في القدم قد تراكبت وتداخل بعضها في بعض.

إن معظم المفسرين والمؤرخين منذ أبحاث ولهاوزن عام ١٨٨٣ يقبلون بوجود أربعة مصادر:

١ ــ المصدر (اليهوي) الذي لا يستخدم إلا اسم يهوه للدلالة على الإله. وهو يلح على (الوعد) المعطى للآباء (ابرهيم واسحق ويعقوب) والذي سيتحقق بتشكل الشعب انطلاقاً من أبناء يعقوب الاثني عشر ــ وهو وعد بذرية كبيرة ــ وبتمركز هذا الشعب في أرض كنعان ــ وهو وعد بالأرض ــ وبقيام مملكة داوود.

وهناك في سفر الملوك إشارات واضحة إلى داوود و (الوعد) على لسان سليمان مما يدل على أن هذا النص قد كتب بعد موت داوود في عهد سليمان. إن دراسة الظرف التاريخي وملابساته في الوقت الذي ظهرت فيه هذه النصوص تتيح لنا أن نسترجع الفكرة الرئيسية التي سيرت حبكة الأحداث وتركيبها؛ فما الذي يريد كاتب هذه الأسفار أن يبلغه إلى معاصريه؟ إنه يريد ــ ولاشك ــ أن يضفي الشرعية على مملكة داوود وسلالته بوضعها في منظور تاريخي أشمل وأوسع: فالعهد بين يهوه وداوود يجعل من هذا التاريخ ــ كما يرى فون راد وميرسيا إلياد ــ امتداداً للعهد مع (الآباء) وللعهد مع موسى، أو بكلمة موجزة يجعل منه تتويجاً للتاريخ المقدس لإسرائيل.

ونحن نعطي أساساً متيناً لوحدة اسرائيل القومية حينما نسقط على مرحلة

(الآباء) الوحدة الحالية للأسباط بأن نزعم لها تاريخاً سابقاً وكأن لها تاريخاً مشتركاً قبل الاستقرار في أرض كنعان.

ويلفت ألبير دي بوري الانتباه إلى أن هذا التبرير الذي يستخدم تاريخاً أملاه اللاهوت لا يمنعنا من القيام ببعض التحفظات النقدية: ففي وجه التبجحات (الظافرة) السائدة يشير محرر النصوص اليهوية إلى أن خلاص اسرائيل الذي وعدها به الله لم يتم بفضل جدارة هذا الشعب وامتياز أنبيائه وإنما «تم على الرغم من ضعف أنبياء الله وعدم جدارتهم». ويورد الكاتب مثالاً ذا دلالة حول قضية (الوعد): فمحرر النص اليهوي يدخل حكاية إقامة ابراهيم في مصر، وهو لا يسلط الضوء على ضعف ابراهيم البشري فحسب وإنما يظهر احتقار ابراهيم لجانبين يتصلان بالوعد: الأرض الموعودة التي هجرها إلى مصر، وموقفه من ذريته إذ حرم نفسه منها حينما سلّم زوجته إلى فرعون.

ومع هذا فإن محرر النص الحريص على استنفار التاريخ كله لمصلحة اسرائيل وداوود قد مدّ تاريخ اسرائيل إلى الوراء فوصل به إلى بدء الخليقة؛ فلقد خلق الله العالم ثم خلق اسرائيل. إن الأساطير المتصلة بالخلق قد اقتبست في جوهرها من الأساطير القديمة فيما بين النهرين ولاسيما من الحكايات الآشورية ــ البابلية؛ فحكايات خلق العالم والفردوس الأرضي والطوفان قد سبق أن وجدت مدونة في عبارات قريبة جداً من عبارات التوراة في الأشعار السومرية أو في ملحمة جلجامش التي ترجع إلى الألف الثاني ق.م.

٢ ــ المصدر الإيلوهيمي (نسبة إلى إيلوهيم). ونصوصه مأخوذة من سفر التكوين ومن مقاطع من الأسفار الأربعة الأولى؛ وهي تحتوي على مجموعتي التشريعات الأقدم: الوصايا العشر ووصايا العهد. وهذا المصدر سابق للنبي يوشع وهو يعود على الأرجح إلى النصف الأول من القرن الثامن ق.م.

٣ ــ مصدر الاشتراع (التثنية). وتزعم الرواية أنه تم (اكتشافه) عام ٦٢٢ ق.م في ظل حكم (جوز ياس) إبان إصلاح معبد أورشليم؛ وأغلب الظن أنه قد حرر على يد

طائفة من النساخ والكهان في بلاط حزقيا ٧١٦ ــ ٦٨٧ ق.م. وهو صياغة مذهبية جديدة لكل التعاليم السابقة. وتدور الفكرة الرئيسية فيه حول تسمية اسرائيل بشعب الله المختار المرتبط مع الله بالعهد. وهذا العهد يتصل على نحو وثيق بفكرة الوحي والالتزام بالشريعة. وقد صار (العهد) مرادفاً للوصية: فألواح العهد قد حفرت عليها الوصايا العشر.

وهكذا أصبح سفر الاشتراع (التثنية) رداً على هيمنة الآشوريين؛ فالحاكم الوحيد الحقيقي لإسرائيل هو يهوه وليس ملك أشور. إذن يمكن تأريخ هذا النص بأنه لم يتح له أن (يبرز) إلا بعد ضعف المملكة الآشورية إذ نودي به تشريعاً لمملكة اسرائيل؛ ومن هنا جاءت أسطورة (اكتشاف) هذا النص على يد جوزياس.

وانطلاقاً من الروح السائدة في سفر الاشتراع ويوحي من المؤلف أو المؤلفين أنفسهم حررت أسفار يشوع والقضاة وصموئيل والملوك، هذه الأسفار التي يمكن وصفها بأنها (اشتراعية) فهي تستعرض تاريخ اسرائيل منذ نشأته حتى عام ٥٨٧ قبل المسيح.

٤ ــ المصدر الكهنوتي. وسمي بهذا الاسم لأنه يلح على إضفاء الشرعية على العبادة والتمسك بشكلانية طقوسها. والموضوع الأساسي لهذا المصدر هو العهد مع نوح ومع ابراهيم بغية تأييد عهد موسى وداوود.

إن تصفح سفر حزقيال يتيح لنا تحديد زمن هذا المصدر بفترة السبي البابلي في القرن السادس ق.م. وقد جرى مرة أخرى تذكير المنفيين بما وقع لجيل آبائهم في صحراء التيه؛ ولم يقتصر على تذكيرهم بإنقاذهم من مصر فحسب وإنما بالوعد الذي قطعه الله لابراهيم بأن يعطيه أرض كنعان إلى الأبد. ولا بد من الالتزام الحرفي بالشريعة كي يكون الاسرائيلي وفياً للعهد وجديراً بإنجاز الوعد وتحقيق العودة. جاء في سفر الاشتراع قوله: «لا تزيدوا شيئاً على ما حددته لكم ولا تنقصوا منه شيئاً».

إن فكرة الشعب المختار هي من اختراع سفر الاشتراع؛ فهو يلغي كل ما اقترفه الإنسان بحق الله (الخطيئة الأصلية التي تمرد فيها الإنسان على طاعة الله ــ

مقتل هابيل على يد قابيل ـــ ادعاء الإنسان بمساواة الله حينما شيد برج بابل)... ليجيء الطوفان ويمحو كل هذه المعاصي... ويبدأ العد من الصفر.

ونحن نستطيع من الآن أن نرجع القهقرى بهذا التاريخ المقدس لنحتفظ منه بحدثين أساسيين وهما: الخروج من مصر ومن قبله الوعد المقطوع (للآباء).

أما الخروج من مصر ـــ وهو النموذج المثالي للمعجزات التي أنجزها الله لمصلحة (شعبه المختار) ـــ فنشهد فيه تصعيداً في مجال الخارق المعجز: فمعجزة عبور البحر الأحمر قد تم تنسيقها ببراعة إذ بلغ عدد العبريين ستين ألفاً ما عدا أسرهم؛ وهذا يعني أنهم يعدون مليونين على الأقل مما يطرح مشكلة تمويلهم وتموينهم على مدى أربعين عاماً في الصحراء! جاء في سفر الخروج: «... فشد فرعون مركبته وأخذ جيشه معه واصطحب ستمئة مركبة منتخبة وسائر مركبات مصر... وهجم على الإسرائيليين... ولحق المصريون بالإسرائيليين الهاربين على ضفة البحر. ورفع موسى عصاه فانشق البحر. ومر رجاله مشياً على الأقدام بين جدارين من الماء. ولحق بهم المصريون بكل خيول فرعون وعرباته وفرسانه إلى داخل البحر... وانطبقت المياه عليهم فأغرقت عربات جيش فرعون وهلكوا جميعاً حتى فرعون نفسه».

ويؤكد المزمور ١٠٦ هذه الواقعة حينما يشكر الله الذي شق البحر شقين وجعل بني اسرائيل يعبرونه وأغرق فرعون وجيشه في البحر. أما النصوص المصرية فلا تشير أدنى إشارة إلى أحداث على هذا القدر من الخطر والأهمية، ولا تذكر شيئاً كذلك عن (آباء) ما بين النهرين من ابراهيم وغيره.

تلك هي المصادر الأربعة للنص التوراتي حول تاريخ فلسطين. وهي لا تقدم لنا إلا معرفة أسطورية عن شخصيات حقيقية؛ ولكنها تسمح لنا بعملية بناء جديدة للإطار العام لتاريخ فلسطين حينما نضاهي الروايات الشفوية الإسرائيلية بالمصادر التاريخية المحضة الخاصة بسائر شعوب الشرق الأوسط من مخلفات أثرية وكتابات ونقوش وحوليات وأساطير.

٤ ـ تفسخ دولة العبريين وسقوط اسرائيل ويهودا

في عام ٩٢٥ ق.م وعلى أثر موت سليمان أخذت مملكة داوود تتفسخ ولم تدم إلا ثلاثة وسبعين عاماً. وكان التدهور قد بدأ في عهد سليمان حينما انفصلت عن ملكه بعض المقاطعات المحيطة به. أما لدى الاسرائيليين أنفسهم فكان التذمر والنفور من الدولة يزداد بسبب الأعباء المتنامية التي أثقلت كاهل الشعب من جراء أسلوب الحياة المترفة الباذخة لنظام سليمان؛ أضف إلى ذلك الانحلال الخلقي والديني الذي ولّده هذا النظام. وقد استفحل هذا التدهور بحدوث الانقسام حول موضوع خلافة سليمان. إن الخلافة الوراثية لم تلق معارضة في منطقة (اليهودية) ولا من سبط يهودا (فولي العهد رحبعام كان واحداً من العشيرة مثل أبيه سليمان وجده داوود)؛ أما الكنعانيون فكانوا يسلمون بمبدأ الحكم الوراثي الذي كان قد اقتبسه منهم شاؤول وداوود.

أما في الشمال فقد كان الأمر مختلفاً: لقد اجتمعت شيوخ قبائل إسرائيل في المعبد القديم في (شكيم) ساعين إلى إنقاذ تقاليد حلف القبائل وفرضوا على رحبعام شروطها وعقدوا معه حلفاً قبل تنصيبه على السلطة. وقد رفض رحبعام كل ما طلبوه حتى تلك المطالب المتعلقة بتخفيف أعباء الضرائب الباهظة.

وقد ظهر طامع آخر في العرش هو يربعام الذي سبق أن تمرد على سليمان فنفاه

هذا إلى مصر ولكنه عاد بعد موت الملك؛ وكان النبي أعيا قد عينه خليفة.

ورجع شيوخ اسرائيل إلى التقاليد القديمة التي ترى أن وراثة الحكم مخالفة لشرائع اسرائيل فرأوا أن (اسرائيل) لا علاقة لها ببيت يهودا فانتخبوا يربعام على أنه مختار من قبل يهوه بلسان نبيه ومعترف به من قبل شيوخ القبائل.

وهكذا كان الانقسام إلى مملكتين: مملكة يهودا في الجنوب ومملكة اسرائيل في الشمال، وكانتا دولتين صغيرتين بين دول أخرى سورية ــ فلسطينية. وقد تعاقب على حكم يهودا وحتى زوالها ملوك من ورثة داوود. أما مملكة اسرائيل التي أرادت العودة إلى التقاليد القديمة فكانت فريسة انتفاضات عديدة: من انقلابات ومذابح واغتصاب للسلطة وملوك لا يدوم حكمهم طويلاً.

وبدءاً من حكم الملك (ياهو) بعد أقل من ثلاثة أرباع القرن من موت سليمان لم يعد يُعمل بالعرف القاضي بتعيين الملك من قبل أحد الأنبياء. يقول النبي يوشع على لسان يهوه: «إنهم ينصّبون ملوكاً... ولكن دون رأيي».

وهكذا كان تاريخ المملكتين حتى اندثارهما معاً يقوم على النزاعات فيما بينهما وبين جيرانهما الذين كانوا يستغلون الضعف والانقسام في المملكتين: فصراع مع الآراميين المتحالفين مع الفلستيين، وصراع مع الفرعون الذي اجتاح فلسطين منذ أن تسلم يربعام السلطة والذي فرض على ملك يهودا أن يدفع له الجزية. وعندما تزوج أخاب العمري (وقد يكون عربياً كما يدل اسمه) يزابيل بنت ملك صيدون الفينيقي فخشي أن يحدث ما حدث أيام سليمان من عودة ازدهار معابد بعل إلى جانب يهوه، وهو تجديف يفضحه بقوة وعنف النبيان إيليا وأليشع... حينذاك أطاحت المقاومة الداخلية لهذا التيار بسلالة (عمري).

واستغل ملك مؤاب هذه الفرصة ليمتنع عن دفع الضريبة إلى اسرائيل. ولكن التهديد الأكبر بدأ يظهر: فالامبراطورية الآشورية وهي في أوج اجتياحاتها قد وصلت إلى سورية حتى شاطىء البحر المتوسط منذ الثلث الأول للقرن التاسع ق.م. وفي عام ٨٥٣ ق.م كان شلمنصّر الثالث يقاتل حلفاً من الأمراء السوريين ــ الفلسطينيين

الذين كانوا قد عقدوا هدنة فيما بينهم كي يقفوا في وجه هذا الغازي القوي. وكان أخاب ملك اسرائيل طرفاً في هذا التحالف الذي مني بالهزيمة. وقام (ياهو) الذي خلف أخاب بعد أن قتله مع أسرته ــ وهو ملك تبنى الإصلاح الديني محالفاً شيعة الركابيين الذين عاشوا في الصحراء حياة البداوة النموذجية كي يحتفظوا بنقاء عقيدة يهوه ــ قام (ياهو) فدشن عهده بهدم جميع معابد بعل. وحاول أن يبعد الخطر الخارجي عنه بدفع الضريبة إلى شلمنصّر كما تشهد على ذلك كتابات المسلة السوداء البازلتية التي شادها شلمنصّر في (كلح) المعروفة اليوم بتل نمرود.

إن التهديد الآشوري الذي ظُن لفترة ما أنه قد زال خطره عاد ليبرز ثانية لدى تسلم تغلات فلصر الثالث الحكم الآشوري عام ٧٤٥ ق.م لتحقيق المطمع الدائم لبلاد ما بين النهرين الهادف إلى تأمين طرق العبور من الهلال الخصيب إلى البحر المتوسط.

أما إذا قرر أحد ملوك اسرائيل الامتناع عن دفع الضريبة للآشوريين فعقد صلات له مع مصر أملاً في أن يتلقى الدعم منها فسرعان ما يجتاح الجيش الآشوري الملك وبلده. وهكذا سقطت (السامرية) عام ٧٢٢ ق.م ولم يعد وجود لدولة اسرائيل فقد أصبحت مقاطعة آشورية.

وأما دولة يهودا فظلت قائمة تابعة لآشور تدفع الضريبة؛ وهاهنا كذلك كثرت المحاولات للاعتماد على مصر للوقوف في وجه الآشوريين. وطالما نبه النبي أشعيا إلى هذا الخطر الآشوري ولكن عبثاً.

وفي عام ٦١٢ ق.م انهارت الامبراطورية الآشورية ودمرت عاصمتها نينوى. ولكن الهدوء لم يدم في فلسطين إلا فترة وجيزة؛ فلقد قام الفرعون نيخاو ٦٠٩ ــ ٥٩٣ ق.م منذ بداية حكمه باجتياح فلسطين وسورية محاولاً دون جدوى أن يقف في وجه انتصار البابليين. ولم يقدّر للمصريين أن يسودوا فقد غُلب الفرعون عام ٦٠٥ ق.م على يد ملك بابل نبوخذ نصر الذي استرجع كل المناطق التي حاول فرعون أن يغتصبها منه.

وكان النبي أرميا يرى الخضوع لنبوخذ نصر طاعة للمشيئة الإلهية التي أوكلت إليه سيادة العالم فراح يحذر الملك من التحالف مع مصر فنُظر إليه على أنه خائن. وحاول الملك صدقيا أن يستنجد بمصر فهب جيش نبوخذ نصر وحاصر أورشليم واستولى عليها عام ٥٨٧ ق.م وهدمها.. ثم أضرمت النار في معبد سليمان. وهكذا اختفت دولة يهودا من الوجود. ويرى المؤرخ نوث أن «هذه الهزيمة لم تكن حدثاً ذا شأن في التاريخ العالمي لأن مأثورات نبوخذ نصر لا تأتي على ذكر هذه الهزيمة البتة».

ولكن هذه الهزيمة بالنسبة للإسرائيليين كانت مرحلة حاسمة في تاريخهم السياسي بل في تاريخهم الديني كذلك. لقد اختفت بسقوط أورشليم مملكة داوود التي كانت حسب التوراة حاملة (الوعد) وحافظة له.

أما مجموعة عقائد التوراة التي يسلم بها كل من الحكام والوجهاء الذين سيقوا إلى بابل وسواد الشعب الذي ظل في فلسطين، تلك العقائد التي تبلورت في الأسفار الخمسة... فكان لا بد أن ينظر إليها من منظور تاريخي جديد بعد هذا السقوط.

٥ ـــ كبار الأنبياء العبريين

وجاءت مرحلة الأنبياء.

بدأت حركة الأنبياء مع الهزات الكبيرة في تاريخ اسرائيل منذ منتصف القرن الثامن ق.م. ولم يكتف الأنبياء بالتنبؤ بالكارثة مشيرين إلى أنها عقاب من يهوه على شعبه الجاحد بل راحوا يرسمون له رؤى مستقبلية تتجاوز النكبة.

وقد برهن يهوه حتى الآن عن قدرته على إنجاز وعوده مانحاً النصر إلى شعبه. وكان يبدو حينذاك أنه لم يعد من الممكن القول بأن تاريخ العالم كله منذ بدء الخليقة ليس إلا امتداداً لتاريخ هذا الشعب المختار وتابعاً له يدور في فلكه.

لقد أنجز الأنبياء نقلة نوعية ضخمة في هذه العقيدة واحتفظوا بما فيها من جوهر وهو أن للتاريخ معنى؛ ولكنهم لم يعودوا يبحثون عن هذا المعنى في الماضي وفي الوعد بالأرض والسلطة لصالح شعب واحد فحسب يدين بانتصاراته لمشيئة الله... بل راحوا يفتحون هذا التاريخ على المستقبل ليعطوه مغزى كونياً: فالهزائم والانتصارات على حد سواء هي جزء من مشروع إلهي. وفي هذا المنظور الجديد يمكن أن ينظر إلى ملك آشور وملك بابل الجديدة نبوخذ نصر وقورش ملك فارس على أنهم أداة تنفذ الإرادة الإلهية. وهكذا وعلى الرغم من ضعف مكانة اسرائيل السياسية ظلت محوراً للتاريخ: فالانهزامات والانتصارات كلها مظاهر تترجم عن مشروع الله تجاه (شعبه).

إن عظمة الامبراطوريات في العالم أو انحطاطها ليست إلا وسائل لتنفيذ العقاب على (شعب الله) أو فداء له؛ وهذا الشعب هو الهدف أولاً وآخراً... على هذا فالملك الآشوري هو (أداة) في يد الله، وملك بابل الجديدة نبوخذ نصر هو (خادم) الله، أما قورش ملك فارس فهو (كاهن) الله.

والمهم هاهنا أن نقدّر أهمية هذا المنعطف ومغزاه فلا ننسى أبداً أن الإسهام الرئيسي الذي قدمه العبريون إلى التراث الروحي الإنساني نعني به أدب الأنبياء لا يرجع إلى مرحلة الصعود والازدهار بل إلى مرحلة الانحدار.

كان عاموس أول الأنبياء المدونين للتوراة هو الذي تنبأ بالكارثة العسكرية وبالسبي. أما ملخيا آخر أنبياء الاشتراع فقد فضح منذ العودة من السبي فساد الرسالة بسبب التعاليم المضللة للأحبار. ثم جاءت المرحلة التي ستقضي فيها طبقة السلطة الدينية الكهنوتية على كل نبوة. لقد عاصر أنبياء هذه الفترة شقاء الكارثة؛ وقام عاموس ويوشع عام ٧٥٠ ق.م يتنبآن بخراب اسرائيل القريب وعاصمتها السامرية التي ستسقط عام ٧٢٢ ق.م.

وحينما ارتفع صوت النبي أشعيا كانت جيوش سنحريب على أبواب أورشليم. لقد نجت عاصمة يهودا من الدمار ولكن أرميا سيسمع عما قريب من داخل سجنه الأصوات الصماء لمنجنيقات ملك كلده وهي تدك أسوار المدينة التي سيهدم معبدها عام ٥٨٧ ق.م.

أما حزقيال وأشعيا الثاني فسيكونان من أنبياء المنفى وسط إخوانهم المسبيين. يقول (أندريه نيهر) في كتابه الهام (جوهرة النبوة): «لقد رأى أرميا وحزقيال في رؤية نبوئية رهيبة خمسة ملوك يموتون موتاً دموياً».

في هذين القرنين المأساويين تمَّت نقلة نوعية حقيقية في مفهوم العقيدة لدى العبريين: إنها الانتقال المتدرج من ديانة قبلية تعصبية إلى ديانة نبوئية. نعم إن الديانة في التوراة ديانة قبلية تعصبية؛ فهي ليست ديانة توحيدية لأن يهوه أقوى من كل الآلهة؛ وتؤكد تفوقه معجزاتٌ كتلك التي قام بها إيليا وأليشع. أما وحشيته فتقتضي ذبح

أربعمئة وخمسين كاهناً من كهان بعل.

إن هذا الإله القبلي هو إله وحشي؛ فهو يطرح شرطاً لعهده مع القبائل أن تطرد وتبيد السكان الكنعانيين كما ورد في سفر الخروج والعدد والاشتراع. يقول سفر الاشتراع (التثنية): «لقد اختارك إلهك يهوه شعباً له من بين سائر الأمم على الأرض».

أما الوعود المقطوعة لهذا الشعب فهي شبيهة بتلك الوعود التي قطعت في هذه المرحلة من التطور الاجتماعي لكل شعوب الشرق الأوسط: إنها وعد بالأرض والتكاثر والانتصارات العسكرية؛ ومثال ذلك ما حدث في البلاد المجاورة لفلسطين إذ «قامت الإلهة آرينا فرسمت حدود المملكة الحثية»؛ وقل الشيء نفسه عن الكنعانيين «فوجود بعل في أرض معينة كان يضمن حقوق المالكين على هذه الأرض»... ولهذا كان تأثر العبريين بديانة السكان الأصليين من الكنعانيين سهلاً إلى أبعد حد. يقول (أندريه نيهر): «إن تعقيد الطقوس في حياة الاسرائيليين الزراعية في نظر معظم المؤرخين ليس إلا نسخة من النظام الثقافي الكنعاني تبناها العبريون بالتدريج بعد استقرارهم في أرض كنعان».

وفي التوراة يمكن أن نلحظ تياراً كنعانياً يرى فيه العبريون الأرض ملكاً للإله ــ السيد إلى جانب تيار مختلف قوامه أن الأرض يخصبها الإله ــ الزوج. وتلك مفاهيم كنعانية واضحة. لقد كان من أثر استقرار العبريين الرحل أن عبادتهم راحت تتسرب إليها عبادة بعل الكنعانية الحضرية. وهذا التمثل الديني مرتبط أيما ارتباط بالتمثل السياسي؛ فلقد اقترح العبريون على جدعون نظاماً وراثياً للحكم كما هو الحال لدى سائر الشعوب؛ ويرفض جدعون الحكم الوراثي وكأنه يناضل أتباع بعل. هذا وقد بدأت مع الأنبياء مرحلة جديدة لعقيدة العبريين انتقلوا فيها من المرحلة القبلية للدين إلى مرحلة العقيدة النبوئية.

بعد سقوط مملكة داوود لم يكن إله اسرائيل يستطيع أن يظهر على أنه إله لقبيلة أو لحلف من القبائل يمنحها النصر (حسب ما ورد في نشيد ديبورا في سفر القضاة) إلى جانب قبائل أو أحلاف أخرى لها إلهها الذي تنتمي إليه دون تبرير لادعاءاتها إلا

مأثوراتها الشفوية ونصوصها المقدسة... شأنها شأن العبريين الذين لا تقوم مزاعمهم إلا على نصوصهم الخاصة بهم دون أية حجة أو دعم من خارج نطاقهم. ولسوف يرى الأنبياء إلى الله على أنه سيد العالم الذي يحكم التاريخ البشري. وحينذاك ستنشأ في منتصف القرن الثامن ق.م وحدانية عبرية حقيقية وسط هذا النضج الطويل الممتد للوحدانية في الهلال الخصيب.

ويعود الأنبياء إلى التاريخ التقليدي المسرود في المأثورات الشفوية التي قامت التوراة بتجميعها؛ ولكن هذا التاريخ نفسه قد اكتسب معنى جديداً إذ لم يعد عرضاً للأحداث فحسب بل صار يعني إسهام الإنسان في عملية الخلق الإلهي والمشروعات الإلهية.

وهكذا ولدت رؤية جديدة إلى الزمان، الزمان الإنساني الموجَّه ذي الدلالة... وهذا الزمان يبدأ (بالعهد)، بحوار الإنسان مع الله؛ فالنبي أي ذاك الذي ينطق باسم الله ما هو إلا مظهر من مظاهر حلول الأبدي في الزمن المحدود، حلول المطلق في النسبي الموقوت... ويكتمل الزمن بقيام مملكة الله إذ يحل (يوم يهوه) أي بالانتهاء من الخلق.

في هذا الزمن التوراتي كل شيء يسهم في هذه الحركة الخالقة. أما الطوفان فعقاب للبشر على خطاياهم.. ولا يسلم من الطوفان إلا نوح. ويُبرم العهد مع نوح لأجل حياة جديدة للبشر ولسائر الكائنات الحية التي ستنجو من الطوفان. ثم يكون عهد مع ابرهيم وآخر مع (الآباء) وثالث مع اسرائيل في سيناء. إن هذا العهد ليس مطلقاً بل هو مشروط بالتزامات متبادلة.

وانطلاقاً من هذه الالتزامات المتبادلة اختلفت تعاليم الأنبياء اختلافاً جوهرياً عن تعاليم التوراة فراح الأنبياء يؤكدون على (المسؤولية) في (العهد). ومنذ أن قام النبي ناثان بلوم الملك داوود على اغتصابه زوجة (أوريا) الحثي وتعريضه إياه للموت ما انفك الأنبياء ينذرون اسرائيل بالعقاب على خيانتها الالتزام بالعهد.

وهذا العهد ليس محصوراً بشعب واحد؛ ففي سفر التكوين نقرأ قول يهوه

لابراهيم «فيك أبارك كل أمم الأرض». ولقد بعث الأنبياء كذلك إلى جميع الشعوب: يوناس أرسل ليبشر في نينوى وأرميا سمي (نبي الأمم)، والشعوب كلها مسؤولة أمام الله شأنها شأن اسرائيل.

ويكلف الاختيار الإلهي كل إنسان بمهمةٍ ما لإنجاز المشروع الإلهي؛ وهذا الاختيار ليس امتيازاً نتبجح به ونزهو بل هو مسؤولية، ولهذا توجه الأنبياء صوب المستقبل لا صوب الماضي فراحوا يبشرون بفعل جديد كل الجدة ليهوه في التاريخ. أما الخلاص فلا يوصل إليه دفعة واحدة فهو مرهون بإرادة الله في المستقبل.

وهكذا يصبح كل تاريخ (تاريخاً مقدساً). إن زمن (العهد) أي زمن (الوعد) هو زمن الخلق أي الزمن الذي ينبثق به في التاريخ كل ما هو جديد كل الجدة ليكون آية على حضور الله الحي الفاعل أبداً فعل الخميرة والبذرة في تاريخ البشر.

وبعد أن فضح أشعيا في القرن السابع ق.م وأرميا في القرن السادس عيوب قادة اسرائيل وخياناتهم للعهد الأول بشرا بعهد جديد، عهد يمتاز باستيحائه الوجدان الداخلي وبانفتاحه على ما هو عالمي. على هذا فإن إنجاز هذا الوعد لن يتحقق لا بممارسة طقوس حرفية ولا بنصر مؤزر يعد به الله. وهاهنا تظهر — أول مرة — في النصوص العبرية لدى أشعيا تلك العلاقة بين فكرة (المخلص) وبين فكرة (المتألم الصالح) التي ستظهر في سفر أيوب في القرن السادس كما عبرت عنها سابقاً الأدبيات الدينية البابلية في الألف الثاني ق.م. يقول سفر أشعيا: «... إنه رجل الآلام... لقد حمل عنا آلامنا... وقتل بسبب جرائمنا».

وهذا العهد كما قلنا يمتاز بانفتاحه على (العالمي). صحيح أن العبريين قد نقلوا (رسالة) وأنهم من هنا امتازوا بعض الامتياز بالقياس إلى الشعوب الأخرى؛ ولكن مع مجيء كبار الأنبياء كان تجاوزٌ لهذه (الاستثنائية) والعنهجية القبلية. جاء في سفر أشعيا: «سأجعل منك نوراً للأمم حتى يعم سلامي وخلاصي أقاصي الأرض».

إن الأنبياء لم يقتصروا على القول بالانتقال من الخصوصية إلى العالمية فحسب وإنما تشكلت على أيديهم عملية تحول حقيقية في مفهوم القيم؛ فمقولات الإيمان

التقليدية ما زالت قائمة ولكنها عرفت تحولاً روحياً نوعياً. إن هذه النزعة الروحانية في الإيمان البدائي قد أضفت لوناً من البهاء والجمال على الرؤية القديمة.

وهكذا لم يعد الوعد خاصاً بامتلاك أرض أو بتحقيق نصر عسكري. جاء في المزامير: «مجدوا اسم يهوه... لقد انتصر على الملوك الأقوياء... وأهلك الملوك الأشداء وجعل من أرضهم إرثاً لنا». لقد صار الوعد تبشيراً بملكوت الله الذي يشمل العالم ليغمره بالسلام والمحبة بين الشعوب. يقول أشعيا على لسان يهوه: «... سوف أخلق لكم سماوات وأرضاً جديدة... حينئذ ستقبل عليها كل الأمم... سنجعل من حرابنا مناجل للحصاد ومن سيوفنا محاريث للفلاحة ولن يتعلم أولادنا فنون الحرب».

إن (المخلص) الموعود به هو الذي سيعينه أحد الأنبياء ملكاً على اسرائيل. وينطبق هذا على شاؤول ثم داوود ثم صموئيل. ولدى أشعيا وأرميا لا بد لـ (المخلص) أن يكون من نسل داوود ولكن عليه أن يتصف بالحكمة. وفي سفر دانيال أن ذاك الذي سيقيم مملكة الله هو (ابن الإنسان). إن تحقيق الوعد لا يكون بتمركز البدو الرحل الآخذين بالتحضر في أرض خصبة هي (أرض الميعاد) ولا بقيام دولة كمملكة داوود، وإنما بمجيء ملكوت الله.

٦ ـــ من النبوئية إلى اليهودية

وهكذا كانت ولادة العقيدة النبوئية ؛ فلدى العودة من المنفى عام ٥٣٧ ق.م قام (عزرا) و (نحميا) المتعاونان مع ملك فارس القوي المسيطر بإصلاح أحوال معظم الجماهير العبرية التي ظلت في أرض كنعان طوال مدة سبي الوجهاء، هذه الجماهير التي كانت قد ارتبطت برباط الأخوة مع سكان البلاد الأصليين من الكنعانيين عن طريق التراوج بهم والاحتكاك بأنماط حياتهم.

حينذاك حدث سقوط جديد في أحضان النزعة القبَلية وعودة إلى الحرْفية والتعصب بإقامة سلطة ثيوقراطية دينية قهرية كهنوتية. وقد سبق لهذه الحركة أن أطلت برأسها قبل قرن من الزمن في عهد جوزياس ولكنها أسقطت على يد الأنبياء.

في عام ٦٣٩ ق.م قُتل منسّى، ملك يهودا. وحينما أصبح ابنه جوزياس راشداً استغل ضعف مصر وسقوط المملكة الآشورية فحاول أن يسترجع استقلاله ليعيد إقامة مملكة داوود بالسيادة على مملكة الشمال. وكما فعل داوود الذي لم ينجح في تحقيق مشروعه إلا بفضل الإنهاك الموقت الذي أصاب القوى الكبرى من النيل إلى ما بين النهرين... فعل جوزياس فحاول أن يستفيد من هذه الظروف المماثلة فيحقق الهدف نفسه؛ إن داوود لم ينشيء دولة يهودية وإنما أنشأ (مملكة داوود) القائمة على عناصر

متنافرة لم تحقق وحدتها إلا بفضل بطش رئيسها، الزعيم القديم للعصابات، وبفضل مرتزقته الأشداء... وكانت مملكة داوود تضم مملكة يهودا في الجنوب واسرائيل في الشمال اللتين توسعتا بحملات عسكرية ظافرة على الجيران.

كان جوزياس يظن أن التاريخ يعيد نفسه... فكان لا بد — أول الأمر — من التأكيد على شرعية مطالبته بتوحيد المملكتين... وفي الموعد المحدد أي في العام الثامن عشر من حكمه (٦٢١ ق.م) وفي أثناء ترميم المعبد في أورشليم (اكتُشف) بل نبش (كتاب الشريعة) الذي قدمه الكاهن الأكبر للمعبد إلى الملك. إن هذا الكتاب — وهو بلا شك النص الأول لسفر الاشتراع — لم يكن إلا تجميعاً لطائفة من التشريعات الحقوقية التقليدية التي تدور حول (شريعة موسى). وقام جوزياس مستغلاً فرصة عجز الآشوريين عن فرض عباداتهم الخاصة فألح على الالتزام الصارم الدقيق بهذا التشريع فجمع شيوخ يهودا في المعبد وأعلن عليهم حسب التقاليد القديمة في سيناء حلفاً مشتركاً بين يهوه وشعبه. وكان ذلك خطوة هامة على طريق إعادة الوحدة الممكنة فيما بين المملكتين على أساس قانون مشترك يقوم على الحق الإلهي.

ولكن الوضع الدولي لم يهيىء سبل النجاح أمام مشروع جوزياس؛ فالفرعون المغتصب (نيخاو) في حران كان يحاول الاستيلاء على ما تبقى من سلطة آشور معتبراً أن مصلحة مصر أن تبقي على دولة آشور ضعيفة بانقساماتها الداخلية أمام تصاعد قوة البابليين فهي عاجزة عن منافسته في الهيمنة على سورية وفلسطين... فقرر فرعون أن يؤيد جوزياس الطامع بالسلطة. ولكن جوزياس وقد أدرك أنه خاسر في جميع الأحوال: سواء أأعاد نيخاو فلسطين إلى الآشوريين أو احتفظ بسيطرته عليها... فقرر مهاجمة فرعون وهو يمر بفلسطين مع جيشه عام ٦٠٩ ق.م. وكان اللقاء بالقرب من (مجدو) حيث غُلب جوزياس وقتل في المعركة... وهكذا انهار مشروعه السياسي وأصبحت فلسطين كلها مقاطعة تابعة لمصر.

لكن هذه التبعية لمصر لم تدم إلا مدة قصيرة فلقد قام ملك بابل الجديدة نبوخذ نصر منذ عام ٦٠٥ ق.م بسحق الفرعون نيخاو واسترجاع فلسطين منه...

وحينما حاول الملك يواكيم أن يتخلص من سيطرة بابل، وحينما عقد خلفاؤه الأمل على مساعدة مصرية على الرغم من تحذيرات النبي أرميا الذي كان سجيناً بتهمة الخيانة... قام البابليون فاستولوا على أورشليم عام ٥٨٧ ق.م... ونهبت المدينة وهدمت أسوارها؛ أما القصر الملكي فأحرق وتهدم المعبد وسط ألسنة النيران وأسر الملك صدقيّا وهو يحاول الهرب فنفي إلى بابل مع وجهاء المدينة حيث مات هناك.

وهكذا اختفت سلالة داوود الملكية، رمز الوعود والآمال واختفى معها الأمل بالسيطرة الشاملة.

واستمرت حياة الشعب العبري في فلسطين بدون ملوكه وبدون ارستقراطيته الكهنوتية أو التجارية. استمرت هذه الحياة شأنها شأن حياة شعب كنعان القريب من الشعب العبري بحكم جذورهما المشتركة. إن سفر التكوين— انطلاقاً من الأبطال الرمز بعلاقاتهم الأسُرية سواء كانوا عرباً من أبناء إسماعيل أو موأبيين وعمونيين من أبناء لوط أو عدونيين من نسل عيسو حفيد ابراهيم أو كنعانيين— يقدم كل هؤلاء على أنهم ورثة العهد المعقود بين الله ونوح، وورثة الوعود المقطوعة لابراهيم.

ويلخص أندريه نيهر على نحو رائع المغزى من كل ما سبق فيقول: «إن المغزى الموجود في حكاية طوفان سفينة نوح هو الذي يوضح لنا كيف أعطى الأنبياء مغزى لبعض الأحداث التاريخية بمنطق تفهمه اسرائيل كما تفهمه سائر الشعوب؛ فليس هناك حكاية واحدة للخروج— كخروج اسرائيل من مصر— وإنما هناك مجموعة من حكايات الخروج تمت كل واحدة منها بمشيئة الله الذي كان يبتغي تحقيق الوعد نفسه لابراهيم... فلقد أخرج الله الآراميين من (أور) والمؤابيين من (وادي عربة) والأدوميين والعمالقة والمدينيين من الصحراء والفلستيين من (كريت) ليرمي بكل هؤلاء على ضفاف أرض كنعان، أرض الميعاد... ويؤمّن الله لكل شعب من هؤلاء أرضه ويضمن لكل شعب حدوده؛ فهو الحكم في المنازعات، وشاهد على أعمال البشر وقاضٍ في مشكلاتهم. وهكذا يمكن القول إن المنطقة الفلسطينية السورية ليست في نظر الأنبياء إلا نموذجاً (لأرض الميعاد) من بين أراض أخرى في العالم كله... على كل حال نحن نمارس لغة التاريخ ومنطقه على تلك الشعوب المشار إليها أو نحن ننظر إليها بمنظور

تاريخي مشترك شامل... بينما يمارس الأنبياء تاريخ الخروج بمنطق (العهد) وما يقتضيه هذا العهد من التزامات أخلاقية تجاه الله... إذن على هذا فالشعوب كلها ـ شأنها شأن اسرائيل ـ مسؤولة أمام الله، والناس كلهم (أبناء) لله وخدم للسيّد».

إن الشعب العبري وهو يتنقل من حياة الترحل إلى الحياة المستقرة السائدة لدى المزارعين وساكني المدن في كنعان كان قد تمثل حضارتهم ولغتهم وكتابتهم بل أنماط عبادتهم واختلط بالسكان الأصليين عن طريق الزواج. وإذا استثنينا معارك بعض قادتهم كيشوع وداوود وبعض غزواتهم العابرة يمكن القول إنهم قد تعايشوا مع أهل البلاد أحسن تعايش.

وهكذا كانت حياة هذه الشعوب كغيرها تمضي تحت سيادة مصر حيناً وما بين النهرين حيناً آخر... ولكن الأمر كان مختلفاً فيما يخص القواد والحكام أي أولئك العبريين المنفيين في بابل. لقد تحول امتيازهم السابق كطبقة مسيطرة ذات امتياز في فلسطين إلى امتياز عرقي وديني في المنفى؛ فلم يكن المنفيون سجناء: لقد كانت لهم قراهم وبيوتهم وحدائقهم وكانوا يستطيعون الزواج والتنقل بحرية. إن القيد الوحيد المفروض على حريتهم أنهم لم يكونوا قادرين على ممارسة عبادتهم حسب تقاليدهم أي في أورشليم.

ومن هنا كان إلحاح المنفيين على حنينهم إلى أورشليم وعلى الممارسات الدينية التي يمكن أن تميزهم وتعزلهم عن البيئة الجديدة... وقد تجلى هذا الإلحاح في تمسكهم الصارم الدقيق بطقوس يوم (السبت) التي اكتسبت مغزى دينياً يتصل بالعقيدة. واتخذ الختان أهمية كبرى؛ ففي فلسطين كان الفلستيون وحدهم لا يختتنون. ولم يكن الختان علامة مميزة لأن شعوب كنعان ومصر كانت تعمل به؛ أما فيما بين النهرين حيث لم يعرف الختان فقد أصبح (علامة) على انتماء صاحبه إلى (العهد). هذا ويربط التشريع الكهنوتي الالتزام (بالسبت) بحكاية الاستراحة بعد الانتهاء من خلق العالم، ويعتبر الختان علامة على عهد الله مع ابراهيم، هذا العهد الذي هو قوام تاريخ اسرائيل.

لم تدم سيادة امبراطورية بابل الجديدة مدة طويلة فلقد قضى ملك فارس قورش

على ملك ليديا واستولى على مملكته عام ٥٤٦ ق.م ولم يبق عليه إلا أن يقضي على مملكة بابل الجديدة الهشة التي كانت تسيطر على ما بين النهرين وسورية وفلسطين. وفي عام ٥٣٩ ق.م هاجم قورش آخر ملوكها نابونيد ودخل بابل. وفي عام ٥٢٥ ق.م أخضع قمبيز بن قورش مصر... فأصبح الهلال الخصيب من مصر إلى آسيا الصغرى وحتى الفرات أكبر وأوسع (جماعة) بشرية موحدة عرفها الشرق القديم. وكانت الآرامية هي اللغة الرسمية التي كانت عامل توحيد إداري لهذه المجموعة البشرية؛ ولكن ملك فارس فرض على حكام مقاطعاته (المرازبة) احترام العبادات المحلية كي يضمن سيطرته على أتباعه المتعددي المشارب. وقد صدر أمر إلى الحكام الفارسيين في مصر باحترام عبادة الإلهة (سيت) في الدلتا، وأصدر قورش كذلك عام ٥٣٧ ق.م قراراً يسمح للإسرائيليين بإعادة بناء الهيكل وللمنفيين بالعودة إلى بلدهم. ولم ير وجهاء العبريين انطلاقاً من تعصبهم العرقي في هذا الإجراء السياسي الذي يسمح بالعودة إلى ممارسة العبادات القديمة في مصر وما بين النهرين والذي ينسجم مع تقاليد الهلال الخصيب... لم ير وجهاء العبريين في هذا الإجراء إلا ما يعنيهم ونظروا إلى قورش على أنه منفذ المشيئة الإلهية.

هذا ولم تبد الجماهير التي بقيت في فلسطين حماستها لإعادة بناء المعبد. ورد في سفر (حجي) في هذا الصدد: «لم يحن الوقت بعد لإعادة بناء بيت يهوه». لقد كان الناس في أكواخهم القميئة يحلمون ببيوت خاصة بهم... وعبثاً حاول النبي (حجي) أن يعدهم بأن إعادة بناء المعبد ستكفل لهم الازدهار الزراعي... وهكذا لم يبدأ العمل في الهيكل إلا عام ٥٢٠ ق.م أي بعد سبعة عشر عاماً، ولم يدشن المعبد الجديد إلا عام ٥١٥ ق.م.

إن من عاد من الوجهاء إلى بلده ــ وقد بقيت الأكثرية في بابل ــ قد وصل إلى هدفه فلقد أصبح رئيس الكهنة لديهم يهيمن على كل اسرائيل بعد إعادة بناء المعبد. هذا ولم تعرف قطُّ اسرائيل القديمة ذلك التسلسل في المراتب الكهنوتية إلا في عهد جوزياس؛ وهاهي ذي الآن ــ بعد العودة من المنفى ــ سلطة ثيوقراطية كهنوتية تتشكل. وبفضل تعاون أرستقراطية أورشليم مع المحتل الفارسي أصبح كبار الكهنة

الصدوقيون الذين كانوا قد شغلوا المناصب الكهنوتية أباً عن جد منذ داوود وسليمان مالكين لزمام السلطة العليا على أنهم موظفون وكلاء لملك الفرس. ومن هذا المنظور ندرك المعنى الكامن فيما قاله كل من عزرا ونحميا.

وهكذا ظهرت آثار النزاع بين العائدين من بابل وبين الذين ظلوا في فلسطين ــ يشهد بذلك سفر عزرا ــ؛ ولكن الخلاف قد تجاوز قضية إعادة بناء المعبد إلى خلاف خاص... وذلك حينما طلب المنفيون العائدون ــ ومعظمهم من الملاكين الأغنياء ــ إلى الفلاحين الفقراء البائسين إرجاع أرضهم إليهم.

وواقع الحال أن عقليتين راحتا تصطرعان على كافة الصُّعد؛ فالمنفيون القدامى الذين انقطعوا عن بلدهم وشعبهم زماناً طويلاً كانوا يدّعون أنهم وحدهم حملة التقاليد الموروثة ولا بد لهم من فرض التقيد بها بصرامة ودقة.

إن نحميا وعزرا اللذين توليا إعادة تنظيم الحياة في فلسطين كانا مدعومين من قبل ملك الفرس المحتل؛ ولقد سبق لهما أن احتلا مناصب هامة في بلاط بابل. وقد وصل نحميا في منتصف القرن الخامس ق.م إلى أورشليم ليتسلم فيها منصب حاكم يهودا؛ وقد عين في هذا المنصب بفضل الحظوة التي كان يتمتع بها لدى ملك الفرس.

أما سواد الشعب فقد نظر نظرة الريبة والشك إلى تلك الحماسة لإعادة بناء المعبد على نفقة الملك الذي كان يبدو أنه يلح على بنائه إلحاح المنفيين القدامى الحائزين على رضا الملك. ويشهد القرار الذي أصدره نحميا بإلغاء عامٍ للقروض بغية التخفيف من نقمة الفقراء المعدمين، بحدة النزاع بين الأغنياء والفقراء، هذا النزاع الذي برز على وجه الخصوص حينما طالب العائدون من المنفى بممتلكاتهم ومواريثهم.

أما ما دعا إليه الكاهن الأكبر عزرا فيمكن أن يوضع في السياق السياسي والاجتماعي نفسه؛ فلقد بعث به كذلك ملك فارس أرتحشتا. وكانت مهمته ذات الاسم العجيب (الأمين على شريعة الله) الذي خلعه عليه (ملك الملوك) تنحصر في أن ينفذ التوجيه القائل: «إن من لا يلتزم بشريعة إلهك التي هي شريعة الملك تطبق عليه عقوبة صارمة كالموت أو النفي أو الغرامة أو السجن». وهكذا تلقى عزرا كامل

الصلاحيات ليملي باسم ملك الفرس شريعة الله ويفرض الالتزام بها. وسلك عزرا مسلك جوزياس من قبل فأذاع (الشريعة) وبجدها كما فعل جوزياس حينما نبش الشريعة على نحو عجائبي من تحت أساس المعبد؛ ولكن عزرا يلح على كل ما يمكن أن يجعل من (الجماعة) اليهودية مجتمعاً مغلقاً متعصباً لا يمكن اختراقه كما حلم به الآباء المنفيون في بابل؛ فلم يعد يكفي الالتزام بطقوس (السبت) ولا ممارسة الختان على أنه واجب مقدس بل إن الممارسة الدقيقة الصارمة الحرفية لأبسط الطقوس قد صبت في قوالب ومناهج.

ولكي يحرص عزرا على متانة جدران العشيرة وتماسك أسوارها فقد أولى أهمية خاصة لتحريم الزواج بالأجانب وشدد على الانكماش والانكفاء بدقة وصرامة وبمزيد من التقوقع. جاء في سفر عزرا: «لا تزوجوا بناتكم لأبنائهم ولا تأخذوا بناتهم لأبنائكم ولا تهتموا أبداً لسلامهم وسعادتهم». وألح عزرا على طلاق النساء الأجنبيات وطردهن مع أولادهن. ولم يجرؤ أحد على الاعتراض. وهكذا إلى أن فرغوا من حل مشكلة المتزوجين من غريبات.

لقد قضي على الحركة النبوئية المتطلعة إلى العالمية وانتصر التعصب تحت وطأة عصا طبقة الكهنوت التي كانت بعد سقوط المملكة تمتلك جميع السلطات تدعمها في ذلك سلطة المحتل الزمنية. إذن يمكن القول إن فترة السيطرة الفارسية هي التي تمت فيها عملية إضفاء الطابع القانوني على الكتب المقدسة، لا على التوراة وحدها التي يسميها المسيحيون (أسفار موسى الخمسة) بل على الكتابات (التاريخية) كذلك. وهكذا ألغي منذئذ كل تطور جديد وبدأ حكم المجامع الدينية وأحبار الشريعة. إن هذه (الجماعة) التي أغنت التراث الروحي الإنساني بتعاليم أنبيائها والتي وقعت الآن فريسة لسلطان شكلانية النصوص وحرفية الشريعة لن يقدر لها أن تسهم إسهاماً نوعياً في التاريخ العالمي؛ وسنشهد في المستقبل عدداً من المشاهير المنتمين إلى هذه الجماعة (فيلون الاسكندري ــ سبينوزا ــ ماركس ــ أنشتاين) وهم يسهمون في ازدهار ثقافات شعوب أو حضارات نشؤوا وتكونوا فيها.

إذن قضي بعد عزرا ونحميا على مستقبل هذا الازدهار الرائع لثقافة الأنبياء ونزعتهم

الروحانية. يقول كويستلر: «إن الإنجازات الفلسفية والعلمية والفنية الفردية للمبدعين اليهود هي ضرب من المشاركة في ثقافة الشعوب التي عاشوا فيها؛ وهي لا تمثل تراثاً ثقافياً عاماً أو كياناً ذا تقاليد مستقلة متميزة».

ولم يعمل الانتقال من الخضوع للسيطرة الفارسية إلى نير السيطرة اليونانية على فلسطين (٣٣٢ — ٣٣١ ق.م) على إحداث أية تغييرات عميقة في الحالة الراهنة؛ وإذا استثنينا مدينتي صور وغزة فنحن لا نرى أية مقاومة، لا بين السكان الكنعانيين الأصليين الذين عانوا من نير الاحتلال الفارسي المباشر ومن نير العبريين المتعاونين معه، ولا بين العبريين الذين لم يكونوا يصغون أبداً إلى صوت الله الذي خنق بخنق صوت أنبيائه، هؤلاء العبريين الذين كانوا ينتقلون من سطوة حكم أجنبي إلى سطوة أجنبي آخر. إن ألوان المنازعات بين خلفاء الاسكندر الذين سيطروا بعد موته على امبراطوريته وجزؤوها بسرعة تفوق سرعة بنائها... قد جعلت من فلسطين مقاطعة تابعة للبطالمة في مصر حيناً وحيناً آخر للسلوقيين في سورية الذين اتخذوا أنطاكية عاصمة لهم.

أما الحدث الهام الوحيد في هذه الحقبة من السيطرة اليونانية فهو انتشار طائفة ذات شأن من اليهود قدمت من أورشليم إلى الاسكندرية، قلب الثقافة الهلنستية ثم توزع هذه الطائفة في أنحاء شرقي المتوسط... وبعيداً عن بابل التي قرر البقاء فيها كثير من المنفيين القدامى بعد قرار قورش بتحريرهم أصبحت الاسكندرية المركز النشيط الحي للطوائف اليهودية بعد أن خمدت الحياة وجمدت في أورشليم.

وهكذا ظهرت الحاجة إلى ترجمة التوراة إلى اليونانية. ومن بابل إلى فلسطين كانت الآرامية هي اللغة السائدة المشتركة؛ أما العبرية فلم تكن إلا لغة رجال الكهنوت، وكانت اليونانية لغة الثقافة من الاسكندرية حتى صقلية. وهكذا ترجمت التوراة منذ القرن الثالث ق.م إلى اليونانية في الاسكندرية فقدر لها أن تنتشر خارج نطاق (أحبار الشريعة) الذين كان يحميهم الملك السلوقي أنتيخوس الثالث ويمنحهم رعايته. ولكن بعد انتصار الرومان على أنتيخوس الثالث في مغنيزيا في آسيا الصغرى

عام ١٩٠ ق.م وبعد معاهدة أفاميا التي أخضعته لروما فقدت أورشليم حماية الملك السلوقي وصارت شيئاً فشيئاً عرضة لمجابهة السامريين في يهودا.

إن هذه الخصومة ليست جديدة بين المملكتين القديمتين: مملكة الشمال اسرائيل وعاصمتها السامرة، ومملكة الجنوب يهودا وعاصمتها أورشليم. ولم تكن هذه الخصومة بسبب التركيبة الاجتماعية المختلفة (إذ كان الشمال متحضراً وأكثر انفتاحاً بفضل تجارته وعلاقاته الخارجية) وإنما كانت هناك خصومة دينية قديمة: فالأماكن المقدسة التقليدية للقبائل (شكيم وبيت إيل وشيلو) كانت في الشمال، ولهذا كان اتخاذ أورشليم مركزاً للسلطة وعاصمة ومقراً لتابوت العهد بقرار سياسي بحت من داوود قد بدا في نظر سكان السامرة إلغاءً للتقاليد واغتصاباً للسلطة من قبل داوود المنتمي إلى يهودا. وقد عمل سقوط السلوقيين بعد هزيمتهم أمام الرومان على حرمان أورشليم من دعم الملك أنتيخوس فاستغل السامريون ذلك لإحداث انقسام حقيقي جدي فراحوا يمارسون منذئذ عبادتهم لا في أورشليم وإنما في أرضهم على الجبل القديم المقدس (جرزيم) بدءاً من حكم أنتيخوس الرابع الأبيفاني. ومنذ ذلك الحين صار ينظر إلى السامريين من قبل كهنة أورشليم على أنهم جاحدون مدنّسون.

وهكذا كان تسلم جوزياس للسلطة عام ٦٣٩ ق.م منعطفاً في تاريخ فلسطين: فلقد راح صوت الأنبياء يخمد بعد تلك الهبّة النبوئية الكبيرة. إن مازرعه الأنبياء من خميرة حية قوية في العقيدة اليهودية قد أجهزت عليه الطقوسية الحرفية للتقاليد الدينية التي طغت عليها الاعتبارات السياسية.

وحينذاك بدأت القرون المظلمة في تاريخ فلسطين؛ فلقد جفت فيها ينابيع الإبداع الروحي وتحجرت روح الإيمان وطغت روح المؤامرات السياسية المشتبكة الجشعة. هذا، وفي ظل حكم ملوك يهودا المعتمدين على المحتلين المتناوبين عليهم لم تنقطع فلسطين عن أداء دورها في الفعل التاريخي فحسب بل صارت أداة مسخرة في يد القوى الغربية الكبرى. لقد توقف الإبداع الروحي في هذه المرحلة التاريخية الخاضعة لنير ملوك محليين مغامرين متعاونين مع كل الأسياد المتعاقبين على أرضهم... نعم لقد أصبحت أرض الكنعانيين، أرض تلاقي الحضارتين الزاهرتين، حضارة ما بين النهرين

ومصر، الأرض التي سبق لها أن شهدت ولادة ثقافة وعقيدة جديدتين تشهد بغناها توراة أوغاريت الكنعانية، هذه الأرض التي تقبلت العقيدة الابراهيمية بخضوعها المطلق لله، والتي رنّت في جنباتها أصداء الرسالات العظيمة للأنبياء... إن هذه الأرض تبدو في هذه المرحلة وكأنها تخرج من التاريخ فلم يظهر فيها إلا أسماء ملوك تابعين لفارس وللسلوقيين اليونان ثم للرومان، ولم تعرف إلا أسماء قادة أجانب سفاحين من قطاع الطرق الفاسدين يدعمون من الأمراء التافهين مَنْ يفوق غيره بالعطاء.

ولكن هناك شعوباً أخرى وحضارات أخرى قد أعطت علوماً وتقنيات وثقافات ونماذج فنية أسهمت في بناء الإنسان. لقد أعطت فلسطين على مدى خمسة آلاف عام من تاريخها ذلك العطاء النوعي المتميز لأنها موطن إشعاع الرسالات السماوية بدءاً من ابراهيم وكبار أنبياء اسرائيل وانتهاءاً بالمسيح والإسلام.

إن حكم المكابيين (١٧٦ ــ ١٠٤ ق.م) لم يغير شيئاً في نسيج تلك الفوضى التي عمت في القرون المظلمة من تاريخ فلسطين... فهو يقع في فترة انحطاط الحكام السلوقيين ورثة الاسكندر الذين وضعوا يدهم على فلسطين حينما كان البطالمة يحتلون مصر.

وفي أثناء انحلال امبراطورية الاسكندر أصبح الرومان يحتلون شرقي البحر المتوسط منذ القرن الثاني ق.م. وقد دعم الرومان بطالمة مصر ليقفوا في وجه السلوقيين في سورية؛ وعملت على تسهيل مهمتهم الانقسامات والمؤامرات والمذابح القائمة بين الأمراء السلوقيين أنفسهم. وحينما تغلب الرومان على أنتيخوس الثالث وفرضوا عليه صلح أفاميا (١٨٩) ق.م ازدادت المؤامرات والاغتيالات في بلاطه. وقد أدت الانهزامات العسكرية وفساد الحكم إلى كارثة مالية رهيبة جعلت السلوقيين يعصرون شعوبهم لينتزعوا منهم ثرواتهم؛ وكانت ثروات معْبد أورشليم في نظرهم صيداً ثميناً مشتهى على نحو خاص.

استغل أنتيخوس الرابع الذي استولى على السلطة عام ١٧٥ ق.م الانقسامات بين كبار الكهنة فدعم أحد أعضاء الأسرة الكهنوتية. وبمناسبة تنصيبه سطا على كنوز

الهيكل ودخل المعبد؛ وهذا ما يراه اليهود المتزمتون تدنيساً وتجديفاً ... ثم تحول النزاع إلى نزاع حضاري: فهناك قسم من الأسرة الكهنوتية المتعاون مع الحكام السلوقيين كان متحمساً لمزيد من النفوذ الهلنستي في أورشليم؛ وقد ذكر فلافيوس يوسيفوس أن عدداً من كبار الكهنة قد غيروا أسماءهم إلى أسماء يونانية.

وفي عام ١٦٨ ق.م بعد أن عاد أنتيخوس الرابع من إحدى حملاته على مصر مدحوراً من قبل الرومان حاصر أورشليم وأباحها للذبح والنهب ثم حرّم كل عبادة دينية ومنع الالتزام بطقوس (السبت) والختان، بل إنه أتلف النصوص التوراتية ... ثم أقام في معبد أورشليم وفي مملكة السامريين على جبل جرزيم عبادة (زيوس) اليونانية... حينذاك هبت انتفاضة دينية عنيفة في نهاية عام ١٦٧ ق.م.

وقد بدأ العصيان في قرية صغيرة من قرى يهودا إذ رفض أحد وجهائها واسمه (ماتاتياس) تقديم الذبائح لآلهة اليونان وقتل الضابط والجنود الذين أمروه بذلك... وتطور العصيان إلى مقاومة عمت أنحاء مملكة يهودا؛ بل إنه لدى موته عام ١٦٦ ق.م عهد إلى ابنه يهودا المكابي قيادة الأنصار. ثم تطور الأمر من حرب عصابات بدأت في الجبال إلى ثورة عامة تعتمد على الشعب جرى فيها مرات عديدة تحطيم جيوش أنتيخوس.

كان يهودا المكابي على يقين تام من أنه يقاتل في سبيل سيادة ملكوت الله على الأرض... وهكذا نجح عام ١٦٤ ق.م مدفوعاً بمثل هذه الموجة (الخلاصية) في استرجاع أورشليم من جيش اليونان السلوقيين وإعادة العبادة إليها. وهكذا تحققت أهداف ثورة المكابيين؛ فمنذ تسلم الملك السلوقي الجديد ديمتريوس الأول السلطة عام ١٦٢ ق.م قبل بإعادة العبادة ونصّب أحد أعضاء الأسرة الكهنوتية الشرعية كبيراً للكهنة وأرسل بمندوبين إلى يهودا المكابي يعرضون عليه الصلح.

وحينذاك انقسمت الحركة التحررية التي كانت تؤيد حتى الآن الأشمونيين (نسبة إلى أشمون جد ماتاتياس ويهودا المكابي) إلى ثلاث فئات:

الأولىــ فئة (الأتقياء) الذين سيطلق عليهم فيما بعد اسم المنفصلين أو الفرّيسيين

الذين قاتلوا في سبيل الحرية الدينية وفي سبيل الحق في العيش بمقتضى الشريعة اليهودية. وحينما تحقق هدفهم قدروا أن الوقت قد حان للقبول بالسلم.

الثانية ـــ فئة الداعين إلى الهلنستية؛ وهم كثرة في الأسر الكهنوتية؛ إنهم الصدوقيون الذين يحظون بعطف كبير الكهنة (ألشين).

الثالثة ـــ فئة يهودا المكابي الذي كان يدعو إلى مواصلة النضال السياسي في سبيل إقامة دولة مستقلة يكون هو رئيساً لها.

إن الطابع السياسي لخطوات يهودا المكابي مضافاً إليه فقدانه للقاعدة الشعبية يتجلى في تفتيشه عن دعم خارجي: فلقد أرسل وفداً إلى روما في محاولة لعقد حلف معها. وقام خلفاء يهودا المكابي الذين لا يمثلون إلا جناحاً من الأجنحة ولا يستطيعون الاعتماد على جيش شعبي بتعبئة مرتزقة أجانب كما فعل داوود من قبل.

وقد حصل سيمون المكابي عام ١٤٥ بدعم من روما على الاستقلال وأنشأ منذ عام ١٤٠ نظاماً وراثياً للحكم سيدوم حتى تولي آخر ملك أشموني للسلطة حركان الثاني الذي طلب مرة أخرى مساعدة الرومان على أخيه أريستابيل. وفي عام ٦٣ ق.م استولى الأمبراطور بومبي على أورشليم وجعل من يهودا مقاطعة رومانية. إن نظام الحكم الوراثي لدى الأشمونيين الذي ولد على أثر انتفاضة شعبية من أجل حرية العقيدة الدينية... قد تحول إلى ديكتاتورية قهرية تخفي أسوأ ألوان الفساد والانحلال تحت قناع من الشرعية الحرْفية والعقائدية الضيقة في التزام الشريعة.

وهكذا لدى موت حنا الحركاني الذي عين زوجته لتخلفه على السلطة قام ابنه البكر ارستابيل فاستولى على الحكم وأودع أمه السجن تموت فيه جوعاً... ثم سجن ثلاثة من إخوته وذبح أخاه الرابع أنتيغون؛ ثم قام خليفة أرستابيل ليقتل أخاه كذلك وهو ألكسندر (حفيد ماتاتياس) الذي يكرهه شعبه فمارس القمع الوحشي وذبح بمساعدة المرتزقة ما يقرب من ستة آلاف شخص في يوم واحد. لقد دام حكم سلالة الأشمونيين أربعين عاماً؛ وقد وصل إلى الدرك الأسفل من انحلاله الخلقي والسياسي حينما ألحق بومبي فلسطين بروما، وصار الأمراء ألعوبة في خدمة روما لا يستطيعون

الاحتفاظ بالسلطة إلا عن طريق التزلف والملق. لقد مات أحد (الأمراء) التابعين مسموماً وهو أنتباتروس، ونجح أحد أبنائه (هيرودوس) المتزوج بامرأة أشمونية في الحصول من أنطونيو وأوكتافيوس بعد موت قيصر على الموافقة على تنصيبه ملكاً في يهودا. وفي عام ٣٧ ق.م استولى على أورشليم بفضل حصار القوات الرومانية لها. وحينما انتصر أوكتافيوس على أنطونيو جاء هيرودوس ليعرض خدماته على الامبراطور الجديد ونجح في أن يجدد تعيينه ملكاً بل في أن يمد سلطته القضائية على معظم مساحة فلسطين. ودام حكمه من ٣٧ ق.م إلى ٤ ق.م في ظل الرومان، وامتاز حكمه بسياسة عمرانية جعلت من أورشليم مدينة مبنية على الطراز الروماني، وأعاد إصلاح الهيكل بإشراف

المهندسين الفينيقيين من صور الذين كانوا قد بنوا الهيكل أيام سليمان وأقام جداراً ضخماً رومانياً يعرف اليوم باسم (حائط المبكى). وأحاط المدينة بأسوار ما تزال آثارها حتى اليوم. وكان هذا البذخ ثمرة من ثمرات الإرهاب والفساد الذي شهدته فترة آخر ملوك الأشمونيين. وقد ذبح هيرودوس زوجته الثانية الأشمونية ماريانا كما ذبح ولديها الاثنين. وقبل أيام من موته أعدم ولده البكر من زوجته الأولى. وعلى الرغم من أصالة يهوديته واهتمامه بإعادة بناء الهيكل وعنايته بقبور (الآباء) في حبرون كان مكروهاً لدى شعب أورشليم شأنه شأن سيده الامبراطور الروماني.

ولدى موته وصل الطامعون في خلافته إلى روما يستجدون تنصيبهم على السلطة فوزعت مملكته على ولديه فكانت الجليل والبريه من نصيب أنتيباس، وما بينهما من مناطق من نصيب فيليب.

حكم هيرودوس أنتيباس من ٤ ق.م إلى ٣٩ م؛ وهي السنة التي خلع فيها ونفي إلى ليون.

٣
فلسطين المسيحية

١ ـ ظهور يسوع

في عهد هيرودوس، هذه الشخصية القاتمة الكئيبة، وحينما كان الامبراطور تيبريوس يحكم روما قام في فلسطين، أرض الأنبياء، رسول جديد للرسالة السماوية: إنه يسوع الناصري. وقد يبدو أمراً فريداً في نوعه أن لا يدون مؤرخو هذه الفترة من رومان أو يهود بداية هذه الدعوة الجديدة.

وفي مطلع القرن الثاني الميلادي قام المؤرخ الروماني (تاسيت) بشرح أصل كلمة (مسيحي) على النحو التالي: «إن هذه الكلمة نسبة إلى المسيح الذي حكم عليه الوالي الروماني بيلاطس البنطي بالموت في عهد الامبراطور تيبريوس. وهذه الخرافة المقيتة التي رفضت زمناً ما انتشرت مجدداً لا في منطقة اليهودية وحدها حيث منبع البلاء، وإنما في روما كذلك حيث تجمع كل ما في العالم من فظائع ومخازٍ وحيث وجدت هذه الدعوة لها أنصاراً كثيرين».

وقد أشار سيوتونيوس مؤرخ سير الأباطرة في القرن الثاني إشارة غامضة إلى الظاهرة نفسها قائلاً: «لقد طرد كلوديوس اليهود من روما لأنهم ما انفكوا يحدثون الشغب والاضطراب بتحريض من كريستوس أي (المسيح)». فالمسيح إذن لدى سيوتونيوس ليس إلا محرضاً يهودياً على الشغب مثل غيره من المحرضين.

وفي القرن الثاني كذلك عام ١١٠ م كتب بليني الأصغر وهو حاكم على آسيا الصغرى في عهد الامبراطور تراجان تقريراً عن العبادة الفظة التي يمارسها المسيحيون مشيراً إلى أنهم في ساعة محددة من كل يوم «ينشدون ترنيمة تمجد المسيح على أنه الإله».

أما المؤرخ اليهودي الوحيد الذي يغنينا بالمعلومات فهو فلافيوس يوسيفوس مؤلف كتاب (التاريخ القديم لليهود) الذي ظهر عام ٩٠ م، ويروي فيه كل التفصيلات الدقيقة عن أحداث تلك الفترة. وهو يورد قرار كبير الكهنة حنانيا «برجم يعقوب أخي يسوع المسمى بالمسيح». أما الإشارات الأخرى حول المسيح في كتاب فلافيوس فهي أخبار مصنوعة تتخلل النصوص وتنّم على التقوى.

ولكن كيف نفسر أن هذا الحدث لم يدركه المؤرخون الرومانيون إلا في القرن الثاني وأن اليهود لم يروا فيه تبشيراً بالخلاص فرفضوه ولم يقروا بأنه يتضمن ذلك الهدف الذي طالما توجه إليه تاريخ اسرائيل وانتظره على أنه المعجزة؟

إن ذلك يعود إلى طبيعة الرسالة نفسها؛ فلقد بشر المسيح بعظمة ملكوت الله وسموّه واضعاً نفسه خارج كل ما هو متداول أو حالة راهنة أو انقلاب وتغيير... فلم يكن له بالنسبة للرومان أية أهمية سياسية. إنه ليس إلا مثيراً للفتن ومحرضاً مزعجاً من أمثاله الكثر، ولكنه لا يشكل قوة سياسية مثل ماتاتياس والمكابيين أو (الغيوريين) أو طائفة (باركوشبا) القادرين على تنظيم انتفاضات مسلحة في وجه روما.

أما فيما يخص اليهود فهم لا يستطيعون إدراك رسالة المسيح على أنها رسالة خلاصية لأن يسوع الناصري لا يمت بصلة إلى الصورة التي صوروها لأنفسهم عن (المسيح). ولكي ندرك إلى أي مدى خيب المسيح آمالهم وتطلعاتهم لا بد من أن نحدد كيف كان يشار إليه عبر النصوص اليهودية في زمن المسيح.

إن الله في العقيدة اليهودية هو الخالق الحاكم، وهو الذي يصنع التاريخ. واسرائيل هي شعب الله؛ وقد أملى الله على هذا الشعب إرادته وشريعة حياته. وقد اختار الله شعبه وعقد معه (عهداً)؛ ولكنه عهد مشروط: فالله يحكم على شعبه حسب طاعته

أو عصيانه. وهكذا فتاريخ هذا الشعب يسيره (الاختيار) و (العهد) و (الوعد) و (الشريعة).

وقد سبق لنا أن رأينا كيف تحجر وانكمش ذلك الإيمان الأول العظيم وبخاصة بعد النفي؛ فالشكلانية والانكماش والتعصب العرقي تتجلى كلها لدى الجماعة اليهودية في زمن المسيح بكل فئاتها.

كان في القمة طبقة رجال الكهنوت من الصدوقيين نسبة إلى جدهم (صدوق) الكاهن الأكبر في عهد سليمان. وترفض هذه الطبقة كل ما لم يرد حرفياً في الشريعة، وترفض كذلك كل اجتهاد وتجديد. أما امتيازاتهم الكنسية فهي وراثية. ومنذ أن فقدت فلسطين استقلالها راحوا يتعاونون مع المحتل الفارسي ثم المصري ثم اليوناني فالروماني. إن هذه الأرستقراطية الكهنوتية مع الأرستقراطية العلمانية والفريسيين تشكل تحت رئاسة الكاهن الأكبر (السَّنْهدرين) وهو المجلس الأعلى لأورشليم، والسلطة الدينية والقضائية العليا التي ستدوم حتى هدم أورشليم على يد الرومان عام ٦٩ م.

وقد ظهر الفريسيون ــ ويسمون بالأتقياء ثم بالمنفصلين ــ إبان حكم المكابيين حينما رفض هؤلاء متابعة النضال السياسي بعد حصولهم على حرية العيش حسب تعاليم التوراة بصرامة وتشدد؛ فعليهم إذن أن يلتزموا بالشريعة التزاماً حرفياً دون أي تنازل كي يطبقوها على كل مسلك حياتي يومي منطلقين من تفسيرات تبريرية ملزمة ليجعلوا الحياة اليومية مجموعة من الطقوس الصغيرة الشكلية الضيقة. هذا وسيستمد فيما بعد كتاب التلمود اليهودي مصادره من تقاليد الفريسين وتعاليمهم.

إلى جانب هذه اليهودية الرسمية هناك جماعة الأسينيين الذين ألقت عليهم الأضواء اكتشافات مخطوطات البحر الميت في دير قمران عام ١٩٤٧ م؛ وكانت تلك المخطوطات الهامة التي تعود إلى القرن الأول ق.م وثائق تنبيء عن تشكل طائفة قد انفصلت عن العالم لتعيش في الأديرة على ملكية جماعية حياة الرهبنة بما تقتضيه من التزامات أخلاقية صارمة مبنية على تفسير ثنائي ــ يعود إلى أصل فارسي ــ يقتضي

الانقطاع عن العالم لتكوين (شعب الله) الحقيقي والعيش على أمل رؤيوي في انتظار (رب العدالة).

وهذه التجربة الخلاصية ذات الجذور الحية القوية لدى شعب فلسطين منذ ظهور المسيح كانت قد تجلت كذلك كما سبق أن رأينا أيام المكابيين حينما بشر دانيال بمجيء المسيح (ابن الإنسان). وتأخذ طائفة (الغيورين) كذلك بالروح الخلاصية ولكن على نحو مختلف كل الاختلاف عن (الأسينيين)؛ فطائفة (الغيورين) تشكل حركة تحرر وطنية بتنظيمها الهجمات المسلحة على المحتلين الرومان.

أما يسوع فقد ظهر بمعزل عن كل هذه الطوائف؛ والشخص الوحيد الذي يرتبط به هو يوحنا المعمدان الذي يتيح لنا إنجيل لوقا تحديد زمن ظهوره «في السنة الخامسة عشرة لحكم القيصر تيبريوس» أي عام ٢٨ أو ٢٩ م.

لقد تنبأ يوحنا المعمدان بمجيء ملكوت الله كما سيتنبأ به يسوع؛ وقد دعا الناس جميعاً لا اليهود وحدهم إلى أن يعدوا أنفسهم لذلك. جاء في إنجيل متّى: «لا تظنوا أن ابراهيم أب لكم وحدكم لأني أقول لكم إن الله قادر أن يصنع من هذه الحجارة أولاداً لابراهيم». وهذا ليس قطيعة أو انفصالاً عن (الشعب المختار) و (العهد) و (الوعد) ولكنه رفضٌ لقصر صفة (شعب الله) على شعب مخصوص يورث كل ما وعده به الله لنسله. إن هذا الانتقال من الإطار القومي إلى العالمية هو ما بشرت به رسالة يسوع.

إن إنجيليْ متّى ولوقا المشبعين بروح التعاليم اليهودية يجهدان في حصر رسالة المسيح ضمن إطار الآمال الخلاصية لإسرائيل. وقد أقام كل منهما شجرة نسب ليسوع محاولاً أن يرجع بنسبه إلى داوود، إما صعوداً به إلى ابراهيم كما فعل متّى، أو إلى آدم كما فعل لوقا. وهذه السلسلة من النسب تختلف لدى أحدهما عن الآخر؛ فمتّى يلح على نسب يسوع الملكي بينما يلح لوقا على نسبه النبوي. ويضيف لوقا أن المسيح كان كما يُظن ابن يوسف النجار حتى لا ينقطع نسبه بنسل داوود.

وقد بدأ يسوع تبشيره في عامه الثلاثين كما يقول إنجيل لوقا وطلب أن يعمَّد على

يد يوحنا المعمدان الذي يرى في المسيح نبياً بل أكثر من نبي أي مبشراً بمجيء يوحنا كما يقول إنجيل متّى.

ويسوع ـــ خلافاً للأحبار الربانيين ـــ لا يبشر في الكنيس وإنما هو مبشر جوّاب يتوجه إلى كل الناس لا إلى فئة معينة. وهو لا يستخدم أبداً الأمر والزجر في استشهاده بالنصوص المقدسة أو بالتعاليم. يقول إنجيل مرقص: «كان المسيح يعلّم أو يبشر تبشير إنسانٍ سلطته من نفسه لا كما يفعل الكتبة». وحينما يشير إلى الشريعة يتحدث عنها حديث إنسانٍ يقطع صلته بالتقاليد المتحجرة وإن كان يصرح بأنه لم يأت لينقض العهد. جاء في إنجيل متّى وإنجيل مرقص رداً على الفريسيين والكتبة الذين كانوا يلومون يسوع على أنه قد انتهك التقاليد: «لقد أبطلتم كلمة الله باسم تقليدكم».

ولكنه يعارض الشريعة حيناً ويهجم على (السبت) بجرأة ويصرح بأن السبت خلق للإنسان ولم يخلق الإنسان للسبت؛ وهو لا يراعي المحرمات الخاصة بطقوس الطهارة. وفي (موعظة الجبل) يشكك في شريعة موسى لا ليهجم على حرفيتها ويدعو إلى الأخذ بروحها فحسب بل ليربطها بالوجدان الذاتي الداخلي. إنه يتناول شريعة موسى بقوله: «قيل لكم قديماً: العين بالعين والسن بالسن. وأنا أقول لكم: من ضربك على خدك الأيمن فأعطه الأيسر». ومن الصعب عليك أن ترى في شريعة المحبة هذه إكمالاً للعهد؛ إنها تنقضه وتنفيه.

«قديماً قيل لأجدادكم... أما أنا فأقول لكم»؛ إن هذه اللازمة التي رددها يسوع في موعظته على الجبل تظهر لنا ما في رسالته من نقض لشريعة موسى. إن يسوع يحرر مفهوم الإرادة الإلهية من تحجره في ألواح شريعة موسى، يحرره من كل شكلانية وحرفية وطقسية ضيقة. وحينما يسأل أحد أحبار اليهود المسيح قائلاً: «ما أهم وصية في الشريعة؟» يجيبه يسوع بقوله: «أن تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك. تلك هي الوصية الأولى والكبرى. أما الثانية فمثلها وهي: أن تحب قريبك مثلما تحب نفسك. بهاتين الوصيتين يتلخص الناموس وشريعة الأنبياء». إن هذا الحب ينقض نقضاً نقضاً جذرياً مفهوم الحب لدى اليونان وكذلك مفهومه لدى اليهود.

إن مفهوم الحب لدى اليونان يتجلى على نحو رائع في (فيدرا) و (المأدبة) عند أفلاطون؛ وهو ليس حب الآخرين بل هو الحب للحب: إنه الانتقال من حب جمال الأشكال إلى حب الخير لذاته. إنه إثارة للذات وتفتيح لها إن لم يكن مرحلة أو وسيلة لذلك الانتقال.

أما المحبة ــ حسب رسالة يسوع ــ فلا تقيم فرقاً بين الغريب وبين المواطن في مدينة أو الفرد في قبيلة، ولا بين الصديق والعدو. وقد وصف المسيح في مثل (السامري الصالح) هذا اللون من الحب بكل أبعاده الإنسانية وطابعه الإلهي. ويختار يسوع مثل (السامري) لأنه ذاك المنبوذ المكروه من قبل يهود أورشليم الأتقياء، ولم يكن عمله الإنساني في إسعاف الجريح الذي اعتدى عليه اللصوص نابعاً عن (حب الله) فحسب... بل إن في عمله تجلياً لوجود الله في هذا الحب غير المشروط حيث تكون العلاقات السامية بين البشر مبنية على مفهوم الحب الذي يعني إيثار الآخرين على أنفسنا ولو كلفنا ذلك حياتنا، هذا الحب الذي يعني أن جوهر نفوسنا ليس في ذواتنا وإنما في ذوات الآخرين وأننا مسؤولون شخصياً عن مصائرهم. إن الإنسانية (واحدة) لأن الإله (واحد)؛ وبهذا نواجه سؤال الكتبة للمسيح قائلين: «مَنْ قريبي؟». إن هذا الحب هو بداية لإنسانية جديدة تهيىء نفسها لاستقبال ملكوت الله الآتي.

إن ملكوت الله العلي الذي هو في ذاتنا خميرة لخلق المستقبل يفسر غياب الاهتمام بشؤون السياسة فيما جاء به المسيح من تعاليم. وحينما سأل الكتبة والفريسيون المسيح هذا السؤال المحرج: «هل علينا أن ندفع الضريبة إلى قيصر أم لا؟» فضح المسيح رياءهم فسألهم: «من تمثل هذه الصورة على القطعة النقدية؟» فأجابوه: «إنها صورة قيصر». إنهم يتاجرون ويربحون بتداول هذه العملة دون أن يهتموا بالنقش الذي عليها؛ ولكن هاهم أولاء الآن يهتمون كل الاهتمام عندما يتعلق الأمر بدفع الضريبة. إن القطعة النقدية تحمل صورة القيصر وقلوبنا تحمل صورة الله، ولذا أجابهم المسيح قائلاً: «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله».

وهذا لا يعني أن يسوع يفصل الدين عن السياسة؛ فقيصر كان بالنسبة

للرومان إلهاً يزعم أنه يحكم الأرواح والأجساد ؛ وليس أخطر من أن يدعي أحد المواطنين الجرأة على رفضه هبة نفسه لقيصر لينذرها لإله آخر. إن حياة المسيح وتعاليمه وموته تشهد على نقده الصارم لكل فوضى قائمة سواء على صعيد (الشريعة) والتقاليد الدينية أو على صعيد الاقتصاد والعدالة الاجتماعية، هذا النقد الموجه إلى المالكين وإلى مظاهر السلطة الرومانية القهرية.

كانت تعاليم يسوع تحولاً جذرياً في فكرة (الله) ؛ فلقد كانت عظمة الله تتجلى قبل المسيح في قوة الملك أو الامبراطور... وهاهي ذي تتجلى الآن في الفقر والافتقار إلى كل قوة مادية كما تتجلى، على المستوى الإنساني، في خيبة المسيح ـ الإنسان الذي خانه حتى أتباعه في اللحظة الحاسمة وأنكروه أو هجروه ولزموا الصمت، كما تتجلى في موته بذلك الأسلوب المعيب وهو أسلوب الصلب المتبع في إعدام العبيد العصاة.

وحينما يصرح يسوع قائلاً في إنجيل يوحنا : «إن مملكتي ليست من هذا العالم» فهذا لا يعني أنه يستسلم أمام ضلالات الوجود لكي ينجو بنفسه إلى عالم آخر ؛ وإنما ليبشر بعالم آخر ممكن التحقق يختلف عن هذا العالم ولا يخضع لضلالاته وقوانينه الظالمة.

٢ ــ المسيحية في فلسطين

إن هذه الرسالة الخاطفة قد جرى تشويهها بعد موت يسوع الناصري بأقل من ثلاثة قرون حينما انعقد مجمع نيقية عام ٣٢٥ م الذي أحيا فيه الامبراطور قسطنطين المفهوم التقليدي الملكي لفكرة الإله... فصار المعذب المصلوب ينظر إليه بمنظور السلطة الامبراطورية الرومانية والفلسفة اليونانية، وراح يتجلى على القباب الذهبية الضخمة في بيزنطة في ملامح السيد الحاكم القوي لا في ملامح الرسول الهائم في فلسطين؛ بل إنه يظهر في إحدى لوحات الموزاييك على هيئة قائد بيزنطي.

ترى ما الذي صارت إليه فلسطين في عهد السيطرة البيزنطية حيث الحكم لقيصر وحيث تقيم الكنيسة بُناها التنظيمية على غرار النظام الامبراطوري بتسلسل مراتبه، وتشكل عقائدها بلغة الثقافة اليونانية الغريبة البعيدة عن رسالة يسوع الفلسطيني؟ لقد تكاثر في فلسطين عدد الكنائس إذ بنت هيلين أم قسطنطين كنيسة في بيت لحم وأخرى على (جبل الزيتون)، وبنى قسطنطين كنيسة القيامة في أورشليم التي كان قد جعل منها مركز أسقفية. تلك هي أعمال البنائين الرومان وقد تجلت في كنائس من حجر.

ولكن إذا كان أسقف أورشليم قد نال تهنئة في مجمع نيقية على أنه المدافع عن

العقيدة المستقيمة (الصائبة) فإن (المرطقة) راحت تنتشر في فلسطين منذ مرسوم ميلانو الذي حوّل المسيحية المضطهَدة إلى كنيسة مضطهِدة.

وقد ظهر في الاسكندرية كاهن يدعى (أريوس) ٢٥٦ ــ ٣٣٦ م ذا الأصل الليبي على الأرجح. وقد تشبع في الاسكندرية التي كانت مركزاً نشيطاً للثقافة الهلنستية واليهودية والمسيحية بأفكار فيلون اليهودي وأفلوطين. وقد حكم عليه مجمع نيقية لأنه لم يقبل بالاعتراف بأن يسوع من روح الأب. إن هذا المفهوم لا وجود له في الأناجيل البتة، ولم يكتسب هذا المفهوم معناه إلا من نظرة الفلسفة اليونانية إلى الجوهر والماهية والأقانيم الثلاثة، تلك الفلسفة الغربية البعيدة عن النظرة الساميّة ونظرة الأناجيل. وقد تبنت الأغلبية العظمى من الكهنة والجماهير في فلسطين مذهب (أريوس) على الرغم من معارضة أسقف أورشليم وعلى الرغم من عقوبة الموت التي هدد بها الامبراطور كل من يخفي مخطوطاً لأريوس ولا يأتي به إلى المحرقة.

إن المسيحية الفلسطينية العريقة كانت تقاوم عناد وتعصب كنيسةٍ أضحت يونانية ــ رومانية. وهذه المقاومة تنصب على أمر أساسي يقول: هل المسيح هو الله أي من جوهر الله فهو ابنه الوحيد؟ أم هو رسول الله وابنه، شأنه شأن أبنائه الممتثلين لطاعته؟ جاء في إنجيل متّى: «طوبى لصانعي السلام فإنهم سيُدعون أبناء الله»، وجاء في إنجيل لوقا: «المؤمنون أبناء الله لأنهم أبناء القيامة». ويقول (أريوس): «إنهم يضطهدوننا لأننا نقول: إن ابن الله له بداية؛ أما الله فلا بداية له» فهو يذكّر بأن كلمة الله لا أول لها ولا آخر فلا يمكن الكلام إذن عن ولادة الرسول من الله الأب.

ويحدد أريوس في رسالته الموجهة إلى اسكندر الاسكندراني عقيدته بقوله: «نحن نؤمن بإله واحد أزلي لم يولد... إنه إله الشريعة والأنبياء والعهد الجديد الذي أعطانا كلمته منذ أبد الآبدين... وأوجدها لا كما يوجد المخلوقات والكائنات... إن كلمة الله لم تصدر عن الأب وليست جزءاً مساوياً له في الجوهر وإنما هي أزلية قبل الدهور والأزمنة». ولكن القديس هيلير يتهم أريوس بأنه «أفعى امتلأ فمها سماً».

إن هذا الجدل اللاهوتي هو الذي يتيح لنا أن ندرك سبب الاستجابة السريعة

إلى الإسلام من قبل الأريوسيين الذين وجدوا في الإسلام صدى لعقيدتهم؛ فحينما ظهر الإسلام كان رفضه لألوهية المسيح هو الأمر الجوهري الذي تمركزت حوله ألوان الجدل مع الكنيسة في فلسطين وفي البلدان التي أخذت بمذهب أريوس أو بمذهب تابعه نسطور. والتوحيد في الإسلام كما هو لدى أريوس يرفض فكرة التثليث (الأقانيم الثلاثة) التي صيغت بمنطق الثقافة اليونانية في مجمع نيقية.

وراحت المسيحية (المتشددة) تتشكل وتنمو في صوامع النساك والأديرة على نحو خاص. يقول (رابوبور) في كتابه (تاريخ فلسطين): «أصبحت فلسطين أرض القديسين والنساك والرهبان والأديرة والراهبات والكنائس الضخمة ورفات القديسين».

ولعل دير القديس سابا قرب القدس أشهر وأكبر مثال على هذا التطور الروحي المسيحي؛ ففي عام ٤٧٨ أقام أحد النساك الذي ظل يجوب في صحراء يهودا على مدى خمس سنوات وعرف فيما بعد باسم القديس سابا ــ في مغارة تقابل ديراً ما تزال آثاره ماثلة حتى اليوم. وراح مريدوه يتوافدون عليه ثم أقيم عام ٥٠١ على المغارة دير يعد من أشهر الأديرة في الشرق. وقد مرّ بهذا الدير أو عاش فيه قديسون كبار كالقديس تيودور والقديس كيريلوس ولاسيما الشخصية المرموقة القديس يوحنا الدمشقي (٦٧٥ ــ ٧٥٣) الذي أمضى في هذا الدير ثلث القرن وكتب فيه كل أعماله التي تعتبر نقطة انطلاق لحوار بين المسيحيين والمسلمين ولكن بصيغة جدلية هجومية.

كانت الحياة المسيحية في فلسطين غنية حارة، وكان رجال الدين في فلسطين يتوزعون إلى رهبان يعيشون حياة جماعية مشتركة في الأديرة كدير القديس تيودوسيوس بقاعاته المعدة للضيافة ومشاغله القائمة حول أبنية الرهبان... وإلى نساك يعيشون حياة العزلة في صوامعهم على الجبال أو في الصحراء. وكانوا يمضون أيامهم بعامة في العمل اليدوي كصنع السلال من القصب الذي ينمو على ضفاف الأردن، وفي ترتيل الترانيم الدينية والتأمل ونسخ الكتب المقدسة أو نصوص آباء الكنيسة. ويعود الجميع مساء السبت إلى الدير الذي يضم الكنيسة وقاعة الطعام كي يقيموا معاً صلاة الأحد.

كانت السيادة البيزنطية في فلسطين كلها قد تميزت بتعصب الأباطرة الذين كانوا ينظمون على الدوام حملات الاضطهاد على اليهود والسامريين، وذلك بعد مؤتمر نيقية (٣٢٥) الموجه للهجوم على (الهرطقة) الأريوسية، وبعد مؤتمر خلقدونية (٤٥١) الموجه للهجوم على النساطرة. وقد انصبت حملات الاضطهاد كذلك على (الهراطقة) من أريوسيين ونساطرة وقائلين بطبيعة واحدة للمسيح، هؤلاء الذين يجمع بينهم رفضهم لقبول ذلك التعريف للثالوث المقدس الذي كُرس مذهباً رسمياً والذي لم يستوعبه الناس من غير اليونان.

وهذا ما يفسر لنا انضمام اليهود إلى الفرس بزعامة بنيامين الطبري حينما اجتاح كسرى الساساني الفارسي فلسطين عام (٦١٤ م). وبعد خمسة عشر عاماً (٦٢٩) حينما استعاد الامبراطور البيزنطي هرقل فلسطين عادت الاضطهادات والمذابح لتنصب على اليهود و (الهراطقة) من المسيحيين.

٤
فلسطين المسلمة

١ ــ المرحلة العربية
من القرن السابع حتى العاشر الميلادي

كان دخول المسلمين فلسطين عام ٦٣٨ م (غزوة سهلة) على حد تعبير المؤرخ الإسلامي البلاذري من رجال القرن التاسع.

والحق أن ذلك لم يكن غزواً ولا نصراً عسكرياً بل تحريراً؛ ففي عام ٦٣٨ م لم يكن العرب هم الذين وصلوا إلى فلسطين وإنما هو الإسلام. إن العرب كانوا في فلسطين منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام أي منذ الهجرات السامية الأولى القادمة من الجزيرة العربية، تلك التي كانت تجوب أرجاء الهلال الخصيب من عموريين وكنعانيين وعبريين من ذوي الأصل العرقي الواحد والأسرة اللغوية الواحدة.

وتؤكد النصوص اليونانية المكتشفة في الأردن أن معظم سكان فلسطين أيام الرومان كانوا من العرب. وهناك مهاجرون آخرون قدموا مثل سائر الموجات السابقة منذ ثلاثة آلاف عام من جزيرة العرب فأقاموا في القرن الرابع ق.م مملكة الأنباط جنوبي فلسطين.

إذن كان (الإسلام) هو القادم مع موجة المهاجرين الجدد من جزيرة العرب عام ٦٣٨. وهذا (الإسلام) لم يكن يدعي أنه دين من جملة أديان أخرى؛ وإنما جاء ليكمل رسالات الوحي السماوي في فلسطين. جاء في سورة البقرة قوله تعالى: «قولوا

آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم. لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون».

وهكذا كان الإسلام في نظر الفلسطينيين اليهود وريثاً لابراهيم وموسى، وفي نظر المسيحيين معظّماً ليسوع لا على أنه إله (كما أعلن ذلك مجمع نيقية) بل على أنه رسول الله ونبي ومبشر. جاء في سورة النساء «... إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه..». وهكذا يعترف القرآن بولادة عيسى من مريم العذراء.

كان مجيء الإسلام ــ خلافاً لتعصب الأباطرة البيزنطيين ــ يبدو تحريراً لليهود وللمسيحيين الذين كانوا يسمون (الهراطقة)، أي تحريراً لمعظم سكان المنطقة ما عدا المحتلين البيزنطيين.

وكان مسيحيو اليمن يؤمنون بطبيعة واحدة للمسيح ثم أصبحوا نساطرة بعد الاحتلال الفارسي عام ٥٩٧ مثل مسيحيي سورية. وكان الغساسنة في الشمال ممن يأخذون بالطبيعة الواحدة؛ وأما اللخميون فمعظمهم من النساطرة، وأما المذهب الأريوسي فمنتشر في كل فلسطين. وكانت الكنيسة الرسمية (كنيسة خلقيدونية) تمثل أصحاب (الرأي المستقيم) كما حُدد في مجمعي خلقيدونية ونيقية؛ وكان على رأس هذه الكنيسة أسقف أنطاكية في سورية وأسقف أورشليم في فلسطين؛ وهي تستمد سلطتها من الامبراطور البيزنطي الذي كان يدعمها بقوته القمعية[1].

ولذا لدى اقتراب المسلمين من سورية وفلسطين استقبلوا ــ على أنهم محررون ــ من قبل الجماهير العربية المهيأة من الناحية الدينية للاعتراف بمبدأ التوحيد الواضح في الإسلام الذي يرى في ابراهيم وموسى وعيسى رسلاً من عند الله وأنبياء قد سبقوا (محمداً). يقول ميشيل السوري: «إن الله المنتقم قد أرسل إلينا بالعرب لينقذونا من

١ ــ يرفض أصحاب الطبيعة الواحدة ازدواجية طبيعة المسيح فيؤمنون بأنه ذو طبيعة إلهية فحسب. أما النساطرة فيرفضون الطبيعة الإلهية ولا يسلّمون إلا بالطبيعة البشرية للمسيح. أما أتباع مذهب أريوس فيؤمنون بأن المسيح كلمة الله الأزلية غير المخلوقة.

(المؤلف)

الرومان. إن كنائسنا لم ترجع إلينا فقد احتفظ كلٌّ بما يملك... ولكن العرب حررونا من وحشية البيزنطيين وحقدهم علينا».

إن التعصب القمعي لدى الأباطرة البيزنطيين يتيح لنا أن نفهم كيف تم حسم مصير سورية وفلسطين بمعركة واحدة، هي معركة اليرموك في العشرين من آب عام ٦٣٦ وكيف سُحق الجيش البيزنطي وكيف تفجر ذلك العصيان قبل معركة اليرموك بين صفوف الجنود المسيحيين الأرمن في الجيش الامبراطوري، وكيف انسحب المسيحيون العرب السوريون من الجيش البيزنطي إبّان المعركة... وهكذا وجد جيش الروم نفسه وحيداً فتم سحقه... ثم وصلت جيوش المسلمين دون قتال إلى أبواب دمشق. وفي دمشق بعد انسحاب الحامية البيزنطية قرر سكانها الاستسلام فقام منصور بن سرجون جد القديس يوحنا الدمشقي (وسرجون عربي مسيحي من كبار موظفي الامبراطورية وحاكم المدينة بعد رحيل المحتلين) ففاوض المسلمين على استسلام المدينة بعد أن كفل للسكان سلامة حياتهم وأملاكهم. وفي القدس عرض البطريرك المسيحي سوفرونيوس الصلح شريطة أن يأتي الخليفة نفسه إلى القدس لضمان تنفيذ شروط هذا الصلح، وقبل الخليفة بذلك. يصف لنا المؤرخ (رابوبور) قدوم الخليفة وصفاً جذاباً فيقول: «ألف سكان القدس الأبهة والفخامة في الثياب المذهبة للأباطرة البيزنطيين؛ ولهذا فقد رأوا في ظهور الخليفة عمر ما يذهل ويدهش إذ دخل خليفة الرسول القدس وهو يرتدي عباءة من وبر الجمل على بعير يحمل عليه كل متاعه ومؤونته اليومية من التمر. كان التناقض صارخاً بين بساطة الريفي المتصر وبين الفخفخة ومظاهر الترف السائدة لدى الأباطرة البيزنطيين وحكام الولايات. وما كان لهذا المشهد إلا أن يحدث أثراً حميداً في نفوس جمهور ساخط على حكومة اتصفت بالطغيان والوحشية».

ويذكر الأخباريون العرب أن الخليفة عمر لم يقبل الدعوة التي وجهها إليه بطريرك القدس إلى إقامة الصلاة في إحدى كنائس القدس خوفاً من أن يتخذ بعض المسلمين المتحمسين ذلك ذريعة لتحويل الكنيسة إلى مسجد تخليداً لذكرى مروره بها. هذا ولم يغادر فلسطين إلا المستعمرون القدامى والمحتلون البيزنطيون. وقد دعا الخليفة إلى وحدة

تضم أهل الكتاب جميعاً من يهود ومسيحيين ومسلمين تضمن لهم سلامة الأرواح والأملاك. ويلح الخليفة على احترام الرهبان المسيحيين فدعا إلى عدم إزعاج أولئك الذين اعتزلوا العالم كي يحققوا ما نذروا أنفسهم له.

يقول (رابوبور) المتعاطف مع اليهود في كتابه (تاريخ فلسطين): «يجب أن نقر بأن إعلاناً كهذا يصدر في بداية القرون الوسطى وتلتزم به جيوش المسلمين يشهد على تسامح كبير مشوب بروح العدالة؛ فلم يسبق لأباطرة بيزنطة ولا لأساقفة الكنيسة أن عبروا عن مثل هذه المشاعر باسم (المسيح) الذي بشر بدين المحبة. وكان لا بد لمثل هذه الدعوة الصادرة عن الخليفة أن تترك أعمق الأثر لا في نفوس اليهود فحسب وإنما في نفوس المسيحيين في سورية وفلسطين. أما اليهود فكانوا يعانون الاضطهاد، وأما المسيحيون فكانوا مضطهدين كذلك بسبب اختلاف آرائهم الدينية. وكان كلا الفريقين يرزحان تحت نير الموظفين وعبء الضرائب الباهظة».

* * *

كانت سياسة الخلفاء الأمويين الأوائل تتسم بالتسامح والانفتاح حتى إن بعض المسيحيين كمنصور بن سرجون وابنه وحفيده المعروف بيوحنا الدمشقي تقلدوا مناصب هامة في خزينة الدولة وماليتها فكانوا شخصيات مرموقة في نظام الحكم... وهكذا إلى أن جاء الخليفة عمر بن عبد العزيز عام ٧٢٠ م فقرر أن لا يتسلم مسيحي منصباً رفيعاً في الدولة إلا بعد أن يسلم... حينذاك استقال يوحنا الدمشقي واعتزل في دير القديس سابا قرب القدس، وعاش حتى موته دون أن يعاني أي ضغط من جانب المسلمين.

إن التناقض كان صارخاً إذا قسنا ذلك إلى تعصب الأباطرة البيزنطيين المسيحيين؛ فحينما كتب القديس يوحنا الدمشقي في أوج أزمة (حرب الأيقونات) مقالة لاهوتية رائعة دفاعاً عن فن الأيقونات عقد الامبراطور البيزنطي (كونستانتين كوبرونيم) عام ٧٥٤ م مجمعاً من ٣٣٨ أسقفاً ليصدر (حرماناً) قاسياً على يوحنا

الدمشقي جاء فيه: «اللعنة على منصور بن سرجون الذي خان المسيح والذي يميل قلبه إلى المسلمين. اللعنة والحرمان لعدو الامبراطورية يوحنا الدمشقي المبشر بالجحود والمعظّم للأيقونات!». يقابل ذلك أن يوحنا الدمشقي في صومعته بدير القديس سابا في فلسطين التي أصبحت مسلمة كان يناظر بحرية ويجادل مبادىء الإسلام نفسه ويدافع عن العقيدة المسيحية الرسمية.

وهكذا عاشت فلسطين في ظل الخلفاء العرب أربعة قرون من السلام والازدهار؛ وكانت أورشليم ــ القدس المدينة المقدسة للمسلمين واليهود والمسيحيين.

وبعد موت الخليفة علي زوج فاطمة وصهر الرسول اجتمع عام ٦٦٠ م في القدس الزعماء العرب لمبايعة معاوية مؤسس الخلافة الأموية الذي يروي الأخباريون العرب أنه صلى في (الجلجلة) و (جتسماني) قرب القدس. وحينما تسلم عبد الملك بن مروان الخلافة بعد موت يزيد بن معاوية عام ٦٨٣ م بنى في القدس المسجد الأقصى ومسجد الصخرة رمزاً لوحدة الديانات الثلاث الابراهيمية: (اليهودية والمسيحية والإسلام).

كان مسجد الصخرة الذي تم بناؤه فعلاً عام ٦٨٧ بعد نصف قرن من موت النبي أول رائعة فنية إسلامية. إن (قراءة) متمعنة في هذا الصرح بغية النفاذ إلى معناه الروحي العميق توحي إلينا بأنه يحمل في تكوينه وقوامه الموضوع الأساسي لما يسمى بالفن الإسلامي المعبر في جوهره عن العقيدة القرآنية. ونحن لا يمكننا أن ننفذ إلى كنه هذا الفن إلا انطلاقاً من مقتضيات تلك العقيدة.

إن قبة مسجد الصخرة تقدم لنا نموذجاً رائعاً لهذا الفن: فالموقع الذي بنيت عليه وفن بناء هذا الصرح وأبعاده وما فيها من تناسب، وتشكيلاته والألوان التي تزينه ومنظره الخارجي وتناغم فسحته الداخلية... كل هذا ينبع من الإيمان الذي أوحى بهذا البناء.

ومن السهل علينا ــ ولكن دون جدوى ــ أن ننطلق من خارج هذا البناء لنبحث فيه عن أصول بيزنطية وسورية وفارسية أو هيلنية ورومانية، وأن نتلمس فيه

بعض الأساليب الفنية المعمارية من هنا وهناك، أو نرى بعض العناصر التزيينية أو ملامح الانسجام الهندسي المتوازن المجلوب ... قد يكون كل ذلك صحيحاً؛ فالمؤرخون وعلماء الآثار ونقاد الفن والمعماريون قد قاموا على نحو مجدٍ وجيد بهذا العمل التحليلي مؤكدين أن البنائين والحرفيين وصناع الموزاييك الذين شاركوا في تشييد هذا الصرح قد وفدوا من أرجاء (الامبراطورية) العربية جالبين معهم كل ما لديهم من تقنيات وأساليب في العمل.

ولكن التوقف عند هذا التحليل الخارجي دون الانطلاق من الداخل أي من ذلك المحرض الجوهري الذي سيتم بفضله تحقق (التركيب) الجديد، يصرفنا عن الأمر الأساسي، نعني به ذلك المبدأ المنظم لكل شيء والذي يخلع على المعطيات الوافدة ألقاً وحياة جديدة ليصبها في قالب بكر وليعبر عن عقيدة واحدة وسط تنوع الثقافات، عقيدة تبعث الحياة في هذه الثقافات وتستخدم لغتها.

ولا بد من الإشارة إلى اختيار الموقع وحجم الوسائل التي سخرت للعمل في مسجد الصخرة؛ فلقد قرر الخليفة أن يخصص لهذا البناء كل الموارد المالية التي حصلت عليها الخزينة من مصر على مدى سبعة أعوام.

وقد يكون أمراً مضحكاً أن نقف عند النكتة القائلة: إن الخليفة كان يرغب في أن (يتحدى العالم) ببناء صرح إسلامي لا يضاهيه في جماله ما لدى الديانات المنافسة، وأنه حاول بذلك أن يصرف طوائف الحجاج عن التوجه إلى مكة التي كان يعتصم بها الثائر عبد الله بن الزبير بعد أن استولى على السلطة فيها. والذي لاشك فيه أن مثل هذه الاعتبارات والحسابات قد تكون قائمة في قرار الخليفة عبد الملك؛ لكن إنجاز تلك الصيغة الجمالية الرائعة الرائدة التي ستوجه على مدى ألف عام الفن والعمارة في الإسلام والإبداعات الفنية في ثلاث قارات ... إن هذا الإنجاز لا يمكن أن يفسَّر انطلاقاً من غرور تافه مضحك ومطامع وحيل يمارسها حاكم زائل.

هذا، ولم يزعم النبي محمد أنه قد أتى بدين جديد وإنما قد أتى ليذكّر كل الناس بدين الفطرة الأصيل الذي قدم ابراهيم النموذج الأمثل له بتلبيته المطلقة نداء الله له بالتضحية.

والواقع أنه ليس من قبيل المصادفة التاريخية أو من قبيل تلبية نزوات حاكم طاغية أن يلتقي منطلق الفن الإسلامي بمنطلق الحياة الروحية للتقاليد الابراهيمية واليهودية والمسيحية والإسلامية في القدس حيث تجعل التعاليم اليهودية منها مكاناً لتضحية ابراهيم، والتعاليم المسيحية مكاناً لدعوة المسيح واستشهاده، وحيث تجعل تعاليم القرآن من (الصخرة) منطلقاً لعروج النبي محمد من الأرض إلى السماء، وذلك قبل ستة قرون من ظهور الكوميديا الإلهية لدانتي.

إن مسجد قبة الصخرة يقوم على قمة الجبل الذي تسميه الرواية التوراتية جبل (موريزا) حيث تهيأ ابراهيم لتنفيذ تضحيته الكبرى بذبح ابنه الوحيد، ولكن الله أمره بالكف عن ذلك. وفي هذا المكان نفسه بنى سليمان الهيكل الذي هدمه نبوخذ نصر وأعاد هيرودوس بناءه ثم أتى عليه الرومان فيما بعد. وكان الخليفة عمر بن الخطاب بعد دخوله القدس قد بنى مسجداً متواضعاً من الخشب عام ٦٣٧ على سطح مقفر من الأرض تعلوه بقايا الآثار... وفي هذا الموضع شيد الخليفة الأموي عبد الملك مسجد الصخرة المجاور لكنيسة الصخرة المعروفة بكنيسة القيامة، والذي يشبهها أشد الشبه. إن مسجد الصخرة رمز للوحدة القائمة بين الديانات الثلاث السماوية واستمراريتها.

ويدل المظهر الخارجي لبناء المسجد على الرسالة الجوهرية لعقيدة تلك الديانات؛ فمدخل المسجد ذو القاعدة الثُمانية الأضلاع بقبته الدائرية كأنه يمثل العبور من الأرض إلى السماء. أما قبة المسجد المكسوة بالذهب والتي نفذتها أيدي صناع أتقياء كرجاء بن حيا ويزيد بن سلّام والتي كرست لها الثروات التي وضعت بين أيديهم لإنجاز هذا الصرح فيشبهها الحجاج والمسافرون بجبل من نور علوي أو بشمس ساطعة، وذلك حينما يتلألأ ذهب القبة ويلمع في الشروق والغروب بتلك التموجات والألوان اللا متناهية.

وكل ما في هذا البناء المغمور بالضياء ينتقل بالإنسان إلى حياة أرفع وأسمى من الحياة اليومية. إن هذا الرمز المصنوع من الحجارة كأنه يذكّر الإنسان بأن هناك عالماً آخر ممكناً يحرر الإنسان من عالم المادة ليدعوه إلى عالم جديد يوحي إليه بوحدة الله وأزليته.

بل إن هذه الوحدة التي يوحي بها مسجد الصخرة ليست رمزاً فحسب؛ فالمؤرخ (رابوبور) ينبه إلى «أنه بعد فتح فلسطين على يد المسلمين قد تحسن وضع اليهود على نحو ملموس وزاد نشاطهم الثقافي. وكانت أكاديمية يهودية قد بنيت في طبريا بعد الاحتلال الروماني بإشراف العالم التقي رابين بن زكّا. وقد رأى هذا العالم بعين الصواب أن الجماعة اليهودية كان لابد لها أن تسلك سبيل حياة جديدة مبنية على وحدة الإيمان وصفائه بعد أن فقدت وحدتها القومية. وكان ماقام به هؤلاء الأحبار الربانيون من تفسير وتأويل للنصوص هو الذي شكل الأساس لتلك الظاهرة التاريخية الجديدة؛ إنها ظاهرة (المذهب اليهودي).

وكان (التلمود) الذي نشأ في أكاديمية طبرية قد شكل البؤرة التي تجمّع عليها اليهود على مدى أكثر من ألف عام: وهكذا حلت (اليهودية) مذهباً بديلاً للدولة القومية.

ومع عهد الخلفاء المسلمين استطاعت أكاديمية طبريا أن تنتقل إلى القدس لتصبح مركز إشعاع ثقافي: فلقد جرى فيها تثبيت النصوص العبرانية للعهد القديم. وفي فلسطين تم آنذاك تأليف أجمل تراتيل الصلوات الدينية اليهودية.

وفي ظل حكم الخليفة العزيز الفاطمي (٩٧٥ ـ ٩٩٦ م) تسلم عيسى بن نسطوريوس وهو المسيحي منصب الوزير الأول فعين اليهودي منسّى بن عزرا حاكماً لدمشق مما جعل المسيحيين واليهود حكاماً للدولة. وكان رد الفعل شديداً أيام الحاكم بأمر الله؛ فلم تكن الحالة في فلسطين أيام حكم الفاطميين على ما يرام؛ وقد أحرق المسلمون عام ٩٦٧ البطريرك حنا بدعم وتأييد من اليهود، وأمر الحاكم بأمر الله عام ١٠٠٩ بهدم كنيسة القيامة؛ ولكن هذه الأحداث لم تكن إلا أحداثاً ذات طابع فردي، ولم يتعرض اليهود والمسيحيون في أرض الإسلام إلى اضطهادات ومذابح كتلك المذابح الضخمة التي جرت في الغرب ومنها المذابح الدموية العارمة إبان احتلال الصليبيين للقدس وفظائع محاكم التفتيش الكاثوليكية في اسبانيا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر التي تناولت المسلمين واليهود والمسيحيين (الهراطقة)، ومذابح اليهود في أوكرانيا بروسيا المسيحية. وأخيراً مجازر ألمانيا الهتلرية للشيوعيين والكاثوليك واليهود.

٢ ــ مرحلة الغزوات
من البيزنطيين حتى الصليبيين
من القرن العاشر حتى الثالث عشر

طوال هذه المرحلة لم يعرف يهود ومسيحيو فلسطين الاضطهاد والمذابح إلا على يد الغزاة الغرباء. وقد جرى ذلك على ثلاث مراحل:

ففي عام ٩٥٠ م قامت جيوش الامبراطور المسيحي بقيادة القائد نقفور فوكاس البيزنطي باجتياح فلسطين. يقول المؤرخ (رابوبور): «قام نقفور بذبح السكان وإحراق البيوت وإتلاف الحقول والبساتين وقطع الأشجار المثمرة وبيع الرجال والنساء والأطفال بيع العبيد... ويمكن القول إن الأرض المقدسة صارت إلى صحراء بأيدٍ مسيحية».

ومن عام ١٠٧١ إلى عام ١٠٩٦ أصاب فلسطين الخراب على أيدي السلاجقة (وقد اشتق اسمهم نسبة إلى زعيم قبيلة تركية كانت تحكم منطقة بخارى في آسية الوسطى). كان السلاجقة يدّعون الإسلام ولكنهم نهبوا المساجد مثلما نهبوا الكنائس ومعابد اليهود؛ وكانت حالة الحجاج اليهود والمسيحيين في أيامهم مأساوية فاجعة.

أما النكبة الثالثة التي أصابت فلسطين فكانت على يد الصليبيين بدءاً من عام ١٠٩٦ م. كانت حجة الصليبيين (حماية) مسيحيي الشرق فكانت الكتل الجماهيرية الشعبية تُشحن بتبشير متعصب رمى بجموع المعدِمين الفقراء على الطرقات.

ونحن لا نشك في الإيمان وسلامة الطوية لدى أولئك الذين لم يصل منهم إلا القليل القليل إلى فلسطين؛ لكن دعاية الكنيسة المنصبة على (الكفار) لم تكن تدفع بتلك الجموع إلى الموت فحسب بل إلى الجريمة كذلك: فالشعار اللامعقول الإجرامي الذي طرحته الكنيسة بمعاداة الساميّة في وجه من (قتلوا المسيح) قد دفع بالجماهير إلى بدء (الحرب المقدسة) بمذابح بدأت في أوروبا وتناولت طوائف يهودية عديدة ليرمي بهذه الجماهير على طريق آسيا الوسطى التي لن تصل إليها سالمة. وقد التحقت بقايا منهم بالحملة الصليبية الثانية النظامية التي بدأت بعد ستة أشهر من تلك الحملة الصليبية الشعبية التي كانت تبريراتها ضعيفة غامضة.

في السابع والعشرين من تشرين الأول عام ١٠٩٥ وفي اليوم العاشر من أيام مجمع (كليرمون فيرّان) أعلن البابا (أوربان الثاني) التعبئة العامة في الغرب داعياً المحاربين إلى سلوك الطريق المؤدية إلى كنيسة القيامة لانتزاعها من (العِرق الملعون) والاستيلاء عليها بأنفسهم. ولقد أيقظت هذه الدعوة العرقية المتعصبة جشع (الغزاة) المغامرين فكان لها صدى واسع في فرنسا على نحو خاص.

أما (البابا) فكانت تلك الحملات لديه فرصة سانحة لإمكانية توحيد الحكام الطائشين بغية إنجاز مشروع مشترك معهم وإقامة نظام ديني للحكم؛ وما دام المشروع بمبادرة من البابا فسيكون هو نفسه الموجه والمسير. وفي الوقت نفسه كانت الحملات وسيلة لإرساء قواعد الكنيسة الرومانية في (الأرض المقدسة) كي تقف في وجه الكنيسة الشرقية ولكي تكون مركز قوة لفرض وحدة الكنائس بزعامة البابوية. يقول كلود كاهن: «إن إقامة دولة لاتينية في سورية وفلسطين ستعمل على خلق قاعدة لنفوذ الكنيسة الرومانية في الشرق».

أما الفرسان من رجال الإقطاع فكانوا ينظرون إلى العملية المقترحة من قبل البابا لا على أنها (للدفاع) بل على أنها (غزوة) مغرية رابحة. وكان الهدف لديهم واضحاً: إنه اقتطاع امارات في سورية وفلسطين بحجة (شريفة) تخفي نياتهم الحقيقية التي سرعان ما انكشفت. وهكذا كانوا يتلقون سلفاً صكاً كاملاً للغفران يمحو خطاياهم كما

يتلقون ما يسدّون به ديونهم في أوروبا فيضمنون لأنفسهم مستقبلاً زاهياً للنهب في الشرق.

وأما التجار الإيطاليون في أمالفي وجنوه والبندقية فقد وقفوا في أول الأمر موقف الحذر فاكتفوا بنقل (الصليبيين) لأنهم حسب قول كلود كاهن «كانوا موزعين حائرين بين جشعهم إلى الاستيلاء على كنوز الشرق فيغتنون لا على حساب المسلمين فحسب بل على حساب منافسيهم الغربيين كذلك، وبين خوفهم من أن يفقدوا في مشروعهم المغامر إمكانات استمرار التجارة مع بعض البلاد المسلمة». هذا ولم يرسل تجار البندقية المساعدات إلا عام ١١٠٠ حينما تحققوا من النصر المؤكد الذي سيؤمن لهم المنافذ التجارية الرابحة.

إن الأهداف التي رمى إليها كل طرف تفسر لنا الوسائل التي وضعت موضع التنفيذ.

... بعد حصار دام أربعين يوماً استولى الصليبيون بزعامة (غود فروي دي بويّون) على المدينة المقدسة لدى اليهود والمسيحيين والمسلمين. وراح الصليبيون المنتصرون يمارسون طوال أسبوع العربدة والسلب والذبح؛ وقد لقي سبعة آلاف مسلم حتفهم بحد السيف دون مراعاة للعمر أو الجنس؛ أما اليهود فقد التجؤوا إلى الكنيس الرئيسي لإقامة الصلاة. يقول أمين معلوف في كتابه (الصليبيون في نظر العرب): «لقد سد الفرنجة كل الطرق ثم جمعوا حزم الحطب حول الكنيس وأشعلوا فيها النار. أما الذين حاولوا النجاة بأنفسهم فقد قضي عليهم في الأزقة المحيطة بالكنيس، وأما الباقون فقد أحرقوا أحياءً».

وهكذا بعد نهب القدس جرى اقتسام بقايا الغنيمة بين الزعماء فأصبحت الرها إمارة بورغونية وأنطاكية إمارة نورماندية وكانت طرابلس من نصيب البروفنس؛ وأنشئت مملكة مسيحية لاتينية في القدس التي اعتبرت مركزاً لحكم إمارات المنطقة؛ وأقيم نظام إقطاعي على النمط الغربي مطعم بطابع عسكري كهنوتي لا يمت بصلة إلى ماضي البلاد وسكانها من اليهود والمسيحيين الذين كانوا أقرب إلى العرب المسلمين

منهم إلى أولئك الأجانب الذين كانوا يضطهدونهم على أنهم (هراطقة).

ولم تكن هذه الدولة التي لا جذور لها تجمع العائدات من البلاد المحتلة فحسب وإنما كانت تأتيها المعونات المالية التي تجمعها لها الكنيسة في الغرب. هذا، ولم تكن لتستطيع الاستمرار في الحياة إلا بسبب الانقسامات في العالم الإسلامي. وبعد أن نجح حاكم مصر الأمير صلاح الدين الأيوبي ذو الأصل الكردي في جمع شمل القوى التي كانت متفرقة حتى ذلك الوقت قام بتحرير القدس في الأول من تشرين الأول عام ١١٨٧ تاركاً لكل طوائف المسيحيين حرية العبادة، وسمح بفتح معابد اليهود بفضل وساطة طبيبه وصديقه الفيلسوف اليهودي الكبير ابن ميمون.

وقد استُخدم مبدأ (الحرب الصليبية)ـــ خارج فلسطين كذلكـــ ذريعة لتحقيق أهداف شتى فكانت المذابح في القسطنطينية، قلب المسيحية في الشرق، ونهبت عام ١٢٠٤، وكانت (الإبادة المقدسة) للمانويين عام ١٢٤٤ م.

وهكذا منيت بالإخفاق جميع محاولات استرجاع القدس بالقوة؛ وكان القديس فرانسوا الأسّوزي هو الوحيد الذي قدم وهو أعزل إلى دمياط المحاصرة حصاراً شديداً عام ١٢١٩ ليلتقي السلطان (الملك الكامل)ـــ ابن أخي صلاح الدينـــ الذي استقبله بمودة وسمح له بالدخول إلى القدس ليمارس التبشير فيها.

إن هذه المبادرة الفريدة ذات الروح المسيحية الأصيلة على هذا الصعيد لم تفلح في إحلال السلام لأن الصليبيين تابعوا القتال فلحقت بهم هزيمة دامية. وقد أعاد السلطان (الملك الكامل) عام ١٢٢٨ مـــ وهو المنتصرـــ القدس سلمياً إلى الامبراطور فريدريك الثاني ملك صقلية؛ وهو من كبار المعجبين بالثقافة العربيةـــ الإسلامية. وقد رفض فريدريك الثاني المشاركة في حملة صليبية جديدة فأدى ذلك إلى (حرمانه) من قبل البابا. هذا ولم تجدِ قط جهود فريدريك شأنها شأن جهود القديس فرانسوا الأسوزي وذلك بسبب عناد البابوات وأتباعهم من الصليبيين الذين لم يحتكموا إلا إلى السلاح.

وبعد قرنين من الحروب المتواصلة التي تغذيها أسلحة الغرب وأمواله أبحر آخر

صليبي من مرفأ عكا . وهكذا انتهت تلك المغامرة العسكرية المشؤومة البعيدة كل البعد عن العقيدة المسيحية بُعدَ الصهيونية السياسية عن العقيدة اليهودية وتعاليم أنبيائها .

إن الحملات الصليبية في جوهرها ما هي إلا صهيونية مسيحية ، والصهيونية السياسية ليست إلا صليبية جديدة ؛ فكلاهما تحدوهما دوافع واحدة لا تسعى أبداً إلى التوحد والاندماج مع العقائد الشرقية الأخرى من مسيحية وإسلامية ، كما تحدوهما الدوافع نفسها في السيطرة على الشرق لتكوين (رأس جسر) متقدم للغرب أو قلعة له .

* * *

وقد أصابت سورية وفلسطين قبل نهاية الحملات الصليبية كوارث جديدة فقد اجتاح الأتراك البلاد عام ١٢٤٠ وذبحوا آلاف المسيحيين وهدموا المدينة . وبعد انتصار المماليك الذين كانوا جنوداً مرتزقة لسلطان مصر على الأتراك عاشت فلسطين في ظل السيطرة المصرية . ولم يدم ذلك إلا مدة قصيرة ففي عام ١٢٥٠ انقضت عليها موجة كاسحة ؛ إنها موجة المغول الذين أخذوا من الصليبيين وعداً بالوقوف على الحياد .

٣ ــ السيطرة التركية من القرن الثالث عشر إلى القرن التاسع عشر

ومنذئذ عاشت فلسطين قروناً مأساوية مظلمة.

ففي عام ١٤٥٣ م حينما دحر الأتراك العثمانيون الامبراطور كونستانتين واستولوا على القسطنطينية وقعت فلسطين مرة ثانية تحت وطأة الاحتلال الأجنبي. هذا ولم تعرف فلسطين فترة من الرخاء والازدهار إلا في (العصر الذهبي) للامبراطورية العثمانية أي في عهد السلطان سليمان القانوني. وإذا استثنينا هذه الفترة (المضيئة) فإن اقتصاد فلسطين قد راح ينهار لأن زراعتها وصناعتها وحركة مرافئها كانت تتقهقر... والضرائب الباهظة قد أثقلت كاهل الفلاحين. أما صناعة النسيج وإنتاج الزيت والصابون فتراجعت وسحقتها ضرائب وتكاليف المحتلين. ثم جاء الطاعون عام ١٥١٣ ليفتك بأهلها.

كانت حالة فلسطين تحت سيطرة العثمانيين (المسلمين) حالة لا يحسدها عليها أحد؛ ولذا كثرت الانتفاضات على المحتلين... ففي عام ١٦١٣ إلى عام ١٦٣٣ ثار الأمير الدرزي فخر الدين المعني في لبنان وبسط سلطانه على جزء من فلسطين. وبعد قرن من الزمن قام زعيم قبيلة عربية يدعى عمر الزعين المعروف بالضاهر وراح يقاتل مطالباً بالاستقلال؛ وانطلاقاً من عاصمته صفد حرر طبرية ثم عكا عام ١٧٤٩ وأصبح سيداً على معظم منطقة الجليل؛ ولكنه سُحق عام ١٧٧٥ بعد سقوط حاكم

مصر المملوك علي باي الذي كان قد دعمه بعض الوقت. ثم جاء الوالي التركي الباشا (الجزار) فحكم حكم الطغاة وخرب البلاد بالضرائب التي فرضها على المواد الاستهلاكية. وقد دام حكمه عشرين عاماً على الرغم من انتفاضات مدن لبنان عام ١٧٨٠ وانتفاضات بدو فلسطين بعد عدة سنوات والفتن العديدة التي قامت في دمشق ولبنان عام ١٧٨٩ و١٧٩٠ و ١٧٩٨. وفي مواجهة هذه المقاومة أطلق (الجزار) أنكشاريته وسحق العصاة بلا رحمة.

كان (الجزار) يحكم الجزء الأعظم من فلسطين وسورية حينما اجتاح (بونابرت) ١٧٩٩ فلسطين؛ وقد ارتد نابليون عن عكا بفضل مساعدة الانكليز للجزار. حينذاك بدأت هجمة الأوربيين على العالم العربي... وبعد قرن من الزمن أي في عام ١٩١٧ تم الاتفاق على تقسيم تركة الامبراطورية العثمانية وذلك بعد هزيمة ألمانيا حليفة تركيا.

كان مصير فلسطين منذ زمن بعيد يتلاعب به الغرب بعيداً عنها.

القسم الثاني

تاريخ أسطورة

مدخل

فلسطين في مخيّلة الغرب

منذ سقوط القسطنطينية في يد الأتراك عام ١٤٥٣ م وحتى حملة نابليون على مصر وإخفاق حملته على فلسطين في عكا عام ١٧٩٩ كانت أرض فلسطين مقاطعة تابعة للامبراطورية العثمانية. وكان مصيرها ومستقبلها يقرران من الخارج: فمنذ القرن السادس عشر نهضت (فلسطين) أخرى من أرض الأحلام وراحت تعيش حياة جديدة في مخيلة شعوب الغرب.

ونحن مضطرون إلى كتابة تاريخها انطلاقاً من هذه الأحلام؛ فمنذ أن صارت (الأساطير) والأحلام أداة مسخرة للسياسة منذ عام ١٨٩٧ وحتى أيامنا هذه سيتم صرف فلسطين مرة أخرى طوال قرن كامل عن رسالتها على أنها أرض الرسالات السماوية... وستكون فريسة لاستعمار جديد ومسرحاً لحروب لا تنقطع. وهكذا سوف يتوقف الحوار بين الحضارات، ذلك الحوار الذي بدأ على أرضها منذ آلاف السنين فيما بين أقدم وأروع ثقافات العالم، ثقافات ما بين النهرين ومصر؛ إنه الحوار بين التوراة الكنعانية وتوراة العبريين، بين رسالات أنبياء اسرائيل والمسيحية والإسلام، بين الشرق والغرب، بين آسيا وافريقية وأوروبة... من دمشق إلى بغداد، ومن أنطاكية إلى الاسكندرية وانتهاء بقرطبة... ذلك الحوار الذي كان مسرحه تلك المراكز للازدهار الروحي الكبير حيث تفاعلت علوم وفلسفات الهند وفارس واليونان وبيزنطة.

إن كل ذلك سيتم تجاهله أو طمسه على يد الاستعماريين الأوربيين في القرن التاسع عشر من بونابرت إلى بلفور، وفي القرن العشرين من هرتزل إلى شارون إذ أصبحت الصهيونية السياسية في فلسطين (وكيلة) لاستعمار مشترك.

إن الجذور العميقة لعملية صرف فلسطين عن تاريخها ترجع إلى القرن السادس عشر أي إلى حركة الإصلاح الديني الكبير حيث تم التحول من مسيحية معادية للساميّة إلى (مسيحية ــ صهيونية)، كما ترجع هذه الجذور إلى عصر النهضة إذ مهد هذا العصر لانحسار الإيمان في كل الأديان ليخلع طابع العلمانية على الحياة فطرح المسألة التالية القائلة: كيف نعرّف (اليهودي) بغض النظر عن دينه؟

إن تاريخ فلسطين المعاصر لا يمكن فهمه وإدراكه دون دراسة لهذا المسار ذي الشعبتين.

١
العهد القديم وولادة الصهيونية المسيحية

إن الموقف التقليدي للكنيسة الرسمية تجاه اليهود طوال ما يقرب من ألفي عام (حتى المجمع المسكوني الثاني في الفاتيكان عام ١٩٦٤) كان يقوم على مقولات ثلاث

أولها ــ أن اليهود بقتلهم المسيح قد قتلوا (الإله).

ثانيها ــ أن (الشعب المختار) إذن صار هو شعب (الكنيسة).

ثالثها ــ العهد القديم صورة سابقة للعهد الجديد ترمز إليه وتبشر به.

وهكذا إذن يقودنا التفسير التقليدي إلى القول بأن اليهود حينما رفضوا الاعتراف بالمسيح على أنه رسول الله قد عزلوا أنفسهم عن (طائفة) ابراهيم فانتفت عنهم صفة (شعب الله المختار) إذ حكموا على أنفسهم بالدينونة من جراء خطاياهم... وقد سبق أن عاقبهم الله بطردهم من فلسطين ونفيهم إلى بابل. ومع هذا فالوعد الذي قطعه الله لابراهيم قد تحقق؛ فعلى الرغم من خطايا اليهود وبعد عقابهم سمح لهم في القرن السابع ق.م بالعودة إلى فلسطين على أثر قرار قورش ملك فارس. وحينما ارتكبوا أشد المعاصي مرة أخرى برفضهم الاعتراف بيسوع المسيح الذي تمم الوعد عاقبهم الله أشد العقاب فبدد شملهم ــ كشعب ــ ورمى بهم في أرجاء الأرض. وهكذا لم يعد أمامهم أمل في الخلاص الفردي إلا باعتناقهم المسيحية.

أما أهمية القدس (التي كانت مركز أسقفية منذ يعقوب قريب
فما انفكت تنحسر لدى الكنيسة الرسمية... وازداد هذا الانحسار بعد عام
حينما أعطى البابا غريغوار الكبير ــ حامي البابوية ومصدر السلطة المسيحية
الأولوية فجعلها مركز البابوية. ولم تلعب القدس على هذا أي دور في القيادة
فاكتفت بأن تكون مقصداً للحجاج. ولم تسترجع القدس أهميتها إلا حينما
عليها الأتراك فطمع بها الصليبيون. هكذا كان المذهب الرسمي للكنيسة
طوال ألفي عام. وقد نجم عن ذلك نتائج كبيرة:

١ ــ عمل هذا المذهب الرسمي على ولادة موقف مسيحي خاص معاد للسامية
نظرت الكنيسة الكاثوليكية حتى منتصف القرن العشرين إلى اليهود على أنهم
الذي صلب المسيح؛ وهو موقف رهيب يحمّل شعباً كاملاً طوال قرون مسؤولية
نفذها منذ ألفي عام رجال الكهنوت اليهودي.

٢ ــ صار المذهب الرسمي للمسيحية من وجهة نظر عقائدية تبريرية ــ
ظهور (مدينة الله) للقديس أوغسطين ــ مرتبطاً بقراءة العهد القديم قراءة رمز
فيما ورد في العهد القديم من أحداث تاريخية وأقوال للأنبياء صورة رمزية
كناية عنها.

إن هذا الاتجاه إلى الاعتقاد بأن التاريخ يبدأ (بنا)، وبأن الماضي لا يمكن
إلا على أنه تحضير وانتظار لما سيحدث (لنا)... لم يكن وقفاً على المسيحية
وذلك من سوء الطالع.

نعم إن مثل هذا المفهوم للتاريخ المكتوب على أنه تبشير بمستقبل جاهز
يتيح لكل طرف أن يعدّ نفسه خاتمة للملحمة الإنسانية وغاية التاريخ وحد
ووحياً لا يأتيه الباطل. وبهذا المنظور يصبح كل (ماض) حدثاً عفّى عليه
ويكون كل إبداع جديد انحطاطاً ومروقاً!

إن العبريين وقد ادعوا لأنفسهم الامتياز بالوعد وبأنهم شعب الله
واليونان باحتقارهم المتعالي (للبرابرة) أي لكل ما ليس يونانياً، والرومان
(عقدة) التفوق والامتياز ثم الكنيسة التي خلفتهم مدعيةً العالمية

وأولئك المسلمين الذين انغلقوا على خصوصيتهم ففسروا الآية القرآنية (.. خير أمة أخرجت للناس) لا على أنها دعوة والتزام بل على أنها امتياز مكتسب، وذلك بروح من الاكتفاء المتعجرف... إن كل هؤلاء وأولئك كانوا يعدّون أنفسهم محور العالم شأنهم شأن أباطرة الصين القديمة.

ولقد ضخم الغربيون ذلك الاتجاه إلى تبني التاريخ واحتكاره فقاموا باسم (التقدم) ليطبعوا بطابع العلمانية التسليم القديم (بالمشيئة الإلهية) معتبرين أنفسهم بذلك قمة التقدم وصيغته النهائية، وذلك على أثر أطروحات كوندورسيه وهيغل في فلسفته للتاريخ وأوغست كونت في قانون (الحالات الثلاث للإنسانية).

أما الكنيسة المسيحية بعلاقتها بتاريخ اليهود الذي سبقها فإن (العودة إلى صهيون) قد فسرت لديها على نحو رمزي بعودة المسيحيين إلى صفاء إيمانهم... وهكذا استمر ذلك الاتجاه في الأناجيل ولا سيما إنجيل (متى) الذي يميل إلى إظهار حياة المسيح على أنها تحقيق لنبوءات العهد القديم.

ولقد تفجر الاتجاه المعادي للساميّة في المسيحية ذلك التفجر الوحشي على نحو خاص في الحروب الصليبية؛ فالمذابح الكبرى الأولى كانت على يد المحاربين المسيحيين القادمين إلى فلسطين. ولم يكتف (غود فروي دي بويّون) منذ استيلائه على القدس وجيشه بذبح المسلمين وطردهم بل حاصروا الطائفة اليهودية داخل الكنيس وقضوا عليها بإحراقها.

وفي أوروبا كان الذين شردوا اليهود هم الملوك (الصليبيين): فلقد قام إدوارد الأول ملك إنكلترا بطردهم عام ١٢٩٠ م؛ وفي عام ١٣٠٦ حذا حذوه ملك فرنسا (فيليب دي بل)؛ وفي اسبانيا المسيحية طرد اليهود أو ذبحوا على يد الملوك (الكاثوليكيين جداً) وذلك حينما قضوا على غرناطة، آخر مملكة إسلامية عام ١٤٩٢؛ وكانت (روسيا المقدسة) مسرحاً لمذابح كبرى لليهود عام ١٦٤٨ م على يد القوزاق بزعامة بوغدان خميلنتسكي.

إن القراءة الرمزية للعهد القديم لم تحل محلها قراءة عادية إلا بدءاً من تلك

المرحلة التي جرت فيها ترجمة التوراة إلى الألمانية على يد (لوثر) فأصبحت التوراة في البلدان البروتستانتية بلغتها الشعبية لغة كل الشعوب وفي متناول الناس من غير الرهبان الذين كانوا حتى ذلك الحين يحتكرون التوراة وامتياز تفسيرها. هذا ولم تطرح المسألة اليهودية أول الأمر طرحاً (إنسانياً) كان عليه أن يضع حداً للتفرقة العنصرية ولكل ألوان النبذ والتشريد، وإنما طرحت طرحاً (لاهوتياً) يقول: ما موقع اليهود في المشروع الإلهي؟

وقد احتل دور اليهود في تحقيق الوعود التوراتية بما فيها من إشارة إلى (العهد) والوعد بالأرض و (الشعب المختار) و (العودة) مكان الصدارة في علوم الآخرة واللاهوت لدى البروتستانت.

وقد وزعت هذه المواضيع اللاهوتية توزيعاً سمفونياً في روائع أدبية ضخمة في الغرب المسيحي: ففي انكلترة كتب الشاعر ملتون (الفردوس المفقود) وكتب بليك (أورشليم)؛ وفي فرنسا كتب الأسقف بوسويه كتابه (مقالة في التاريخ العالمي) يجعل فيه من اسرائيل حجر الزاوية في التاريخ العالمي؛ وكتب راسين عدة مسرحيات مستمدة من التوراة، منها (أستير) و (أتالي)؛ وفي ألمانيا نرى ليسينغ وفيخته المثاليين يجعلان العداء للسامية مرهوناً بالعداء لليهود ويقترحان حلاً للمشكلة اليهودية يقول: «لا حل إلا باسترجاع الأرض المقدسة وإرسال اليهود إليها».

وقد عمل هذا المنظور ــ حتى أيامنا هذه ــ على تشويه تاريخ فلسطين فقصره على الوجود اليهودي فيها إذ لخص أربعة آلاف عام من التاريخ في مرحلتين مستقلتين تاريخياً، دامت الأولى سبعين عاماً في ظل داوود وسليمان ثم تلاها انحطاط مملكتي يهودا والجليل وخرابهما ثم عودتهما على هيئة دويلات تابعة، ودامت الثانية أقل من قرن في ظل المكابيين.

إن الادعاء بأنه لا شيء قد حدث في الماضي خارج نطاق ما ورد في العهد القديم قد غيّب حقائق ومسلّمات عن تلك (التواريخ) التي صنعوها لفلسطين.

وهكذا بعد أن أصبحت التوراة هي السلطة العليا فحلت محل الكنيسة

وصارت تُقرأ بلغة شعبية، راحت تغذي أحلام الزمّيتين المتعصبين القائلين بعودة المسيح إلى الأرض بعد ألف سنة والذين كان لوثر وكالفن كلاهما على خلاف معهم.

إن الأفكار الأساسية للصهيونية القائلة بوجود (شعب) يهودي بمعزل عن الانتماء الديني لليهودية، والقائلة كذلك بالعودة إلى فلسطين التي هي هبة إلهية لمجموعة عرقية مخصوصة... إن هذه الأفكار قد ظهرت أول مرة في الأدب الانكليزي في كتاب (القيامة) لمؤلفه بريغثمان الذي ينادي لليهود ـــ ما داموا أمة ـــ بالعودة إلى فلسطين، أرض الأجداد؛ وهو يعترف في الوقت نفسه بأن عبادة الله يمكن أن تمارس في أي مكان على الأرض.

وفي عام ١٦٢١ نشر الحقوقي الشهير عضو البرلمان الانكليزي السير (هنري فنش) كتاباً بعنوان (البعث العظيم للعالم) أو (نداء إلى اليهود وإلى جميع الأمم وممالك الأرض للإيمان بالمسيح). وهو يرفض في هذا الكتاب كل التفسيرات الرمزية التأويلية للعهد القديم التي كانت الكنيسة الكاثوليكية تأخذ بها وبخاصة منذ القديس أوغسطين، ويوصي بقراءة حرفية للتوراة. يقول هنري فنش: «حينما تذكر اسرائيل ويهودا وصهيون وأورشليم في التوراة فالله لا يعني بذلك اسرائيلَ روحيةً ولا يعني كنيسة الله تجمع في صفوفها (الأمم[1]) واليهود المتنصرين... ولكنه يعني بإسرائيل تلك التي تحدرت من نسل يعقوب. وقل الأمر نفسه فيما يخص العودة إلى أرضهم وانتصارهم على أعدائهم... فاليهود هم المعنيون حقاً وصدقاً بالتحرير، وليس المسيح هو الذي يحرر البشر». وهكذا يرى (فنش) أن (اسرائيل) المبعوثة ستنجز حكماً يستمد سلطته من (الله).

وقد دان البرلمان الانكليزي حينذاك هذا الاتجاه المتزمت القائل بعودة المسيح بعد ألف عام، واعتبره الملك جاك الأول (١٦٠٣ ـــ ١٦٢٥) أمراً خطيراً؛ ولكن هذا الاتجاه بقي حجر الزاوية في (الصهيونية ـــ المسيحية).

---

١ ـــ (الأمم) في الإنجيل تعني جميع الشعوب من غير اليهود.

(المترجمان)

وفي القرن السابع عشر عرفت هذه الحركة في انكلترا نهوضاً خاصاً على يد (الطهوريين) الذين كانوا يعتبرون أنفسهم (شعب الله). وهم يرون أن أبطال العهد القديم قد حلوا محل القديسين في الكنيسة الكاثوليكية فصاروا يطلقون على أبنائهم أسماء ابراهيم واسحق ويعقوب، وطالبوا بأن تكون التوراة مصدر التشريع الانكليزي. وبعد أن حل كرومويل عام ١٦٥٣ البرلمان (الطويل الأمد) قام برلمان (قصير الأمد) يسيره الطهوريون وعين مجلس للدولة من سبعين عضواً على غرار مجلس السنّهدرين اليهودي التوراتي.

وقد تجلت هذه الإيديولوجية والعقيدة الأسطورية قوية واضحة لدى الطهوريين المهاجرين إلى أمريكا الذين اندمجوا وتوحدوا بالعبريين التوراتيين في (المنفى): لقد تحرروا من عبودية فرعون... (جاك الأول)، وهربوا من أرضْ مصر... (انكلترا) ليصلوا إلى أرض كنعان الموعودة... (أمريكا).

وراحوا يستوحون ما قام به يشوع من (إبادات مقدسة) في العهد القديم في أثناء مطاردتهم الهنود الحمر بغية الاستيلاء على أراضي أمريكا. كتب ترمان نلسن وهو واحد منهم يقول: «من البدهي الواضح أن الله قد دعا المستعمرين إلى الحرب. وقد لجأ الهنود وأحلافهم من القبائل إلى التجمع وحمل السلاح لارتكاب الشرور كما فعلت — في أغلب الظن — القبائل القديمة من العمالقة والفلستيين الذين تحالفوا مع غيرهم في مواجهة اسرائيل».

إن قراءة التوراة لدى طهوريي أمريكا وانكلترا على السواء يجب أن تكون حرفية نصّية؛ وهم يرون من منطق لاهوتي عجيب بعيد عن المسيحية أن (الوعد) لا يتحقق بمجيء يسوع المسيح وحلول ملكوت الله. وهكذا فكل (وعود) العهد القديم تختص باليهود وحدهم على أنهم عرق يتصل بيعقوب برابطة الدم، ولا يتصل بالطائفة الروحية المنتسبة إلى ابراهيم برابطة العقيدة.

وهكذا كانت النتائج السياسية لمثل هذا المفهوم واضحة وثابتة؛ ولاسيما موقف البروتستانت الأمريكيين من (دولة) اسرائيل القائمة.

في عام ١٩١٨ كتب الرئيس ويلسون الذي نشأ على هذه التعاليم إلى الحاخام ستيفن وايز رسالة مؤرخة في ٣١ آب عام ١٩١٨ يؤكد له فيها ــ معتمداً على العقيدة الأسطورية الصهيونية ــ قبوله وعد بلفور.

وفي عام ١٩٤٨ لم يعد الأمر يتعلق بإنشاء (وطن قومي لليهود) على حد تعبير بلفور؛ وإنما أصبحت القضية قضية تحديد واضح دقيق لحدود (دولة). كتب كلارنس باس يقول: «إن حدود الأرض الموعود بها ابراهيم يجب أن ترجع إلى أصحابها؛ فالمسيح سيعود على رأس مملكة حقيقية فعلية تستمد سلطتها من الله ليؤسس دولة اسرائيل على غرار الحكومة الاسرائيلية القائمة».

وللمرة الأولى منذ قيام (دولة إسرائيل) تكلم في آذار عام ١٩٧٩ جيمي كارتر أحد رؤساء الولايات المتحدة في الكنيست الاسرائيلي فصرح قائلاً: «إن إسرائيل والولايات المتحدة كلتيهما قد تشكلتا على أيدي جماعة من الرواد. إن بلدي هو أمة من المهاجرين واللاجئين وفدوا من شعوب مختلفة لبلدان عديدة. إننا نتقاسم وإياكم الإرث المشترك للتوراة». وقد سبق لكارتر أن وضح هذا التقارب بقوله: «إن إنشاء أمة اسرائيلية هو إنجاز للتنبؤات التوراتية».

إذن لعبت العقيدة الأسطورية الصهيونية دوراً كبيراً في مخيلة الشعوب؛ ونحن لا يمكننا حينما نفسر فاعلية (اللوبي) الصهيوني على المستوى العالمي أن نكتفي بالإشارة إلى قوة تنظيمه وقوة الوسائل السياسية والمالية الجبارة التي يمتلكها مدعوماً دعماً غير مشروط ولا محدود من قبل الدولة الأمريكية. إن قوة (اللوبي) تلعب ــ دون شك ــ دوراً أساسياً سنفصل فيه الكلام فيما بعد؛ لكن القبول الساذج على الأغلب لهذه العقيدة الأسطورية الوقحة بنتائجها السياسية الدامية الفاجعة لا يمكن فهمه إلا حينما نتذكر تلك المناورات الإيديولوجية التي استمرت قروناً عديدة والتي استطاعت بها الكنائس المسيحية أن تخلق هذه (الصهيونية المسيحية) التي تشكل أرضاً خصبة تستغلها الدعاية الصهيونية السياسية ودولة اسرائيل.

ونحن قبل أن نعالج قضية الصهيونية السياسية التي نجمت عن المذاهب القومية

والاستعمارية واللاسامية الأوروبية في القرن التاسع عشر والتي لا نرى لها في النصوص التوراتية أية جذور حقيقية ... يهمنا أن نشير إلى ما يلي :

أولاً ـــ إن هذه الرؤية الأسطورية لفلسطين في منظور الصهيونية المسيحية قد نجمت عن عقيدة لاهوتية مسيحية قديمة سابقة لكل نقد معاصر لنشوء التوراة، عقيدة مضلِّلة مشوَّهة تجعل من العهد القديم نصاً تاريخياً معيارياً في آنٍ معاً وتزيح العقيدة اللاهوتية المسيحية لتحل العهد القديم محل رسالة المسيح التبشيرية .

ثانياً ـــ إن هذا المنظور اللاهوتي المشوَّه الناجم عن قراءة اصطفائية للعهد القديم على الرغم من أنه قد نشأ وتطور منذ أربعة قرون على يد رجال مسيحيين قد رفضه اليهود حتى بداية القرن العشرين .

ثالثاً ـــ يقابل ذلك أن هذا المنظور قد استغل سياسياً منذ البداية أي منذ (لوثر) سواء لأهداف لا ساميّة (للتخلص من اليهود بإرسالهم إلى فلسطين على أنها معزل عالمي لهم) أو لأهداف امبريالية (ليقوم اليهود الغربيون في فلسطين بدور شرطة للاستعمار في الشرق الأوسط لحماية المعابر المؤدية إلى آسيا) أو لأهداف صهيونية سياسية يدعمها في آنٍ معاً الاستعمار الروسي والألماني والفرنسي والانكليزي ثم الأمريكي بغية الحفاظ على مشاريعه ... كما تدعمها نزعة معاداة الساميّة بغية إقناع يهود (الشتات) برفض كل انصهار واندماج كي يفدوا إلى فلسطين ويقيموا دولة قوية على أرضها .

لقد كان التبشير بعودة اليهود إلى فلسطين على مدى قرون منذ لوثر وسيلة لإبعادهم عن البلدان التي كانوا يعيشون فيها .

إن اللوثرية التي قطعت علاقتها بتعاليم الكنيسة الكاثوليكية والتي كانت أصل (الصهيونية المسيحية) لها على هذا الصعيد موقف ذو دلالة خاصة؛ فلقد عملت ترجمة لوثر للتوراة على إبراز ملحمة العبريين حسب ما تبدو في العهد القديم حينما يُقرأ قراءة حرفية لم تخضع لنقد تاريخي ... فكان هذا العمل يعبر بوضوح عن خلفية فكرية معادية للساميّة .

وبعد أن رفع لوثر في كتاباته الأولى من شأن اليهود على أنهم ورثة الوعد جاءت

أعماله اللاحقة لتعبر عن موقف ثابت منهم فربط بين الصهيونية بمعنى العودة إلى فلسطين وبين معاداة السامية القائمة على طرد اليهود من بلده ألمانيا.

كتب لوثر عام ١٥٤٤ يقول: «من يمنع اليهود من العودة إلى أرض يهودا؟ لا أحد. سوف نزودهم بكل ما يحتاجون إليه في سفرهم... لا لشيء إلا لنتخلص منهم. إنهم عبء ثقيل علينا. إنهم مصيبة كبيرة على وجودنا..».

إن تلك (الخلفية الفكرية) التي كانت لدى لوثر أصل الصهيونية المسيحية هي نفسها التي كانت لدى بلفور الذي وفر للصهيونية السياسية انتصارها الأول. حينما كان أرثور بلفور رئيس وزراء انكلترا ناصر قضية الحد من هجرة اليهود إلى انكلترا؛ وقد اتهمه المؤتمر السابع الصهيوني بمعاداته السافرة للشعب اليهودي؛ وهذه اللاسامية المتأصلة لدى بلفور كانت تتفق تمام الاتفاق طوال حياته قبل عام ١٩٠٥ وبعده مع الفكرة الصهيونية المطالبة بتخصيص أرض لليهود... بغية تحقيق هدف واحد وهو إبعادهم عن انكلترا. وكان بلفور قد وعد اليهود منذ عام ١٩٠٣ بإعطائهم أرض أوغندة؛ وفي عام ١٩١٧ وانسجاماً مع أهدافه في حربه مع ألمانيا كتب إلى اللورد روتشيلد تصريحه المتضمن (إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين).

إن التاريخ الراهن لفلسطين وسيطرة الصهيونية السياسية العالمية التي توجه الحكومات الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة بغية دعم غير مشروط وغير محدود لاجتياح فلسطين من قبل الصهاينة وما يمارسونه من اغتصاب وسلب ومذابح تؤمن بفعلها اسرائيل الصهيونية سيطرتها الاستعمارية على البلاد... وبغية دعم غير مشروط وغير محدود لاعتداءاتها في الشرق الأوسط ولتحديها للقوانين الدولية وقرارات الأمم المتحدة... إن كل ذلك مضافاً إليه قبول هذه السياسة من قبل الدول الغربية المتواطئة مع اسرائيل... لا يمكن فهمه وإدراكه إلا حين نتتبع مسيرة الأسطورة الصهيونية التي وجهت أفكار الشعوب الغربية وسيطرت عليها منذ أربعة قرون.

أما قراءة التوراة على هذا النحو المتعصب فهي ضرب من التجديف لدى المسيحيين الأبرار، لأنها تعني لدى اليهود العودة إلى مفهوم للعقيدة متعصب يُحل

(دولة اسرائيل) محل إله اسرائيل. ولكن هذه القراءة لدى المؤرخين والمفسرين ما هي إلا وقوع في أحضان الأسطورة. وهذه الأسطورة تستخدم لتغطية سياسة قومية استعمارية تقوم على التمييز العنصري والتوسع بلا حدود.

أ ــ قراءة التوراة على هذا النحو المتعصب ضرب من التجديف لدى المسيحي الحق

إن هذه (القراءة) للإنجيل التي غذت في المسيحية عداء للسامية لم يجر العدول عنها إلا عام ١٩٦٥ في المجمع المسكوني الثاني للفاتيكان الذي اعترف قائلاً: «إن قيام السلطة اليهودية مع من يناصرها بالتحريض على صلب المسيح لا يمكن أن يعزى عشوائياً إلى جميع اليهود المعاصرين للمسيح ولا إلى يهود اليوم. وإذا كان صحيحاً أن (الكنيسة) هي الشعب الجديد لله فاليهود لا يجوز أن يُعتبروا منبوذين أو ملعونين من الله وكأن إدانتهم مستمدة من الكتاب المقدس... إن الكنيسة تأسف لألوان الحقد والاضطهاد ولكل مظاهر العداء للسامية التي مورست على اليهود في عصور شتى ومن قبل أطراف شتى.».

نحن هنا أمام موقف في النقد الذاتي جاء متأخراً بعد ألفي عام من الجرائم التي كانت الكنيسة ــ في الأغلب ــ هي الدافع إليها أو المنفذ؛ هذا الموقف كان متردداً خجولاً ولكنه غير كافٍ. فإذا كان المجمع الفاتيكاني قد طوى صفحة اللاسامية في المسيحية وفتح صفحة جديدة فإنه ــ على كل حال ــ قد قرر أن أتباع الكنيسة هم الشعب الجديد لله، وبهذا يكون (شعب مختار) جديد.

ولقد سبق للقديس بطرس أن طبق على الكنيسة ما قيل عن شعب (العهد

القديم) حينما قال: «... وأما أنتم فجنس مختار وكهنوت ملوكي وأمة مقدسة ...». لكن الهدف هاهنا هو تذكير المسيحيين بمسؤوليتهم لأنهم حاملو رسالة المسيح، والأخذ بيدهم للوقوف وسط عالم يناصبهم العداء.

أما القديس أوغسطين فهو حينما راح يستخلص العبرة من سقوط روما عام ٤١٠ نادى (بمدينة الله) وألح على أنه ما من مجتمع إنساني يستطيع اعتماد القوة وحدها ناظراً إلى نفسه على أنه غاية الغايات، بل لابد أن تكون لهذا المجتمع غايات أرفع وأسمى. وقد عمل أتباعه متفاخرين على مدى قرون على تحقيق الاندماج بين الكنيسة و(مدينة الله) وكأن الكنيسة تبشير بمدينة الله وصورة لها.

وقد عمل إحياء فكرة (الشعب المختار) على ولادة مجموعة جديدة مشوهة من أنظمة الحكم الثيوقراطية التي تدعي استمداد سلطتها من الله؛ فمنذ أن راح الناس ـــ أياً كان لونهم ومذهبهم ـــ عبر التاريخ يعدّون أنفسهم ممثلين للسلطة الإلهية نجمت المذابح والحروب الدينية ومحاكم التفتيش وألوان الاستعمار والتفرقة العنصرية. ولقد دان المجتمع المسكوني في الفاتيكان في قراراته هذه التفرقة العنصرية ولكنه لم يمسّ بذرة تلك الفكرة اللعينة، فكرة (الشعب المختار) التي تستنكرها رسالة الأناجيل على نحو قاطع إذا نظر إلى الأناجيل نظرة كلية ولم يُكتف منها باقتطاع صيغ حرفية معزولة عن سياقها.

وكيف يجيز مسيحي لنفسه أن يدعم أطروحة تقوم على أن الوعد يتحقق بمنح (أرض) إلى (شعب) بينما ماينفك الإنجيل يبشر بأن الوعد قد تحقق بمجيء يسوع المسيح وأن هذا الوعد هو للبشرية جمعاء.

إن القطيعة هاهنا قائمة لاشك فيها بين عصبية منغلقة وعالمية منفتحة.

كان مارسيون دي سينوب (١٤٤) م في روما يلوم المسيحيين الذين كانوا يهوداً على أنهم زوروا النص الأصلي لإنجيل متى. جاء في هذا الإنجيل: «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمل...» ويرى مارسيون دي سينوب أن نص (متى) كان في الأصل يقول: «لم آت لأكمل العهد بل لأنقضه».

ويعتمد مارسيون في اتهامه على إنجيل لوقا ورسائل القديس بولس... ليستخلص أن الإنجيل قد حل محل شريعة موسى.

ومهما كان من أمر هذه الصلة أو عدم الصلة بين العهد القديم والعهد الجديد فمن المحقق لدى المسيحي الحق أن (الوعد) الذي أنجز بمجيء يسوع المسيح لا يمكن أن يكون وعداً بأرض.

ويشير كولمان في كتابه (يسوع والثائرون في عصره) إلى أن يسوع لم ينضم إلى جماعة (الغيورين) الذين كانوا يسعون إلى هدفين اثنين: إصلاح العبادة بتخليصها من فساد رجال الكهنوت، وتحرير فلسطين من احتلال الرومان الذين كان يتعاون معهم كبار الكهنة من الصدوقيين. إذن كان الهدفان في إصلاح العبادة وتحرير الأرض مرتبطين لا ينفصلان؛ وقد بشر يسوع كما بشر (الغيورون) بملكوت الله، ولكن تبشيره لم يكن لديه مقترناً بالمطالبة بأرض لوطن قومي؛ فيسوع لا يقر بأي حق إلهي للامبراطور الروماني ولا لهيرودوس حاكمه ونائبه في فلسطين.

لقد رفض يسوع المسيح في ثلاثة مواقف من الإنجيل رفضاً قاطعاً أن يربط رسالته بموضوع امتلاك أرض أو سلطة. وحينما جاء إليه الشيطان في أعلى الجبل وأراه جميع ممالك المسكونة وقدمها إليه أجابه يسوع بقوله: «إبعد عني أيها الشيطان».

ورفض المسيح أن ينادى بـ(المخلّص) لأن هذه الصفة في التقاليد اليهودية ذات مدلول سياسي؛ وهكذا أسكت أولئك الذين نادوه بهذا اللقب وذلك كما فعل مع بطرس. وحينما سأله الكاهن الأكبر (كيفا) قائلاً: هل أنت (المخلّص)؟ لم يرض يسوع بنسبة هذا اللقب إليه إذ كان يعلم أنه مرتبط لدى اليهود بالسلطة فأجابه قائلاً: «أنت الذي تقول ذلك». وحينما سأله بيلاطس قائلاً: «هل أنت ملك اليهود؟» تجنب يسوع الوقوع في الفخ فلم ينفِ ولم يثبت بل قال: «مملكتي ليست من هذا العالم». إن رسالة المسيح الخلاصية تقف على النقيض من رسالة اليهود الخلاصية فهم ينتظرون (مسيحاً) يعيد لهم بناء مملكة داوود.

وهكذا فالعهد الجديد الذي يعد البشرية كلها بالخلاص الأبدي يجعل من

العهد القديم (عهداً) عفّى عليه الزمن لأنه يعد شعباً مخصوصاً بأرض مخصوصة.

ولا بد من الإشارة إلى أن البابوية لم تعترف أبداً (بدولة اسرائيل)، وإلى أن البابابولس السادس في خطابه عام ١٩٧٢ أمام المجمع المقدس قد اعترف بالظلم الذي لحق «بأبناء شعب فلسطين الذين ينتظرون منذ أعوام عديدة ويطالبون بالاعتراف بمطامحهم العادلة». وقد صرح البابا بمناسبة إقامة مستعمرات صهيونية في الأراضي المحتلة بقوله: «إن الدعم المتزايد لإقامة المستعمرات الخاصة المحمية بالقانون والمعترف بها والمكفولة دولياً سيجعل من الصعب الوصول إلى حل عادل يأخذ مصالح الجميع بعين الاعتبار...» وهو لا يرمي بهذا القول إلى أي تبرير ديني لدولة اسرائيل.

وهنالك دليل آخر على وعي الواقع الراهن للقضية الفلسطينية من قبل المسيحيين؛ إن موقف المجمع المسكوني للكنائس في اجتماعه العالمي في فانكور عام ١٩٨٣ يشير إلى ما يلي: «لقد حالت بعض التفسيرات اللاهوتية بين المسيحيين في بعض المناطق وبين أن يقدّروا تقديراً صحيحاً تطور الوضع الديني والسياسي في الشرق الأوسط... فالسياسة الاسرائيلية في استعمار الضفة الغربية قد أدت إلى إلحاق الضفة بإسرائيل... وهذا تتويج لسياسة التفرقة العنصرية وخرق صارخ للحقوق الأساسية للشعب الفلسطيني».

خلاصة القول أن من المستحيل لمسيحي أن يعطي تبريراً لاهوتياً لدولة اسرائيل. إن احترام العقيدة اليهودية لا يعني أبداً الخلط بين اليهودية ديناً والصهيونية سياسةً عنصرية؛ وهو خلط يؤدي إلى خلع طابع القداسة على الأهداف التاريخية لحركة سياسية محضة.

* * *

ب ــ هذه القراءة الاصطفائية المتعصبة للتوراة لم تعد مقبولة لدى اليهودي والمسيحي على السواء

هذه القراءة للتوراة ليست مقبولة لأنها تعني لدى اليهود أنفسهم كفراً وارتداداً؛ فهي تُحل (دولة اسرائيل) محل (إله اسرائيل).

وتقوم الإيديولوجية الصهيونية على مسلّمة بسيطة جداً؛ جاء في سفر التكوين: «في ذلك اليوم أبرم الرب مع ابراهيم ميثاقاً قائلاً له: لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير، نهر الفرات».

من هذا المنطلق يصرح القادة الصهاينة سواء منهم المؤمنون والملحدون بقولهم: «إن فلسطين قد وهبنا إياها الله» دون أن يسألوا أنفسهم: ما ماهية هذا (العهد)؟ وإلى مَنْ أعطي (الوعد)؟ وما التزامات (الشعب المختار) أمام الله؟

إن إحصاءات الحكومة الاسرائيلية نفسها تدل على أن ١٥٪ من الاسرائيليين هم متدينون؛ ولكن ذلك لا يمنع أن ٩٠٪ منهم يلح على أن هذه الأرض قد وهبهم إياها الله الذي لا يؤمنون به! والغالبية العظمى من الإسرائيليين لا تمارس الإيمان والعبادة؛ أما مختلف (الأحزاب الدينية) التي تلعب دوراً حاسماً في الدولة الاسرائيلية فلا تضم في صفوفها إلا أقلية ضئيلة من المواطنين.

ويشرح ناثان فاينستوك في كتابه (الصهيونية ضد اسرائيل) شرحاً وافياً هذه

المفارقة الواضحة فيقول: «إذا قُدّر للتعصب الأسود لدى أحبار اليهود أن ينتصر في اسرائيل فذلك لأن (الإيمان) الصهيوني لا يعرف التماسك والترابط إلا بالرجوع إلى الديانة الموسوية. جربْ أن تحذف مفاهيم (الشعب المختار) و (الأرض الموعودة) فسرعان ما ينهار أساس الصهيونية. ولهذا تستمد الأحزاب الدينية على نحو متناقض قوتها من الصهاينة المتدينين المتواطئين مع هذه الأحزاب. إن التماسك الداخلي للبنية الصهيونية في اسرائيل قد فرض على الحكام دعم سلطة رجال الدين؛ فالحزب الديمقراطي الاجتماعي (ماباي) بتحريض من (بن غوريون) هو الذي قرر تدريس مادة الديانة إلزامياً في المدارس، وليست الأحزاب الدينية».

وهاهي ذي غولدا مائير تطرح (بديهية) تقول: «لقد قام هذا الوطن إنجازاً لوعد قطعه لنا الله نفسه؛ ومن المضحك حقاً أن يطلب أحد تبريراً شرعياً لوجود هذا الوطن». ويكرر (بيغن) هذه المعزوفة قائلاً: «لقد وُعدنا بهذه الأرض فلنا فيها ملء الحق». ويقول موشي دايان: «إذا كنا نملك التوراة ونعد أنفسنا شعب التوراة فلابد إذن أن نملك الأراضي التوراتية أي أرض (القضاة) و (الآباء) الروحيين و (أورشليم) و (حبرون) و (أريحا) وغيرها...». إن الأحزاب كلها من حزب العمل إلى حزب ليكود تعتمد التوراة مرجعاً لتأسيس سياسة تقول: إن فلسطين ملك الصهاينة بموجب صك موقع من الله.

وهذه القراءة الاصطفائية نفسها تخلع طابعاً من الامتياز والأفضلية على أكثر نصوص التوراة شراسة كي تبرر المظالم وألوان الاغتصاب الراهنة... وبهذه القراءة تبدو تلك النصوص بما فيها من سلب ونهب وإبادة للسكان الأصليين من الكنعانيين وكأنها شرط للإبقاء على العهد مع يهوه. جاء في سفر العدد: «وكلم الرب موسى قائلاً: قل لبني اسرائيل إنكم عابرون الأردن إلى أرض كنعان فتطردون كل سكان الأرض من أمامكم... وإن لم تطردوا سكان الأرض من أمامكم يكون الذين تستبقون منهم أشواكاً في أعينكم ومناخس في جنوبكم ويضايقونكم على الأرض التي أنتم ساكنون فيها فيكون أني أفعل بكم كما هممت أن أفعل بهم».

وهكذا نقرأ في سفر العدد تصوراً سابقاً بل تبشيراً بما يمارسه الصهاينة اليوم تجاه

الفلسطينيين من شارون إلى الحاخام مائير كاهانا.

أما سفر الاشتراع (التثنية) فلا ينص على اغتصاب الأرض وطرد السكان الأصليين فحسب وإنما يطالب بذبحهم. يقول هذا السفر: «عندما يوصلك الرب إلهك إلى أرض كنعان... ويطرد من أمامك كافة الأمم... ستوقع عليهم الحرمان... وستبيدهم».

وأما سفر يشوع، سفر المذابح، فهو من النصوص الكلاسيكية المقررة في مدارس اسرائيل؛ أضف إلى ذلك أنه يُستخدم للإعداد النفسي للجنود الأغرار في الجيش. وحينما وقع الاجتياح الأخير للبنان أعلنت هيئة التبشير الدينية العسكرية (الحرب المقدسة). وكان الموضوع الرئيسي الذي طرحه الحاخام العسكري برتبة النقيب يقول: «يجب أن لا ننسى الأصول التوراتية التي تبرر هذه الحرب ووجودنا هنا بسببها. إننا نؤدي ونحن هنا ـــ واجبنا الديني ـــ كيهود ـــ. إن الواجب الديني ـــ كما في تقاليدنا المقدسة ـــ هو احتلال الأرض من العدو».

إن هذا التلاعب بالإيديولوجيا وتسخيرها سيتجلى بدءاً بعلم الآثار وانتهاء بالكتب المدرسية؛ فسفر يشوع هو نص أساسي في المدرسة وفي الجيش على السواء؛ وقد أصبحت دراسته وشرحه أمراً إلزامياً في المدارس منذ أقر ذلك حزب العمل بزعامة بن غوريون، بل في وسائل الإعلام كذلك لتضليل الجماهير.

فعلى مستوى استغلال علم الآثار قامت بعثة أثرية بقيادة (يادين) عام ١٩٥٥ بالتنقيب في الوادي الأعلى للأردن لتحديد تواريخ احتلال أرض كنعان على يد يشوع.

تقول التوراة: «إن يشوع بعد معركته الظافرة التي شنها الاسرائيليون على تحالف المدن الكنعانية برئاسة (يابين) ملك حاصور، قد أحرق المدينة لأن حاصور كانت عاصمة تلك الممالك». وكان الهدف الرئيسي لتلك التنقيبات الكشف عن آثار ذلك الهدم والإحراق وتحديد تاريخه بالاعتماد على معاينة البقايا الخزفية. وواقع الأمر أنهم كانوا يهدفون ـــ بعد أن تم البرهان التاريخي على عدم صحة احتلال يشوع لمدينتي عاي وأريحا ـــ إلى خلق حد أدنى من موجبات التصديق لتلك النصوص (الثمينة) لكي

يقيموا أساساً توراتياً للسياسة الراهنة لاسرائيل.

أما على مستوى التعميم والدعاية في المدارس والجيش فدراسة سفر يشوع مقررة في المناهج المدرسية الاسرائيلية من الصف الرابع حتى الثامن. وقد قام (تاماران) أستاذ الجامعة في تل أبيب بتوزيع استمارات على ألف طالب. تقول الاستمارة: «أنت تعرف المقاطع التالية الواردة في سفر يشوع: (توجه الشعب إلى مدينة أريحا واستولى عليها.. وقتل كل سكانها من رجال ونساء وأطفال وشيوخ دون أي تمييز). أجب عن السؤالين التاليين:

أـ ماذا ترى في سلوك يشوع والاسرائيليين؟ أحسن هو أم سيىء؟

بـ لنفترض أن الجيش الاسرائيلي قد احتل قرية عربية في الحرب؛ فهل من الواجب أن يفعل هذا الجيش بسكان القرية ما فعله يشوع بسكان أريحا؟».

وقد طرد الأستاذ تاماران من جامعة تل أبيب على أثر نشره النتائج المروعة للإحصاء الذي قام به حول إعداد الأطفال في المدارس.

أما على صعيد تسخير وسائل الإعلام لتضليل الجماهير فلقد أصدرت الحكومة الاسرائيلية في كانون الثاني عام ١٩٨٣ بعد مذابح لبنان سلسلة من ثلاثة طوابع بريدية (لإحياء ذكرى يشوع). أما الطابع الأول فمخصص لعبوره الأردن؛ ويعلق سيغسموند غورين كاتب المقالة المخصصة لهذه المناسبة في تل أبيب قائلاً: «إن ذلك يذكرنا بالأسلوب الذي اتبعته القوات الاسرائيلية المعاصرة في سيناء عام ١٩٥٦ وفي ثلاث جبهات عام ١٩٦٧؛ وهو تجديد لأسلوب الأجداد منذ ٣٣٠٠ عام حينما أحاط العبريون بالمدن الكنعانية ليهاجموها من الشرق»، ومع الطابع الثاني المخصص لاحتلال أريحا يذكّر (غورين) بالإبادة المقدسة لسكانها ما عدا العاهرة (راحاب) لأنها استقبلت جواسيس العبريين وآوتهم. أما الطابع الثالث فيمثل يشوع وهو يوقف الشمس ليتمكن من إنجاز المعركة والقضاء على خمسة ملوك كنعانيين، ومنهم ملك أورشليم وملك حبرون. ويذّكر الكاتب بأن الملوك الخمسة قد أسروا ثم قتلوا وعلقت جثثهم على شجرات خمس. ثم يستطرد (غورين) قائلاً: «على اسرائيل اليوم أن تجابه عدواً لا يقل خطورة عن ملوك كنعان في الماضي».

وليس ما ذكرناه إلا غيضاً من فيض من الأمثلة التي يمكن إيرادها عن تسخير التوراة التي يعدونها في آن واحد (تاريخاً) وتبريراً مقدساً لسياسة اسرائيل.

وإليك مثالاً آخر عن الخداع التاريخي الذي يؤدي إلى تعريض المسجد الأقصى وقبة الصخرة للخطر؛ وهي تحف فنية عالمية تعد من أثمن مظاهر التراث الحضاري الفلسطيني؛ فهناك حفريات قائمة تحت أساس هذه التحفة بحجة البحث عن بقايا معبد سليمان، وهي حجة تقوم على أكذوبة مزدوجة:

أ ــ إن (حائط المبكى) الذي يدعم المبنى ليس من بقايا معبد سليمان إطلاقاً، وإنما هو من بقايا معبد هيروس؛ والواضح من بنائه ومظهره أنه بناء روماني نموذجي على ما يرى الفنيون المعماريون.

ب ــ إن معبد سليمان ــ على ما يعلم المؤرخون وعلماء الآثار عن موقعه الذي لم يبق منه أي أثر ــ ليس عنصراً من عناصر التراث الثقافي اليهودي؛ فالتوراة ــ الشاهد الوحيد على هذا البناء ــ تقول إنه بني على يد مهندسين وبنائين وصناع أرسل بهم حيرام ملك صور، وإن المخطط والتزيينات والأثاث ــ على ما ورد من وصفها في سفر الملوك ــ تطابق النماذج المعمارية الكنعانية؛ هذا ولم يسبق أن عرف الاسرائيليون معبداً سابقاً له... فتابوت العهد كان يُحمل في خيمة... ثم إن تصوير الأشخاص على المعابد لم يكن مقبولاً لدى العبريين.

ونحن لسنا بصدد الحديث عن نقد تاريخي وتفنيد للتاريخ فحسب، بل نحن بصدد الإشارة إلى أن هذه القراءة للتوراة لم تعد مقبولة لدى اليهودي والمسيحي على السواء.

وقد اقتصرنا سابقاً على الرجوع إلى (العهد الجديد) بالنسبة للمسيحيين، وكذلك سنقتصر الآن على الرجوع إلى (التوراة) وأسفار العهد القديم؛ وهي النصوص التي يعترف بها المؤمنون بالدين اليهودي.

أولاً ــ العهد

أصحيح أن الله لم يبرم العهد إلا مع مجموعة من القبائل؟ وأن هذه القبائل هي

عبرية فحسب؟

جاء في سفر التكوين: «وتكلم الله معه قائلاً: أما أنا فهوذا عهدي معك وتكون أباً لجمهور من الأمم فلا يدعى اسمك بعد أبرام بل يكون اسمك ابراهيم لأني أجعلك أباً لجمهور من الأمم».

وهاهنا لا بد من ملحوظتين:

أ ــ إن ابراهيم القادم من أور في العراق ــ على ما جاء في سفر التثنية ــ ليس عبرياً بل هو آرامي أي سوري. جاء في هذا السفر: «ثم تصرح وتقول أمام الرب إلهك: آرامياً تائهاً كان أبي...» فلقد اختار الله إذن ابراهيم لا لسبب جنسه (فهو سوري مهاجر من أور) وإنما بسبب إيمانه.

ب ــ فرض (الله) الختان على أنه علامة على (العهد). جاء في سفر التكوين: «ستمارسون الختان... وسيكون ذلك رمز العهد بيني وبينك». وقد نفذ ابراهيم هذا الأمر، ففي اليوم نفسه اختتن هو وابنه اسماعيل (من هاجَر). وأضاف الله قوله: «وأما اسماعيل فقد استجبت لك فيه. هاأنا أباركه... وسيكون من نسله اثنا عشر رئيساً وأجعل من ذريته أمة كبيرة».

ولم يكن اسحق (الذي سيسمى اسرائيل فيما بعد) قد ولد بعد من (سارة)؛ وقد وعده الله سلفاً بأن يقيم عهداً معه بقوله: «سأقيم معه عهداً دائماً ولذريته من بعده».

إن النص واضح وصريح؛ فالعهد سابق لولادة (اسرائيل)؛ وقد أبرم العهد مع الآرامي ابراهيم إذ وعد الرب بموجبه بذرية كبيرة لاسماعيل واسرائيل. وتشاء المأثورات المتداولة أن تجعل العرب متحدرين من اسماعيل، والعبريين متحدرين من (اسرائيل) فكلاهما ورثة للعهد.

إذن ليست القضية قضية عرق أو جنس؛ لكنها قضية مجموعة من الشعوب المتكلمة باللغة السامية كانت تجوب الأرض منذ آلاف السنين من الجزيرة العربية إلى ما بين النهرين ومصر. أما اللغة الآرامية (التي ستكون لغة المسيح) فكانت اللغة الأم المشتركة للعربية والعبرية.

أما ذرية ابراهيم فليست مقصورة على العبريين فحسب؛ فحينما ألحت (سارة) على ابراهيم أن يطرد جاريته (هاجر) المصرية مع ابنها التي ولدته له.. لم يهتم الرب اهتماماً ملحوظاً بنزوة امرأة غيورة فقال لابراهيم: «... لا تحزن من أجل الغلام ومن أجل جاريتك. اسمع كل ما تقوله لك سارة لأنه باسحق يكون لك نسل. وابن الجارية أيضاً سأجعله أمة لأنه نسلك..». ولكي يحفظ الله اسماعيل وذريته حقق معجزة؛ فحينما راحت هاجر تبكي في البرية لأن ابنها كاد يموت عطشاً ناداها ملاك الرب قائلاً: «مالك ياهاجر. لا تخافي لأن الله قد سمع صوت الغلام... قومي احملي الغلام وشدي يدك به لأني سأجعله أمة عظيمة. وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء وسقت الغلام.. وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في البرية...».

إن هذه القراءة الاصطفائية للتوراة من قبل الصهاينة (تنسى) أن العهد لا يشمل العبريين وحدهم بل يشمل كل الساميين بل كل أمم الأرض... فلقد قيل لابراهيم: «بك ستكون مباركة كل أمم الأرض». ولقد تم التأكيد على شمولية الوعد حينما قال الرب لإسحق: «سأجعل نسلك كثيراً مثل عدد نجوم السماء وسأعطي ذريتك كل هذه الأراضي وبذريتك ستكون مباركة كل أمم الأرض».

ولقد تم التذكير بهذا المضمون الشمولي للوعد لدى الإشارة إلى (عيسو) الذي تزوج بعربية. جاء في سفر التكوين: «وجاء عيسو ليلتقي باسمعيل. وأضاف إلى زوجاته زوجة هي (محلة) بنت اسمعيل بن ابراهيم». ويؤكد الله وعده لعيسو كما وعد جده ابراهيم، وأباه اسحق... فيقول ــ على عادته ــ مخاطباً عيسو: «بك وبنسلك تكون مباركة كل أمم الأرض»

ثانياً ــ الشعب المختار

ترى كيف يمكن التوفيق بين مبدأ الوحدانية وبين مقولة (الشعب المختار) بما فيها من دعوى الامتياز والتفوق؟

وما دام العبريون يأخذون بمفهوم متعصب ضيق عن الشعب المختار فلا يمكن اعتبارهم موحدين حقيقيين. وقد سبق أن أشرنا إلى أن (إيلوهيم) هو جمع لكلمة

(إيل)؛ ولم يتبلور (التوحيد) ويتضح إلا بمجيء الأنبياء: فإله القبيلة كان هو الإله الأقوى الذي (يغار) من العبادات التي تؤدى لآلهة أخرى دخيلة غريبة. ومع مجيء الأنبياء أصبح ذاك الإله هو (الوحيد) الذي سيقول عنه سفر التثنية: «اسمع يااسرائيل. الرب إلهنا رب واحد». وهاهنا نعود إلى القول: إذا كان الله واحداً فالإنسانية واحدة. إن هذه النتيجة يمكن استخلاصها من سفر اللاويين: «ستحب قريبك كما تحب نفسك». يقول أندريه شوراكي في كتابه (تاريخ اليهودية): إن الحاخام هيليل قد فتح صفحة جديدة في مجال تفسير التراث العبري الديني بقوله: «لا تفعل لغيرك ما لا تحب أن يفعلوه لك. ذلك هو جوهر الشريعة... وأما ما تبقى فهو تفسير وتفريع».

ويتجلى كل ما في العقيدة اليهودية من عظمة وجمال لدى الأنبياء، وذلك عبر محاولتهم خلع طابع الشمولة والجوّانيّة على العقيدة القبلية القديمة؛ وهم يرمون بوجه خاص إلى الدلالة على أن تلك العقيدة ليست تقاليد ماضية موروثة يُحتفظ بها وإنما هي بناء للمستقبل تحقيقاً لنداء الله.

جاء في سفر أرميا أن الشريعة كلها لن تكتب على الحجر وإنما في القلوب. يقول الرب: «سأقطع عهداً جديداً... وأجعل شريعتي في داخلهم وأكتبها على قلوبهم». إن هذا العهد الجديد ينفتح على كل الشعوب مخالفاً لكل تمييز عرقي أو قبلي. وينبىء سفر زكريا بعودة الشعوب إلى الله: «ستتصل أمم كثيرة بالرب في ذلك اليوم... ويكونون لي شعباً...» إذن سيكون الشعب من الآن شعب الإيمان لا شعب الدم والعرق.

وهكذا أصبحت أورشليم رمزاً لهذه الشمولية العالمية. جاء في سفر أشعيا «إن بيتي سيدعى بيت الصلاة لكل الشعوب». إن هذا الانفتاح على العالم هو نقيض واضح لكل مزعم بالامتياز والتعصب المنغلق؛ فالأنبياء أمناء على ماضي شعوبهم وعلى الرسالة التي أوكلت إليهم، ولكنهم يتجاوزون ذلك الماضي ويتطلعون بانفتاح شامل إلى المستقبل... فلا استغلال ولا حروب بعد الآن. جاء في سفر أشعيا:

ويبنون بيوتاً ويسكنون فيها.

ويغرسون كروماً ويأكلون ثمارها.
لا يبنون ليسكن غيرهم.
ولا يغرسون ليأكل الآخرون.

تلك هي عظمة الرؤية المستقبلية لأشعيا وسائر الأنبياء الذين لم يجعلوا من أورشليم عاصمة خاصة بأمة من الأمم وإنما جعلوا منها منارة روحية للأديان كلها في أرجاء الأرض.

ولكن الانكفاء إلى المنحى القومي المتعصب بما فيه من رفض لجوهر رسالة الأنبياء يتجلى بدقة ووضوح في (قانون العودة) الذي صدر عن الدولة الصهيونية في اسرائيل عام ١٩٥٠. تقول المادة الأولى من هذا القانون: «لكل يهودي الحق في أن يهاجر إلى اسرائيل».

ويقول كلود كلاين مدير معهد الحقوق المقارنة في الجامعة العربية: «إنها دولة يهودية أي دولة لليهود... وهكذا لا بد أن تطرح مشكلة تعريف (اليهودي). ومن هنا يتحدد موضوع الجدل وهو: مَن اليهودي؟».

والجواب على هذا السؤال في التعليمات الصادرة عام ١٩٦٠: «يسجل يهودياً في سجلات الأحوال المدنية:

أ ــ كل مولود من امرأة يهودية ولا ينتمي إلى ديانة أخرى.

ب ــ كل معتنق للديانة اليهودية.».

فالشرط الأول عرقي والثاني كهنوتي. ومن الواضح أن الشرط الأول يتضمن تعريفاً يؤكد على أن صفة (اليهودي) ليست صفة دينية فحسب وإنما تعني صفة قومية كذلك؛ وهذا ما ينسجم مع مبدأ الصهيونية السياسية.

ولكن اصطلاح (اليهودي) لا يعني شيئاً خارج المفهوم الديني: فليس لليهودي أي انتماء عرقي أو بشري سلالي سوى انتمائه إلى الملة اليهودية. وشواهد ذلك في **التوراة**

وعلم الحياة والتاريخ.

فما الذي يجمع بين ذرية ابراهيم غير العقيدة؟ إن سفر التكوين — كما رأينا سابقاً — يقول إن ابراهيم لم يكن عبرياً ولكنه آرامي (سوري مهاجر من أور) أي من ذلك الشعب الآرامي الذي سيقاتله داوود فيما بعد بشراسة.

أما اسحق فيتزوج بآرامية، وأما عيسو فيتزوج بعربية، وأما الملك شاؤول فأمه كنعانية، وحفيدة داوود (راعوث) كانت مؤابية، وأما سليمان فأمه حثية.

وهكذا حينما نطبق التشريع الاسرائيلي الراهن فإن ابراهيم واسحق ويعقوب وشاؤول وداوود وسليمان (وتكفينا أشهر الأسماء) لا يمكنهم جميعاً أن يستفيدوا من (قانون العودة) إلا بفضل (اعتناقهم) للدين اليهودي أي بانتمائهم إلى الملة اليهودية... لا بفضل انتمائهم العرقي السلالي.

إن اللامعقولية المجافية للمنطق في مثل هذا القانون ناجمة عن مبدأ صهيوني يزعم تعريف اليهودي لا بانتمائه إلى طائفة دينية على ما تقوله التوراة، وإنما بانتمائه إلى (شعب) على ما تقول به خرافات النزعة القومية في أوروبا القرن التاسع عشر والشوفينية الرومنسية الخيالية.

إذن ليس في التوراة لأي مسيحي أو يهودي أي أساس أو حجة لدعم المطامع الصهيونية في فلسطين.

٢
من اليهودية إلى القومية الصهيونية

أ ــ النهضة الأوروبية والتحولات في اليهودية

ترى كيف تمت ــ مع الصهيونية السياسية ــ ولادة تلك القومية التي تقطع صلتها جذرياً بجوهر العقيدة اليهودية، محتقرة أسمى تقاليد الانفتاح والشمول في الدين اليهودي؟

إن نشوء الصهيونية السياسية يتيح لنا أن نفهم هذه المفارقة؛ فعلى مدى قرون، وبعد تشتت العبريين الذين طردهم الرومان من فلسطين أي بعد انتفاضات عام ٦٣ وبخاصة عام ١٣٥ م... كان يُنظر إلى (اليهودي) على أنه الشخص الذي يعتنق الديانة اليهودية...

وهكذا مع عصر النهضة في القرن السادس عشر بدأ الانحسار على صعيد الأديان كلها في أوروبا؛ وراحت المجتمعات الغربية تعيش مرحلة من (العَلْمنة). وكانت المسيحية أشد الأديان تأثراً فهي الديانة السائدة في أوروبا؛ وأصاب اليهودية كذلك التطور نفسه.

وقد وصلت هذه الحركة إلى أوجها في القرن السابع عشر مع سبينوزا (١٦٣٢ ــ ١٦٧٧ م)؛ وهو ابن لأسرة يهودية اسبانية ممن هربوا من محاكم التفتيش. ويعبر سبينوزا في هولندا، وطنه المختار، عن رأيه القائل بأن هولندا هي النموذج الأكمل لنزعة الانفتاح والشمول في اليهودية.

وقد أصدر حاخامات كنيس أمستردام قراراً بالحرمان على سبينوزا بتهمة الهرطقة بل إنهم حاولوا قتله؛ ولم يردّ إليه اعتباره إلا عَرضاً عام ١٩٢٧ بمناسبة مرور مئتين وخمسين عاماً على وفاته إذ أعلن الدكتور كلاوسنر الأستاذ في الجامعة العبرية بالقدس قائلاً: «أنت أخ لنا ياباروخ سبينوزا. إني أعلن براءتك!».

إن دعوة سبينوزا إلى النزعة الإنسانية الشاملة والتسامح راحت ترن أصداؤها في كل أرجاء أوروبا وبخاصة منذ القرن الثامن عشر الذي يسمى (عصر الأنوار) نقيضاً لعهود التعصب الديني المظلمة. إن العقلانية بدأت تغزو التقاليد الجامدة المحافظة.

وهذا الانفتاح على العالم الخارجي بعد قرون من الحَجْر والعزلة جعل اليهودية قادرة على إصلاح نفسها لتتخلص من شكلانية الطقوس الجامدة ومن التعصب الذي أطال من عمر النظام الانفصالي المنكمش، كما هو الحال لدى كل الطوائف المضطهَدة المحاصرة.

أما موسى مندلسون (١٧٢٩ ــ ١٧٨٦) الذي يلقب بـ (لوثر اليهودية) فهو بشير العصور الجديدة بحركته الإصلاحية لليهودية، هذه الحركة التي ستعم أوروبا وأمريكا. وقد أراد (مندلسون) إحياء رسالة الأنبياء فدعا إلى الانفتاح على ثقافة الآخرين كما دعا إلى المحبة. كتب يقول في كتابه (خلاص اليهودي): «واأسفاه ياإخوتي. لقد عانيتم من الخضوع لنير التعصب. إن كل الشعوب حتى الآن قد خدعت بالفكرة القائلة بأن الدين يمكن أن يفرض فُرضاً بيدٍ من حديد. لقد عانيتم من ألوان العذاب ما جعلكم تقتنعون بتلك الفكرة. أيها الأخوة اسلكوا طريق المحبة كما سلكتم سابقاً طريق الحقد».

وقد رأى الحاخامات المتعصبون في دعوة (مندلسون) تلك جحوداً وكفراً فمنعوا اليهود ــ تحت طائلة الحرمان ــ من قراءة ترجمة (مندلسون) للتوراة إلى الألمانية وأعلنوا أنه (هرطيق).

وبعد خمس سنوات من موته أعلنت الثورة الفرنسية ما نذر حياته كلها لتحقيقه؛ فقد ألغت الثورة كل تمييز عنصري يمارس على اليهود. وفي عام ١٧٩١

أعلن الكونت دي كليرمون في الجمعية الوطنية الفرنسية ملخص ما شرعته الثورة في هذا الصدد حينما وضعت حداً لقرون من التفرقة العنصرية فقال: «يجب أن نمنع كل شيء عن اليهود — على أنهم أمة — ونسمح لهم بكل شيء على أنهم أفراد».

وقد ولَّد هذا المثال الذي قدمته التورة الفرنسية في فرنسا وفي كل أوروبا الغربية تياراً ملائماً لاندماج اليهود في مجتمعاتهم، ثم عمّ هذا التيار في أوروبا كل اليهود الذين كانوا يطالبون باحترام عقيدتهم وطراز عيشهم.

وحينما دعا نابليون عام ١٨٠٧ المجلس اليهودي الأعلى أكد له مندوبو الطائفة اليهودية أن «يهود فرنسا لا يشكلون أمة».

وكتب المؤرخ الألماني (ترايشكه) في نهاية القرن التاسع عشر يقول: «لا مكان على الأرض الألمانية لجنسية مزدوجة... وإذا طالب اليهود بالاعتراف بقوميتهم فإن الأساس الشرعي لممارستهم حريتهم يسقط وينهار».

والطوائف اليهودية نفسها كانت تعترف بمنطقية هذا الموقف: فإما أن يكون اليهود مواطنين حقيقيين في دولةٍ ما فيحق لهم المطالبة باحترام عقيدتهم — شأنهم شأن أية طائفة دينية —... وإما أن يكونوا منتمين إلى (أمة) مختلفة فيعتبروا أنفسهم (أجانب) فيقبلوا حينذاك بما ينجم عن هذا الواقع الراهن.

وهكذا راح يُنظر إلى اليهود في أوروبا على أنهم مواطنون حقيقيون إذ اندمج اليهود على مختلف أصولهم في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لأوطانهم وأسهموا في تطوير الثقافة الغربية في شتى المجالات... فكان منهم سبينوزا الفيلسوف الذي أسهم على نحو رائع وأصيل في التيار العقلاني الديكارتي، وكان منهم مفكرون يهود ألمان في حقل الفلسفة الكانتيّة، ونبغ منهم (هنريش هايني) في مجال الشعر، ومندلسون في الموسيقى، وإينشتاين في الفيزياء.

إن كل هذه الروائع هي جزء لا يتجزأ من مجمل الثقافة الغربية السائدة؛ وأنت لا ترى في هذه الروائع أي أثر لخصوصية يهودية مثلما لا ترى أي أثر من كاثوليكية باستور في أبحاثه البيولوجية، ولا أي أثر من بروتستانتية نيوتن في فيزيائه.

وحينما وعت الطوائف اليهودية أن أعداءها هم الذين فرضوا عليها أن تكون (عرقاً) أو (أمة) كان لها من ذلك الوعي ما جعلها ترفض هذه العزلة والتفرقة . وفي عام ١٩١٩ عارضت غالبية اليهود الألمان استفزازات الصهاينة فأعلنت تقول : « نحن ألمان ديننا اليهودية . إن الجرمانية تعني لدينا انتماء إلى أمة وشعب ؛ أما اليهودية فتعني لدينا ديناً وملة ... نحن لسنا أمة يهودية وإنما طائفة تدين باليهودية » .

إن هذا الإيمان اليهودي ـــ هاهنا ـــ لا يمارس الانغلاق على الذات ، ولكنه يقدم شهادة إلى العالم المعاصر على العقيدة الابراهيمية ورسالة الأنبياء .

ولكن النزعة القومية الأوروبية في القرن التاسع عشر بتمجيدها الرومانسي للماضي على أنه إيديولوجية لتبرير التعصب القومي ... لم تكن تسمح لليهودية بهذا الانعتاق . وهكذا انتقلت اليهودية من ألمانيا إلى أمريكا . وفي أمريكا لم يستطع التعصب القومي الأوروبي للأرض والأجداد أن يجد له جذوراً : فلم يكن للأمريكيين ـــ وهم شعب مهاجر ـــ ماض يمكن اجترار التغني بانتصاراته وأمجاده وثقافاته المغرقة في القدم .

وقد أشارت أرقى الشخصيات في أمريكا الناشئة إلى هذا التوجه . صرح الرئيس جفرسون عام ١٨١٦ قائلاً : «أحب أحلام المستقبل أكثر من حبي للتاريخ الماضي» . ويصرح أبراهام لنكولن بعد جفرسون بنصف قرن قائلاً : «أنا لا أهتم بما كان عليه أجدادنا وإنما بما سيكون عليه أحفادنا» .

ويعلن مؤتمر الحاخامات في بتسبرغ عام ١٨٨٥ قائلاً : « نحن لا نعتبر أنفسنا أمة وإنما نحن طائفة دينية . نحن لا ننتظر العودة إلى فلسطين ولا نمارس شعائر التضحية التقليدية ولا نعمل على إحياء أي تشريع يخص إقامة دولة يهودية » .

ب ــ نزعة قومية في أوروبا وقومية صهيونية

في براغ ظهر الحاخام ليفيابن بيلايل (١٥٥٠ ــ ١٦٠٩) في مرحلة تمزق المسيحية ونشوء (القوميات) ؛ وعلى يده جرى إعداد أول محاولة لإعادة تفسير (المصير اليهودي) بصبغ غربية ؛ فما عادت تعرَّف بأنها دين وإنما بأنها (شعب) .

وكانت أوروبا منذ عصر النهضة لا ترى إطاراً للتنظيم الاجتماعي غير إطار (الأمة) و (الدولة) ؛ وهكذا كانت المهمة الأولى لليهود ــ كما يرى الحاخام ليفيا ــ أن يبنوا أنفسهم في إطار (أمة) وينشئوا (دولة) على أرضهم الخاصة بهم .

وفي الوقت الذي كان فيه سبينوزا يفتح اليهودية على العالمية الشمولية أطلت القومية اليهودية برأسها مع ظهور (مخلّص) هُزَأة من بلدة سْميرن يدعى (ساباتاي) التركي (١٦٢٧ ــ ١٦٧٦) . يقول شوراكي : « كانت الحماسة عامة من مراكش إلى الدنيمارك ، ومن تركيا إلى فرنسا . وراحت إحدى الطوائف اليهودية الصغيرة تستعد للرحيل إلى مملكة يهودا في ربيع ١٦٦٦ . وحتى بوسويه نفسه لم يأنف من ذكر هذا الحدث » .

وقد أوقف (ساباتاي) هذا لدى وصوله إلى الدردنيل فاعتنق الإسلام لقاء هبة من السلطان . ولكن حركته (الخلاصية) استمرت ، فلقد ظهر بعد قرن من موته

يهودي من بودوليا يدعى يعقوب فرانك وتقمص شخصية (ساباتاي) فتجمع حوله كثير من المريدين في كل أوروبا؛ وحينما أصدر عليه مجمع الحاخامات قراراً بالحرمان اعتنق المسيحية.

وإذا استثنينا ماقام به هذان الدجالان اللذان جندا وراءهما الناس على أنهما مبشران ببعث قومي جديد فإن التعاليم الكبرى لليهودية كانت تحتفظ بالمغزى الروحي للعقيدة، ذلك المغزى الذي يعتبر شاهداً لدى كل الأمم على التبشير بملكوت الله.

ولكن جميع التيارات الفكرية الرفيعة في أوروبا ومنها النزعة الروحية اليهودية قد حرفت منذ مطلع القرن التاسع عشر عن مسارها الصحيح بفعل تيار النزعة القومية كما حصل ــ مثلاً ــ للحركة الصوفية اليهودية التي أسسها اسرائيل بن أليعازر (١٧٠٠ ــ ١٧٦٠).

إن الصهيونية السياسية تختص بأنها لا تعرّف اليهودية بأنها دين بل بأنها انتماء قومي... وهكذا قطعت هذه (العَلْمنة) لليهودية الدينية الصلة بتقاليد الدين اليهودي لتقتبس تقاليد كثيرة أخرى، إنها تقاليد النزعة القومية الغربية في القرن التاسع عشر، قرن القوميات.

وراحت الصهيونية السياسية تتجه إلى إنشاء نموذج للمجتمع يختلف جذرياً عن الملة اليهودية مقلدة المفهوم الغربي للأمة والدولة.

إن واقع الدولة اليهودية هو نسخة عن (الدول) الأوروبية؛ وهي تعتمد في نشاطها العسكري مثلاً على نزعة قومية مقتبسة من الشوفينية الأوروبية في القرن التاسع عشر. وكان هذا التقليد عن وعي تام واختيار مدروس مقصود.

كان النموذج الأول الذي استوحاه المثقفون ورجال الأعمال اليهود في بولونيا وروسيا هو الحركة العرقية القائمة على أسطورة وجود نموذجين بشريين لا لقاء بينهما وهما: العرق الجرماني والعرق السلافي.

أما الحاخام يهودا ألكالاي (١٧٨٩ ــ ١٨٧٨) المولود في سيراجيفو والذي

شغل منصباً دينياً رفيعاً في صربيا فقد استوحى صراع القوميات لدى الدول البلقانية في مواجهة الاحتلال التركي فرأى في استعمار فلسطين مفتاح (الخلاص) لليهود. ودعا الحاخام كاليشبا اليهود إلى تقليد القوميات الأوروبية بقوله: «فلنجعل قدوة لنا ما قام به الإيطاليون والبولونيون والهنغاريون».

إن القوميين اليهود السابقين للصهيونية السياسية حاولوا إقامة قوميتهم على أسطورة العرق والأرض ــ شأنهم شأن القوميين الأوروبيين الذين اقتبس عنهم اليهودالمذهب الرومنسي الخيالي في الأمة.

وإليك هذا المثال الواضح الدلالة: كتب (أحاد هاعام) ١٨٥٦ ــ ١٩٢٧ دراسة عن (اليهودية ونيتشه) يرفض فيها العرقية الآرية لدى نيتشه، ولكنه يفعل فعله حينما يعلي من شأن (السوبرمان)، الإنسان المتفوق. وهو يرى ــ مثل نيتشه ــ أن «الهدف الأخلاقي الأسمى ليس في تقدم البشرية كلها وإنما في خلق نوع بشري أكمل من بين النخبة!». تلك هي الفكرة الأساسية في نظرية تحول الدلالات؛ وهذه الفكرة ذات مصادر ألمانية؛ ولكن النخبة ليست هي العرق الآري كما هي لدى نيتشه وإنما هم العبريون.

ويستطرد (أحاد هاعام) فيقول: «إذا اعترفنا بأن الهدف من الوجود هو ظهور (إنسان متفوق) فهناك هدف فرعي ينجم بالضرورة وهو ظهور (أمة متفوقة). إن أمة كهذه يجب أن توجد، أمة تجعلها خصائصها الثقافية أكثر قدرة من باقي الأمم وأكثر استعداداً لتوليد مبادىء خلقية ونمط كامل للحياة يقوم على أسس خلقية أسمى من غيرها».

ويطبق (أحاد هاعام) الداروينية على الصعيد الاجتماعي بقوله: «نحن نعلم أن هناك درجات متفاوتة في سلم الخلق: المادة غير العضوية أولاً ويليها النبات ثم المملكة الحيوانية ثم الكائنات الناطقة، وعلى رأس كل ذلك يأتي اليهود».

أما (ماركس نوردو) ــ وهو الرفيق الحميم المقرب من هرتزل ــ فيعلن هو كذلك أن «اليهود يتصفون بروح المبادرة وبمواهب وقدرات أكبر مما لدى الإنسان

الأوروبي المتوسط... فما بالك بأولئك الأسيويين والأفارقة؟!».

إن محاكاة النزعة القومية والعرقية الأوروبية وتلوينها بتلاوين عبرانية يتجلى على نحو فج لدى برديشفكي بإعلانه: (أن اسرائيل سابقة على التوراة). وهكذا كان تحويل اليهودية من دين إلى نزعة عرقية يمشي مع تمجيد النزعة العسكرية والعنف كما هو الشأن لدى النظرية الجرمانية العرقية. يقول برديشفكي: «هناك أزمنة يعيش فيها الناس والأمم بالسيف وقوة الذراع والقدرة على الكفاح. إنها أزمنة العنف حيث لا حياة إلا للأقوى... فالسيف تحقيق للحياة وتجسيد لها بكل ما فيها من جرأة وتحدٍ...».

ونحن لا يمكن لنا أن نفهم سياسة اسرائيل في فلسطين إلا حين نبرز على هذا النحو مصادرها الصهيونية (الروحية) التي تعلن هذه السياسة أنها تنتمي إليها.

إذن قامت النزعة القومية الصهيونية على أساس من الوهم والأسطورة... شأنها شأن النزعة القومية الألمانية والإيطالية... وكل هذه النزعات كانت تحاول أن تجد لها مصادر تصدر عنها لتبرير سياسة تقوم على رابطة الدم وأمجاد التاريخ والالتحام بالأرض. نعم إن النزعة القومية الصهيونية تلوذ بخرافة العرق وخرافة الأرض مضافاً إليهما أسطورة (توراتية)... وكل ذلك بغية الإجابة عن السؤال المؤرق حول هويّة اليهودي.

أ ــ خرافة العرق

إن مفهوم (العرق) هو من ابتكار القرن التاسع عشر في أوروبا؛ وقد عبَر هذا المفهوم ــ على نحو تعسفي بغية تبرير الهيمنة الاستعمارية الأوروبية ــ من مرحلة التمييز بين زمر لغوية مختلفة إلى فكرة وجود اختلافات بيولوجية بين الشعوب... بل إلى فكرة ترتيب العروق البشرية الكبرى ترتيباً متدرجاً متمايزاً.

جاء في سفر التكوين أن أولاد نوح أجداد البشرية هم سام وحام ويافث. وقد اعتبرت القرون الوسطى الاقطاعية (حام) جد الأقنان، و (يافث) جد النبلاء الأسياد، و (سام) جد الكهنة. ويشير (غوبينو) في كتابه (دراسة في اختلاف العروق البشرية) إلى هذا التمايز المتدرج بين العروق البشرية فيكتب ملحمة رومنسية

يشيد فيها بالآريين المتحدرين من آسيا الوسطى على أنهم أنبل عرق بشري... ليتخبط بعد ذلك في خضم جولاته مع (دنس) العرقين الأسود والأصفر. وليحكم على نفسه أخيراً بالانحطاط حينما يتبنى النظرية العرقية المعتمدة على نقاء الدم.

وهكذا تنقسم البشرية ـــ على ما يرى غوبينو ـــ إلى ثلاثة عروق... يأتي في أسفل السلّم العرق الأسود المنذور سلفاً للعبودية... ثم العرق الأصفر الذي يمتاز قليلاً عن سابقه... ثم يتربع على القمة العرق الأبيض المتفوق الحائز على أسمى الفضائل البشرية وهي العمل الرزين المتئد، وروح النظام، والذكاء. وعلى هذا يستنتج غوبينو قائلاً: «إن كل الحضارات هي من نتاج العرق الأبيض، ولا يمكن لأية حضارة أخرى أن توجد دون الاعتماد على هذا العرق». وبهذا يقيم أساساً للخصام بين العروق ولامتياز عرق على آخر حينما يعلن التفوق الجوهري الأزلي للعرق الأبيض على سائر العروق ويزعم أن العروق (الملونة) غير قادرة على التطور.

ولكن (ماركس) يعرّف غوبينو بأنه (فارس الهمجية) غير مدافَع؛ ويشير (ماركس) كذلك إلى أن (غوبينو) عَبْر اختراعاته العرقية كان يحاول البرهنة على أن (ممثلي) العرق الأبيض هم أشبه بالآلهة بين الشعوب الأخرى، وأن الأسر (النبيلة) التي تنحدر من أصلاب هذا العرق هي زبدة تلك النخبة.

ومنذ القرن الثامن عشر ـــ وعلى يد بوفّون مثلاً ـــ طرح نموذج متميز للبشرية، إنه نموذج العرق الأبيض الذي يفسد وينحط كلما تم الابتعاد عن المنطقة المعتدلة... ثم صار ينظر إلى كل من ليس غربياً على أنه (بدائي)، وذلك باسم نزعة (تطورية) مغرقة في العرقية تجعل من أوروبا دائماً مركزاً لها؛ وهي حجة أساسية لتبرير الغزوات الاستعمارية عن طريق (رسالة) التمدين والتقدم التي يضطلع بها الرجل الأبيض. إن هذا المفهوم الحالي للتخلف يطيل من عمر هذه الرؤية التي تقول بالتفاوت بين البشر وبأن المسيرة النموذجية البشرية هي مسيرة (الغرب). وهكذا لا يوصف شعب ما بأنه متطور إلا بمقدار قربه من هذا النموذج المثال! وقد فضح ليفي شتراوس بقوه في كتابه (العرق والدين) هذا الادعاء العرقي المتعصب وأشار إلى مدى خطورته حينما يلغي

الحوار بين الثقافات: «إن التشويه الذي يمكن أن ينكب مجموعة بشرية ويمنعها من تحقيق ذاتها وتفتحها هو في أن تجعلها معزولة».

لقد استغلت النظرية العرقية الكاذبة دائماً في تبرير ألوان السيطرة والعنف. وقد وصل هذا الاستغلال إلى ذروته في (النازية). إن هتلر في كتابه (كفاحي) يتهم اليهود بأنهم «يريدون القضاء على العرق الأبيض الذي يكرهونه وذلك بإفساده بطريق التهجين. إن اليهودي يسمم دم الآخرين ويحتفظ بدمه سليماً».

ولكن المذهب العرقي ليس له أي أساس علمي؛ فمن وجهة النظر البيولوجية ثبت بطلان النظرية القديمة القائلة بالاستدلال بشكل الجمجمة البشرية على صفة ما. وعلم الوراثة المعاصر القائل بأن بعض (المورّثات) تتحكم في خصائص الدم، يدلل على بطلان المفهوم البيولوجي للعرق.

وهذا (جان برنار) الذي يعد أبرز شخصية في هذا العلم يهدم الخرافة المتصلة بالدم القائلة بالتفاوت بين دماء البشر فيكتب قائلاً: «كانت هناك علاقة مقبولة مطروحة بين تركيب الدم وبين تركيب الإنسان من حيث ذكاؤه وقوته وشجاعته وصفاته الجسدية والمعنوية. إن هذه المقولة قديمة جداً؛ وقد لقيت ترحاباً في القرنين التاسع عشر والعشرين بدءاً من غالتون إلى هتلر... ومروراً بلابوج وغوبينو. وما زالت هذه المقولة إلى عهد قريب تلهم بعض القائلين بالنظرية الجديدة في (علم الاجتماع البيولوجي). إن هذه البراهين الخداعة الماكرة الخطيرة تقف على أساس من الرمل».

أما قوانين نورمبرغ الهتلرية فكانت تهدف إلى حماية الدم الألماني بمطاردة الدم اليهودي. وقد اصطدم تطبيق هذه القوانين بالقضية الباطلة نفسها التي هي قضية (دولة اسرائيل) في مفهومها لقانون (العودة)... تلك القضية القائلة: مَن اليهودي؟ فليس هناك (عرق يهودي) و (عرق آري).

وقد سبق أن رأينا أن العبرين — في الأصل — كانوا قبائل سامية من بين قبائل أخرى تجوب الأرض من شبه الجزيرة العربية إلى ما بين النهرين إلى سورية وفلسطين إلى مصر. والنصوص التوراتية تشير إلى هذه الطائفة من العبريين إلى جانب خليط من

شعوب أخرى؛ فليس ابراهيم عبرياً ولكنه آرامي؛ وقد قيل عن أورشليم في سفر حزقيال: «... أصلك ومولدك من كنعان. أبوك عموري وأمك حثية».

إن مايميز الصهيونية السياسية الحالية في تسخيرها السياسي لليهودية هو اختيارها من التقاليد اليهودية كل ما هو مغرق في القدم والتعصب ومغرق في التدمير والعنجهية في آنٍ معاً.

أما رفض الصهاينة للاندماج فيستمد دعمه من سلم القيم الذي حددته طبقة الكهنوت حينما عزلت التاريخ اليهودي ورسمت له خط سيره؛ فالعصر الذهبي إذن هو عصر العزلة القبلية المنغلقة، عصر النقاء والصفاء؛ أما الانحطاط فهو الانفتاح على الآخرين والحوار البنّاء المغني وتمثُّل مالدى الآخرين من قيم سامية. إن في ذلك إنكاراً لروح الرسالة التي قدمها الهلال الخصيب، هذه الرسالة التي سوف يتبناها (مارتن بوبر) أكبر مفكر يهودي في القرن العشرين.

حينما استقر العبريون في أرض كنعان اختلطوا دماً وثقافةً بمجموعات الشعوب المختلفة كما تشهد التوراة بذلك... وحينما أملى عزرا ونحميا القوانين الأولى الخاصة بحماية الدم كان قد مضى على عملية التهجين والاختلاط أكثر من خمسة قرون. جاء في سفر نحميا: «في تلك الأيام رأيت اليهود الذين تزوجوا نساء أشدوديات وعمونيات ومؤابيات. ونصف كلام بنيهم باللسان الأشدودي ولم يكونوا يحسنون التكلم باللسان اليهودي..».

ومن المؤكد أن ممارسة الحجْر والانغلاق قد خففت من موجة التزوج بالغرباء التي انتشرت لدى يهود (الشتات)... ولكن ما كادت جدران الحجْر تتداعى في أوروبا الغربية حتى أخذت نسبة التزاوج والتهجين ترتفع؛ ففي ألمانيا بين عامي ١٩٢١ ـــ ١٩٢٥ كانت نسبة اليهود الذين تزوجوا بأجانب أربعين في المئة. وفي عام ١٩٢٦ تم في برلين عقد ٨٦١ قراناً يهوداً بيهود وعقد ٥٥٤ قراناً يهوداً بغير اليهود. وفي الولايات المتحدة أشارت مجلة (التايم) عام ١٩٧٥ إلى أن اليهود الأمريكيين «ميالون إلى الزواج من خارج ملتهم... وأن ثلث حالات الزواج هي من غير اليهود». وكان لتغيير

الدين دوره في عملية الاختلاط إلى جانب دور التزوج بالغرباء.

وفي أثناء فترة السبي البابلي حينما منح ملك الفرس أشحويرش سلطات واس لزعيم الطائفة اليهودية (مردوخي) اعتنق كثير من سكان البلاد الدين اليهودي بسبب خوفو من سلطة اليهود، على ما ورد لدى المؤرخ اليهودي يوسيفوس فلافيوس الذي يضيف قائلاً: «كان عدد اليهود فيما وراء الفرات أكبر من أن يحصى».

ولكن من الصعب أن نتصور أن عشرات الآلاف من النبلاء المنفيين الذين قسم كبير منهم إلى فلسطين بعد قرار قورش... قد نسلوا تلك الطائفة الكبيرة ، اليهود دون أن ندخل في حسابنا عملية الدخول الواسعة في الدين اليهودي؛ فلقد الملك عبيادين في شمال مملكة أشور القديمة وتبعه في ذلك عدد عظيم من رعاياه. و فرضت سلالة الأشمونيين (١٣٥ــ٦٣ ق.م) في أثناء فتوحاتها اعتناق اليهودي على الشعوب المغلوبة وبخاصة على الأدوميين الذين انضموا إلى الطائفة اليهود وقد أخلص هؤلاء لليهودية وكان منهم آخر ملوك اسرائيل ثم إنهم لعبوا دوراً بارزاً مقاتلة الرومان.

وقد أحرز التبشير اليهودي نجاحاً كبيراً في أثناء القرون الثلاثة الأولى قبل أن تبدأ الكنيسة ــ على أثر مجمع نيقيه ــ باضطهاد اليهود على أنهم هرا يكتب فيلون اليهودي قائلاً: «لقد اجتذبت تعاليمنا إلى صفوفها البرابرة والأراضي و والشرق والغرب وأوروبا وآسيا وأرجاء المعمورة كافة». وكانت الاسكندرية في مصر مئتي ألف يهودي.

ويؤكد الإحصاء الذي أجراه الامبراطور كلود عام ٤٣ م أن عشرة بالمائة ، مواطني الامبراطورية الرومانية كانوا من اليهود.

واستمرت حركة التهوّد في المناطق التي لم يكن للكنيسة الرومانية سلطان ففي مطلع القرن السادس الميلادي تهود ملك اليمن (ذونواس) مع عدد كبير من رعا العرب.

وفي القرن السابع الميلادي كان شعب الخزر ذو الأصول التركية والروسية و

يشكل مملكة كبرى على أرض أوكرانيا الحالية. وحوالي عام ٧٤٠ م اعتنق ملك الخزر (بيلان) اليهودية، وحذا حذوه قسم كبير من رعاياه؛ وكان مستقلاً عن البيزنطيين المسيحيين وعن الفرس المسلمين. هذا ويمكن القول إن ثلث رعايا دولة الخزر كانوا من اليهود إذا استأنسنا بتشكيل أعضاء المحكمة العليا إذ كانت تضم عضوين من اليهود واثنين من المسيحيين واثنين من المسلمين وواحداً من الوثنيين.

وفيما بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر تفتتت هذه المملكة تحت وقع هجمات الروس والبيزنطيين وبخاصة هجمات المغول بقيادة جنكيز خان. وهكذا انكفأ الخزر صوب بولونيا وهنغاريا وترانسلفانيا حيث أسسوا هناك مع إخوتهم في الدين القادمين من ألمانيا والبلقان التجمعات اليهودية في أوروبا الوسطى والشرقية.

إذن وبعد كل ذلك سيكون الاستنتاج بسيطاً وواضحاً؛ فها هوذا (رافائيل باتاي) يبدأ المادة الخاصة باليهود في الموسوعة البريطانية بهذا الحكم الموجز فيقول: «إن الاكتشافات الأنتروبولوجية الفيزيائية تدل على أنه ليس هناك عرق يهودي خلافاً لكل رأي سائد».

وهو يشير حين يلخص الأبحاث الخاصة بالزمر الدموية إلى أن هناك فروقاً واختلافات هائلة بين مجموعة يهودية وأخرى، وأن هناك تشابهاً واضحاً صريحاً بين اليهود وبين سكان البلاد من غير اليهود». وحينما يسترشد بأبحاث هرتزفيلد في الكيمياء الحيوية يلحظ أن الاختلاف ضئيل جداً بين الألماني اليهودي والألماني غير اليهودي... وأن بنية الدم ــ بوجه عام ــ هي نفسها لدى اليهودي وغير اليهودي في البلد الواحد.

هذا وسيكون من العبث أن نصرف النظر عن مثل هذه البراهين لو أن الصهاينة لم يبنوا أسطورة (العودة) على خرافة استمرارية الصلة عرقاً وتاريخاً بين العبريين التوراتيين وبين يهود اليوم، ولو لم يحاولوا أن يقنعوا كل يهودي أياً كان موطنه بأنه حينما يعود فهو يعود إلى أرض أجداده. بينما واقع الحال يقول: اعتماداً على عمليات التهود وعلى عمليات التزوج بغير اليهود يمكن القول إنه ليس هناك من بين اليهود أكثر من واحد في المئة قد وطىء أجدادهم أرض فلسطين.

أما مكسيم رودنسون في مقالته (اسرائيل واقع استعماري) فيستنتج قائلاً: «وأغلب الظن ــ على ما تميل إليه علوم الأنتروبولوجيا الفيزيائية ــ أن السكان الذين يسمون (عرب) فلسطين، وهم في معظمهم مستعربون، يحملون في عروقهم من دماء العبريين القدامى أكثر مما يحمل معظم يهود (الشتات) الحاليين».

وهكذا تتهاوى أسطورة (العودة)؛ ولكن قادة الصهاينة الاسرائيليين يلجؤون إلى هذه الأسطورة بغية تغطية غزوهم الاستعماري تحت قناع (عودة) اليهود الذين ليس لغالبيتهم العظمى أي جد ولد على أرض فلسطين. أما النتيجة الواضحة لهذه الخرافة فقد صاغها (توماس كيرمن) إذ قال: «إن الصهاينة كانوا أوروبيين. وليس هناك أية رابطة بيولوجية وأنتربولوجية بين أجداد يهود أوروبا وبين قبائل العبريين القدماء».

ب ــ خرافة الأرض

إن خرافة الأرض متصلة بخرافة العرق شأنها شأن كل النزعات القومية المتعصبة؛ وهي كذلك من مخلفات الرومنسية الأوروبية في القرن التاسع عشر.

حينما كتب (فيخته) عام ١٨٠٧ (أحاديث إلى الأمة الألمانية) ــ وهي لا تمت بصلة إلى فلسفته السابقة ــ طرح مفهوماً غيبياً (ميتافيزيكياً) للأمة يختلف عن مفهوم جان جاك روسو والثورة الفرنسية القائل بأن الأمة تقوم على (عقد اجتماعي) نابع من إرادة حرة عقلانية عند المواطنين... إن مفهوم الأمة لدى فيخته غيبي أزلي سابق في الوجود لوعي البشر وإرادتهم. وأفراد أمة من الأمم يتصلون بالحياة البدْئية للأمة عن طريق انتمائهم إليها. وما هذه الأمة إلا صدى إرادة إلهية تحدد لها رسالة عالمية شاملة. و (الألماني) ــ على ما يرى فيخته ــ هو وحده القادر على التعبير عن جوهر الإنسان وعن فضائله لأنه الوحيد القادر على إدراك (الكينونة) الحقيقية لكل تاريخ بشري عبر الجوهر الميتافيزيكي للأمة ذات الرسالة وعبر ماضيها وأرضها. يكتب فيخته قائلاً: «إن الألماني وحده هو القادر على أن يكون مواطناً حقاً لأنه وحده القادر على أن يعانق البشرية كلها عبر أهداف أمته وغاياتها».

وهكذا تصبح الأرض الكيان الرمزي المجازي للعرق: «إن الحدود الخارجية

للأرض تنبع فحسب من الحدود الداخلية التي خطتها طبيعة البشر . وليست الأمة أمة لأنها تعيش على أرض تحدها الجبال والأنهار ، وإنما لأن أفرادها كانوا يشكلون فيما سبق شعباً يسوده قانون طبيعي أسمى وأرفع من أي قانون آخر ... » .

وكان هيغل قد أشار إلى أطروحة (الشعب المختار) على غرار ما طرحه ليسينغ فصرح يقول : إن الجرمانية هي الحقبة الثالثة للفكر العالمي . وأما شليغل فيقول : إن الشمولية هي جوهر الروح الألمانية . ويصوغ نوفاليس المغزى الرئيسي للرومنسية الألمانية فيقول : « أليست الطبيعة ـــ شأنها شأن الإنسان ـــ ذات تاريخ وروح ؟ » .

إن فكرة (المكان المسكون بالروح) ، وهي فكرة متصلة بمفهوم العرق ، هي الخيط الذي يقود كل ممارسات القوميات المتعصبة في القرن التاسع عشر المطالبة باسترجاع الأرض . وها هو ذا تيودور هرتزل المفعم بالثقافة الألمانية يربط فيما بين الأطروحتين ؛ ففي كتابه (الدولة اليهودية) يلح على فكرة العرق اليهودي قائلاً : « إن اليهود المتفوقين مادياً وفكرياً قد فقدوا كل شعور بوحدة انتمائهم العرقي ... إن اليهود الأقوياء يلوذون بعرقهم مزهوين واثقين كلما اندلعت الاضطهادات في وجههم » .

ويضيف هرتزل قوله : « فلنُمنح السيادة على قطعة من الأرض تلائم حاجاتنا المشروعة ... إن فلسطين هي وطننا التاريخي الذي لا ننساه . أما اسم فلسطين فسيكون صرخة استنفار قوية تعمل على تجميع شعبنا ... » . وواقع الأمر أن هرتزل يستغل أطروحتي (العرق) و (الأرض) الرومنسيتين بما فيهما من قوة دافعة محركة لا بما فيهما من أساس موضوعي . إن هرتزل واضح وصريح فيما يدعو إليه .

يقول في موضوع (العرق) : « الحق أننا لا ننظر إلى أنفسنا على أننا من عرق واحد إلا بفعل عقيدة آبائنا » . ولكن اليهودية لا يمكن تعريفها إلا بأنها عقيدة ... أما هرتزل فاليهودية لديه (شعب) خلافاً للمألوف المعروف . يقول : « إن عدونا هو الذي أراد لنا أن نكون شعباً على غير إرادة منا .. هكذا أريد لنا طوال التاريخ » . وسنرى فيما بعد أن مؤسس الصهيونية السياسية قد استغل بمهارة وحذق ذلك اللبس والإبهام في هذا التعريف المزدوج لليهودية ... وهو ما انفك يحارب أولئك الذين ينظرون إلى اليهودية على أنها دين فحسب .

وحينما سأل (آشر مايرز) هرتزل: «ما موقعك من التوراة؟» أجابه هذا بقوله: «أنا رجل حر التفكير... وعلى كل منا أن يبحث عن خلاصه بطريقته الخاصة».

إن هرتزل يعلم جيداً أن مفهوم (العرق) خرافة وهمية ليس لها أي أساس علمي. وفي نقاشه مع اسرائيل زانغويل الذي يصفه هرتزل بأنه ذو ملامح تختلف اختلافاً جذرياً عن ملامحه... يكتب قائلاً: «إن زانغويل يتمسك بفكرة العرق، وهذا ما لا أقبل به. ويكفي أن ينظر إلى وجهه ووجهي. كل ما أستطيع قوله أننا ــ نحن اليهود ــ وحدة تاريخية وأمة ذات أصول بشرية متنوعة... ويكفينا ذلك لقيام دولة يهودية إذ ليس هناك أمة ذات عرق صافٍ» ثم يضيف قائلاً: «إن ماكس نوردو يشاطرني الرأي فيعترف بأن العداء للسامية قد جعلَ منا (شعباً) يهودياً».

وهو على اقتناع كبير بأن فكرة العرق والشعب والأمة اليهودية لا حقيقة لها إلا من منظور الولاء الديني، وأن القاسم المشترك الوحيد بين اليهود لا يمكن أن يكون إلا وحدة العقيدة، هذه الوحدة التي يعلنها في خطاب افتتاح مؤتمر بال عام ١٨٩٧... يقول هرتزل: «إن الصهيونية هي عودة إلى اليهودية قبل أن تكون عودة إلى بلد اليهودية».

وفي موضوع خرافة الأرض يشير (آشر مايرز) إلى أن هرتزل لم يكن يهتم بالأفكار الدينية الخاصة بفلسطين «إلا بمقدار ما تخدم المثل القومي الأعلى. ولم تكن المعتقدات الدينية المنسوجة حول (الأرض المقدسة) لديه ذات فائدة إلا على أنها مناورة صالحة لحماية النزعة القومية وطاقاتها الثمينة الناشئة في مواجهة مظاهر الاندماج الذي يهدد تلك النزعة».

والواقع أن القضية الجوهرية لدى هرتزل هي إنشاء (دولة) يهودية قوية أياً كان موقعها. وقد صوب هرتزل سهامه أول الأمر إلى الأرجنتين التي كان البارون (هيرش) قد أنشأ فيها مستعمرات يهودية؛ ثم توجه بنظره صوب شبه جزيرة سيناء والعريش... ثم طالب بعد ذلك الحكومة الانكليزية بقبرص. وقد أبلغه تشمبرلن وزير الخارجية البريطانية أن قبرص يسكنها يونان ومسلمون، وهو لا يستطيع أن ينتزعهم من أرضهم

ليُحل محلهم غرباء وافدين... وأجاب هرتزل تشمبرلن بقوله: «أما المسلمون فسيرحلون، وأما اليونان فسيسعدهم أن يبيعوا أرضهم بأسعار مغرية ويهاجروا إلى أثينا أوكريت»... ثم طلب هرتزل من البرتغاليين أرضاً في مستعمرتهم (موزمبيق) ثم من البلجيكيين أرضاً في الكونغو... وأخيراً عرضت عليهم الحكومة الانكليزية أرض أوغندا أو جزءاً من كينيا، فقام هرتزل يدعمه في ذلك (ماكس نوردو) بعرض هذا الاقتراح على المؤتمر الصهيوني الخامس في آب عام ١٩٠٣... وانفض المؤتمر عن فضيحة إذ صوت ٢٩٥ مندوباً على قبول الاقتراح وصوت ١٧٧ مندوباً على رفضه وغادروا قاعة المؤتمر.

وحاول هرتزل عبثاً أن يرجعهم إلى القاعة معلناً أن هذا الاقتراح هو مرحلة مؤقتة وأن الهدف الأخير لا يمكن أن يكون إلا فلسطين؛ ولكن الثقة قد تزعزعت. وبعد ستة أشهر من هذه الأزمة أطلق صهيوني روسي في باريس النار من مسدسه على (ماكس نوردو) الذي نعتوه بالأوغندي!

ولم يثنِ ذلك هرتزل عن متابعة السير في الاتجاه نفسه؛ ففي عام ١٩٠٤ استقبله ملك إيطاليا الذي تحدث إلى هرتزل عن (ساباتاي زيفي) ذلك المسيح الدجال الذي كان قد تعاون معه أحد أجداد الملك. وأثارت هرتزل هذه الصلة بين جد الملك وبين المسيح الدجال فصرح له الملك بأنه قد حسبه أول الأمر أحد الحاخامات. أجابه هرتزل: «كلا. كلا ياصاحب الجلالة. إن حركتنا ذات طابع قومي صرف» وحدد له فحوى خطته بأنها «توجيه جموع المهاجرين اليهود بغزارة إلى طرابلس الغرب في ظل القوانين والتشريعات الإيطالية الحرة». وكان جواب الملك الذي نقله هرتزل نفسه ذا دلالة حينما قال: «ولكن تلك الأرض يسكنها أناس آخرون» فما كان من هرتزل إلا أن رد عليه من منطق استعماري امبريالي قحّ قائلاً: «ولكن تقسيم تركة الامبراطورية العثمانية سيتم بين عشية وضحاها!».

إن مسلك تيودور هرتزل الذي يتعامى عن كل ماليس يهودياً في هذا العالم ماعدا قوى الاستعمار التي تساعده في تحقيق مشروعه، مسلك نوعي متميز. نعم

فليس لدى هرتزل ما يسمى بالسكان الأصليين لبلدٍ ما. أما كتابه المترجم إلى الفرنسية بعنوان (أرض قديمة. أرض جديدة) فحافل بالدلالات. وهو رواية في (الخيال السياسي) قوامها تقديم لوحة ذات وجهين لفلسطين: الوجه الأول يقدم فلسطين التي زارها المؤلف عام ١٨٩٨، والوجه الثاني لفلسطين التي يتخيلها وقد أصبحت دولة يهودية عام ١٩٢٣. وفي ثنايا الكتاب الذي يضم ثلاثمئة وإحدى وثلاثين صفحة لا ترى ذكراً إلا للمستعمرين اليهود في فلسطين على أنهم أسياد البلد؛ أما كلمة (عربي) فلا تظهر إلا مرة واحدة حينما يصف المؤلف (مهرجاناً على الطريقة العربية) شهده المستعمرون في مستعمرة (راحبوت). وفي ظل الدولة اليهودية في رواية هرتزل لم يرد كذلك ذكر لكلمة (عربي) إلا حينما يصف «سكان البلاد وقد غزتهم منتجات الغرب... والذهول والانشداه الذي يصيب هؤلاء السكان الشرقيين لدى رؤيتهم عجائب السلع»... نعم هذا كل شيء! إن هرتزل — لا في مذكراته ولا في روايته — لم يلق نظرة واحدة على تلك التحفة المعمارية العالمية في القدس نعني بها (قبة الصخرة)؛ فكأن هذا الشعب وكأن ثقافته لم توجد في نظر هرتزل! ولابد ها هنا من التذكير بأنه بعد الموجة الأولى من هجرة اليهود إلى فلسطين على أثر مذابح روسيا القيصرية (بدءاً من ١٨٨١) كان عدد سكان فلسطين نصف مليون، منهم ٤٥٠٠ يهودياً في الريف و ٤٥٠٠٠ في المدن؛ وهكذا يلغي هرتزل من الوجود تسعة أعشار سكان فلسطين[1].

وإذا رجعنا إلى التاريخ القديم تبين لنا من قراءة النصوص المقدسة لمنطقة الشرق الأوسط أن الشعوب كلها تلقت هي كذلك من آلهتها (وعوداً) بأرض ما... بدءاً ببلاد ما بين النهرين إلى مصر ومروراً بالحثيين في سورية.

فعلى مسلة الكرنك التي نصبها تحوتمس الثالث تمجيداً لانتصاراته المتتابعة في

---

١ — إن هذا الموقف ثابت دائم لدى الصهيونية؛ فلقد صرحت غولدا مائير عام ١٩٦٩ لصحيفة الساندي تايمز قائلة: لا وجود لفلسطينيين... وكأن هناك من يقول بوجود شعب فلسطيني جئنا لإخراجه من بلده... كلا... ليس هناك أي وجود لشعب فلسطيني.

(المؤلف)

غزة ومجدو وقادش حتى قرقميش على الفرات... نقرأ قول الإله: «بإرادتي أختصك بالأرض طولاً وعرضاً... جئت لأهبك القوة على سحق الأعداء.».

وفي الطرف الآخر من الهلال الخصيب أي فيما بين النهرين نقرأ على اللوح السادس في قصيدة الخلق البابلية إرداة الإله مردوخ بتحديد نصيب من الأرض لكل شعب؛ ثم ينهي الإله (عهده) فيأمر ببناء بابل ومعبده فيها.

وفيما بين المصريين والبابليين نستمع إلى الحثيين ينشدون لإلهة الشمس (أرينّا) قائلين: «أنت تسهرين على حفظ السماوات والأرض وتقيمين حدوداً للبلاد».

إذن فالعبريون إذا لم يقولوا إنهم تلقوا (وعداً) مثل غيرهم فوضعهم سيكون شاذاً!... ولكن الشذوذ حقاً هو استغلال (الوعد) بعد ثلاثة آلاف عام: تخيلْ معي عراق اليوم وهو يزعم حقه في الأراضي التي وعد بها الإله مردوخ أهل بابل، وتخيل معي سوريي اليوم يطالبون بحدود الأرض التي حددتها الإلهة أرينّا (لأجدادهم) الحثيين... أو مصريي اليوم وهم يطالبون بالأرض التي وعد بها أجدادَهم آمون وتحوتمس... ألا إن كل ذلك سيكون مدعاة حقيقية إلى السخرية المضحكة!

نعم إن كل قومية متعصبة هي بحاجة إلى خلع طابع القداسة على مزاعمها: فبعد تمزق المسيحية كانت كل (دولة ـ أمة) تزعم أنها قد تلقت الحق في الإرث المقدس بتكليف من الله... من (روسيا المقدسة) إلى ملوك اسبانيا الكاثوليك إلى فرنسا (بنت الكنيسة البكر) التي بها تمت إرادة الله... إلى ألمانيا التي هي (فوق الجميع) لأن الله معها.

وها هي ذا (إيفا بيرون) تعلن أن رسالة الأرجنتين هي حمل رسالة الله إلى العالم؛ وفي عام ١٩٧٢ يعلن فورستر رئيس وزراء جنوبي افريقية المشهور بعنصريته الرهيبة إعلان المتنبئين: «علينا أن لا ننسى أننا شعب الله المخولون بحمل رسالته». بعد هذا... فلماذا إذن لا تضرب القومية الصهيونية على الوتر نفسه الذي ضربت عليه كل النزعات القومية المتعصبة؟

أضف إلى ذلك أن الصهيونية السياسية ترفض أن تكون اليهودية ديانة فحسب

وتصر على أن اليهودية (أمة).

يقول هرتزل في كتابه (الدولة اليهودية) بوضوح وصراحة: «ليست القضية اليهودية عندي قضية اجتماعية ولا قضية دينية؛ إنها قضية قومية... فلا بد لحلها من أن نجعل منها قضية سياسية عالمية تناقشها وتنظمها مجموعة الأمم المتمدنة في العالم. نحن شعب، بل شعب واحد».

ويكتب (ماكس نوردو) أقرب المقربين من هرتزل عام ١٩٠٢ قائلاً: «إن النقطة الوحيدة التي تنفي التفاهم إلى الأبد بين اليهود الصهاينة واليهود غير الصهاينة هي قضية (القومية اليهودية). إن من لا يرى أن اليهود أمة لا يمكن أن يكون صهيونياً حقاً».

ويلخص غوتيل رئيس اتحاد الصهاينة الأمريكيين المسألة بكل وضوح فيقول: «نحن نؤمن بأن اليهود ليسوا طائفة دينية صرفة وليسوا عرقاً فحسب بل هم أمة».

ج ـ المعارضة الدينية تتهم الصهيونية السياسية بأنها كفر باليهودية

وهكذا وُلدت من جراء هذا التوجه خصومة عنيفة بين العقيدة الإلهية وقومية الصهيونية السياسية.

ففي مواجهة هذه القراءة المتعصبة الضيقة للتوراة التي استخدمت في تغطية النزعة القومية والاستعمار الصهيوني السياسي لدى هرتزل ودولة اسرائيل فيما بعد بمزاعم دينية... هب اليهود المعارضون الذين رأوا في هذا المشروع السياسي خيانة للعقيدة النبوئية اليهودية. وفي الوقت نفسه الذي تأسست فيه الصهيونية السياسية عام ١٨٩٧ في مؤتمر بال بتحريض من هرتزل، عقد مؤتمر مونتريال في العام نفسه بدعوة من الحاخام (ماير وايز)، وهو أكبر شخصية يهودية في الأمريكيتين؛ وقد جرى التصويت على الاقتراح الذي يفصل فصلاً حاسماً بين قراءتين للتوراة: قراءة متعصبة متغلقة، وقراءة شاملة منفتحة. كان نص الاقتراح يقول: «نستنكر كل الاستنكار أية مبادرة ترمي إلى إقامة دولة يهودية. هناك محاولات من هذا القبيل تنبىء عن مفهوم مضلل ينطلق من منطلق سياسي وقومي ضيق ليشوه رسالة (اسرائيل) التي ارتقت إلى المستوى الإنساني الشامل، هذه الرسالة التي بشر بها أنبياء اليهود الأوائل. ونحن نؤكد أن أهداف اليهودية ليست سياسية ولا قومية وإنما هي أهداف روحية تحمل على عاتقها نشر السلام والعدالة والمحبة بين البشر. إن اليهودية تتطلع إلى عصر يعترف فيه الناس

بأنهم ينتمون إلى طائفة كبرى واحدة بغية إقامة ملكوت الله على الأرض».

هذا ولم تنقطع هذه المعارضة مع قيام دولة اسرائيل التي لم تُطمئن سياستُها مخاوف اليهود المؤمنين. وقد لخص الحاخام هيرش عام ١٩٧٨ بحماسة وحمية الموضوعة الجوهرية لهذا النقد اللاهوتي الموجه إلى الصهيونية في الواشنطن بوست فقال: «إن الصهيونية على نقيض تام مع اليهودية... إنها تريد تعريف الشعب اليهودي بأنه وحدة قومية؛ وهذا هو الكفر نفسه. لقد تلقى اليهود من الله رسالة لا تلزمهم بالعودة إلى (الأرض المقدسة) على الرغم من أولئك الذين يسكنونها. وهم حينما يفعلون ذلك عليهم أن يتحملوا كل العواقب. والتلمود يقول: إن هذا التعدي سيجعل من لحوم اليهود فريسة لوعول الغابة... إن المحارق والمجازر هي إحدى ثمرات الصهيونية».

ونحن لكي نفهم هذا الاستياء الغاضب لابد من أن نذكّر بأن العقيدة اليهودية قد رفضت على مدى عشرين قرناً ــ بغية إنجاز رسالتها العالمية ــ أن تتجسد في أية سلطة سياسية مهما كانت.

وتشير (موسوعة الصهيونية واسرائيل) التي ظهرت عام ١٩٧١ في نيويورك إلى المضمون السياسي للحركة الصهيونية؛ فقد ورد في مقدمتها أن هذه الحركة قد أُنجزت تحت الرعاية السامية لرئيس اسرائيل (شالمان شازار). وفي مادة (الصهيونية) في المجلد الثاني نقرأ ما يلي: «الصهيونية اسم أطلق عام ١٨٩٠ على الحركة التي تهدف إلى عودة الشعب اليهودي إلى أرض اسرائيل. ومنذ عام ١٨٩٦ صارت (الصهيونية) تعني الحركة السياسية التي أسسها تيودور هرتزل».

وقد جوبه هرتزل بمعارضة شديدة من قبل كثير من اليهود والحاخامات. يلخص (روفوس ليرزي) ردود الفعل الأولى الصادرة عن المنظمات اليهودية الأوروبية على دعوة هرتزل فيقول: «إن أهم المنظمات اليهودية في أوروبا الغربية والتحالف الاسرائيلي العالمي في فرنسا وفرعه في النمسا وجمعية الاستيطان اليهودية في لندن قد عارضت ذلك... أضف إليها جمعية المكابيين ــ وهم فئة من المثقفين اليهود في لندن ــ التي أصغت إلى دعوة هرتزل من قبيل المجاملة إصغاءاً بارداً». وبينما كان بعض الحاخامات

المتشددين يعربون عن معارضتهم كان أشد المعارضين حدة وعنفاً من الحاخامات الإصلاحيين الذين كانوا يقولون بأن اليهود ليسوا أمة ولا يجوز لهم أن يحاولوا أن يكونوا أمة».

إن هذه المعارضة للصهيونية السياسية بنزعتها القومية كانت تقوم على أساس من جوهر التعاليم اليهودية. يقول (فنكلشتاين): «إن النفي إلى بابل في القرن السادس ق.م كان مرحلة فاصلة لا في تاريخ اليهود فحسب وإنما في تاريخ الحضارة... فهناك طائفة كبيرة راحت تمارس عبادة ربها بمعزل عن أرض الأجداد؛ وكان ذلك نقطة انطلاق إلى مفهوم للإخاء الإنسانيّ منقطع الصلة بالمزاعم التي تجعل حب الشعب والوطن كرهاً وعداءاً موجهين إلى سائر الشعوب. وهكذا تأسس المبدأ القائل: ليس لله مكان يختص به، ولكنه في كل مكان، والناس لديه سواسية.».

وقد رجعت أقلية من المنفين إلى فلسطين لتنشىء فيها تحت ظل ملك فارس مجتمعاً منغلقاً فرض عليه كل من عزرا ونحميا تمييزاً عنصرياً وحكماً ثيوقراطياً كهنوتياً. أما الأغلبية التي لبثت في بابل فكانت ترى في الكتاب المقدس (وطناً لها). وها هنا ستلد الديانة اليهودية (التلمود) الأول، وسنشهد ظهور المفسرين الكبار مثل الحاخام (هيليل).

... هذا وقد وصل انتشار العقيدة اليهودية ــ حينما لم تكن اليهودية محصورة في حدود أمة ــ إلى قمته في بابل ثم بغداد في القرن التاسع أيام الخلفاء المسلمين؛ حتى إن كبير أحبار اليهود كان يقيم في بلاط الخلفاء وله مكانة تفوق مكانة كبار النصارى.

وقد برز في هذه الفترة من ازدهار العقيدة اليهودية تحت ظل الخلافة العربية... برز في هذه الفترة المسماة بالفترة الذهبية شخصيات يهودية في العراق ومصر؛ منها العالم اليهودي المصري (سعديا الفيومي)، مما يدل على أن تاريخ فلسطين لا يمكن فصله عن مجموعة الهلال الخصيب بقطبيه: مصر وما بين النهرين. وكانت لغة (الفيومي) مثل لغة كل اليهود في تلك الفترة هي العربية، مما أتاح له ترجمة التوراة إليها.

وكان انحسار الثقافة اليهودية على أثر انحسار الامبراطورية العربية التي ازدهرت

في ظلها تلك الثقافة: وهكذا قضي عليها بسبب سيطرة السلاجقة الأتراك على بغداد (١٠٥٥) واستيلاء الصليبيين على القدس عام (١٠٩٩).

ثم كان مركز تألق اليهودية من بعد ذلك في اسبانيا تحت ظل الخلافة الإسلامية حيث ظهر فيها ونبغ (أمراء) الطائفة اليهودية مثل (حسداي بن سبروت) وزير الخليفة في قرطبة، وصموئيل وزير سلطان غرناطة. وهناك فلاسفة ولاهوتيون وشعراء (سليمان بن جابيرول ويهودا هالفي ولاسيما موسى بن ميمون) ظهروا ونبغوا في تلك المرحلة التي يسميها أندريه شوراكي (المرحلة الذهبية) لليهودية في اسبانيا المسلمة حيث أثمر التلاقح اليهودي ـــ العربي أنضج ثماره وأحلاها.

وفي قرطبة ولد ونشأ أشهر فلاسفة اليهود؛ إنه ابن ميمون؛ وقد هرب من اسبانيا حينما حكمها (الموحدون) المتزمتون إلى القاهرة حيث أصبح طبيباً لصلاح الدين الأيوبي وصديقاً له، صلاح الدين الذي طرد الصليبيين من القدس وسمح بإعادة فتح المعابد اليهودية فيها تلبية لرغبة صديقه ابن ميمون. وقد كتب ابن ميمون بالعربية كتابه (دليل الحائرين) وهو مجموعة من اللاهوتيات اليهودية يستعرض فيه أجمل وأدق مبادىء العقيدة اليهودية ليصونها من إغراءات السياسة... يقول: «إن الشريعة لا يمكن استخدامها تاجاً أو سيفاً».

وهكذا بعد أن أسهم كبار المبدعين اليهود في كل المجالات ذلك الإسهام الغني في تطوير الحضارة العربية ودفعها إلى القمة راحوا يسهمون كذلك في كل الصُّعد ذلك الإسهام الكبير في تطوير الحضارة الغربية من سبينوزا إلى كافكا إلى أنشتاين.

إن اليهود الذين كانوا يريدون أن يظلوا أوفياء لرسالة دينهم العالمية والذين صارعوا في نهاية القرن التاسع عشر للخلاص من كل ألوان التفرقة القديمة ما كان بمقدورهم أن يروا في الصهيونية السياسية إلا خيانة للمثل الأعلى وتنكراً لأسمى تقاليدهم الروحية.

د ــ ولادة الصهيونية السياسية

إن المؤسس الحقيقي للصهيونية السياسية هو تيودور هرتزل (١٨٦٠ ــ ١٩٠٤) في كتابه (الدولة اليهودية) ١٨٩٥ وفي المؤتمر الصهيوني الأول في بال ١٨٩٧.

ويعترف هرتزل نفسه بأن الفكرة الصهيونية القائلة بعودة اليهود إلى فلسطين ليست جديدة. وهو يذكّر في يومياته بأن أحد أصدقائه كان يقول: «إن ساباتاي قد سبق له أن حاول إنجاز الفكرة الصهيونية»... وساباتاي هذا هو (المسيح الدجال) الذي ظهر في القرن السابع عشر. وكان (موسى هس) قد عالج هذا الموضوع في كتابيه (روما وأورشليم) ١٨٦٠ و (مشروع استيطان الأرض المقدسة)؛ وكذلك الأمر لدى (ليون بنسكر) و (ناتان برنبوم) الذي كان قد نشر عام ١٨٩٣ كتابه (البعث القومي للشعب اليهودي على أرضه على أنه حل للمشكلة اليهودية).

وحينما يرمي هرتزل بالشعارات القائلة: «نحن شعب؛ وفلسطين وطننا التاريخي الذي لا ننساه» فهو لا يعدو أن يكرر ما يسميه هو نفسه (الأسطورة القادرة) التي تشكل صرخة استنفار لتجمعٍ قوي لا يغلب. وهو يؤكد في خاتمة كلامه قائلاً: «إن المكابيين يُبعثون... واليهود المصممون على ذلك ستكون لهم دولتهم».

وهرتزل يعلم أنه لا يأتي بجديد؛ ففي كتابه (الدولة اليهودية) يخصص عدة صفحات لتذكيرنا بهذا (الهدف) بينما يخصص سبعين صفحة لعرض (طريقته) وشرحها. إنها تقوم على إنشاء (الشركة اليهودية) التي يصفها بأنها على غرار الشركات الكبرى الإقليمية.

وهذا هو الابتكار الحقيقي لهرتزل إذ جعل من (الأسطورة القادرة) واقعاً؛ وذلك بإقامة شركة قانونية ذات امتياز. وتقدم الموسوعة البريطانية تعريفاً لهذه الشركة بقولها: «إنها شركة تتمتع ببعض الحقوق والامتيازات وعليها بعض الالتزامات، وهي تخضع لميثاق تنظمه سلطة الدولة. وهذا الميثاق ــ بوجه عام ــ يمنح الشركة امتيازاً في مجال نشاطاتها... وقد انتشر هذا الأسلوب بدءاً من القرن السادس عشر بفضل الاكتشافات الكبرى التي شجعت التجارة والملاحة والصناعة». وخير نموذج لهذه الشركات (شركة الهند). وتقول الموسوعة البريطانية كذلك: «في نهاية القرن التاسع عشر أحدثت شركات جديدة ذات امتياز لتشجيع التوسع الاستعماري». ومثالها النموذجي (الشركة البريطانية ذات الامتياز لجنوبي افريقية) التي يرئسها (سيسيل رودوس)؛ وقد اختار هرتزل هذا النموذج لأنه توسم فيه القدرة والفاعلية.

وكان (سيسيل رودوس) على اقتناع بأن العرق الانكلوسكسوني قد وصل إلى قمة التطور الإنساني بإنجازه مشروعاً إلهياً... وهكذا سيورث (سيسيل) ثروته الهائلة ليشكل شركة تشمل الامبراطورية البريطانية والعالم كله.

كان سيسيل رودوس سيد مناجم الذهب في جوهانسبرغ ومواقع استخراج الماس في جنوبي افريقية؛ وبعد مؤتمرَيْ برلين عام ١٨٧٨ وعام ١٨٨٥ اللذين أطلقا العنان للمطامع الأوروبية في افريقية راح يسخر الخصومات فيما بين القوى الاستعمارية لصالح (الشركة البريطانية) ليمنحها حق إدارة واستغلال أراضي تلك البلاد بطريق اتفاقيات ماكرة ذات مظهر شرعي. وقد استغل إقدام الألمان على إقامة محمية لهم في المناطق المجاورة لجنوبي افريقية فحصل من (روتشيلد) على مليون جنيه استرليني وحصل من بريطانيا على امتياز في التنقيب مع حماية عسكرية.

وفي عام ١٨٩٥ نجح في الحصول من انكلترة على إذن بدمج منطقتين في جنوبي افريقية وأطلق عليهما اسمه الخاص فكانت (روديسيا).

كانت الفكرة المسيطرة على هرتزل أن يطبق في الشرق الأوسط ــ مستغلاً الخلافات القائمة بين القوى الاستعمارية ــ السيناريو ذاته الذي حققه سيسيل رودوس في جنوبي افريقية. وكان اندفاع القوى الامبريالية بغية تقسيم افريقية قد بدأ مع اتفاقيات برلين التي أدت إلى خدمة مشروعات سيسيل رودوس. وجاءت (المسألة الشرقية) وموقف الاستعماريين الأوروبيين من اقتسام تركة الامبراطورية العثمانية التي كانوا ينتظرون تقطيع أوصالها... جاء ذلك كله ليلعب الدور نفسه في تحقيق مخططات هرتزل. وقد وعى صاحبنا ذلك الشبه بينه وبين سيسيل رودوس فكتب إليه يطلب مشورة التلميذ من معلمه قائلاً: «أرجو أن ترسل إلي نصاً يقول إنك قد امتحنت برنامجي وأنك قبلت به. قد تتساءل لماذا أتوجه إليك بكلامي هذا ياسيد رودوس. وجوابي أن برنامجي هو برنامج إعماري».

نعم هنا يكمن السر في النجاح الخارق للمشروع الصهيوني ونجاح نظيره النظام العنصري لجنوبي افريقية الذي عُمِّر حتى نهاية القرن العشرين على الرغم من التيار العالمي الذي أزال الاستعمار في كثير من البلدان؛ إن اسرائيل ونظام جنوبي افريقية قلعتان من قلاع الاستعمار والتمييز العنصري... تتحدى الأولى العالم العربي، ويتحدى الثاني افريقية السوداء.

إذن تقوم (الدولة اليهودية) على منطلقين اثنين:

ــ أسطورة (العودة) وهي التي تحرك الجماهير.

ــ والدعم الكبير (للشركة ذات الامتياز) في سياق الحركة الاستعمارية الغربية.

وهكذا استطاع هرتزل أن ينظم ــ على هذا الأساس المتين ــ المؤتمر الصهيوني الأول في بال عام ١٨٩٧. وكان يحلم بأن يعقده في ميونيخ؛ ولكن معارضة الحاخامات الألمان والطائفة اليهودية في ميونيخ اضطراه إلى عقده في بال بسويسرا.

كان معظم المشاركين في مؤتمر بال قادمين من أوروبا الشرقية من يهود (المحاجر) كما كان يصفهم هرتزل يحدوهم الأمل في أن يجتمعوا جميعاً في مأمن من المذابح السابقة. أما اليهود الغربيون المهتمون بإنجاز اندماجهم بأوطانهم والذين لم يكونوا مهددين فكانوا معادين للصهيونية السياسية... وهكذا افتتح في آب عام ١٨٩٧ مؤتمر بال، قاعدة الصهيونية السياسية ومنطلقها. وقد صيغ (برنامج مؤتمر بال) أو (برنامج المنظمة الصهيونية العالمية) على النحو التالي:

«تهدف الصيونية إلى إقامة وطن في فلسطين للشعب اليهودي يحميه قانون عام. ولكي تصل الصهيونية إلى هذا الهدف يوصي المؤتمر باتباع الوسائل التالية:

١ — تطوير عملية توطين المزارعين والحرفيين والتجار اليهود في فلسطين ضمن أفضل الشروط.

٢ — تنظيم اليهود وتوحيدهم في العالم كله ضمن تنظيمات محلية أو وطنية في إطار القوانين المرعية في كل بلد.

٣ — تعميق الشعور القومي اليهودي وتأصيل الوعي لدى اليهود بأنهم أمة.

٤ — القيام بخطوات تحضيرية للحصول على موافقة الحكومات المعنية؛ وهو أمر ضروري كي تصل الصهيونية إلى هدفها».

وقد تبنت الحركة الصهيونية هذا البرنامج حتى المؤتمر الصهيوني الثالث والعشرين عام ١٩٥١ المنعقد في القدس حيث جرت صياغة الأهداف على نحو جديد. إن (برنامج القدس) هذا الذي يتمم مؤتمر بال سيصاغ على النحو التالي: «إن أهداف الصهيونية هي:

— وحدة الشعب اليهودي.
— اسرائيل هي جوهر حياة هذا الشعب.
— تجميع الشعب اليهودي في وطنه التاريخي — أرض اسرائيل — بطريق الهجرة من جميع البلدان.
— تثبيت كيان اسرائيل المبنية على المثل النبوئية في العدالة والسلام.

ــ الحفاظ على الشعب اليهودي بتطوير التربية اليهودية والعبرية وتنمية القيم الروحية والثقافية اليهودية.

ــ حماية حقوق اليهود في كل بلدان العالم.».

وفي مؤتمر بال كان هرتزل قد قبل بحل وسط أي بصيغة (وطن قومي) بدلاً من (دولة يهودية) وبصيغة (حق عام) بدلاً من (حق دولي) كيلا تظن تركيا أنهم سيتعدّون على سيادتها على فلسطين. كتب ماكس نوردو في معرض الحديث عن مؤتمر بال يقول: «لقد بذلت جهدي كي أقنع أولئك المطالبين بدولة يهودية في فلسطين بأن علينا أن نجد صيغة (ملتبسة) نعبر بها على نحو تتجنب فيه إثارة الحكام الأتراك حول موضوع الأرض التي نطمع فيها. وقد اقترحت صيغة (وطن قومي) وعنيت بها أن تكون مرادفاً لصيغة (دولة). هذه هي قصة هذا التعبير الذي حمي حوله الجدل. كان التعبير ملتبساً مبهماً ولكننا كنا نفهم كل ما يعنيه... وهو يعني لدينا (دولة يهودية) وما زال يعني ذلك... ولكن ليس هناك ما يدعونا الآن إلى إخفاء هدفنا الحقيقي».

إن هذه الصيغة الملتبسة لدى هرتزل ونوردو على السواء كانت تخفي وراءها حقيقة محددة. كتب هرتزل في يومياته عام ١٨٩٧ يقول: «إذا كان علي أن أختصر المؤتمر بكلمة ــ أتحرج من إعلانها على الملأ ــ فسأقول: في بال أسستُ الدولة اليهودية...».

ومضى هرتزل في الحال إلى تحقيق المشروع مستغلاً عاملين قويين سيحققان له النجاح:

١ ــ مطامع القوى الاستعمارية المتنافسة حول المسألة الشرقية، هذه المطامع التي كان يشحذها انحلال الامبراطورية العثمانية.

٢ ــ العداء للسامية؛ فلا بد من إقناع اليهود المضطَهدين بأن الهجرة، لا الاندماج، هي المخرج لهم من بؤسهم وشقائهم. ولا بد من إغراء الدول المعادية للسامية بأنها ستتخلص من اليهود حينما يتم الحصول على الأرض.

٣٠
أسباب نجاح الصهيونية السياسيه

١ ــ الصهيونية والخلافات الإستعمارية في المسألة الشرقية

كان (لاهاران) السكرتير الخاص لنابليون الثالث أول من رأى جدوى إقامة دولة يهودية في فلسطين في حل (المسألة الشرقية) لصالح قوة استعمارية باستغلال تفكك الامبراطورية العثمانية.

وفي عام ١٨٦٠ ظهر كراس بعنوان (المسألة الشرقية الجديدة) يدعو اليهود إلى العودة إلى وطنهم «تحت الحماية المقدسة لفرنسا المحررة».

وفي انكلترا ظهرت اهتمامات مماثلة؛ فلقد أوصى الكاتب الدبلوماسي لورنس أوليفانت بتوطين اليهود في الضفة الغربية للأردن، وكتب إلى المركيز سالزبوري عام ١٨٧٨ يقول: «قامت محاولات عديدة في هذا الاتجاه (أي إقامة مستعمرة يهودية في فلسطين)؛ ولكن كان لا بد أن تخفق لأنها تقوم على أساس عاطفي وديني أكثر مما تقوم على منطلقات سياسية واقتصادية.

ويبدو الآن أن الفرصة سانحة بفعل التعاطف الحار الصادر عن معظم الجمهور البريطاني، هذا التعاطف الذي يمكن أن يضمن على نحو مجد تحقيق أهداف سياسية هامة ونتائج مالية ذات قيمة».

أ ــ هرتزل مبدع الستراتيجية الصهيونية

إن هرتزل البارع في فن السياسة (يناور) وسط هذه المطامع المتنافسة: فمنذ عام ١٨٩٧ وعشية مؤتمر بال ناقش مقالة نشرت في إحدى المجلات توصي بتقسيم الامبراطورية العثمانية بحيث تعود مصر، و(فلسطين ضمناً) إلى انكلترة التى تحتاج حاجة ملحة إلى طريق قصيرة نحو الهند. يقول زانغويل: «إن التفتيش عن طريق إلى الهند قد أدى إلى اكتشافات عديدة لصالح الإنسانية: فقد اكتشفت شواطىء افريقية وأمريكا وحفرت قناة السويس... ولعل حل المسألة اليهودية يكون في أن يؤمّن لبريطانيا أقصر طريق يوصلها إلى الهند».

ولكن هرتزل البارع في تصويب سهامه إلى كل الأهداف في (أوروبا) النهمة إلى اقتسام تركة الامبراطورية العثمانية عرض على ألمانيا ماعرضه على انكلترة من اقتراحات أي إنشاء (شركة ذات امتياز) تحت الحماية الألمانية.

وقد اجتمع أول الأمر عام ١٨٩٩ بسفير ألمانيا في النمسا وراح يضرب على الوتر الحساس أي استغلال الخصومة مع انكلترة. يقول في يومياته: «هناك قوة أخرى تستطيع أن تساعد حركتنا. وقد فكرت أول الأمر بانكلترة؛ وهذا أمر طبيعي. ولكن يسعدني أن تكون ألمانيا هي البديل».

وفي عام ١٨٩٨ ــ وبفضل براعته في الابتزاز ــ قابل القيصر الألماني: «حينما عرضت عليه مشروع الشركة ذات الامتياز تحت الحماية الألمانية رحب بذلك». وراح هرتزل يغري قيصر ألمانيا بالدور الذي يمكن أن تلعبه الصهيونية لتخليصه من الاشتراكية. وكان كل مايخشاه الامبراطور غليوم هو: «أن اليهود لن يغادروا ألمانيا إذا تولد لديهم الشعور بأنهم تحت حماية امبراطورها».

وحاول هرتزل جهده أن يبرهن للامبراطور على أن الصهيونية تخدم المصالح الألمانية لا في وجه انكلترة فحسب وإنما في وجه فرنسا وروسيا: «ففرنسا منهكة وهيبة روسيا تنحسر... وفرنسا ليست في حالة تسمح لها بأن تعوّق مشروعنا».

ثم يستعرض هرتزل الصعوبات التي تعترض قيصر روسيا في بناء الخط الحديدي عبر سيبريا، وصعوبات تأمين أقصر طريق إلى الهند لبريطانيا... وكان هرتزل على دراية بسياسة ألمانيا تجاه الشرق وبرغبتها في مد الخط الحديدي من برلين إلى استامبول إلى بغداد بغية مد نفوذها إلى الشرق: «حينما تحدثت إلى الامبراطور عن الطريق البرية الجديدة الموصلة إلى آسيا من البحر المتوسط إلى الخليج العربي بدا الامبراطور غارقاً في أفكاره، ودلت ملامحه وتصرفاته على أنه قد وقع في الفخ».

وحينذاك سلك هرتزل إلى هدفه الطريق المستقيم؛ فحينما سأله الامبراطور المزهو بأنه الوحيد الذي يثق به السلطان عبد الحميد: «قل لي بكلمة موجزة ماذا يجب أن أطلب من السلطان؟» أجابه هرتزل: «شركتي ذات الأمتياز تحت الحماية الألمانية». وهكذا صار طريق فلسطين لدى هرتزل من الآن يمر عبر استامبول: فهو يريد الآن مقابلة السلطان بتوصية من الامبراطور الألماني. وكان الهدف واضحاً. إنه شراء فلسطين... ولكن لا بد من المال لتحقيق ذلك.

وعلى الرغم من تردد أو تحفظ روتشيلد الذي كان في البداية معادياً للصهيونية حصل هرتزل في المؤتمر الصهيوني الثاني في بال ١٨٩٨ على التصريح بإنشاء المصرف الذي كان يحلم بإنشائه؛ إنه (التروست اليهودي للإعمار) فحصل بذلك على إشعارات بفتح اعتمادات مصرفية مَن (كريدي ليونيه) في باريس، ومن (بنك دريسدنر) في برلين، ومن (بنك لويْدز) في لندن... وأودعت مبالغ الاعتمادات في المصارف التركية.

وهكذا يستطيع هرتزل الآن أن يتحدث من موقع القوة إلى عبد الحميد المهدد بالإفلاس. وكان كلامه إلى السلطان واضحاً: «أنت تبيعني فلسطين وأنا أصلح ميزانيتك وأدفع عنك ديونك». كان هذا المشروع مبطناً بالدهاء والمكر.

إن هرتزل نفسه الذي كان يدير بمهارة وحذق عملية التزاحم على استغلال تفسخ الامبراطورية العثمانية من قبل القوى الاستعمارية والذي يحتقر كل الاحتقار محاوره سلطان الدولة الآيلة إلى السقوط... إن هرتزل هذا لا يتورع عن تملق عبد الحميد فراح

يحدثه عن حيوية تركيا التي يؤمن بها أشد الإيمان.

ثم يعدل عن منطقه هذا وعن الوعود التي قطعها على نفسه في الغرب. يقول في يومياته: «شرحت للسلطان أسباب إلحاحي. إن القوى الكبرى التي تريد لتركيا أن تظل ضعيفة ستعمل جهدها كي تمنعها من إصلاح أوضاعها»... ولكن هرتزل هو المنقذ. «إن أصدقائي في جميع مصارف أوروبا سيعملون على إنجاز هذه العملية على أحسن وجه حينما يتوفر لي دعم صاحب الجلالة وسأجعل كل يهود العالم متعاطفين مع الامبراطورية العثمانية».

أما الاعتراضات المتوقعة فيسد هرتزل الباب في وجهها؛ فالسلطان كان قد قال لصديق هرتزل نفلنسكي: «ولكن فلسطين مهد لديانات أخرى!». أجابه هذا ممارساً الضغوط ذاتها التي مارسها هرتزل على قيصر ألمانيا ليقول: «إذا لم يحصل اليهود على فلسطين فسيتوجهون دونما شك إلى الأرجنتين...» وفي هذه الحالة ستخسر تركيا كل هذه الهبات المالية!

بل إن هرتزل يذهب إلى أبعد من ذلك؛ فهو يأخذ بنصيحة صديقه (فامبيزي) الذي نبهه إلى أن السلطان يعتبر القدس مقدسة شأنها شأن مكة... لابأس إذن فيمكن تنبيه السلطان إلى أن الصهيونية قد تقف في وجه المسيحية. وهو لا يعترض حينما يعبر له السلطان عن حذره من المسيحيين قائلاً: «أنا كما كنت دائماً صديق اليهود. وأنا أعتمد على المسلمين واليهود معاً. وليس لدي الثقة نفسها بالباقي من رعيتي».

... خلاصة الحال أن السلطان قد رفض أن يبيع فلسطين... وكان قد سبق له أن قال لهرتزل: «لا أستطيع أن أبيع مقدار أنملة من هذه الأرض فهي ليست ملكي وإنما هي ملك شعبي الذي حصل على الامبراطورية بعد أن سقاها بدمه... ويمكن لليهود أن يحتفظوا بأموالهم. وقد يحصلون على فلسطين مجاناً بعد تقسيم الامبراطورية. وأنا قد أرضى بتمزيق جثتي بعد موتي ولكنني لا أرضى بتشريح جسدي وأنا حي».

ويعود هرتزل مرة أخرى إلى انكلترة فهي المؤهلة (لتشريح) فلسطين؛ ففي

خطابه في افتتاح المؤتمر الصهيوني الرابع في لندن عام ١٩٠٠ راح يقول بلهجة حماسية: «إن انكلترة العظمى، انكلترة الحرة التي تهيمن على البحار السبعة ستفهمنا وتفهم أهدافنا... ومن هنا ستنطلق الفكرة الصهيونية لتحلق بعيداً في الأعالي. نحن واثقون من ذلك».

وهو ــ خلافاً لما قاله للسلطان عبد الحميد ــ يشير إلى ما يمكن أن تقدمه الدولة اليهودية من منافع وخدمات لصالح المجموعة الأوروبية. هذا وستكون الدولة اليهودية قلعة أمامية للحضارة الغربية في مواجهة الهمجية الشرقية. وهو في روايته (أرض قديمة. أرض جديدة) يكشف عن هذا التوجه إذ يمجد (روح) الحملات الصليبية ويلوم أوروبا على أنها فقدت هذه الروح. «لقد كان غود فروي دي بويّون وفرسانه الشجعان يعتبرون بقاء فلسطين في أيدي المسلمين جريمة... فأين نجد مثل هذا الشعور لدى فرسان ونبلاء نهاية القرن التاسع عشر؟ أما الحكومات... فمن منها يجازف اليوم بأن يقدم إلى البرلمان مشروعاً بفتح اعتماد استثنائي بغية تحرير الأرض المقدسة؟».

وسيحمل هرتزل إلى فلسطين، البلد (الذي يعيش على هامش الحضارة) مشروعاً لتصنيعه على النمط الغربي؛ فهو يحلم بأن يقيم على أرض فلسطين كل ضروب الصناعات المعروفة مستوحياً نظرية (سان سيمون) الاقتصادية التي تجسدت حركة تصنيع كبيرة بلغت أوجها على يد الأب أنفانتين ورجل المال بيرير وفرديناند دي ليسّيبس، منفذ حفر قناة السويس.

وهو يصف المستقبل حيث «المدن الكبرى العامرة بالحركة، والتقدم التكنولوجي العام، وحيث تمتد خطوط السكك الحديدية على هذه الأرض التي هي عقدة لطرق المواصلات العالمية... وحيث الكهربة الشاملة للبلاد وجر المياه من جبال حرمون ولبنان، وحفر قناة تصل بين البحر المتوسط والبحر الميت للاستفادة من فرق المستوى بين البحرين».

ويحدد هرتزل في يومياته مشروعه فيقول: «حينما نكون في العريش تحت المظلة

البريطانية ... ستقع فلسطين حينذاك في دائرة النفوذ البريطاني. ولكن لكي نصل إلى أهدافنا لا بد من جلب مزيد من اليهود إلى فلسطين؛ زد على ذلك أننا نحتاج إلى مزيد من الحُماة».

وهكذا انفجرت في مدينة كيشنيف الروسية أيام عيد الفصح من عام ١٩٠٣ مذبحة وحشية لليهود كان حصيلتها خمسةٌ وأربعون قتيلاً وألف جريح وألف وخمسمئة منزل نهبت وهدمت. وكان المسؤول عن ذلك وزير داخلية القيصر فياتسلاف بليف. وطلب هرتزل إلى صديقته الكونتيسة البولونية كورفين بياتروفسكا أن تدبر له لقاء بالوزير الروسي فأجابته بأن «الوزير سيسعده أن يتعرف إلى شخصية هامة كشخصية الدكتور هرتزل وأنه سيشجع بحرارة عملية هجرة اليهود».

وطلب هرتزل كذلك من اللورد روتشيلد أن يعرفه بوزير المالية (دي وايت). واستقبل (بليف) — سفاح كيشنيف — هرتزل بحرارة في سان بطرسبورغ عام ١٩٠٣ قائلاً ببساطة: «أرجو أن لا تسيء استغلال هذا اللقاء» فأجابه هرتزل: «لن أستغله إلا على الوجه الذي تأمرني به».

وبعد المجاملات التمهيدية راح الوزير يعالج جوهر الموضوع فقال: «نحن نعطف على الحركة الصهيونية ما دام موضوعها هجرة اليهود. ليس عليك إلا أن تعرض علي مشروعك فأنا معك. ولكن منذ مؤتمركم الصهيوني في منسك عام ١٩٠٢ لحظنا تغيراً لدى كبار الأحبار؛ فلقد جرى الحديث عن ثقافة وقومية يهودية وتنظيم يهودي أكثر مما جرى عن دولة صهيونية في فلسطين؛ وهذا ما لا يلائمنا».

وحينما سلم (بليف) إلى هرتزل وثيقة خطية عن وقائع المحادثات معه صوتت (لجنة العمل الصهيوني) إلى جانب عدم نشرها؛ ولكن هرتزل تجاوز هذا القرار فنشرها وراح يبرزها لكل من فاوضهم: من دوق باد إلى ملك إيطاليا إلى البابا! وإليكم النص الحرفي لهذه الوثيقة الشائنة التي سلمها سفاح كيشنيف إلى هرتزل:

«السيد هرتزل

لقد عبرتَ عن رغبتك في الاحتفاظ بتسجيل لمحادثاتنا. إني ألبي رغبتك بكل

سرور كي أبدد كل ما يمكن أن يولد لديك آمالاً عريضة أو شكوكاً مقلقة.

أنتهز هذه الفرصة كي أعلمك بالموقف الذي تتبناه الحكومة الروسية الآن تجاه الصهيونية. إن هذا الموقف يمكن أن يوحي إليها بضرورة تغيير سياستها بالتسامح تجاه إجراءات أملتها عليها ضرورات الأمن القومي. وما دامت الصهيونية تقوم على رغبتها في إقامة دولة مستقلة في فلسطين، وهي تعد بتنظيم تهجير عدد من الرعايا الروس اليهود فالحكومة الروسية ترحب بذلك.

ولكن في تلك اللحظة التي تغير فيها الصهيونية هذا الهدف لتستبدل به دعوة إلى تجمع قومي يهودي في روسيا... فإن الحكومة الروسية لا تستطيع في أية حال أن تغفر للصهيونية هذا التوجه الجديد. وهذا التوجه الجَديد لن ينجم عنه إلا خلق مجموعات من الأشخاص الغرباء بل المعادين للمشاعر الوطنية، هذه المشاعر التي هي الأساس الداعم لكل دولة.

ولهذا لن يُقدَّر للثقة بالصهيونية أن تعود إلا حينما ترجع الصهيونية إلى برنامجها القديم. وفي هذه الحالة يمكن الحديث عن دعم معنوي ومادي حينما نرى بعض الإجراءات العملية المؤدية إلى إنقاص عدد اليهود في روسيا. وهذا الدعم يمكن أن يقوم على حماية الوكلاء الصهاينة لدى الحكومة العثمانية وعلى تسهيل مهمة جمعيات الهجرة وتأمين حياة هذه الجمعيات بموارد خارجة عن موارد الدولة، وذلك بطريق مساعدات تجبى من اليهود. ولا بد أن أضيف قائلاً: إن الحكومة الروسية ترى نفسها مضطرة إلى أن توازن بين موقفها من المسألة اليهودية وبين مصلحتها العليا؛ وهي على كل حال لن تحيد عن مبادئها الخلقية والإنسانية. وقد قامت الحكومة أخيراً بتوسيع حقوق الحصول على السكن الخاص بالتجمعات اليهودية... ويمكن القول إن تطوير هذه الإجراءات سيسهم في تحسين الشروط الحياتية لليهود والروس حينما تعمل الهجرة على إنقاص عددهم.

تفضلوا بقبول أسمى المشاعر الطيبة.»

التوقيع

بليف

٣٠/ تموز /١٩٠٣

أما هرتزل فيقدم في رسالته الجوابية إلى بليف في الخامس من ايلول عام ١٩٠٣ تقريراً عن المؤتمر الصهيوني السادس في بال فيقول:

«يشرفني أن أعرض على سيادتكم التقرير التالي: كانت إدارة المؤتمر مهمة عسيرة... ولكنني نجحت في ضبط النظام وتأمين الهدوء. والحق أن ذلك لم يكن ممكناً إلا بفضل رسالتكم التي تكرمتم بإرسالها. وقد نجحت في حسم كل نقاش لدى إشهار رسالتكم... كانت المعارضة على أشدها من جانب الصهاينة الروس. وفي أحد الاجتماعات المغلقة للصهاينة الروس كادوا يتهمونني بالخيانة... كان عدد الذين صوتوا بقبول مشروع الاستيطان في شرقي افريقية ٢٩٥، أما عدد الذين رفضوا المشروع فكان ١٧٧، وجلهم من الروس... وقد توضحت المسألة الآن على هذا النحو: إن مؤيدي مشروع الاستيطان في افريقية هم من غير الروس... فالهجرة إلى افريقية لن تمتص إلا آلافاً معدودة من الكادحين؛ وهذا لن يحقق أي هدف سياسي؛ بينما يكون استيطان الشعب اليهودي في فلسطين حافزاً للعناصر المتطرفة إلى السير مع حركتنا كيلا تسبق الطبقات المتوسطة المحافظة تلك العناصر إلى المشاركة في المجتمع الجديد.

وقد أكد المؤتمر ما كان لي الشرف في عرضه عليكم في سان بطرسبورغ. إن هجرةً بلا عودة لا تحققها إلا الهجرة إلى فلسطين دون غيرها. وهكذا فإن آمالاً كبيرة سنعلقها على الوعد الرسمي للحكومة الروسية الذي أشرتم إليه في رسالتكم».

وبعد أن عرض هرتزل تقريره عن المؤتمر الصهيوني على (بليف) طلب منه «رسالة توصية حول المشروع الصهيوني من جلالة قيصر روسيا إلى جلالة السلطان العثماني». كان هرتزل يعرف حق المعرفة مشاعر العداء للسامية التي يكنها قيصر روسيا. وهو يروي في يومياته المباحثات التي دارت عام ١٩٠٣ في سان بطرسبورغ بينه وبين وزير المالية الذي قال لهرتزل:

— أنت تريد إخراج اليهود من بلادنا؟ هل أنت عبري حقاً؟

— أنا عبري. وأنا زعيم الحركة الصهيونية.

— إذن ما الذي يمكن أن نتبادله من آراء؟

وراح وزير المالية يعدد شكاوى القيصر من اليهود على المستوى الديني والاقتصادي والسياسي: «صحيح أن عدد اليهود في بلادنا سبعة ملايين من أصل ١٣٦ مليوناً؛ ولكن اليهود يشكلون خمسين في المئة من أعضاء الأحزاب الثورية».

— وكيف تعللون — ياصاحب السيادة — هذا الأمر؟

— أظن أنها غلطة حكومتنا؛ فاليهود مضطهدون مسحوقون. وطالما تمنيت على القيصر الراحل الكسندر الثالث إغراق ستة أو سبعة ملايين يهودي في البحر الأسود! إن ذلك لن يزعجني... ولكنه حل مستحيل، فلابد من أن يعيش اليهود... وأنا مازلت أرى ذلك؛ فأنا أعارض كل تصعيد لاضطهادهم.

ولكن هرتزل لم ينخدع بهذا (العطف) على اليهود؛ وهو يعزو ذلك — وهو على حق — إلى رغبة وزير المالية في شحن الأحقاد — لصالحه — على خصمه بيليف بمناسبة مذبحة كيشنيف. «فإذا ساءت الأمور فإن نجم بليف سيهوي وسيرتفع نجم وزير المالية».

وسأل هرتزل وزير المالية وايت:

— مارأيكم في أن يتولى جنود أتراك حراسة كنيسة القيامة؟

— سيكون الأمر أدهى وأمر إذا كان الحراس من اليهود!

ثم سأل وزير المالية هرتزل: ماالذي تريده منْ حكومتنا؟ فيجيبه هرتزل:

— أريد شيئاً من التشجيع.

— نحن نشجعهم على الهجرة... فنحن — مثلاً — نضطهدهم.

— أنا لاأتحدث عن هذا النوع من التشجيع... فهو معروف.

ويتابع هرتزل قائلاً: ثم شرحت له النقاط الثلاث التي وردت في مذكرتي إلى وزير الداخلية بليف.

* * *

ثم يكتب هرتزل في يومياته عام ١٩٠٢ والفرح ملء قلبه : «أهذا ممكن؟ نحن نوشك أن نحصل على تأسيس الشركة البريطانية ذات الامتياز ونوشك أن نقيم الدولة اليهودية» .

وقد عرض تشمبرلن على هرتزل أوغندا رافضاً إعطاءه سيناء بسبب معارضة اللورد كرومر في مصر وخوفه من أن يغزو اليهود فلسطين من العريش .

وبينما كانت المحادثات تجري بين هرتزل وتشمبرلن وزير المستعمرات المعروف بعدائه للسامية كان (بلفور) يعدّ مشروع ميثاق يحدد هجرة اليهود إلى انكلترة ؛ وقد أذيع نص هذا الميثاق عام ١٩٠٥ . وفي المؤتمر الصهيوني السابع المنعقد في بال قام أحد النواب الانكليز (ماكس شير) فاتهم (بلفور) بعدائه السافر للشعب اليهودي .

ولدى موت هرتزل حُدد بوضوح مستقبل الصهيونية وعرف سر نجاحها ــ مثلما وعاه وخطط له هرتزل ــ وذلك على ضوء التوافق العرَضي فيما بين حسابات تشمبرلن الاستعمارية وبين حملة بلفور على السامية . وهكذا كان برنامج الحركة الصهيونية قد حُفر له مجراه إلى حدٍ ما بفعل ذلك الاتفاق العرَضي بين أهداف القوى الاستعمارية الكبرى وبين حركة العداء للسامية ؛ فما على الصهيونية إذن إلا أن تضع سفينتها في هذا التيار .

ب ــ الحرب العالمية الأولى
وتصريح بلفور ١٩٠٤ ــ ١٩١٧

كان هرتزل قد تنبأ لبريطانيا من بين القوى الاستعمارية أن تكون (ورقته) الرابحة على الرغم من براعتها في المناورات والحيل السياسية . لقد بدأ بانكلترة وانتهى بها ... وقد تابع خلفاؤه السير على النهج ذاته حتى ولادة دولة اسرائيل .

وهكذا راحت الصهيونية تستمد دعمها الثابت من السياسة الانكليزية . مثال ذلك أنه بعد المعاهدة الروسية التركية عام ١٨٨٣ بين القيصر الروسي والسلطان (بحجة حماية المسيحيين الأرثوذكس في الشرق الأدنى) ردت انكلترة على ذلك وادعت

أن لها كذلك من (تحميه) بغية (حماية) مناطق نفوذها الاقتصادي.

... وهكذا أصبحت فلسطين ــ وبخاصة منذ ضعف الامبراطورية العثمانية وظهور أول مشروع للسياسة الدولية تجاه المسألة الشرقية ــ موضوعاً للرهان لدى القوى الكبرى المتصارعة.

وقد سبق لنابليون ــ بغية اجتذاب المسلمين إلى صفه في وجه انكلترة ــ أن أعلن لدى نزوله في مصر أنه يمثل الإسلام الحقيقي؛ ولكنه حينما اقترب من عكا اقترح إنشاء دولة يهودية في فلسطين ليجتذب إلى صفه رجال المال من اليهود؛ وذلك بغية الوقوف في وجه انكلترة كذلك[1].

وكتب (متفورد) بعد أن وضع عام ١٨٤٥ مشروعاً انكليزياً مشابهاً للمشروع السابق مرتبطاً بالسياسة البريطانية في الشرق... كتب يقول: «إن الدولة اليهودية ــ بالإضافة إلى منافعها الاقتصادية والستراتيجية التي لا تحصى ــ ستعمل على تنظيم طرق مواصلاتنا وتؤمن لنا مركزاً مرموقاً في الشرق نستطيع بفعله إحباط أية محاولة لتعطيل هذه الطرق، وصد هجمات أعدائنا قبل الانتصار عليهم».

هذا وستُطرح القضية بعد سنوات بالنسبة لانكلترة على نحو أشد إلحاحاً فصارت تعني مراقبة طريق الهند وتأمين المواصلات بطريق قناة السويس والتغذية الدائمة بالفحم لمحركاتها البخارية. أما (أوليفانت) ١٨٢٩ ــ ١٨٨٨ وهو أكبر متحمس لمشروع إقامة دولة يهودية في فلسطين فيكتب قائلاً: «على انكلترة أن تقرر القيام بمهمة التنقيب عن أطلال المدن الأثرية، وتطوير الموارد الزراعية الكبيرة في فلسطين بأن تعيد إليها (أهلها) من اليهود الذين هم أصحابها منذ ثلاثة آلاف عام فتؤمن انكلترة بذلك لنفسها المنافع السياسية الجمة الناجمة عن تلك السياسة».

وكان مشروع (أوليفانت) يضع في حسبانه طرد البدو المحاربين وعزل الفلاحين

١ ــ ورد في رسالة وجهها حاييم وايزمن إلى ونستون تشرشل أنه يعتبر نابليون «أول صهيوني معاصر من غير اليهود». والحق أن نابليون كان أول رئيس دولة عرض قيام دولة يهودية.

(المؤلف)

العرب في محاجر خاصة، شأنهم شأن هنود أمريكا الشمالية.

وحينما نظمت الحركة الاستعمارية أساليبها توضحت الأهداف البريطانية؛ ففي عام ١٨٧٦ ظهرت في انكلترة المجلات اليهودية التي كانت مسرحاً لسلسلة من المقالات بتوقيع (إسحق آشر) توحي بتشكيل (شركة ذات امتياز) في فلسطين على نمط (شركة الهند الشرقية) بغية شراء الأراضي في فلسطين وتطويرها بفعل الرساميل المتدفقة التي تعمل على تحسين الأرض وإقامة المشاريع... وتأمين الحماية العسكرية لهذه الشركة. وكان هذا المشروع سابقاً لما يسمى (الصندوق القومي اليهودي) الذي سيُنشأ بعد ثلاثين عاماً والذي سوف نشير إلى مهماته فيما بعد.

وبعد مقتل القيصر الكسندر الثاني عام ١٨٨١ والانحلال المتفاقم للامبراطورية العثمانية لم يعد ممكناً الدفاع عن أراضي المملكة العثمانية في مواجهة روسيا بل صار الممكن هو العمل على اقتطاع جزء من هذه المملكة. كان هذا مخطط دزرائيلي. وكان أهم شيء لدى دزرائيلي ـــ وهو موجه السياسة الامبريالية الانكليزية ـــ المحافظة على طريق الهند. وهكذا اكتسبت فلسطين أهمية جديدة على رقعة السياسة العالمية، هذه الأهمية التي تستمد جوهرها من الآن من أن فلسطين قريبة من مصر. أما اللورد كيتشنر المناصر للسياسة الجديدة الخاصة بالشرق فينصح حكومته بأن تجعل من فلسطين قلعة للنفوذ الانكليزي في مصر وهمزة وصل لهذا النفوذ بالشرق.

وبعد موت هرتزل بدا أن خليفته (وايزمن) يبدي بعض التحفظات تجاهه إذ سرعان ما راح ينتقد بعد موت هرتزل أسلوب الخداع والتفاخر ويدعو إلى سلوك عملي جاد.

والواقع أن وايزمن ومساعديه قد ركزوا جهودهم على قضيتين محسوستين:

١ ـــ تطوير المصرف القومي اليهودي.

٢ ـــ تطوير المستعمرات اليهودية في فلسطين.

ولكن هرتزل يبقى المحرض الأول والدافع الرئيسي؛ ففي المؤتمر الصهيوني الخامس عام ١٩٠١ أسس الأداة الرئيسية للاستيلاء على الأراضي في فلسطين وهي

(الصندوق القومي اليهودي) المسؤول عن مركزة شراء الأراضي في فلسطين. وقد ورد في المادة الثالثة من نظام الصندوق: «إن الأراضي الممتلكة سابقاً تعد ملكية يهودية، أما الأراضي المشتراة فتسجل باسم الصندوق القومي اليهودي وتظل على هذه الحال إلى أن تصبح ملكاً للشعب اليهودي لا يجوز التصرف بها».

وتنص المادة السابعة على ما يلي: «يلتزم المستوطن طوال المدة المحددة فيما سبق بأن يسكن المزرعة التي استوطنها وبأن يمارس عمله الزراعي فيها بنفسه أو بمعونة أسرته. ولدى احتياجه استخدام أيد عاملة إضافية يجب أن يستخدم عمالاً يهوداً».

إن أشد التشريعات الاستعمارية تعصباً وتشدداً لم تعبر بمثل هذا الوضوح عن تعصب عرقي كهذا!

وهكذا راح (الصندوق) وعملية الاستيطان يتطوران معاً؛ ولكن تطور الأول كان أسرع.

هذا ولم يدخل المشروع الصهيوني لاحتلال فلسطين مرحلة حاسمة في تحقيقه إلا بفضل الحرب العالمية الأولى: فالاحتلال الصهيوني لفلسطين لم يعد المخفر الأمامي المتقدم للاستعمار الأوروبي فحسب، وإنما صار موضوع رهان لخصومات القوى المتصارعة في حرب ١٩١٤ ــ ١٩١٨.

إذن كانت القضية حتى الآن استعمارية استيطانية فصارت قضية عسكرية.

وهكذا أصبحت قضية الاستعمار الصهيوني لفلسطين تُطرح بالصيغ نفسها التي يطرحها كل المستعمرين الآخرين. ومنطق المستعمرين يقول: إن أرضاً لا يسكنها البيض أو الغربيون تعد أرضاً (شاغرة)؛ وقد عبر عن هذا المنطق بكل صفاقة ووقاحة صهيوني أمريكي إذ قال: «أنا أعلم أن أمريكا تُنتقد على أنها حاصرت واحتلت التكساس وكاليفورنيا في أثناء حرب المكسيك التي وصفت بأنها عمل عدواني. ولكن ما قيمة مثل هذا النقد إذا حُرمت هاتان المنطقتان من خيرات الحضارة الأمريكية ونعمها؟ وحينما تكون هناك أرض (فارغة) في عرفنا فلا بد أن يتحمس الناس لإنقاذها. أما فلسطين فلم تكن إلا صورة مصغرة للتكساس. إن منطق التاريخ

يقتضي أن لا تبقى (المساحات الشاغرة) غير مأهولة لأن الطبيعة تكره الفراغ»!

وقد سبق لـ (زانغويل) عام ١٩٠٤ أن طرح الشعار القائل بإعطاء أرض لا شعب فيها إلى شعب لا أرض له. وكان في فلسطين ستون ألفاً من العرب آنذاك تبلغ كثافتهم السكانية نسبة قريبة من كثافة السكان في معظم فرنسا. ولكن منطق الأمريكيين تجاه الهنود الحمر، ومنطق البيض في جنوبي افريقية تجاه السود، ومنطق الصهاينة تجاه العرب يعتبر فلسطين أرضاً (شاغرة)!

كتبت غولدا مائير عام ١٩٢١ رسالة ذات دلالة تقول فيها: «لن يختار الانكليز العرب لتعمير فلسطين وإنما سيختاروننا نحن».

وواقع الأمر أن الحرب العالمية الأولى قد حددت هذا الاختيار على وجه الدقة.

لقد كان من الصعب على الحكومة الألمانية حليفة تركيا أن تعِد أحداً بجزء من الامبراطورية العثمانية سواء أكانوا عرباً أم صهاينة.

أما انكلترة فقد راهنت على الطرفين. وكانت ولادة تصريح بلفور عام ١٩١٧ ذات دلالة في هذا الصدد.

نجحت انكلترة إبان الحرب في أن تحتل ألمانيا بسرعة، ألمانيا التي كان الصهاينة الألمان والنمساويون يحاولون أن ينتزعوا منها وعداً مماثلاً لوعد بلفور. وفي عامي ١٩١٧ ــ ١٩١٨ قررت ألمانيا وتركيا منح الصهاينة (شركة ذات امتياز) في فلسطين. وكانت خطوات الصهاينة الألمان والنمساويون منطقية؛ فالموضوع يتعلق بمحاربة روسيا القيصرية التي تضطهد اليهود. وكان اسحق شتراوس قد أسس عام ١٩١٦ مجلة تقوم بالدعاية لألمانيا. وكان سفراء ألمانيا عام ١٩١٥ قد تلقوا من حكومتهم تعليمات تقول: إن ألمانيا تنظر باهتمام إلى نشاط اليهود ودورهم في التقدم الاقتصادي والثقافي وتوصي بتسهيل هجرتهم وإقامتهم في دول أخرى.

فالمقصود إذن من تصريح بلفور كسب السبق على ألمانيا والنمسا بغية التأثير في يهود روسيا ويهود الدول الكبرى المتحالفة معها لأن (الحلفاء) كانوا بحاجة إلى روسيا واليهود في آنٍ معاً.

وكان وعد بلفور لدى القادة الانكليز ذا مغزى حقيقي لا شك فيه. كتب ونستون تشرشل يقول: «إن وعد بلفور لا يجوز أن يعتبر وعداً أملته دوافع عاطفية. كان الوعد إجراءاً عملياً اتخذ لمصلحة قضية مشتركة في وقت لا يجوز التفريط فيه بأي عامل من العوامل بغية دعم هذه القضية مادياً أو معنوياً».

وكان لويد جورج أكثر وضوحاً حينما قال: «ليس هناك برهان أفضل على أهمية وعد بلفور ــ على أنه (خطوة عسكرية) ــ من هذه الواقعة: لقد قامت ألمانيا بمفاوضات مع تركيا بغية إيجاد إجراء يعمل على جذب الصهاينة».

أما الهدف الثاني من أهداف وعد بلفور فهو منع اليهود من الانضمام إلى الثورة الروسية؛ فلقد صدر الوعد قبل خمسة أيام من قيام ثورة أكتوبر عام ١٩١٧. وكانت بريطانيا العظمى تظن أن قرارها بدعم الصهيونية يستطيع أن يبعد اليهود الروس عن الحزب البلشفي... وذلك كي تبقى روسيا في معسكر الحلفاء.

وكان قرار بريطانيا ذا أهمية بالغة بحيث قرر البلاشفة اللجوء إلى (تراجع ثوري) بعقد الصلح مع ألمانيا ليصلوا إلى تحقيق سقوط القيصرية؛ وهكذا فقد الحلفاء روسيا التي كانت تقف على الجبهة الشرقية في مواجهة ألمانيا.

ولعل الهدف الثالث هو الأهم؛ فالصهاينة كانوا يستطيعون أن يسهموا إسهاماً كبيراً في المجهود الحربي في الولايات المتحدة الأمريكية.

يقول مكسيم رودنسون في كتابه (اسرائيل واقع استعماري) إن لويد جورج في (اللجنة الملكية لشؤون فلسطين عام ١٩٣٦ صرح بقوله: «إن الصهاينة قد وعدونا وعداً قاطعاً بأن الحلفاء إذا التزموا بمنحهم التسهيلات لإقامة وطن قومي يهودي لهم في فلسطين فسوف يبذلون جهدهم لتعبئة مشاعر اليهود وإمكاناتهم لدعم قضية الحلفاء في العالم كله... ولقد وفوا بوعدهم».

وقبل دخول الولايات المتحدة الحرب وقبل التوقيع على المشروع النهائي لوعد بلفور كان الانكليز يأملون أن يعبىء اليهود الجماهير الأمريكية لخلق مناخ ملائم لمساهمة أمريكا في الحرب في فترة كان الحلفاء فيها يعانون الخسائر الفادحة.

ومن الواضح الجلي أن تبريرات وعد بلفور تتضمن الاهتمامات التقليدية الاستعمارية لدى بريطانيا... وهي تأمين مركز لضمان حماية قناة السويس، وتأمين اتصال بري دائم بين مصر والهند، وإقامة ضرب من التوازن في مواجهة فرنسا التي ستكون منتدبة ـــ حتماً ـــ على سورية ولبنان.

وهكذا أصدر السير بلفور عام ١٩١٧ (وثيقة التصريح) وبعث بها إلى اللورد روتشيلد ليحملها هذا إلى المنظمة الصهيونية... إنه وعد بلفور الذي يقول:

«إن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى إقامة وطن قومي للشعب اليهودي. وستبذل كل ما في وسعها لتسهيل تحقيق هذا الهدف. هذا ولن يكون هناك ما يسيء إلى الحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية في فلسطين أو إلى الحقوق والتشريعات السياسية التي يتمتع بها اليهود في البلاد الأخرى».

هناك ملحوظتان لا بد منهما على هذه الوثيقة التي كان لها أثرها الحاسم في مستقبل فلسطين:

١ ـــ من منظور الحقيقة التاريخية:

إن الطوائف غير اليهودية التي ورد ذكرها في الوثيقة كانت تشكل في ذلك الحين ٩٢٪ من سكان فلسطين.

٢ ـــ من منظور حقوقي:

يتناول وعد بلفور (أرضاً) ليس لبريطانيا العظمى فيها أي حق؛ فلا يحق إذن للحكومة البريطانية أن تتصرف بهذه الأرض

إن مقدمة اتفاقية (لاهاي) حول قوانين الحرب تنص على أن سكان الأراضي المحتلة يظلون تحت الحماية وفق قواعد القانون الدولي؛ أضف إلى ذلك أن رسالة بلفور إلى روتشيلد أرسلت إلى مواطن بريطاني عادي ليحملها إلى منظمة عالمية لم تكن في ذلك الوقت ذات شخصية اعتبارية لها حقوق دولية.

أما الصمت المتحفظ من قبل فرنسا وإيطاليا الذي ينم على موافقة قسرية على وعد بلفور فهو ذو دلالة ومغزى؛ فقد أعلن وزير الخارجية الفرنسية في مجلس النواب أن

السيادة التركية على فلسطين لا يمكن أن تحل محلها إدارة فرنسية أو انكليزية بل « نظام دولي أساسه العدالة والحرية » . أما موافقة الحكومة الإيطالية فكانت أكثر تحديداً ودقة ؛ فوزير الخارجية الإيطالية يصرح بأنه مستعد (لتسهيل إقامة مركز قومي عبري في فلسطين دون أن يخل ذلك بالأوضاع الحقوقية والسياسية للطوائف الدينية الأخرى فيها ولا بالحقوق المدنية والسياسية التي يتمتع بها الاسرائيليون في بلدان العالم» .

وهناك التناقض الفاضح الجذري بين وعد بلفور وبين ميثاق (عصبة الأمم) الذي تنص مادته العشرون على ما يلي: «إن أعضاء العصبة يعترفون ــ كل فيما يخصه ــ بأن الميثاق الحالي يلغي كل الالتزامات والاتفاقات التي لا تمشي مع بنوده ؛ ويلتزم الأعضاء رسمياً بأن لا يعقدوا في المستقبل أية اتفاقات من هذا القبيل. وإذا كان أحد الأعضاء قد التزم قبل انتسابه إلى العصبة بالتزامات تخالف بنود هذا الميثاق فعليه أن يتخذ فوراً الإجراءات التي يتحرر بها من تلك الالتزامات» .

* * *

ومن هنا بدأ (غزو) فلسطين ؛ ففي أثناء الحرب عقدت اتفاقات سرية عديدة فيما بين الحلفاء بغية تقطيع أوصال الامبراطورية العثمانية .

كانت كل الأمور ــ في هذه المرحلة ــ رهناً بانتصار الحلفاء؛ فلقد قطعت وعود لجميع الحلفاء كي يُبقوا على هذا التحالف فيما بينهم : ففي عام ١٩١٥ كان الهجوم الانكليزي الفرنسي على الدردنيل يهدف رسمياً إلى تخفيف الضغط التركي على روسيا في القوقاز ، ويهدف ضمناً إلى إبعاد الروس عن المضائق. وقد طالب وزير خارجية القيصر بإلحاق المضائق مع استامبول بالامبراطورية الروسية ؛ وقد اضطر الانكليز والفرنسيون إلى الإذعان كيلا يسيئوا إلى علاقاتهم بروسيا وهم في عز الحرب . وهكذا كان اتفاق استامبول عام ١٩١٥ ينص على إنهاء النفوذ الانكليزي في تركيا والمضائق وعلى تقسيم إيران بحيث يكون نصفها الشمالي للروس ونصفها الجنوبي للانكليز .

هذا ولم تقف مناورات المطامع لدى القوى الاستعمارية المتنافسة عند هذا الحد: ففي عام ١٩١٥ وقعت في لندن اتفاقية سرية فيما بين بريطانيا وفرنسا وروسيا وإيطاليا. ولكي يساوموا إيطاليا على دخولها الحرب إلى جانبهم استمر الحلفاء في التصرف سلفاً بميراث الدولة العثمانية. وهكذا نصت المادة العاشرة من الاتفاقية على منح إيطاليا كل حقوق السلطان العثماني في ليبيا... فدخلت إيطاليا الحرب في آب من العام نفسه. وتم اتفاق بين فرنسا وانكلترة حول تقسيم آخر: إنه اتفاق سايكس بيكو في أيار عام ١٩١٦. وكانت اللامعقولية في هذا الاتفاق أوضح ما تكون؛ فلقد وصفه رئيس وزراء بريطانيا لويد جورج بأنه اتفاق (سخيف) وعلق عليه بقوله: «إنه من غير المعقول أن يقوم رجل يتمتع بمثل ذكاء السير سايكس الحاد بتوقيع اتفاق كهذا».

وكتب اللورد كيرزن ممثل بريطانيا في مؤتمر السلام عام ١٩١٩ ووزير الخارجية بعد بلفور يقول: «حينما طرح اتفاق سايكس ــ بيكو لم يكن الأمر يعدو أن يكون (سيناريو) من صنع الخيال لمعالجة أمر لم يقع بعد... وهذا ــ كما أرى ــ ما يفسر الجهل الفاضح في عملية رسم الحدود وفق هذا المخطط».

ولم يبق إلا أن يكسب الحلفاء العرب ليقاتلوا إلى جانبهم في وجه الأتراك وذلك بتجنيد استياء العرب من الهيمنة التركية.

ولكن على الرغم من إجحاف اتفاقية سايكس ــ بيكو فلقد جرى تطبيقها بعد كسب الحرب حرفياً فحدد بموجبها الانتداب البريطاني على فلسطين. أما الوعود التي قطعت للعرب في أثناء الحرب ١٩١٤ ــ ١٩١٨ لجرهم إلى صف الحلفاء فقد حُنث بها جميعها. نعم كان تآمر الاستعماريين الانكليز ورياؤهم مفضوحيْن.

وقد جرت مراسلات طويلة من تموز عام ١٩١٥ حتى كانون الثاني ١٩١٦ بين المندوب السامي البريطاني في القاهرة السير ماكماهون والشريف حسين في مكة. وكان هدف الحكومة البريطانية استغلال نقمة العرب على المحتل التركي فوعدت الشعوب العربية بمنحها الاستقلال بعد الحرب. وعلى الرغم من المساومات حول تخطيط الحدود

توصل الطرفان إلى اتفاق جرى تثبيته والتأكيد عليه.

وحينما أصبح الشريف حسين ملكاً على الحجاز عام ١٩١٦ طلب بعض التفسيرات حول وعد بلفور فأجابه المقيم العام البريطاني في مصر برسالة يؤكد له فيها (أن الاستيطان اليهودي في فلسطين لن يُسمح به إلا بالمقدار الذي لا يناقض الحرية السياسية والاقتصادية للمواطنين العرب).

وفي لقاء بين الشريف حسين وبين رسول ماكماهون الضابط البريطاني هوغارت يؤكد هذا للشريف أن فلسطين داخلة ضمن حدود الدولة العربية التي قبلت بها بريطانيا... ويشير هوغارت إلى أن «الملك حسين لن يقبل بدولة يهودية في فلسطين».

وكان التصريح الفرنسي ــ الانكليزي عام ١٩١٨ يبدو واضحاً صريحاً إذ يقول: «إن فرنسا وبريطانيا العظمى متفقتان على تسهيل تشكيل حكومات ومؤسسات وطنية في سورية (التي منها فلسطين) وفي العراق». وقد كتب الملك فيصل ــ ملك الحجاز ــ الذي كان يثق بحسن نية المستعمرين في آذار عام ١٩١٩ إلى الزعيم الصهيوني فيليكس فانكفورتر يقول:

«نحن نشعر بأن العرب واليهود من عرق واحد؛ وقد عانينا الاضطهاد نفسه من جانب الدول الكبرى. إننا نحن العرب ننظر بعين العطف إلى الحركة الصهيونية فنحن نعمل معاً على تجديد منطقة الشرق الأدنى وبعثها... إن حركتينا تتمم الواحدة منهما الأخرى... ففي سورية (بما فيها فلسطين) مكان يتسع للعرب واليهود معاً. وما أظن أن واحداً منا ينجح دون التعاون مع الآخر... آمل بمستقبل تساعدوننا فيه ونساعدكم على نحو نستطيع معه الإسهام فيما يعود بالخير على الشعوب المتحضرة في العالم».

التوقيع

فيصل

وهكذا يرحب الملك فيصل بالصهاينة على أنهم ضيوف؛ وهو في مفهومه للضيافة لا يستطيع أن يتخيل أن ضيفاً سيطرد مضيفه الذي استقبله وفتح له ذراعيه!

وراحت القوى الاستعمارية تسلك بمكيدة مدبرة ذلك المسلك تجاه العرب

رافعةً الصهاينة على الأكتاف.

يصرح ماكماهون في رسالة إلى جريدة التايمز عام ١٩٣٧ قائلاً: «أرى من واجبي أن أعلن على نحو صريح ورسمي أنه لم يكن في نيتي إدخال فلسطين في إطار المنطقة العربية المستقلة حينما قدمت الضمانات للشريف حسين».

ويكتب بلفور في مذكراته في آب عام ١٩١٩: «إن القوى الكبرى الأربع ــ انكلترة والولايات المتحدة وفرنسا وإيطاليا ــ قد وقفت في صف الصهيونية. والصهيونية سواء كانت على صواب أم ضلال، وسواء كانت خيراً أم شراً، قد تأصلت وتجذرت عبر تقاليد قديمة، ومصالح راهنة، وآمال مستقبلية تفوق في أهميتها رغبات وحقوق سبعمئة ألف عربي يقيمون اليوم في فلسطين».

وهذا وزير آخر للخارجية (اللورد غري) الذي شهد مراسلات حسين ــ ماكماهون يصرح في مجلس اللوردات: «أنا مقتنع بأن التصريح بتعهداتنا في الشرق والادعاء بأنها منسجمة ــ وهي ليست كذلك ــ ليس مسلكاً شريفاً. ولكن المسلك الأشرف يكون بنشر هذه التعهدات... وحينما نرى فيها التناقض لا بد من الاعتراف بذلك والبحث عن أسلوب آخر أصدق كي نخرج من الطريق المسدود الذي حصرنا أنفسنا فيه».

وأمام نفاق صريح كهذا يعلق بلفور نفسه قائلاً: «يصعب علي أن أفهم كيف يوفق الرئيس ويلسون بين قبوله بالصهاينة وبين مبدئه في حق تقرير المصير.

إذن وصلت المكيدة إلى أوجها... ففلسطين قد وعدوا بها الصهاينة على الرغم من كل شيء؛ وعلى اليهود إذن في بلادهم المختلفة ولا سيما في الولايات المتحدة أن يمارسوا الضغط على حكوماتهم للانضمام إلى الحلفاء.

وهكذا اعتمد الانتداب على فلسطين على أساس من هذه الازدواجية الملتبسة فكُلفت به بريطانيا في التاسع والعشرين من ايلول عام ١٩٢٣.

* * *

ج ـ نحو حرب عالمية ثانية وإقامة دولة اسرائيل

كان حل (المسألة الشرقية) إذن مع هزيمة تركيا في نهاية الحرب العالمية الأولى في الثلاثين من تشرين الأول عام ١٩١٨ . وفي الثلاثين من كانون الثاني عام ١٩١٩ قرر الانكليز والفرنسيون اقتسام إرث الامبراطورية العثمانية وفق مخطط مدروس في اتفاقيات سايكس ـ بيكو .

وقد جرى التوقيع بتاريخ ٢٠ حزيران عام ١٩١٩ على معاهدة فرساي وميثاق عصبة الأمم التي تم إنشاؤها . وهكذا يكرس ميثاق العصبة انتصار الاستعمار في صيغة جديدة ؛ وقد حددت المادة الأولى من الميثاق المبادىء التي تطبق على المستعمرات المأخوذة من المغلوبين مشيرة إلى «شعوب عاجزة عن أن تدير شؤونها بنفسها» لتنص على أن «تطوير هذه الشعوب مهمة مقدسة بغية تمدينها»... ولهذا توضع تلك الشعوب تحت الوصاية والحماية .

وتنص المادة نفسها على أن «بعض المجتمعات التي كانت تابعة للامبراطورية العثمانية والتي بلغت حداً من التطور يسمح لها بأن تكون دولة مستقلة ... يمكن أن يعترف بها على أنها مستقلة مؤقتاً شريطة أن تتلقى المشورة والمساعدة من قبل مندوب يوجه شؤونها ... إلى أن يحل اليوم الذي تكون فيه قادرة على أن تدير شؤونها بنفسها» .

وهكذا أعطيت انكلترة العراق وفلسطين ، وأعطيت فرنسا سورية ولبنان بموجب التقسيم الذي جرى في مؤتمر سان ريمو عام ١٩٢٠ الذي عقده المنتصرون دون الرجوع إلى عصبة الأمم .

ولكن الانتداب على فلسطين كان خاضعاً للازدواجية والغموض اللذين اتصف بهما وعد بلفور : فأرض فلسطين قد وُعد بها الصهاينة والعرب في آن معاً .

وكانت مقدمة ميثاق عصبة الأمم تكرر ما جاء في وعد بلفور الذي يشير إلى وطن قومي لليهود من جانب وإلى احترام حقوق الجماعات غير اليهودية من جانب آخر .

ولكن وعد بلفور يتضمن تناقضاً جديداً مع ميثاق عصبة الأمم الذي تنص المادة العشرون منه على ما يلي: «إن هذا الميثاق يلغي كل الالتزامات والاتفاقات الخاصة التي لا تتفق مع نصوصه». وواضح أن هذه الحالة تنطبق على بريطانيا التي منحت اليهود ــ بوعد بلفور ــ أرضاً ليست ملكاً لها.

ومع ذلك صدقت عصبة الأمم الإشارة الخاصة بالانتداب الواردة في وعد بلفور معترفة (بالأمر الواقع) من منطلق إرادة استعمارية.

* * *

وهكذا منذ ذلك الحين راح الانتداب يخدم المشروعات الصهيونية بكل حرية.

في تموز عام ١٩١٩ حضر إلى القدس الصهيوني البارز (لويس برانديس) عضو المحكمة العليا في الولايات المتحدة وراح يتحدث حديث السيد فصرح للمدير العام للانتداب الجنرال (بولز) قائلاً: «إن أوامر السلطات العسكرية يجب أن تخضع أولاً لرأي المجلس الصهيوني»؛ ولدى احتجاج مركز قيادة الانتداب التي أدهشها أن يطلب رجل حقوقي خرق القانون أضاف برانديس يقول: «يجب أن تعلموا أن الحكومة البريطانية مكلفة بدعم القضية الصهيونية؛ وإذا لم تلتزم بذلك فسأقدم تقريراً إلى وزارة الخارجية».

وكان الجنرال (بولز) عام ١٩٢٠ قد شكا إلى حكومته في لندن تدخلات المجلس الصهيوني في شؤون الإدارة قائلاً: «لا أستطيع أن أطيق هذه الحالة... ليس هناك أي جدوى في أن نقول للمسلمين والمسيحيين من السكان إننا ملتزمون بتصريحنا المتضمن المحافظة على الوضع الراهن؛ فالأحداث تشهد بعكس ذلك... ولقد أقنع الصهاينة الجماعات غير اليهودية بأننا متحيزون للصهيونية... زد على ذلك أن المجلس الصهيوني يتهمني مع ضباطي بالعداء للسامية... إنها حالة لا تطاق. إن من المستحيل تلبية رغبات أشخاص يعلنون رسمياً أنهم لا يريدون أبداً (وطناً قومياً) وإنما يريدون بل لا يرضون إلا (بدولة يهودية) بكل ما فيها من مضامين سياسية».

وفي تموز عام ١٩٢٠ أقيل السير (بولز) من منصبه وحل محله السير (هربرت صموئيل) وهو صهيوني حتى العظم، وقد قال عنه زعيم المنظمة الصهيونية العالمية حاييم وايزمن: «كنت المسؤول الأول عن تعيين السير هربرت صموئيل في فلسطين. إنه صديقنا، وقد قبل هذا المنصب الصعب تلبية لرغبتنا. إنه صموئيلنا».

وراح تطور الصهيونية ينمو سريعاً في ظل الانتداب البريطاني. كانت فلسطين عام ١٩١٨ بلداً كغيرها من البلدان العربية، وكانت تعد ٧٠٠,٠٠٠ مواطن منهم ٥٧٤,٠٠٠ مسلم و ٧٠,٠٠٠ عربي مسيحي و ٥٦٠٠٠ يهودي معظمهم عرب.

أما إحصاء عام ١٩٣١ فدل على وجود ٧٥٩٠٠٠ مسلم و ١٧٤٠٠٠ يهودي ومعظمهم الآن من أصل أوروبي و ٩١٠٠٠ عربي مسيحي. إن تاريخ هذا الإحصاء يهمنا تذكره فهو يسبق اضطهاد هتلر لليهود؛ فقد أدت حملة هتلر على اليهود إلى تشجيع الهجرة فبلغت نسبة الطائفة اليهودية في فلسطين ١٧٪ بعد أن كانت ٧٪ وذلك على الرغم من بطء وصول المعونات من يهود (الشتات).

أما فيما يخص الأرض فكان اليهود عام ١٩١٨ يملكون ٢٪ من أراضي فلسطين، وفي نهاية الانتداب بلغت النسبة ثلاثة أضعاف ما كانت عليه: لقد لعب (الصندوق القومي اليهودي) دوره بامتلاك أفضل الأراضي المروية فأصبحت نسبة الأراضي التي يملكها اليهود ٦٪.

وحاول الصهاينة بطريق فرض قوانينهم وبعون شركائهم البريطانيين شراء الأراضي المحيطة بالمسجد الأقصى في القدس قرب (حائط المبكى)، وهي من أراضي (الوقف) التي يخصص ريعها للأعمال الخيرية. وهذا ما دفع بالمسلمين إلى تشكيل لجنة الدفاع عن المسجد الأقصى عام ١٩٢٨. نعم كان الانتداب البريطاني على فلسطين نعمة للصهيونية؛ ففي ظل الانتداب قفز عدد اليهود من ٨٠,٠٠٠ عام ١٩٢٢ إلى ٦٤٠,٠٠٠ عام ١٩٤٨، وكان للصهاينة مدنهم وأراضيهم وصناعاتهم وجيشهم.

* * *

ولكن ذلك الهدوء النسبي المؤقت لدى العرب قد طارت به ثورات عديدة على الاحتلال الصهيوني والانكليزي وذلك في أعوام ١٩٢٠ و ١٩٢١ ولاسيما ١٩٣٦إلى عام ١٩٣٩ .

وبعد إعلان نتائج (لجنة التحقيق الانكليزية) عن الاضطرابات الأولى، هذه النتائج التي أظهرت أن السبب يعود إلى ألوان التجاوز والتعدي المستمرة للصهاينة صرح وزير المستعمرات ونستون تشرشل بقوله: «لقد طُرحت شعارات تقول: إن فلسطين يجب أن تكون يهودية مثلما هي انكلترة انكليزية... إن حكومة صاحب الجلالة تعتبر أن طرحاً كهذا أمر غير سائغ وهي لا ترى هذا الرأي. أضف إلى هذا أن الحكومة لا تنوي العمل على محو السكان العرب في فلسطين وطمس لغتهم وثقافتهم أو إلحاقهم بغيرهم. ومما يلفت الانتباه في وعد بلفور أنه لم ينص على تحويل **فلسطين كلها** إلى وطن قومي يهودي بل ينص على إقامة وطن قومي يهودي في فلسطين».

كانت ثورة ١٩٢٩ أول الأمر ثورة فلاحين لا أرض لهم طردتهم (الوكالة الصهيونية) بشرائها الأراضي من كبار الملاكين الإقطاعيين المقيمين ــ على الأغلب ــ خارج البلاد.

ويحلل كريستوفر سايكس نتائج النظام الاستعماري الصهيوني بقوله: «إن مشكلة الأرض في فلسطين قد نجمت بوجه خاص من بيع مساحات واسعة من الأراضي من قبل ملاكين غائبين عن أملاكهم إلى أشخاص أو شركات صهيونية. وهناك شرط معروف يتعهد البائعون بتنفيذه وهو إخلاء الأرض من شاغليها... وهكذا وجد أولئك البؤساء الذين عاشوا طوال حياتهم طوال أجيال على تلك الأرض ــ أنفسهم مطرودين من أرضهم محرومين ــ دون أي تعويض ــ من وسيلة عيشهم... إن المزارعين المأجورين الذين هم الضحية الحقيقية للهجرة اليهودية هم جوهر القضية الفلسطينية.».

وهؤلاء الفلاحون الذين لا أرض لهم ما كانوا يستطيعون أن يعملوا مزارعين أجراء لدى المالكين الصهاينة الجدد لأن وثيقة الصندوق القومي اليهودي تحرم عليهم ذلك.

وقل الشيء نفسه عن العمال؛ فشعار (النقابة المركزية الصهيونية) يقول: «العمل لليهود».

إن الأسباب نفسها تولد دائماً النتائج نفسها؛ فمضمون هذه السياسة الصهيونية الاستعمارية القائم على إلغاء وجود العرب في فلسطين سيؤدي إلى انتفاضات جديدة قام بها الفلسطينيون من عام ١٩٣٦ حتى ١٩٣٩... وستكون هذه الانتفاضات حركة شعبية قوامها الفلاحون الذين لاأرض لهم تجسدت في الإضراب الذي دام مئة وأربعة وسبعين يوماً وتحول إلى انتفاضة مسلحة حقيقية.

وقد سحقت هذه الثورة وسالت فيها الدماء إذ قتل أكثر من ثلاثة آلاف عربي وجرح الآلاف وأودع في السجون ومعسكرات الاعتقال البريطانية أكثر من ستة آلاف شخص.

* * *

لقد أخلى المحتل الانكليزي الساحة أمام انتشار الصهيونية وتوسعها؛ ولم يكن الصهاينة بحاجة إلى ذلك المحتل فهم بعد ذلك القمع ماعادوا يخشون غضب العرب فما كان عليهم إذن إلا أن يطردوا الانكليز ليصبحوا أسياد البلد.

ويهمنا أن نشير هاهنا إلى أن قراع العرب المحتلين الانكليز يختلف عن قراع الصهاينة للمحتل نفسه. كان هذا الصراع لدى الفلسطينيين صراع تحرر من غزو صهيوني يدعمه الاستعمار الانكليزي. أما صراع الصهاينة فقد التفت إلى مقارعة الانكليز بعد أن استفاد من قمع العرب على يد الانكليز. فكان صراعاً من نوع آخر موضوعه الخلاف بين المستوطنين اليهود وبين المنتدبين على فلسطين.

كان هؤلاء المستوطنون في مقارعتهم المنتدبين يخططون لإقامة سلطتهم على سكان البلاد، مثلهم مثل الأمريكيين الذين ثاروا على انكلترة طلباً للاستقلال ولكنهم راحوا يذبحون في الوقت نفسه الهنود الحمر فعملوا بذلك على إطالة عمر استعباد السود قرناً آخر من الزمن؛ وهكذا فالصهاينة لا يمارسون حرباً تحررية في مواجهة الاستعمار

وإنما يهدفون بإرهابهم الذي يمارسونه على الانكليز إلى تكريس سيطرتهم على سكان البلاد الأصليين من العرب.

هذا وقد ثارت ثائرة الصهاينة حينما نشرت الحكومة الانكليزية عام ١٩٣٩ (الكتاب الأبيض) الذي يقول: ما دام (الوطن اليهودي) قد أنجز فيجب أن لا نشجع على مزيد من الهجرة وشراء الأراضي الجديدة من العرب.

وقامت المنظمات العسكرية وشبه العسكرية (الهاغانا بزعامة بن غوريون، والأرغون بزعامة بيغن، وعصابة شتيرن بزعامة شامير) لتنشر مزيداً من الإرهاب والرعب إلى أن قامت دولة اسرائيل الصهيونية... أما النتيجة النهائية فواضحة: إنها طرد العرب من فلسطين أو ذبحهم. يكتب دافيد بن غوريون رئيس وزراء اسرائيل عام ١٩٥٤ في مقدمة كتابه (تاريخ الهاغانا): «ليس في بلدنا مكان إلا لليهود. سنقول للعرب: انجوا بأنفسكم! وإذا لم يذعنوا وراحوا يقاومون فلسوف نرمي بهم خارج البلاد بالقوة».

ويكتب (يوسف وايتز) مدير دائرة الاستعمار في الوكالة اليهودية عشية حرب حزيران عام ١٩٦٧: «من الواضح لدينا أنه لا مكان في هذا البلد لكلا الشعبين. إن الحل الوحيد هو في تحقيق شعار (أرض اسرائيل) دون عرب. وليس هناك حل آخر إلا (نقل) العرب خارج فلسطين إلى البلدان المجاورة».

وتكفينا الأمثلة المحسوسة التالية على هذا الإرهاب الذي تبرر الغايات فيه الوسائل:

صرح اللورد موين (أحد المسؤولين البريطانيين في القاهرة) في مجلس اللوردات عام ١٩٤٢ بأن يهود اليوم ليسوا أحفاد العبريين القدامى وأنه ليس لهم أي حق شرعي في المطالبة بأرض مقدسة. وقد اتهم هذا المعتدل الداعي إلى الحد من الهجرة بأنه «عدو شرس لاستقلال العبريين». وفي عام ١٩٤٤ لقي مصرعه في القاهرة على يد عضوين من عصابة شتيرن.

وفي ١٩٤٤ يصرح ونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا في مجلس العموم بقوله:

«إذا كان الأمر قد وصل إلى حدٍ تتبدد فيه أحلامنا وسط دخان مسدسات القتلة، وإذا لم تثمر جهودنا من أجل المستقبل إلا ولادة عصابة جديدة من الإرهابيين اللائقين بألمانيا النازية فإن كثيرين مثلي سيعيدون النظر في ذلك الموقف الذي درجنا على تبنيه فيما سبق. وإذا كان هناك أمل بمستقبل سلمي للصهيونية فإن هذه النشاطات الشيطانية اللعينة يجب أن تتوقف؛ أما هؤلاء المسؤولون عن هذه النشاطات فلا بد من استئصالهم بالقتل والشنق».

وفي عام ١٩٤٦ جرى تفجير فندق الملك داوود في القدس حيث تقيم رئاسة الأركان البريطانية والحاكم البريطاني على يد عصابة الأرغون بزعامة بن غوريون الذي تبنى العملية؛ وكانت حصيلة ذلك مئة قتيل بين انكليز وعرب ويهود.

ومن السهل علينا أن نورد المزيد من الأمثلة على هذا الإرهاب الذي أصبح الوسيلة الرئيسية للقادة الصهاينة بغية الوصول إلى هدفهم. وقد عبر مناحيم بيغن أوضح تعبير عن هذا التوجه العدواني الإرهابي على أنه (حرب وقائية) فكتب يقول: «نحن نقاتل إذن نحن موجودون. إلى مزيد من الدماء والنار والدموع والرماد... وإلى نوع بشري جديد... نوع لم يعرفه العالم منذ ألفي عام... إنه (اليهودي المحارب). علينا قبل كل شيء — وعلى نحو خاص — أن نبادر إلى الهجوم فنطارد القتلة. إلى مزيد من الدم والعرق ليولد جيل جديد شهم قوي واثق بنفسه».

أما المنعطف الحاسم فكان في مايس عام ١٩٤٢ في اجتماع لجنة الإنقاذ الصهيونية في فندق بلتيمور في نيويورك.

وقد جرى تصديق (برنامج بلتيمور) عام ١٩٤٥ من قبل الوكالة اليهودية التي قدمته إلى بريطانيا على أنه إنذار نهائي يحدد علانية — أول مرة — الأهداف التالية:

١ — نحن لا نطالب بوطن في فلسطين بل بدولة يهودية في كل فلسطين، دولة لها جيشها الخاص بها.

٢ ــ نطالب بهجرة لا حد لها تشرف عليها الوكالة اليهودية وحدها .
٣ ــ إن المساعدات الألمانية ستخصص لبناء الدولة الصهيونية .

حقاً إنه تحول حقيقي في الحركة الصهيونية .

ففي مؤتمر بال عام ١٨٩٧ وفي وعد بلفور ١٩١٧ لم يكن يدور الحديث علناً إلا عن (وطن قومي يهودي) في فلسطين ؛ أما القول بدولة تحكم كل فلسطين فكان زعماء الصهاينة يؤمنون به ولا يعلنون عنه بصورة رسمية .

وهكذا عملت الهجرة اللا محدودة بإشراف الوكالة اليهودية وحدها على إنهاء دور انكلترة . وقد حاولت انكلترة عبثاً أن تفي بوعودها المتضمَّنة في وعد بلفور وصك الانتداب كي تضمن إلى حدٍ ما بعض حقوق السكان من غير اليهود . أما (الكتاب الأبيض) الذي أصدره ماكدونالد فكان حبراً على ورق ... وهكذا خرجت انكلترة من الحلبة . وكان ذلك أمراً ميسوراً فانكلترة التي أسهمت في الحرب العالمية الثانية خرجت منها وهي تنزف بعد أن تحملت أثقل الأعباء فتحولت مدنها إلى رماد ودمرت امبراطوريتها .

اختار الصهاينة إذن في مؤتمر بلتيمور أقوى حليف يحميهم ويدعمهم : إنه الولايات المتحدة التي أصبحت سيدة العالم الغربي .

ثم راح ا لصهاينة يطالبون بدفع التعويضات الألمانية لا لأهل الضحايا اليهود أينما كانوا بل لدولة اسرائيل ... فإسرائيل إذن هي الممثل الوحيد لليهود في كل أنحاء العالم ؛ اليهود الذين كانوا حتى الآن أقليات ضعيفة مبعثرة .

وقد أثار منعطف بلتيمور موجة من الاحتجاج إذ حدد بداية تصدُّر الصهيونية السياسية ذات التوجه القومي على كل التنظيمات اليهودية في العالم .

وقد سبق لأنشتاين أن دان هذا التوجه حينما قال : « أنا أرى أن من الحكمة أن نصل إلى اتفاق مع العرب على أساس من تعايش سلمي ، فذلك أجدى من قيام دولة يهودية لها حدودها وجيشها وسلطتها الزمنية مهما كانت هذه السلطة ضئيلة . إني

أخشى أن يلحق باليهودية شيء من الضرر من جراء نشوء نزعة قومية ضيقة بين جماهير اليهود... نحن الآن لسنا يهود المرحلة المكابية الماضية. إن عودتنا إلى أن نكون (أمة) بالمعنى السياسي للكلمة تعني انحرافنا عن روحانية ديانتنا التي ندين بها لعبقرية أنبيائنا».

وقد أنشأ (ماغنس) رئيس الجامعة العبرية في القدس مع الفيلسوف اليهودي (مارتن بوبر)ـــ فيلسوف الحوار ـــ منظمة (الوحدة) بغية إقامة دولة ذات قوميتين متعايشتين، وذلك رداً على توجهات بلتيمور التي يرى (ماغنس) أنها ستؤدي إلى حرب مع العرب.

وهذا مارتن بوبر يصرح في نيويورك قائلاً: إن الشعور الذي كان منذ ستين عاماً عندما انتسبت إلى الحركة الصهيونية (على أنها حركة دينية) ما زلت أشعر به حتى اليوم... وحينما عدنا إلى فلسطين كانت القضية الحاسمة تقوم على النحو التالي: أتريد أن تعود إلى فلسطين صديقاً وأخاً وعضواً في مجموعة شعوب الشرق الأدنى أم ممثلاً للاستعمار والامبريالية؟ وقد عمل التناقض بين الهدف وبين الوسائل المتبعة للوصول إليه على قسمة الصهاينة إلى فريقين: فريق كان يريد أن يستقبل على أرض فلسطين (القوى الكبرى) ذات الامتيازات السياسية الخاصة، وفريق آخر ـــ ومعظمهم من الشباب ـــ كانوا لا يريدون إلا أن يتاح لهم العمل في فلسطين مع جيرانهم بغية إعمار فلسطين وبناء المستقبل.

لقد وفد الشلوتزيم أي (طلائع) المهاجرين إلى فلسطين لأنهم لم يجدوا في أي مكان على الأرض مجالاً لتحقيق وجودهم وحياتهم... ولم تكن القضية لديهم قضية إقامة (دولة) سياسية، ولكنهم كانوا يبتغون مجتمعاً إنسانياً يسوده التعاون... إن علاقاتنا بالعرب لم تكن قط دائماً صحيحة... ولكن كان هناك ـــ على وجه العموم ـــ تجاوز طيب بين قرية يهودية وأخرى عربية. وقد دامت هذه المرحلة التلقائية من الإقامة في فلسطين حتى مجيء هتلر.

إن هتلر هو الذي دفع بجماهير اليهود إلى أن تقصد فلسطين؛ لكنه لم يدفع

بنخبة تبتغي تحقيق وجودها وبناء مستقبل أفضل. وهكذا بعد مرحلة من التطور التلقائي النخبوي جاءت مرحلة هجرة جماهيرية كثيفة تحتاج إلى قوة سياسية تضمن لها أمنها ... إن معظم اليهود فضلوا أن يتعلموا من هتلر أكثر مما يتعلمون منا ... ولقد أظهر لهم هتلر أن التاريخ لا يستهدي بالعقل وإنما بالقوة، وأن الشعب الذي يلمس في نفسه القوة الكافية سرعان ما يمارس القتل دونما خوف من العقاب ... تلك هي الحالة التي كان علينا أن نكافحها ... وقد اقترحنا في منظمة (الوحدة) — إيحود — أن لا يكتفي العرب واليهود بالتعايش بل لا بد لهم من التعاون ... وهذا ما يجعل التطور الاقتصادي في الشرق الأدنى ممكناً لتستطيع به هذه المنطقة أن تسهم إسهاماً جوهرياً في بناء مستقبل الإنسانية».

ويكتب الأستاذ (ماغنس) الذي جاء إلى فلسطين منذ عام ١٩٢٤ على أنه صهيوني متدين ليقول: «إن ما يقلقني هو غياب أية مبادرة بناءة حول طريقة حل الخلاف بين اليهود والعرب دونما حرب ... لا شك في أن لليهود ملء الحق في أن يطلبوا من العالم إنصافهم ... ولكني لست على استعداد لإنصاف اليهود بطريق الإساءة إلى العرب، وذلك بوضعهم مرغمين تحت سيطرة اليهود. وإذا كنت لا أقبل بإقامة دولة يهودية فلسبب واحد سبق لي أن أعلنت عنه وهو أني لا أريد حرباً مع العرب».

وحينما كان (ماغنس) رئيساً للجامعة العبرية ألقى عام ١٩٤٦ في حفل افتتاح العام الدراسي كلمة قال فيها: «إن صوت اليهود الجديد ينطلق الآن من أفواه البنادق ... لكأننا أمام توراة جديدة على أرض اسرائيل. لقد حكم جنون القوة هذا العالم؛ فلتحمنا السماء من أن تُحكم اليهودية وشعب اسرائيل بهذا الجنون نفسه. إنها يهودية وثنية تلك التي تسيطر على معظم يهود (الشتات). لقد فكرنا أيام الصهيونية الرومنسية بأن (صهيون) يجب أن تفتدى بالعدل والإنصاف. إن كل يهود أمريكا مسؤولون عن هذا الغلط، عن هذا التحول ... حتى أولئك الذين لا يوافقون على تصرفات هذه القيادة الوثنية نراهم لا حول لهم ولا قوة. لقد تخدر الحس الأخلاقي حتى أصيب بالشلل».

ومع هذا كان في الولايات المتحدة أقلية من الأحبار واليهود العلمانيين حاولت أن

تقف موقف المعارضة؛ ففي عام ١٩٤٣ اجتمع اثنان وتسعون حاخاماً في (أتلنتك سيتي) بغية إيقاف تيار التعصب الصهيوني الشوفيني الذي عبر عنه برنامج (بلتيمور). وقد نشروا بياناً عرضوا فيه مبادئهم قائلين: «لقد آن الأوان لنرفع صوتنا قائلين: إلى هنا فحسب! إن إعداد اليهود الأمريكيين بغية جمعهم تحت راية يهودية وجيش يهودي ودولة يهودية في فلسطين وجنسية مزدوجة في أمريكا... أمر لا يمكن قبوله. لقد لمسنا بقلق تصعيد محاولة حرف اليهود الأمريكيين عن تقاليدهم واجتذابهم إلى حلبة الصراع القومي اليهودي... إن المتطرفين يدّعون أنهم يتكلمون باسم جميع يهود أمريكا... ونحن على ضوء مفهومنا الشامل لتاريخ الشعب اليهودي ومصيره وانطلاقاً من حرصنا على أمن اليهود وسلامهم في العالم لا يمكننا بأي حال القبول بهذا التوجه السياسي الذي يتضمنه البرنامج الصهيوني الحالي، ولذا نحن نرفضه ولا نؤيده».

وقد اقترح (المجلس الأمريكي لليهودية) حلاً واضحاً لمشكلة (الأشخاص المهجّرين) يقول: «نطلب إلى الأمم المتحدة أن تؤمن على وجه السرعة إعادة توطين كل العرب الذين انتزعوا من أوطانهم... وأن توجد المأوى لكل اللاجئين أياً كانت عقيدتهم وأفكارهم السياسية أو انتماؤهم الوطني. أما إخواننا اليهود فلا نطلب لهم إلا المساواة في الحقوق والواجبات مع باقي المواطنين... نحن نعارض إقامة دولة يهودية في فلسطين أو في مكان آخر؛ فالدولة اليهودية مصيرها الإخفاق، ولن يؤدي هذا إلى أي حل عملي للمشكلة اليهودية. إن فلسطين هي جزء من التراث الديني اليهودي، وهي جزء من التراث الديني لسائر الأديان. نأمل أن تقوم في فلسطين حكومة ديموقراطية مستقلة يتمثل فيها اليهود والمسيحيون والمسلمون على نحو عادل.

نحن نهيب بيهود العالم أن يتبنوا مفهومنا للحياة ولمصير اليهود بغية الحفاظ على أسمى تقاليد عقيدتنا.

ونحن نرى أن هذه الحقائق تقدم لنا أساساً لكل برنامج مستقبلي متفائل يصنعه الأحرار من الناس».

ولكن الأجهزة الرهيبة (للمنظمة الصهيونية) أطاحت بكل أشكال المقاومة

التي عارضت الموجة القومية العرقية ونجحت في أن تكسب إلى جانبها ٨١٨ حاخاماً أمريكياً ــ مقابل ٩٢ ــ لتنتزع منهم تصريحاً يقف في وجه المعارضين من ذوي الاتجاه الديني ، ويرفض أوضح البديهيات ، ويعلن أن « الصهيونية ليست حركة علمانية » .

ولكن كيف أمكن الوصول إلى هذا التبدل والتحول؟

الحق أنه لا يمكن فهم ذلك بمعزل عن السياق التاريخي للاضطهاد الهتلري الجهنمي لليهود ، ولاستغلال العداء للسامية من قبل الصهيونية السياسية التي لا تهدف إلى الدفاع عن الحقوق الإنسانية وإنما تهدف إلى خلق دولة صهيونية قوية .

إذن علينا أن نحلل العلاقات القائمة بين الصهيونية والعداء للساميّة .

٢ ـ الحركة الصهيونية واللاسامية

أ ـ هرتزل واللاسامية
على أنها (قوة دافعة) لحركته

يحدد هرتزل بوضوح في مقدمة كتابه (الدولة اليهودية) القوة التي سوف يعتمد عليها في تحقيق مشروعه الذي يناضل فيه (ذوبان) اليهود في أوطانهم ويدعو إلى الهجرة إلى فلسطين. يقول: «هذا المشروع يتضمن الانتفاع بقوة دافعة قائمة ... وهي المحرك والدافع لكل شيء. ما هذه القوة؟ إنها فكرة شقاء اليهود».

وهرتزل يعلم حق العلم أن هذه القوة الدافعة إلى (العودة) ليست حنيناً روحياً يرددون فيه الحلم القائل: «في القدس عيدنا القادم»؛ وإنما هي في الأساس الاضطهادات المعادية للسامية التي تدفع باليهود إلى الهجرة ... إلى أي بلد كان. والتاريخ يشهد بذلك؛ فحينما كانت فلسطين مفتوحة في وجه اليهود لم يعبر هؤلاء عن رغبتهم في الاستقرار فيها: فعشية الحروب الصليبية لم يكن هناك أي عائق يمنع اليهود من الدخول إلى فلسطين؛ هذا أحد الحجاج اليهود (بنيامين) يشهد على أنه لم ير في فلسطين إلا ١٤٤٠ يهودياً. وقد كان الصليبيون ـ لاشك ـ قساة وحشيين؛ ولكن بعد أن استرجع صلاح الدين القدس وأعاد فتح المعابد اليهودية وفتح فلسطين في وجه اليهود عام ١١٨٧ لم يفد إليها أحد قط. وفي عام ١٢٥٧ يشير الحاج اليهودي (ناحوم

جيروندي) إلى أنه لم يجد إلا أسرتين من اليهود في القدس. لقد ظلت القدس لدى اليهود الأتقياء رمزاً لعقيدتهم مثلما هي لدى المسيحيين.

وحتى في فترات الاضطهاد حينما كانت فلسطين بلداً مفتوحاً في وجه اليهود كان هؤلاء يغادرون أوطانهم ليلجؤوا إلى بلد غير فلسطين: فعندما طرد ملوك اسبانيا الكاثوليك العرب من اسبانيا عام ١٤٩٢ وألزموا اليهود والمسلمين بالدخول في الدين المسيحي وذبحوا من لم يستجب إلى ذلك... لم تهاجر جماهير اليهود إلى فلسطين بل هاجر معظمهم نحو الشمال إلى فرنسا وهولندا وإيطاليا والبلقان أو نحو الجنوب إلى مراكش وقبرص ومصر ولم يستوطن فلسطين من اليهود إلا قلة قليلة على الرغم من قربها من مصر وقبرص والبلقان. وقل الشيء نفسه حينما حدثت المذابح الوحشية في بوغدان في أوكرانيا عام ١٦٥٨. وفي عام ١٨٤٥ حينما كان عشرة ملايين يهودي في العالم يرددون تلك الصلاة المهيبة القائلة: «في القدس عيدنا القادم» لم يكن في فلسطين إلا اثنا عشر ألف يهودي... وبقيت الحالة على ما هي عليه حتى أيامنا: فبعد تحرير الجزائر عام ١٩٦٤ غادراليهود ـــ مع الفرنسيين ـــ الجزائر واستقروا في فرنسا لا في اسرائيل، على الرغم من جهود الاسرائيليين الذين نظموا (وكالاتٍ) تعنى بموضوع (العودة) ثم سحبوها بسبب قلة (الزبائن).

بل إنه بعد الحملات المدوية التي قام بها هرتزل داعياً إلى الوحدة الشاملة (للشعب اليهودي) وبعد أن أشار في كتابه إلى (القوة الدافعة) للعودة إلى فلسطين، وبعد الضجة الاحتفالية المتفاخرة التي تلت وعد بلفور بين عامي ١٩١٧ ـــ ١٩٢٢ ... بعد كل ذلك وعلى الرغم منه لم يفد إلى فلسطين للاستقرار فيها إلا ٢٨٠٠٠ يهودي.

نعم إن العداء للسامية يظل هو الدافع أو المحرك الحقيقي. وكانت الموجة الأولى من موجات (العودة) بين ١٨٧١ ـــ ١٨٩٠ على أثر المذابح الأولى في روسيا؛ أما الموجة الثانية فكانت بين ١٩٠٣ ـــ ١٩١٤ بعد مذابح كيشينيف؛ ولكن حركة الهجرة لم تتسارع إلا مع الاضطهاد النازي لليهود.

هذا ولم يشعر اليهود بأية دوافع تدفع بهم إلى مغادرة أوطانهم للتوجه إلى فلسطين حينما لم يكونوا يعانون الاضطهاد. والمثال المأخوذ من يهود أمريكا مثال نموذجي؛ فلم يهاجر إلى اسرائيل بين ١٩٤٨ــ١٩٦٥ إلا عشرة آلاف يهودي من أصل خمسة ملايين ونصف المليون، أي بنسبة اثنين إلى الألف. بل الأمر على العكس؛ فالاسرائيليون الذين يهاجرون إلى أمريكا ليستقروا فيها أكثر من اليهود الأمريكيين الذين يستقرون في اسرائيل. وعلى مدى سبعة عشر عاماً هاجر عشرة آلاف يهودي أمريكي ليستقروا في اسرائيل بينما هاجر في عام واحد أكثر من خمسة آلاف يهودي من اسرائيل إلى أمريكا.

وكان هرتزل يتوقع كل ذلك بكل بساطة؛ فالدوافع الدينية لا تكفي للاعتماد عليها مادامت اليهودية تُطرح على أنها (أمة) لا على أنها عقيدة... ثم إن المفهوم المادي (لأورشليم) ينافي ويناقض أسمى التقاليد اليهودية القائمة على تقوى الله.

وهكذا لم يبق أمام هرتزل إلا أن يقوم بالإشادة بقومية تفوق سائر القوميات ليصف اليهود بأنهم غرباء في بلادهم التي يعيشون فيها... وهذا ما يغذي على أحسن وجه شعور العداء للسامية، هذا الشعور الذي سيكون أفضل محرض ودافع إلى الهجرة. وقد سبق أن رأينا في رسالة (بليف) إلى هرتزل ذلك التكامل والتآمر المشترك بين الصهيونية وبين العداء للسامية.

وهرتزل نفسه لا يخفي ذلك فهو يعرف حق المعرفة إلى أين تؤدي فرضياته الثلاث:

١ ــ إن اليهود أينما كانوا ليسوا طائفة دينية، وإنما هم (شعب) بل عرق.
٢ ــ لقد كان اليهود دائماً جسماً غريباً لا تتمثله الشعوب التي يعيش اليهود بين ظهرانيها.
٣ ــ كان اليهود في كل زمان ومكان عرضة للاضطهادات.

وقد سبق لهرتزل أن ميز بدقة تلك الصلة بين الصهيونية واللاسامية. يقول في يومياته: «هناك اعتراض مفاده أننا حينما نسمي اليهود (شعباً) فنحن بذلك نخدم

اللاسامية ونعمل على منع اندماج اليهود بغيرهم من الشعوب. وهذا الاعتراض سيكون موطنه في فرنسا على نحو خاص...» ويرد هرتزل على ذلك بقوله: «إذا اعترض اليهود الفرنسيون على مشروعنا فأنا أجيب ببساطة قائلاً: إن الأمر لا يعنيهم فهم فرنسيون يهود».

... وكانت النتيجة واضحة متوقعة إذ حققت الصهيونية أحلام كل أعداء السامية القائلة بطرد اليهود وعزلهم في محجر عالمي.

وينطلق هرتزل من حقده على كل من يطرح اليهودية ديناً لا أمةً ليصل إلى القول بأنه من غير الطبيعي أن يقوم أحد الحاخامات بالتبشير بالعقيدة اليهودية خارج الوطن الأم فلسطين.

وجه العضو اليهودي الوحيد في الحكومة البريطانية اللورد مونتاغو رسالة إلى زملائه بمناسبة صدور وعد بلفور عام ١٩١٧ يقول فيها: «أنا لا ألمح إلى أن الحكومة معادية للسامية عن عمد... ولكن ألح على التذكير بأن سياسة حكومة صاحب الجلالة معادية للسامية بنتائجها، وأنها ستقدم أرضية لتجميع أعداء السامية في العالم كله.

وأنا أرى في الصهيونية عقيدة سياسية مشؤومة غير مقبولة لدى مواطن محب لوطنه في المملكة المتحدة. وحينما يتوجه يهودي انكليزي بنظره نحو (جبل الزيتون) في فلسطين وهو يحلم بيوم ينفض فيه عن حذائه غبار الأرض البريطانية فأنا أراه قد تبنى أهدافاً لا تتفق مع الولاء للوطن البريطاني... إني أؤكد على أنه ليس هناك أمة يهودية... فليس من الصحيح القول بأن يهودياً انكليزياً ويهودياً مراكشياً هما من أمة واحدة؛ وليس صحيحاً كذلك القول بأن مسيحياً انكليزياً ومسيحياً فرنسياً هما من أمة واحدة أو عرق واحد... وأنا أرى أن الحياة التي عاشها اليهود الانكليز والأهداف التي سعوا إليها والدور الذي لعبوه في حياتنا العامة وفي مؤسساتنا يعطيهم الحق في أن ينظر إليهم على أنهم انكليز ذوو ديانة يهودية لا على أنهم يهود انكليز. أنا أستنكر علانية وعلى نحو قاطع الحركة الصهيونية وأرى نفسي مدفوعاً إلى المطالبة بإلغاء الصهيونية على أنها منظمة غير شرعية تعادي المصالح الوطنية.

وأنا أنكر كذلك آن تكون هناك أية علاقة بين يهود اليوم وبين فلسطين. صحيح أن فلسطين لها دورها الكبير في التاريخ اليهودي؛ ولكنها لعبت كذلك الدور نفسه في التاريخ الإسلامي كما لعبت بُعد المرحلة اليهودية دوراً في التاريخ المسيحي لم يلعبه أي بلد آخر... إن معبد سليمان قد شيد في فلسطين؛ ولكن لا يجوز أن ننسى أن (موعظة الجبل) وصلب السيد المسيح قد كانا في فلسطين...».

ولكن هرتزل ــ منذ نشأة الحركة الصهيونية السياسية ــ كان قد قرر الاسترسال في الاعتماد على استغلال العداء للسامية.

كانت أول عقبة يجب على هرتزل التغلب عليها معارضة مشروعه من قبل الأغلبية المطلقة من اليهود. وكان هدفه الأول إذن أن يكسب إلى صفه الطوائف اليهودية: «أنا أقود قضايا اليهود دون أن أفوَّض بذلك؛ ومع هذا فأنا مسؤول أمامهم عمّا أفعل».

وكان على المنظمة التي أنشأها هرتزل أن تكون ذات نظام يعتمد التسلسل والفوقية في المراتب والمناصب ما دام الأمر يتعلق بإقناع جماهير اليهود بقبول أهداف وممارسات ترفضها هذه الجماهير أصلاً... كإنشاء منظمة عسكرية للشبيبة: «لا بد أن أعدّ الشباب كي يصبحوا جنوداً وأن أنشىء جيشاً محترفاً أربيه على التغني بحب الوطن وأمجاد المكابيين...».

وكان على هرتزل أن يفرض توجهاً جديداً مغايراً على آلاف اليهود الذين كان معظمهم يناضل من أجل محو بقايا آثار التفرقة العنصرية بطريق اندماجهم في مجتمعاتهم وضمان حرية عقيدتهم وممارسة دياناتهم وثقافتهم وطرائق معاشهم... وهذا التوجه الجديد الذي يريده هرتزل كان يهدف إلى أن ينظر اليهود إلى أنفسهم على أنهم غرباء في البلدان التي يعيشون فيها... وذلك كي ينجح في تجميعهم في محجر عالمي.

ولكي يحقق الجزء الأول من مشروعه وهو اجتلاب الطوائف اليهودية ابتكر منظمة نخبوية تقوم على تسلسل المناصب بحيث لا يطلع أعضاؤها على مضمونها إلا جزئياً. وعلى رأس هذا التنظيم المتدرج يقف (مجلس الأسرة) الذي يجب أن يلم منذ

البداية بكل مخططات التنظيم. وفي الدرجة الثانية تأتي نخبة من مختلف مراكز اليهود في العالم، هذه النخبة التي يحق لها أن تطلع ــ على نحو سري ــ على ملامح عامة موجزة عن التنظيم. وهذه النخبة مكلفة بانتقاء أعضاء الدرجة الثالثة من التنظيم، هؤلاء الأعضاء الذين يطلعون على مخطط الهجرة المنظمة دون أن يذكر لهم شيء عن إنشاء الدولة اليهودية. أما الجماهير اليهودية فكانت تسيرها هذه النخبة الفوقية... وبعد وصولها إلى أرض دولة المستقبل يتم فرزها وتنظيمها في إطار كتائب للعمل تستوحي نظاماً عسكرياً قومياً.

وهكذا سيجري تنظيم الشبيبة كلها تنظيماً عسكرياً في كتائب للعمل ووحدات مسلحة مهمتها السيطرة على مقاومة السكان الأصليين الذين ستنتزع منهم أراضيهم وفق خطة منظمة. إلى جانب ذلك هناك فرق خاصة تكلف بمهمات صعبة تفرضها الدولة كالتلقيح وقاية من الكوليرا، وقتال أعداء الدولة.

إن أطروحة هرتزل الرئيسية تقول بأن اليهود شعب واحد... وهكذا فالخطوات الدبلوماسية العديدة التي قام بها في كل أوروبا والقائمة على إغراء كل دولة بوعدٍ ما بغية تنظيم غزو فلسطين، يضاف إلى تلك الخطوات ذلك القرار الحاسم في مؤتمر بال الذي ينص على إيجاد شبكة للدعاية في جميع البلدان تعمل على تطوير القومية اليهودية وتوحيدها على مستوى العالم... إن كل هذا وذاك أعطى أعداء السامية الحجج الضرورية ليصرخوا قائلين: إن هناك (مؤامرة) يهودية عالمية... وهكذا لم يبق على هرتزل إلا أن يخلع على القضية حبكة درامية كي يخلق لدى الرأي العام مناخاً نفسياً معادياً لليهود.

وهذا ما تحقق فور انتهاء مؤتمر بال بتزوير وثيقة لم يكن لها صدى كبير أول الأمر تحمل عنوان: (بروتوكولات حكماء صهيون)... ثم طبعت هذه الوثيقة تحت عنوان جديد: (برنامج غزو العالم من قبل اليهود). ومن المهم جداً أن نؤكد على أن الكشف عن أسرار تزوير هذه الوثيقة و (فبركتها) قد تم منذ ستين عاماً وذلك لاستغلاله لصالح الصهاينة، وذلك بادعائهم أن ما يقال اليوم عن سياستهم العدوانية المبيتة باطل مزور، شأنه شأن تزوير البروتوكولات وبطلانها.

إن الموحي (بفبركة) هذه الوثيقة المزورة هو ــ دون شك ــ وزير داخلية القيصر الروسي (بليف). وقد سبق أن رأينا أن رسالة هذا المعادي الدموي للسامية الموجهة إلى هرتزل تلتقي بمضمونها مع صهيونية هرتزل السياسية التي تتفق مع مشروع (بليف) الخاص وهو التخلص من اليهود بعزلهم في محجر دولي في فلسطين أو أي مكان آخر.

إن فضح مساوىء الصهيونية السياسية لا يحتاج إلى الأكاذيب. والمهم هاهنا أن ندحض (البروتوكولات) المزورة المصنوعة لكي نستبدل بها وثائق حقيقية تكون مراجعها تحت أيدينا بغية التحقق من صحتها.

ب ــ مسؤولية الزعماء الصهاينة في العداء الهتلري للسامية

الواقع أن القادة الصهاينة كانوا يعقدون الأمل على استغلال موجات العداء للسامية في إنجاح حركتهم؛ فالعداء للسامية ــ على ما يرون ــ سيعمق المشاعر القومية اليهودية وسيدفع باليهود إلى الهجرة وسيسهم إذن في بلوغ الهدف الأساسي وهو إنجاز قيام الدولة القوية في فلسطين، وليس إنقاذ حياة الأفراد اليهود.

في عام ١٩٢٥ يحدد يعقوب كلاتزكين ــ وهو أحد المنظرين المرموقين للصهيونية ــ العلاقات القائمة بين الصهيونية واللاسامية فيقول: «حينما نرفض شرعية اللاسامية فنحن ننفي شرعية قوميتنا الخاصة. وإذا كان شعبنا جديراً بأن يعيش حياة قومية، وإذا أراد ذلك فسيكون جسماً غريباً بين الأمم التي يعيش فيها... جسماً غريباً له ملامحه وهويته الخاصة... وحينذاك يحق لتلك الأمم أن تكافحنا في سبيل الحفاظ على وحدتها القومية...

إن البديل للجمعيات التي تكافح اللاساميين الذين يريدون التضييق على حقوقنا هو تشكيل جمعيات تكافح أصدقاءنا الذين يدافعون عن حقوقنا في أوطاننا».

ويكتب موشي سيغفريد ــ زعيم الاتحاد الصهيوني الألماني ــ في مقالة له شارحاً

المبدأ الأساسي للصهيونية فيقول: «إن كفاح اللاسامية ليس هدفنا الأساسي، وهو لا يعنينا البتة... فليس له تلك الأهمية التي تساوي العمل من أجل فلسطين».

هذا ومن المستحيل علينا أن نفهم سياسة الحركة الصهيونية في عصر الديكتاتوريات بمعزل عن هذه الفكرة الموجِّهة. حينما غادر الحاخام يعقوب برنز عام ١٩٣٧ برلين إلى أمريكا نشر المذكرة الموجهة من الاتحاد الصهيوني الألماني إلى الحزب النازي في الحادي والعشرين من حزيران عام ١٩٣٣ ... وإليك هذه المقاطع من تلك المذكرة:

«يعلم الجميع في ألمانيا أن الصهاينة هم القادرون وحدهم أن يمثلوا اليهود في المفاوضات مع الحكومة النازية... إن انبعاث الحياة القومية كما تجلت في ألمانيا حينما تبنت القيم الدينية والقومية لابد له أن يحدث كذلك لدى الطائفة القومية اليهودية. إن الأصل والدين والمصير المشترك والضمير الجمعي يجب أن يكون لها دورها الحاسم في صياغة حياة اليهود...

ولكي تصل الصهيونية إلى أهدافها العملية ترجو أن تكون قادرة على التعاون حتى مع الحكومات المعادية لليهود... إن إنجاز المشروع الصهيوني لا يعوقه إلا شعور اليهود خارج ألمانيا بالعداء نحو التوجه الألماني الحالي. أما الدعوة الحاضرة إلى مقاطعة ألمانيا فلا تتفق في جوهرها مع الصهيونية».

هذا وسيستمر تعاون القادة الصهاينة مع النازيين حتى عام ١٩٤١؛ بل إنه لم ينقطع على الرغم من صدور قوانين هتلر العرقية في نورمبرغ عام ١٩٣٥.

يقول (ليني برينر): إن القادة الصهاينة ــ شأنهم شأن هتلر في معارضتهم للزواج بغير اليهود، وفي اعتبارهم أن اليهود غرباء عن ألمانيا، وفي كونهم أعداء لليسار ــ مقتنعون بأن أوجه الشبه هذه كافية لكي يعاملهم هتلر على أنهم شركاء أمناء له.

كان الصهاينة في جمهورية (ويمار) ــ على الرغم من أنهم لا يمثلون إلا أقلية قليلة من اليهود ــ يقدمون أنفسهم على أنهم المفاوضون الوحيدون المقبولون لدى الحكومة الهتلرية وهم يعون أن سياستهم الداعية إلى الهجرة إلى اسرائيل تلتقي مع رغبة النازيين في

التخلص من اليهود.

كتب أحد القادة الصهاينة جيرار هولهايم عام ١٩٣٠ يقول: «إن البرنامج الصهيوني يرى في الطائفة اليهودية كلاً متجانساً لا يتجزأ يقوم على أساس قومي. فمعيار اليهودية ليس إذن اعتناقاً دينياً وإنما هو شعور كلي بالانتماء إلى طائفة عرقية توحد فيما بينها أواصر الدم والتاريخ وإرادة الحفاظ على شخصيتها القومية».

تلك هي اللغة والأطروحات التي تبناها الحزب الاشتراكي الوطني الهتلري؛ فلا غرابة أن تجد مثل تلك المفاهيم أصداء طيبة لدى النازيين. يقول المنظّر الرئيسي النازي روزنبرغ: «يجب أن ندعم الصهيونية بحماسة وقوة وذلك كي ترحل إلى فلسطين كل سنة طائفة من اليهود».

وقد نجح (الاتحاد الصهيوني الألماني) بمساعدة النازيين في الحصول على امتياز تمثيل اليهود في الرايخ الثالث بعد أن صفى تدريجياً الجناح الذي كان يعادي الهتلريين.

وهكذا كان التماثل بين أهداف النازيين والصهاينة يسمح للقادة الصهاينة بأن يلعبوا دور الموجه القائد بين اليهود الألمان.

جاء في تقرير الشرطة السياسية في بافيير عام ١٩٣٥ ما يلي: «قامت المنظمات الصهيونية بتنظيم أعضائها والمؤيدين لها للقيام بحملات للتبرع بغية تشجيع الهجرة وشراء الأراضي في فلسطين ودعم استيطانها». ولم تجد هذه الحملات أية معارضة من الشرطة أو احتجاج على هذا السلوك ما دامت الأموال المجبية ستسهل الوصول إلى حل عملي لمشكلة اليهود.

ونحن حينما نعالج مسألة مدى مسؤولية القادة الصهاينة في مذابح هتلر لليهود يهمنا أن نشير إلى مظهرين رئيسيين لهذه القضية:

أولاً: إن إظهار مدى المسؤولية الحقيقية للقادة الصهاينة في الكارثة التي لحقت باليهود لا يقتضي بأي وجه من الوجوه أن نبرىء النازيين أو أن نخفف من فظاعة جريمتهم الموجهة على اليهود والإنسانية. إن الأطروحة التي نشرتها (حنه آرنت) حول هذا المشروع ذات دلالة هامة؛ فهي تقول في الرد على الحملة التي شنت عليها من قبل

الصهاينة: «كل الناس يعلمون ويرددون أن أطروحتي تتضمن هذه الحقيقة القائلة بأن اليهود هم الذين قتلوا أنفسهم بأيديهم». وقد وصلت حنه آرنت إلى هذه النتيجة الحاسمة بعد أن شهدت محاكمة إيخمان في القدس: «الحق أن الشعب اليهودي لو لم يكن له تنظيم جدي وقيادة حقيقية لسادت الفوضى بين صفوفه وللحق به كثير من البؤس؛ هذا صحيح؛ ولكن عدد الضحايا لم يكن ليصل إلى ستة ملايين ... بل إن نصف الضحايا كان يمكن لهم أن ينجوا بأنفسهم لولا التزامهم بتعليمات المجالس اليهودية».

ثانياً: إن سياسة التعاون مع النازيين بنتائجها الفاجعة التي أصابت كل يهود أوروبا لا يمكن أن تعزى إلى أخطاء شخصية أو عجز فردي لدى بعض القادة الصهاينة الذين استسلموا لهذا التعاون. إن الصلة بين الصهيونية واللاسامية ترجع إلى منطق الصهيونية السياسية كما أدركه هرتزل، هذا المنطق ذي الهدف الحاسم وهو إقامة دولة قوية يهودية في فلسطين. أما إنقاذ اليهود فلم يكن لديه إلا أمراً ثانوياً إلى جانب المهمة الرئيسية وهي جلب العناصر النشيطة إلى فلسطين بكل ما لهذه العناصر من إمكانات مادية وقدرة على العمل وكفاءة قتالية في الجيش.

ومما له دلالة في هذا الصدد أن المتهمين بجرائم التعاون مع هتلر من أمثال (كاستنر) قد برئت ساحتهم من قبل المحكمة العليا على الرغم من أنهم أدينوا بجرائمهم من قبل المحاكم البدائية؛ إذ ليس من المعقول أن يحاسَبوا على أنهم طبقوا سياسة ثابتة رسمها القادة الصهاينة الذين أصبحوا فيما بعد حكاماً لدولة اسرائيل.

وكان بن غوريون قد حدد عام ١٩٣٨ على نحو واضح هذا النهج حينما قال: «لم تعد المشكلة اليهودية على ما كانت عليه ... فآلاف اليهود مهددون بالإبادة. أما مشكلة اللاجئين فقد اتخذت أبعاداً عالمية. وتحاول بريطانيا أن تفصل حل مشكلة اللاجئين عن مشكلة فلسطين، يدعمها في ذلك اليهود المعادون للصهيونية ... وإذا كانت فلسطين لا تستوعب اللاجئين اليهود فهناك مناطق أخرى تستوعبهم ... حينذاك ستكون الصهيونية في خطر. وإذا خير اليهود بين إنقاذ إخوتهم من معسكرات الاعتقال وبين الإسهام في خلق دولة قومية في فلسطين فإن منطق الشفقة ستكون له الغلبة،

وحينذاك تتجه كل طاقات شعبنا إلى إنقاذ اليهود في كل بلاد العالم... وبهذا ستكون نهاية الصهيونية». ثم يعلن بن غوريون بصراحة عام ١٩٣٨ أمام القادة الصهاينة: «لو خيرت بين إنقاذ كل يهود ألمانيا بجلبهم إلى انكلترة وبين إنقاذ نصفهم فقط بترحيلهم إلى (أرض اسرائيل) لاخترت الحل الثاني. فليس لنا أن نضع في حسابنا مصير حياة أطفال اليهود فحسب بل لا بد أن نضع في حسابنا تاريخ شعب اسرائيل».

إن هذا التعصب الدموي قد أملى على الوفد الصهيوني إلى مؤتمر إيفيان موقفه عام ١٩٣٨ حيث اجتمع مندوبون عن إحدى وثلاثين دولة لمناقشة موضوع استيعاب يهود ألمانيا النازية: فلقد رحبت جمهورية الدومينيكان الصغيرة باستقبال مئة ألف لاجيء في أراضيها بينما ألح الوفد الصهيوني على توطين مئتي ألف يهودي في فلسطين على أنه الحل الوحيد الممكن للمشكلة. وهذا ما لم يكن بالمستطاع تحقيقه عملياً في فلسطين التي كانت تعد آنذاك نصف مليون من السكان. وهكذا أجهض القادة الصهاينة ذلك المؤتمر.

ويعلق على هذا الموقف أحد المدافعين عن الصهيونية بقوله: «إن ما حاولت أن تقوم به الدول المجتمعة في إيفيان لا يمت بصلة إلى الفكر الصهيوني؛ فالأمور واضحة: إن قيام الدول بواجبها وعروضها الكريمة باستضافة اليهود الذين كانوا في مسيس الحاجة إلى ذلك سيؤدي إلى إضعاف الرغبة في إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين».

وهكذا انطلاقاً من منظور القادة الصهاينة تتكشف بوضوح كل أبعاد سياسة تعاونهم مع هتلر ومسؤوليتهم الكاملة عن موت ملايين اليهود؛ هذه السياسة القائمة على:

ـ عرقلة المقاطعة المفروضة على ألمانيا النازية.

ـ رفض الإسهام في مقاومة الهتلرية.

ـ التعاون مع النازيين.

ـ رفض عروض استقبال اليهود خارج فلسطين.

١ ـ عرقلة المقاطعة المفروضة على ألمانيا النازية

من البدهي أن أفضل وسيلة لإنقاذ ضحايا النازية (واليهود منهم) كانت في مقاتلة النازية وتحطيمها؛ وذلك بمقاطعتها اقتصادياً وبمقاومتها سياسياً وعسكرياً.

ولذا بعد وصول هتلر إلى السلطة وبعد المذابح الأولى دعا الرأي العام العالمي المعادي للفاشية إلى مقاطعة ألمانيا النازية اقتصادياً.

وفي الحادي والعشرين من آذار عام ١٩٣٣ نظم قدماء المحاربين في نيويورك بمساهمة رئيس البلدية مظاهرة تنادي بمقاطعة ألمانيا تجارياً.

وفي حزيران عام ١٩٣٣ قدم الاتحاد الصهيوني الألماني إلى الحكومة النازية مذكرة يقترح فيها أن «تعترف الحكومة الألمانية الجديدة بالحركة الصهيونية على أنها منظمة يهودية لها صلاحية التعامل مع ألمانيا؛ فعلى هذا ينظِّم وضع اليهود على أنهم طائفة لا على أنهم أفراد ذوو حقوق؛ ومادامت الهجرة ستعمل على حل المشكلة اليهودية فيجب أن تعتمد على دعم الحكومة».

ويعرض القادة الصهاينة أن يحطموا (مقاطعة) ألمانيا مقابل الاعتراف الرسمي بهم ممثلين وحيدين للطائفة اليهودية... وهكذا تمت الصفقة.

وبدأ التعاون الاقتصادي عام ١٩٣٣ فأحدثت شركتان: واحدة في تل أبيب والثانية في برلين... وكانت نتيجة هذا التعاون مثمرة لكلا الطرفين فقد نجح النازيون في أن يكسروا طوق المقاطعة الاقتصادية بمساعدة الصهاينة الذين كانوا يقومون بتصريف البضاعة الألمانية حتى في إنكلترة؛ يقابل ذلك أن الصهاينة أنجزوا ــ كما يشتهون ــ هجرة إلى فلسطين من نخبة اليهود من أصحاب الملايين ورؤوس الأموال التي كانت تتيح لهم إنجاز تطوير الاستعمار الاستيطاني في فلسطين. وكان من المهم لديهم ــ تمشياً مع أهداف الصهيونية ــ إنقاذ رؤوس أموال اليهود من ألمانيا النازية وذلك لتطوير مشاريعهم... وليس إنقاذ حياة اليهود المساكين العاجزين عن العمل والحرب والذين يشكلون عبئاً على الصهيونية.

أما النازيون الحاقدون كل الحقد على اليهود فكانوا يعون وعياً تاماً أن القادة الصهاينة لم يكونوا أعداءهم؛ فهم لم ينظموا أية حركة للمقاومة في ألمانيا في وجه النازية ... إنهم كانوا يهدفون إلى تجنيد العناصر القوية لبناء دولة قوية في فلسطين؛ أما في خارج ألمانيا فكان الصهاينة يهدفون إلى إقناع اليهود بعدم الإسهام مع الأحرار في قتال النازية.

كتب (هايدريخ) عام ١٩٣٥ أحد القادة النازيين: «علينا أن نميز بين صنفين من اليهود: الصهاينة، والمناصرين للاندماج. أما الصهاينة فيعتنقون مفهوماً عرقياً بحتاً؛ وهم بهجرتهم إلى فلسطين سيسهمون في بناء الدولة اليهودية ... إننا نمحضهم أطيب عواطفنا وأقوى تأييدنا». وهكذا يتم التواصل في العلاقات القائمة بين الصهيونية والنازية كما كان يتم في العلاقات القائمة بين هرتزل وبليف.

٢ ــ رفض الإسهام مع أعداء الفاشية في مقاومة الهتلرية

إن مثل هذه المساومات مع النازية تناقض بالطبع كل إسهام حقيقي من قبل الصهاينة في مقاومة الهتلرية. كتب إلياهو بن أليعازر أحد المساعدين المقربين من مناحيم بيغن يقول: «لقد كان موقف حزب (الاشتراكيين الوطنيين) غامضاً تجاه الصهيونية ... والنازيون يميزون تمييزاً واضحاً الصهاينة من سائر اليهود الألمان ... وهم يفكرون في فلسطين ــ طبعاً ــ حينما يريدون تخليص بلدهم من اليهود. وقد كان الشعار القائل: (ألمانيا للألمان واليهود في فلسطين) دائماً صرخة استنفار يطلقها اللاساميون. يقول هتلر: لا حوار لنا مع اليهود ولا نقاش، فهم (غرباء) لا يحق لهم أبداً التدخل في أمورنا مثلما لا يحق للألماني أن يتدخل في سياسة دولة اليهود في فلسطين».

ويضيف إلياهو بن أليعازر قائلاً: «إن هتلر قد أعلن بعد ثلاثة أعوام من نشر كتابه (كفاحي) أن اليهود في غالبيتهم لا ينوون الاستقرار في فلسطين وإنما يهدفون بكل بساطة إلى إقامة منظمة مركزية لمشروعهم البهلواني ذي البعد الأممي الشامل، هذا المشروع الذي يريدونه مستقلاً لا يخضع لتدخل الدول». وطبيعي أن هتلر لا يروق له ذلك.

ويضيف الكاتب الصهيوني قائلاً: «إن منظمات عديدة في الرايخ الثالث ولاسيما مؤسسات وزارة الخارجية والاقتصاد ستقيم في نهاية المطاف علاقات حقيقية للعمل مع زمرة مخصوصة من اليهود... إنهم الصهاينة واليهود الفلسطينيون».

وقد أثار تصرف القادة الصهاينة هذا استنكار اليهود المعادين للفاشية في العالم ولاقى معارضة في داخل الحركة الصهيونية نفسها. ففي عام ١٩٣٤ انعقد أول مؤتمر صهيوني بعد تسلم هتلر السلطة؛ وكان وضع اليهود في ألمانيا ــ طبعاً ــ هو الموضوع الرئيسي لاهتمامات المؤتمرين ومناقشاتهم. وجرت مناقشات حامية في المؤتمر... ولكن الاقتراح الذي يوصي بإسهام فعلي للمنظمة في مقاطعة ألمانيا لم يُقبل.

وهكذا توطد موقع الصهاينة؛ فلقد سُمح للمنظمة الصهيونية في ألمانيا بفتح مراكز للإعداد المهني والزراعي للمرشحين للهجرة والراغبين في أن يوطنوا أنفسهم على حياة جديدة في الشرق الأوسط. ونظمت لهؤلاء دورات في اللغة العبرية في مدن عديدة وسمح وزير الداخلية الألماني لوفد من الصهاينة الألمان بالاشتراك في المؤتمر الصهيوني التاسع عشر.

ويعترف ألفريد روزنبرغ نفسه في حديث له إلى مجلة (صوت باريس) عام ١٩٣٥ للصهاينة بفضلهم في معارضة اندماج اليهود في مجتمعاتهم.

وإذا استثنينا بعض عمليات إنزال عشرات المظليين المتطوعين من يهود فلسطين للاتصال بالأنصار اليوغسلاف والبولونيين فإن المنظمة الصهيونية العالمية التي كانت تمتلك في أنحاء العالم المال والسلاح ووسائل الدعاية كانت تضع في رأس أهدافها مطالبة القوى العظمى بهجرة مطلقة إلى فلسطين وبإعداد جيش يهودي لا يقاتل النازيين في الحرب بل يقاتل الانكليز والعرب على وجه خاص بعد نهاية الحرب.

وتشير (حنه آرنت) إلى أن ثلاثين في المئة من المتطوعين الأمريكيين من فرقة أبراهام لنكولن كانوا يهوداً، تلك الفرقة التي اشتركت في الحرب الأهلية الاسبانية في مقاتلة الفاشية. وفي الفرقة البولونية كان أكثر من ٤٥٪ من المقاتلين يهوداً وفدوا ليقاتلوا ويموتوا في جبال السييرا في سبيل تحطيم الفاشية اللاسامية والكتائب الهتلرية.

إذن ليس صحيحاً ما يدعيه (بيغن) من أن الدولة الصهيونية قد أنجبت لأول مرة منذ خمسة عشر قرناً نموذجاً لا نظير له من البشر يسميه بيغن (اليهودي المحارب). إن اليهودي العبراني هو الذي هب في اسبانيا وفي كل مكان من العالم لينضم إلى صفوف المدافعين عن الحرية قبل أن تعده الصهيونية لحرب عدوانية.

هذا ناحوم غولدمان رئيس المنظمة الصهيونية العالمية يمارس النقد الذاتي فيعترف بالخطأ في عدم مقاومة الهتلرية؛ ولكنه يعزو ذلك إلى الضعف البشري لا إلى المنطق الداخلي للحركة الصهيونية.

وهناك مثال مأساوي نموذجي من بولونيا: فلم يكن هدف القادة الصهاينة الدفاع عن اليهود في بولونيا وإنما تحضير الأقليات ذات الفعاليات لتنظيم غزو فلسطين؛ ففي ربيع عام ١٩٣٩ كان هنالك خمسة وعشرون عضواً من عصابة الأرغون التابعة لمناحيم بيغن يتدربون في جبال التاترا على فن التخريب والتآمر والعصيان تحت قيادة مدربين بولونيين تغذيهم الحكومة اللاسامية آنذاك.

وهذا أبراهام شتيرن الذي كان يمثل الجناح الفاشي في الحركة الصهيونية يحاول تنظيم الدخول إلى فلسطين ليقاتل الانكليز فيها بمساعدة من موسوليني.

وحينما دخل النازيون بولونيا وتلقى الجيش البولوني الأمر بالانسحاب ومغادرة (وارسو) على أنها مدينة مفتوحة... هرب أغلب القادة الصهاينة وعلى رأسهم رئيس المنظمة البولونية ومناحيم بيغن.

ولدى دخول النازيين إلى (وارسو) شكلوا (مجالس) للصهاينة يشرف عليها النازيون وسمحوا لهم بتنظيم الهجرة إلى فلسطين فاستغل الصهاينة ذلك لتهريب زعمائهم.

وهكذا هجر القادة الصهاينة (وارسو) بدلاً من أن يسهموا في تنظيم المقاومة في وجه النازية. وقد انتحر أحد زعماء الصهاينة عام ١٩٤٢ بعد أن قام النازيون بتصفية ٣٠٠٫٠٠٠ شخص من يهود وارسو؛ وذلك كيلا يضطر إلى مزيد من التعاون مع النازيين.

نعم إن القادة الصهاينة الذين يتخذون من (التضحية) مبدأ أساسياً لهم قد أخلدوا إلى الصمت ولم يحركوا ساكناً في وقت كان عليهم فيه أن ينشروا على الملأ الحقيقة الرهيبة بغية وضع حد للمجازر الجهنمية.

وقد وجهت التهمة أولاً إلى الوكالة اليهودية بأنها تخاذلت في دورها في الإعلام والتعبئة، ثم إلى القادة الصهاينة بأنهم لم يكشفوا عن مخططات للإنقاذ لو نفذت لوفرت حياة آلاف الضحايا.

وأعلن شموئيل تامير الذي كان وزيراً للعدل في اسرائيل في محاكمة كاستنر أنه «حتى منتصف تموز عام ١٩٤٤ وبعد أن بدأت الإعدامات اليومية (بمعدل ١٢ ألف شخص في اليوم) لم تصدر أية كلمة عن الوكالة اليهودية أو عن أي قائد صهيوني لتكشف للعالم أن الاعتقالات الجماعية قد بدأت وأن نصف مليون من البشر قد أبيدوا.

وكان لدى الوكالة اليهودية حينئذ أفضل المعلومات وأدقها عن مصير اليهود المجر واعتقالهم؛ ولم تكن هناك رقابة بريطانية على هذا الموضوع كما برهنت المحكمة... وقد طمست الوكالة اليهودية و (شاريت) عن تصميم وإرادة كل ما لديها من معلومات... ولكن لماذا قام بن غوريون وشاريت ووايزمن وكل المسؤولين الصهاينة بطمس هذه الأخبار الرهيبة؟ لأن الشعب اليهودي في فلسطين لو كان قد اطلع على ما يحدث في المجر وعرف مدى تحجر قلوب زعمائه لهبت عاصفة على أرضنا تطيح بالسلطة من بين أيديهم، تلك السلطة التي تهم القادة قبل أي شيء آخر».

وفي الخامس عشر من مايس عام ١٩٤٤ كان الحاخام دوف وايسمندل المختبىء في أحد الأقبية يبعث برسائل الاستغاثة إلى الوكالة اليهودية... جاء في هذه الرسائل قوله: «ياإخوتنا في فلسطين وفي كل بلدان العالم الحر... ياوزراء كل الدول! كيف تلتزمون الصمت أمام عشرات آلاف القتلى؟ نطلب إليكم أن تقصفوا من الجو محارق (أو شفيتز) النازية فهي ظاهرة للعيان وموضحة على الخارطة التي تصحب رسالتي. إن مثل هذا القصف يؤخر عملية القتل الجماعي. والمهم جداً أن تدمر

الخطوط الحديدية فيما بين غربي المجر وبولونيا والمراكز المجاورة لجبال الكربات. تذكروا أن كل يوم من إهمالكم يتسبب في إزهاق عشرة آلاف روح. وأنتم ياإخوتنا ياأبناء اسرائيل هل أنتم معتوهون؟ ألا ترون ذلك الجحيم من حولنا؟ لم تحتفظون بأموالكم؟ يالكم من قتلة مجانين!».

٣ـ تعاون القادة الصهاينة مع النازيين

إن أبرز مثال على تعاون القادة الصهاينة مع النازيين هو مثال (رودلف كاستنر) نائب رئيس المنظمة الصهيونية. تقول(حنه آرنت): «لقد تفاوض إيخمان مع كاستنر عند اعتقال يهود هنغاريا. واتفق الرجلان على أن يسمح إيخمان لبعض آلاف من اليهود بالهجرة إلى فلسطين بطريق غير شرعي (وكانت قطاراتهم تحرسها فعلاً الشرطة الألمانية). يقابل ذلك أن على كاستنر أن يعمل على إحلال الهدوء والنظام في تلك المعسكرات التي كان يساق منها مئات الألوف من اليهود إلى محارق أوشفيتز النازية. أما الآلاف القليلة التي أعفيت من الموت والوارد ذكرها في الاتفاق فكانوا من اليهود البارزين وأعضاء منظمات الشبيبة الصهيونية أو كما يصفهم إيخمان «أفضل عتاد بيولوجي».

وإذا جارينا إيخمان في رأيه فإن الدكتور كاستنر يكون قد ضحى بإخوانه في الدين في سبيل (فكرة)؛ وهذا ما يراه عملاً طيباً. وقد وصف القاضي بنيامين هاليفي في محاكمة إيخمان الدكتور كاستنر بأنه قد باع نفسه للشيطان».

ولكي يحصل كاستنر على حقه في تهجير ١٦٨٤ يهودياً من النافعين في تحقيق أهداف صهيونية تعهد لإيخمان بنقل ٤٧٦٠٠٠ يهودي بهدوء وصمت ما دام كاستنر يخفي عنهم حقيقة إرسالهم إلى المحارق بعد إقناعهم بأنها (سفرة) عادية... ويشير القاضي هاليفي إلى أن جماهير اليهود في معتقلات المجر صعدوا إلى قطارات النقل طائعين دون أن يعرفوا إلى أين يساقون... إذن كان الأساس في اتفاق كاستنر مع النازيين هو التضحية بحياة آلاف اليهود بغية إنقاذ (نخبة) منهم؛ بينما كان بالإمكان أن

يهرب ألوف اليهود وغيرهم عبر الحدود الرومانية لو أن قادة (لجنة الإنقاذ) قاموا بواجبهم.

إن هذا الازدراء لجماهير اليهود يفسر خداع ٤٧٠٫٠٠٠ يهودي جرى تكديسهم في القطارات بصمت لإرسالهم إلى الموت في أفران أوشفيتز ثمناً لإرسال مئات الشخصيات اليهودية (البارزة) إلى فلسطين.

وواضح أن هذه (الداروينية الاجتماعية) القائمة على (البقاء للأصلح) تلائم كل الملاءمة إيديولوجية القادة الصهاينة التي تلتقي مع إيديولوجية هتلر النازية.

وهكذا ليست القضية في محاكمة كاستنر قضية إرهاب فردي أو جريمة شخصية، وليست كذلك مسألة إهمال أو تخاذل شخصي... إن المأساوي في الموضوع أن (محكمة عليا)ــ بتوجيه من الدولةــ تتعاطف مع المجرم. فهي إذن جريمة (دولة) تبررها إيديولوجية فاشية.

أما المثال الأكثر إثارة فهو تعاون القادة الصهاينةــ ولاسيما عصابة شتيرن التي يرئسها إسحق شاميرــ مع الحكومة الهتلرية. وكان بن غوريون قد فضح هذه العصابة التي ارتكبت «جريمة لا تغتفر من الناحية الخلقية حينما رحبت بالتحالف مع ألمانيا النازية الهتلرية في وجه انكلترة».

وقد بدأت الاتصالات الأولى مع الحكومات الفاشية بالقنصل الإيطالي في القدس؛ ولكنها لم تثمر... حينئذ توجهت عصابة شتيرن على الفور إلى ألمانيا النازية. وكان أول رسول لها هو الذي بعث به إسحق شامير إلى فون هنتغ رئيس المخابرات السرية النازية في دمشق. وكان اللقاء الثاني بإشراف (ناتان يلين مور).

نشر أحد القادة التاريخيين لعصابة شتيرن في جريدة (يديت أحرونوت) في الرابع من شباط عام ١٩٨٣ مقالة يؤكد فيها حقيقة المحادثات بين عصابته وبين الممثلين الرسميين لألمانيا النازية قائلاً: إن زملاءه كانوا قد شرحوا للنازيين «أن هناك تماثلاً في المصالح بين النظام الجديد النازي المتوقع في أوروبا وبين مطامح الشعب اليهودي في فلسطين، هذه المطامح التي يجسدها المقاتلون من أجل حرية اسرائيل».

وفي التاسع عشر من آب عام ١٩٨٣ نشر أليعازر هاليفي النقابي المعروف في حزب العمل مقالة يكشف فيها عن وجود وثيقة موقعة من إسحق شامير وأبراهام شتيرن كانت قد سلمت إلى السفارة الألمانية في أنقرة بينما كانت الحرب في أوروبا على أشدها وقوات المارشال رومل على أرض مصر وإبادات اليهود لا تزال مستفحلة ... جاء في الوثيقة: «نحن متماثلون في وجهات النظر ... فلماذا لا نتعاون؟».

وهكذا يمكن أن نستخلص من أقوال زعماء الدولة الألمانية النازية أن الحل الجذري للمسألة اليهودية يقتضي ترحيل الرعايا اليهود من أوروبا؛ وهذا الترحيل إذن هو الشرط الأول لحل المشكلة اليهودية؛ ولكنه ليس ممكناً إلا بتوطين هذه الجماهير في فلسطين في دولة يهودية لها حدودها التاريخية.

أما (المنظمة العسكرية القومية) التي لا يخفى عليها الموقف الودي لحكومة الرايخ تجاه النشاط الصهيوني داخل ألمانيا ومخططات الصهاينة للهجرة فتتوقع ما يلي:

١ ـــ إمكانية وجود مصالح مشتركة بين النظام الألماني النازي الجديد وبين المطامح الحقيقية للشعب اليهودي التي تجسدها حركة العاملين من أجل حرية اسرائيل.

٢ ـــ التعاون الممكن بين ألمانيا الجديدة والدولة العبرية المجدَّدة.

٣ ـــ إقامة الدولة اليهودية التاريخية على أساس قومي يأخذ بنظام الحزب الواحد المتسلط، وهذه الدولة تربطها معاهدة بالرايخ الألماني ويمكن لها أن تسهم في المستقبل في الحفاظ على مركز ألمانيا في الشرق الأدنى ودعمه.

وقد عرضت (المنظمة العسكرية القومية) على ألمانيا الوقوف إلى جانبها في الحرب شريطة أن تعترف حكومة ألمانيا بالمطامح القومية لحركة العاملين من أجل حرية اسرائيل. وسيقوم هذا العرض على تدريب عسكري لليهود وتنظيم لليد العاملة اليهودية في أوروبا تحت إشراف (الحركة).

إن الإسهام غير المباشر لحركة تحرير إسرائيل في إقامة نظام جديد في وروبا سيكون مرهوناً منذ مرحلته التحضيرية بحل جذري حقيقي للمسألة اليهودية في أوروبا تمشياً مع المطامح القومية للشعب اليهودي. وهذا ما سيقوي أسس النظام النازي الجديد في نظر العالم كله.

وهذه (الحركة) تهدف إلى إقامة دولة يهودية بحدودها التاريخية؛ وهي تختلف عن باقي التيارات الصهيونية برفضها الفكرة القائلة بإمكانية الاستيلاء على (الوطن) وامتلاكه تدريجياً بطريق التسلل الاستيطاني؛ فشعار هذه (الحركة) يقوم على القتال والتضحية على أنهما الحل الصحيح الوحيد من أجل تحرير فلسطين والاستيلاء عليها.

وقد كانت هذه الحركة ــ بحكم طبيعتها العسكرية ومسلكها المعادي للانكليز ــ مضطرة إلى أن تمارس نشاطها السياسي خفية وأن تعد أعضاءها إعداداً عسكرياً في فلسطين.

وحتى بداية الحرب كانت هذه (الحركة) لا تزال تقيم لها مكاتب سياسية مستقلة في وارسو وباريس ولندن ونيويورك. وكان مكتب وارسو يهتم على نحو خاص بالتنظيم العسكري وبإعداد الشبيبة الصهيونية. وكانت تقيم علاقات وثيقة بالجماهير اليهودية ولاسيما في بولونيا، هذه الجماهير التي كانت تتابع بحماسة معركة (الحركة) في فلسطين وتقدم لها المساعدة بكل الوسائل الممكنة.

وهكذا كانت هناك علاقات حميمة بين هذه (الحركة) وبين سائر الحركات الأوروبية القائلة بنظام الحزب الواحد المتسلط.

وقد انقطعت هذه المحادثات بين هذه (الحركة) وبين النازيين حينما اعتقل جنود الحلفاء في حزيران عام ١٩٤١ مبعوث عصابة شتيرن وإسحق شامير في مكتب المخابرات السرية النازية في دمشق. ولكن أعضاء آخرين راحوا يتابعون الاتصالات إلى أن اعتقلت السلطات البريطانية إسحق شامير في كانون الأول عام ١٩٤١ الذي جاء في اتهامه أنه «إرهابي ومتعاون مع العدو النازي».

وعلى القارىء أن يتذكر أن السيد إسحق شامير هو اليوم وزير خارجية اسرائيل، وكان قد سبق له أن تسلم رئاسة الوزارة... وسيعود إلى هذا المنصب وفق نظام التناوب بينه وبين شمعون بيريز[1].

---

١ ــ ننبه القارىء الكريم إلى أن المؤلف كتب كتابه هذا عام ١٩٨٦.

(المترجمان)

٤ ــ رفض عروض استقبال اليهود في خارج فلسطين

إن منطق القتل والإجرام نفسه الذي سهّل مهمة السفاحين الهتلريين في المجر وغيرها سيسير ــ والمحنة في أوجها ــ نهج الوفد الصهيوني إلى إيفيان عام ١٩٣٨ ... عندما رفض هذا الوفد أي ملجأ آخر غير فلسطين يلجأ إليه اليهود والمهددون بالإبادة. وهكذا أغلقوا بأيديهم أبواب كل الدول التي كان يمكن أن تنقذهم.

يقول الحاخام سالومون شونفيلد رئيس لجنة الإنقاذ اليهودية في بريطانيا بأسى: «إن تجربتي عام ١٩٤٢ ــ ١٩٤٣ أقنعتني بأن البريطانيين كانوا على استعداد لمساعدتنا علناً وعلى نحو إيجابي ودون تحفظ؛ ولكن عروضهم اصطدمت بمعارضة القادة الصهاينة العنيدين الذين كانوا يلحون على أن فتح فلسطين في وجه اليهود هو الحل الوحيد الممكن... وقد شكلنا عام ١٩٤٢ لجنة للإنقاذ من الإرهاب النازي وقدمنا مذكرة نطلب فيها إلى حكومة صاحب الجلالة أن توافق على هجرة اليهود إلى أراضي الكومنولث أو أي بلد آخر تشرف عليه بريطانيا... وتدعو المذكرة باقي الدول الحليفة إلى القيام بإجراءات مماثلة. وقد استجابت الحكومة البريطانية فمنحت مئات التأشيرات للهجرة إلى جزيرة (موريس) ومناطق أخرى. وفي عام ١٩٤٣ وبعد أن وصلنا إلى هذا الحد أعلن ناطق صهيوني أن اليهود يعارضون كل اقتراح من هذا القبيل لا يشير إلى فلسطين... وهكذا أُجهض اقتراح المذكرة».

وظل موقف القادة الصهاينة موقف المعادي تجاه كل البلاد المستعدة لاستقبال اليهود، ومنها السويد؛ ففي عام ١٩٣٩ إبان استفحال الاضطهادات النازية لليهود أصدر البرلمان السويدي قانوناً يسمح بموجبه بدخول عدة آلاف من اليهود إلى السويد لينجوا من الموت المحتم؛ فما كان من الصهاينة بزعامة حاخام السويد ــ الصهيوني العريق المسهم في مؤتمر بال ــ إلا أن طلبوا إلى الحكومة عدم تنفيذ هذا القانون... ونجحوا في ذلك.

وهناك مثال نموذجي من الدانيمرك عن الطريقة التي كان يمكن بها إنقاذ اليهود؛ فهم عوضاً عن أن ينعزلوا عن سكان البلاد وفق ماتقتضيه مبادىء الصهيونية كانوا

على صلة عميقة بالجماهير دون أن يتخلوا عن خصائصهم الدينية والروحية. وكانت الدانيمرك هي البلد الوحيد الذي نجا فيه ــ على وجه التقريب ــ كل اليهود من المشروع الشيطاني، مشروع الإبادة. وكان ذلك بطريقة إنسانية رائعة تعتمد المقاومة السلمية في وجه عدو وحشي مدجج بالسلاح. تروي لنا (حنه آرنت) كيف تم ذلك فتقول: «حينما طلب الألمان إلى الدانمركيين وضع الشارة الصفراء على الذراع تمييزاً لهم من اليهود استجاب المواطنون جميعاً وأعلنوا أن الملك نفسه سيكون أول من يضع هذه الشارة... وأعلن كبار الموظفين أن كل وشاية باليهود في هذه العملية ستضطرهم إلى الاستقالة من مناصبهم؛ وهكذا لم يستطع النازيون التمييز بين اليهود من أصل دانماركي وبين اليهود الذين لجؤوا إلى الدانيمرك من ألمانيا منذ بداية الحرب والذين كانت الحكومة الألمانية تطاردهم على أنهم مشردون بلا جنسية.

ثم هب العمال الدانيمركيون آملين أن يعجلوا بهزيمة الألمان... فكانت الانتفاضات في صفوف عمال المرافىء البحرية الذين رفضوا إصلاح السفن الألمانية وأعلنوا الإضراب عن العمل. وحينئذ أعلن الحاكم العسكري الألماني حالة الطوارىء وفرض الأحكام العرفية.

ورأى هملر أن الفرصة سانحة لتصفية القضية اليهودية التي تنتظر الحل منذ زمن طويل... ولكن تعاطف الدانيمركيين مع اليهود وتسرب الأخبار عن مؤامرة لتصفية اليهود عمل على إنقاذهم وذلك بإيوائهم وإخفائهم من قبل المواطنين عن أعين الشرطة الألمانية.

ويبدو مما لدينا من معلومات أن درس الدانيمرك كان الفرصة الوحيدة التي أتاحت للنازيين أن (يقدّروا) المقاومة التي أعلنها في وجههم سكان البلاد المحتلة. والظاهر أنهم قد اقتنعوا بأن عملية إبادة شعب كامل ليست بالأمر الهين.

إن هذا الأسلوب المناقض جذرياً للصهاينة الداعين إلى التمييز العرقي يدلل على جدواه في إنقاذ آلاف اليهود من مذابح النازيين عوضاً عن استخدامهم أداة في يد التعصب النازي.

على كل حال نحن لسنا بصدد الحكم على الناس؛ وإنما يهمنا أن نحكم على تلك (الفلسفة)، فلسفة (الداروينية الاجتماعية) القائلة بالبقاء للأصلح، والتي يعتنقها هتلر والقادة الصهاينة على السواء.

القسم الثالث

تأريخ غزو

مدخل

استوحى الغزو الصهيوني لفلسطين حججاً دينية، ولاسيما حجة (أرض الميعاد) على أنها هبة من الله. وقد أصبح الشعار القائل: «عيدنا القادم في أورشليم» يعني اجتياح أرض يشغلها أهلها منذ آلاف السنين بعد أن كان يعني على مدى قرون أملاً خلاصياً بحلول ملكوت الله في أورشليم المقدسة.

إن هذا المشروع المراوغ المخادع يذكّر بمشروع الصليبيين إذ جرى استغلال لئيم للعقيدة المسيحية المتأصلة في أعماق شعوب الغرب المستعدة للتضحية من قبل القادة السياسيين أو الدينيين الذين كانوا يستخدمون أطروحات قادرة على إثارة حماسة المسيحيين، وذلك بغية خدمة المصالح الخسيسة للقادة؛ إنها مصالح بابوية تريد أن تسترجع سلطانها على أمراء الإقطاع في الغرب المسيحي لتضع حداً لانقسام الكنيسة في الشرق؛ أضف إليها مصالح إقطاعيين شرهين إلى أن يقتطعوا لأنفسهم ممالك في (الأرض المقدسة)، ومصالح تجار البندقية وجنوه وغيرهما الذين كانوا يرون في هذه الحملات العسكرية إمكانات هائلة للاغتناء بطريق تزويد عمليات النقل والتجهيز.

إن الغزو الصهيوني قد مارس ما مارسه الصليبيون من حَرْف للعقيدة وتشويه لها بغية تحقيق المشاريع السياسية والتعديات العسكرية واحتلال الأرض بأسلوب جديد، أسلوب الاستعمار في القرن العشرين.

وقد تجلت خطوات هذا الحرف بما فيها من حيل وألاعيب في كتاب هرتزل، مؤسس الصهيونية السياسية. إن كل النصوص التي سنوردها والتي بدونها لا يمكن أن نفهم تطور هذا المشروع الصهيوني والمنطق الداخلي لعدوانه وتوسعه... مأخوذة من (يوميات) هرتزل الذي دون فيها منذ عام ١٨٩٥ حتى ١٩٠٤ مآربه الحقيقية ومشاريعه وإجراءاته التي كشفت عن المعنى الحقيقي للصهيونية السياسية.

ولكي يتاح لنا أن نشكل (ملفاً)ــ يمتاز بالموضوعية قدر الإمكانــ عن المراحل التي سبقت العدوان الصهيوني والتي يمكن أن تفسره... سنقتصر على تصنيف الأطروحات الخمس التي تنبىء عن مستقبل المشروع الصهيوني كله.

أولاً: اجتياح فلسطين ليس قضية تتصل بالعقيدة وإنما يتصل باستغلال القوة المحركة في (أسطورة قادرة)

إن هرتزل واضح كل الوضوح تجاه هذا الموضوع؛ يقول: «في الثالث والعشرين من تشرين الثاني عام ١٨٩٥ قلت للحاخام الأكبر في لندن ولمثيله في باريس إني لا أعتمد أي محرض ديني في مشروعي. وأنا أقدّر عقيدة آبائي كما أقدر العقائد الأخرى». وفي العام نفسه أجاب هرتزل رداً على سؤال مايرز: ما علاقتك بالتوراة؟ بقوله: «أنا مفكر حر... وكل إنسان يبحث عن خلاصه بطريقته الخاصة».

و (فلسطينــ الهدف) ليس لها لديه أية دلالة دينية، ولكنها تتيح له أن يستغل أسطورة قوية قادرة تتصل بفلسطين على الرغم من أن فلسطين لها بعض (العيوب) كقربها من روسيا وأوروبا، وصغر رقعة أرضها، ومناخها الذي لم يألفه اليهود.

ويضيف هرتزل قوله: «يمكن أن أقول لكم كل شيء عن (أرض الميعاد) عدا المكان الذي ستكون فيه هذه الأرض... إن اختيار المكان سيخضع لاعتبارات علمية تضع في حسبانها العوامل الطبيعية والجيولوجية والمناخية...».

وهو لا يهتم بأرض الميعاد أين تكون... فمواصفات هذه الأرض لا علاقة لها

بالعقيدة اليهودية. يكتب هرتزل في الثالث عشر من حزيران عام ١٨٩٥ قائلاً: «لدى تشكيل (جمعية اليهود) سندعو إلى عقد مؤتمر لعلماء جغرافيين يهود كي نحدد بمعونتهم المكان الذي سنهاجر إليه... وأنا من حيث المبدأ أقبل بفلسطين قبولي بالأرجنتين... كل ما علينا أن نجد مناخاً متنوعاً لليهود الوافدين من مناطق حارة وأخرى باردة. أما بالنسبة لتجارتنا في المستقبل مع العالم فلا بد أن تكون أرضنا مشرفة على البحر، ولا بد لنا من أراض شاسعة لزراعتنا الآلية المتطورة. وسيزودنا علماؤنا بكل المعلومات ليتخذ مجلس الإدارة القرارات اللازمة».

إن هرتزل نفسه يسخر من كل الاعتبارات النبوئية أو الصوفية الخاصة بفلسطين؛ فهو لا يهتم — على وجه التحديد — إلا بتلك الحكايات الدينية اليهودية والمسيحية التي يمكن أن تبرر له الاستيطان في فلسطين وتوسيع الدولة اليهودية.

وهرتزل لا يشاطر اليهود والمسيحيين الأتقياء (رؤاهم) عن فلسطين. يقول: «إن مسيحيي انكلترة الأتقياء سيساعدوننا إذا توجهنا إلى فلسطين، فهم ينتظرون عودة المسيح إلى العالم لدى تمركز اليهود في أرضهم». إن ما يهم هرتزل أولاً وآخراً هو (فلسطين) كبيرة.

ويحدد هرتزل أهداف الصهيونية لأحد الدبلوماسيين الأتراك عام ١٩٠٢ قائلاً: «لقد شرحت له المفهوم القومي اليهودي الصافي للحركة الصهيونية». وهو لا يأخذ بالأوهام القائلة بوحدة اليهود العرقية؛ ففي حديث له مع زانغويل يقول: «أنا لا أستطيع قبول مفهوم وحدة العرق اليهودي. ويكفي أن أرى الاختلاف في ملامح وجهينا... نحن نعتمد على وحدة تاريخية، ونحن أمة تضم سلالات بشرية متنوعة... وهذا يكفي على كل حال لإقامة دولة يهودية، فليس هناك أمة صافية العرق».

إن هذه الرؤية القومية المحضة التي لا تجد في العرق سنداً لها تستغل إذن إلى أقصى حد ممكن ما تراه ملائماً لها في الأسطورة التوراتية؛ فهذه الأسطورة تمثل قوة محركة، وهي وحدها القادرة على جذب الناس والأموال «إن البلد الوحيد القادر على إغراء معظم اليهود الروس إغراءً قوياً هو فلسطين، أما البلاد الأخرى فتغري أبناء

اليهودية الضالين . إن أرض الميعاد أي أرض الأجداد وحدها هي القادرة على استقطاب كل المؤمنين ».

وقل الشيء نفسه عن جمع الأموال وتجميع الناس؛ فحينما عرض وزير الخارجية البريطانية تشمبرلن أرضاً في افريقية أجابه هرتزل : « لن يتبرع أحد من اليهود بأمواله من أجل بلدٍ كهذا ».

وللأسباب نفسها يتطلع هرتزل إلى استغلال الحاخامات في (الدولة اليهودية) القادمة. يقول : « سيكون الحاخامات أعمدة منظمتي، ولسوف أكرمهم على ذلك ... إنهم طبقة عزيزة وستكون خادمة للدولة، لاشك في ذلك ».

ثانياً : غزو فلسطين يستوحي نزعة قومية متعصبة شبيهة بتلك النزعات القومية الغربية في القرن التاسع عشر

سبق أن رأينا أن هرتزل لا يتبنى أوهام العرق ، ولكنه يطالب بارتباط ـــ غير مشروط ـــ بمستقبل الدولة الصهيونية كما يطالب بالقطيعة مع الأوطان التي كان الاسرائيليون يعيشون فيها .

وفي حديث له مع حاخام باريس وبعد أن عرض عليه برنامجه أعلن الحاخام عن اقتناعه بالصهيونية ولكنه سأل هرتزل بتحفظ قائلاً : ولكن أليس للمواطَنة الفرنسية مقتضياتها؟ أجاب هرتزل : « نعم . ولكن علينا أن نختار بين صهيون وبين فرنسا . وإذا كان هناك فرنسيون يهود فهم ليسوا يهوداً في نظرنا؛ وقضيتهم لا علاقة لها بقضيتنا ».

ويعبر هرتزل عن ارتياحه لدى سماعه السير مونتاغو عضو البرلمان البريطاني وهو يقول : إن شعوره بإسرائيليته يفوق شعوره بأنه بريطاني .

ثالثاً : اندماج الحركة الصهيونية بالاستعمار الغربي بحيث يكون غزو فلسطين مظهراً من مظاهر السياسة الاستعمارية لأوروبا

إن هرتزل لا يخفي أن الصهيونية السياسية مشروع استعماري . يقول مخاطباً

اللورد روتشيلد عام ١٩٠٢ : «إن مشروعي في الاستيطان يتطلب دراسة معمقة». وفكرته هذه هي نفسها فكرة كل المستعمرين: إنها الفكرة القائلة بأن الأرض تعدّ (شاغرة) ومفتوحة للاستيطان الاستعماري حينما تكون مسكونة بغير الغربيين. يقول: «إذا قدر لي أن أجد أرضاً من ممتلكات بريطانيا لا يسكنها البيض فيمكن الحديث عنها».

والقضية الأساسية في الصهيونية السياسية لدى هرتزل تقوم على التدخل في السياسة الاستعمارية لكل من ألمانيا وبريطانيا. والهدف من ذلك تشكيل (شركة ذات امتياز) لها مشاريعها المستقلة، ولكنها تحت إشراف الدولة. وكان القدوة لدى هرتزل (سيسيل رودوس) ملك الماس والذهب في جنوبي افريقية، وهو المغامر العنيد الذي نجح في إنشاء روديسيا وجنوبي افريقية بملياراته بعد أن خدع جميع الناس.

لقد خدع رودوس شعوب افريقية وقادتها والحكومة البريطانية. وحذا هرتزل حذوه فخدع البارون هيرش وروتشيلد ورجال المصارف ليحتال على السلطان عبد الحميد والقيصر الألماني والحكومة البريطانية وقيصر روسيا... كل ذلك من أجل خلق (دولته اليهودية).

إن الهدف الذي أعلن عنه في كتابه (الدولة اليهودية) هو أن يجعل من هذه الدولة «قلعة متقدمة أمامية للحضارة الغربية في وجه بربرية الشرق».

وقد عرض نفسه منذئذ (وكيلاً) لاستعمار جماعي فقدم خدماته المتتابعة إلى مختلف البلدان الغربية الاستعمارية (ألمانيا وانكلترة وروسيا والبرتغال وإيطاليا) ماعدا فرنسا، ثم راح يلوّح لكل واحدة منها بمنافع تلائمها.

يقول عن انكلترة: «سأحاول الحصول على أرض لازمة لاستيطاننا من جملة الأراضي الخاضعة للنفوذ البريطاني». وحينما طلب من انكلترة أرضاً في العريش في مصر ذكّر بأنها تقع على طريق الهند؛ وعندما وضع في حسبانه أن انكلترة ستخرج يوماً ما من مصر رأى في فلسطين بقعة صالحة لنفوذ الانكليز إلى إيران والهند في الوقت نفسه. يقول: «إذا اضطر الانكليز إلى مغادرة مصر فعليهم أن يبحثوا عن طريق آخر

إلى الهند غير طريق قناة السويس... حينذاك ستقدم لهم فلسطين اليهودية الحديثة حلاً ملائماً وهو تأمين خط حديدي من يافا إلى الخليج العربي».

وراح في الوقت نفسه يستغل العداء بين انكلترة وألمانيا فقابل القيصر الألماني عام ١٨٩٨ وعرض عليه مشروع (شركة ذات امتياز) تحت الحماية الألمانية فرحب القيصر بذلك. وقد أغرى هرتزل القيصر ــ مقابل المساعدة الألمانية ــ بإمكانية إسهام المستعمرة الصهيونية في إنشاء خط حديدي بين برلين واستامبول وبغداد.

ثم إنه أقنع المستشار النمساوي الذي يخشى المد الاشتراكي بأن الصهيونية هي نقيض الاشتراكية: «لقد تأثر المستشار حينما أخبرته بأننا قد نجحنا في صرف طلاب جامعة فيينا عن الاشتراكية. وقد يظن بعضهم أن دولتنا الصهيونية الجديدة ستكون اشتراكية... إن هذا التوجه ليس في منظوري البتة».

وعشية مذابح كيشينيف اللاسامية الموجهة على اليهود عرض هرتزل على (بليف) وزير الداخلية المسؤول عن المذابح أن يساعده في التخلص من اليهود الذين قد يرتمون في أحضان الاشتراكية إذا ظلوا مضطهَدين، ووعد هرتزل بالعمل على «إضعاف الأحزاب الثورية» في روسيا.

وحينما طلب هرتزل ليبيا من ملك إيطاليا ورفض الملك ذلك أجابه هرتزل بأن تقطيع الامبراطورية العثمانية وتوزيعها سيكون بين عشية وضحاها؛ ومع ذلك لم يتورع عن مساومة السلطان عبد الحميد على بيع فلسطين لقاء إصلاح الأوضاع المالية المتدهورة للسلطان على يد رجال المال الصهاينة.

وكان هرتزل يشير دائماً بارتياح إلى قوة الجاليات الصهيونية في أرجاء العالم: من منشوريا إلى الأرجنتين، ومن كندا إلى جنوبي افريقية ونيوزلندة... ويذكّر بأن للصهاينة أصدقاء لا حصر لهم في انكلترة وفي الكنيسة والصحافة ومجلس العموم البريطاني.

وعرض كذلك على البرتغال عروضاً مالية مغرية للحصول على مستعمرتها (موزمبيق) لقاء دعم الخزينة البرتغالية المفلسة؛ وذلك بتشكيل (شركة ذات امتياز) لتطوير أرض المستعمرة الخاملة.

من كل ما سبق يستخلص أن استراتيجية هرتزل منذ مؤتمر بال ١٨٩٧ الذي أعلن فيه أنه «أسس الدولة اليهودية» صارت تعتمد اتباع نهج استعماري يسعى إلى الحصول على إحدى محميات الدول الاستعمارية مستغلاً تلك الخصومات والصدامات القائمة فيما بين هذه الدول.

يقول هرتزل: «فلتكن هذه الخصومات أكثر حدّة وشدة بين الانكليز والروس، وبين الكاثوليك والبروتستانت... فليتخاصموا ما شاؤوا بعيداً عني حتى يتاح لقضيتنا مزيد من التقدم».

رابعاً: هذه المساومات مع القوى الاستعمارية المختلفة للحصول على مستعمرة أياً كان موقعها تدل على أن (الأسطورة القوية القادرة) الخاصة بفلسطين ــ أرض الميعاد لم تكن إلا حجة وشعاراً محرضاً من أجل مشروع قومي استعماري بحت

إن الميدان الأول لنشاط هرتزل كان أمريكا الجنوبية. يقول: «هذه الجمهوريات في أمريكا الجنوبية يمكن الحصول عليها بالمال».

وهو يقول لوزير الخارجية البريطانية تشمبرلن: «أود أن أطلب إلى الحكومة البريطانية أن تمنحني امتيازاً بالاستيطان» فيجيبه الوزير: لا تقل (امتيازاً) فهذه الكلمة غير مستحبة في هذه الظروف.

هرتزل ــ سمّه كما تشاء؛ فأنا أود إقامة مستعمرة في أرض تملكها بريطانيا.

الوزير ــ خذوا أوغندا.

ولكن جعبة هرتزل حافلة بالاقتراحات؛ فعلى البحر المتوسط هناك شبه جزيرة سيناء والعريش وقبرص بوجه خاص. يقول: «لقد أوجدنا تياراً يناصرنا في قبرص، وعلينا الآن أن ندعى للقدوم، وسأمهد لهذا الموضوع بإرسال ستة من المبعوثين. وحينما ستقام شركة يهودية رأسمالها خمسة ملايين من الجنيهات الاسترلينية بغية استيطان العريش وسيناء... سيتمنى القبارصة حينذاك من تلقاء أنفسهم أن تنزل هذه الأمطار من الذهب على جزيرتهم. أما المسلمون في قبرص فسيرحلون، وأما اليونان فسيسعدهم بيع أراضيهم بأسعار مغرية ليرحلوا بعد ذلك إلى أثينا أو كريت».

خامساً: أهداف هذا الغزو الاستعماري تحت حماية قوة كبرى أياً كانت أهداف متنوعة؛ ولكن الوسائل المستخدمة هي نفسها في كل مكان: من مساومة على الأرض ومصادرة لها من المحتلين أو استيلاء عليها بالقوة... ويبقى الهدف النهائي على كل حال سرياً

يقول هرتزل: «سأدعو عدداً محدوداً من الرجال إلى الاجتماع بي وسأطلب إليهم أن يقسموا على كتمان سر المخطط الذي سأكشفه لهم... إن التنازل الطوعي عن الأراضي سينجزه عملاؤنا السريون... ولن يكون البيع إلا لليهود. ومع ذلك فنحن الآن ــ على الأقل ــ لا نملك القوة الكافية لمنع البيع لغير اليهود».

ومنطق الاحتيال هذا قد سرى على سائر العمليات الأخرى؛ فلقد أكد هرتزل لسكرتير الخارجية البريطانية أنه لن يكون هناك أي شك في الطابع السلمي لاستيطان اليهود في العريش وسائر الأماكن لدى حصول اليهود عليها.

وهرتزل نفسه هو الذي يقول في يومياته: «علينا أن نحصل على قبرص أولاً ثم ننطلق منها يوماً ما لنحتل أرض اسرائيل بالقوة مثلما انتزعت منا بالقوة في غابر الزمان». وهو الذي يقول معمماً هذا المبدأ «علينا أن ننظم أنفسنا لنحصل على هدفنا السريع القريب المتناول في ظل راية صهيون، وسنؤجل مطالبنا التاريخية الأخرى... فنحن يمكننا أن نطلب قبرص من انكلترة ونضع جنوبي افريقية وأمريكا نصب أعيننا منتظرين تقطيع أوصال الامبراطورية العثمانية».

إذن كان من الواضح لدى هرتزل أن كل تنازل يحصل عليه لم يكن إلا نقطة انطلاق في سبيل الحصول على مكسب لاحق؛ وهذا المسلك سيكون من الآن قاعدة السياسة الثابتة للصهيونية السياسية ثم لدولة اسرائيل مضافاً إليها المزاعم التوراتية نفسها القائلة: «أرضك يااسرائيل من الفرات إلى النيل».

إن التاريخ الذي سبق قيام الدولة الصهيونية يرينا أن ولادة هذه الدولة كانت بفضل الحربين العالميتين. ففي الحرب العالمية الأولى كانت الحاجة الملحة إلى الحصول على أكبر دعم ممكن من العالم ــ ولاسيما أمريكا ــ للوقوف في وجه ألمانيا ــ هي التي

دفع بإنكلترة إلى إصدار وعد بلفور عام ١٩١٧ . وفي الحرب العالمية الثانية رفض القادة الصهاينة كل عروض استقبال اليهود من قبل الدول على أثر الاضطهادات النازية ونجحوا في فرض الأسطورة القائلة بأن خلق دولة اسرائيل هو النتيجة الحتمية للسياسة الهتلرية .

وأما دولة اسرائيل التي ولدت بفضل حربين فقد توسعت حتى الآن بفضل خمس حروب : ففي حرب ١٩٤٨ ضمت اسرائيل إليها أرضاً تتجاوز الحدود التي رسمتها لها الأمم المتحدة . وفي الحرب العدوانية عام ١٩٥٦ تعاونت اسرائيل مع بريطانيا وفرنسا على مصر . أما حرب عام ١٩٦٧ التي ضمت فيها أراض جديدة إلى اسرائيل فكان لا بد لها أن تجعل من حرب ١٩٧٣ أمراً لا مفر منه ... ثم كان اجتياح لبنان عام ١٩٨٥ .

إن تعريض الشرق الأدنى للنار والدم منذ أن فُرضت عليه دولة اسرائيل كان نتاجاً للمنطق العدواني للصهيونية السياسية التي كانت من صنع هرتزل ، هذا المنطق الذي تجسد لدى كل الأحزاب الاسرائيلية من حزب بن غوريون إلى حزب مناحيم بيغن ... وعلى الرغم من صراعاتهم واختلافاتهم فإن إيديولوجية العنف توحد فيما بينهم .

يقول المؤلف المتملق لسيرة حياة بن غوريون (أول رئيس لاسرائيل) عن بطله هذا : «إنه لم يؤمن أبداً بالتعايش مع العرب . وكان يرى أنه كلما نقص عدد العرب في دولة اسرائيل كان ذلك أفضل وأحسن . وهو لم يذكر ذلك صراحة ولكن يمكن استخلاصه من جملة أحاديثه وتعليقاته ؛ فالعدوان الكبير على العرب لا يعمل على تحطيم هجماتهم ومقاومتهم فحسب بل سيعمل كذلك على تخفيض نسبة السكان العرب إلى حد كبير ... وإذا اتُّهم بن غوريون على هذا بالعرقية فيجب حينذاك اتهام الحركة الصهيونية كلها التي قامت على مبدأ تحقيق كيان يهودي خالص في فلسطين» .

إن بن غوريون نفسه حينما كان يمارس الحلم الدموي ذاته ، يصف بيغن بأنه «هتلري» . يقول بن غوريون : «إن بيغن ينتسب قطعاً إلى النموذج الهتلري ؛ فهو عرقي مهيأ لتحطيم كل العرب فيما يحلم به من (توحيد) اسرائيل ، وهو على استعداد لاستخدام كل الوسائل في سبيل تحقيق هذا الهدف المقدس» .

١

كيف ولدت واستمرت دولة إسرائيل

أ ــ «التقسيم» وسياسة «الأمر الواقع»

كشفت محاكمات نورمبرغ عام ١٩٤٦ في اتهامها لمجرمي الحرب النازيين الجرائم المرتكبة بحق الإنسانية من قبل الهتلريين.

أما الدعاية الصهيونية فحاولت أن تلحق هذه المرحلة الفاجعة بالتاريخ اليهودي. تصف حنه آرنت هذه المحاولة بقولها: «إن هذا الطرح ليس إلا عملية تشويه هائلة للتاريخ».

لقد (نسي) اليهود أن حرب هتلر قد كلفت العالم ستين مليوناً من الضحايا ولم يذكروا إلا ستة ملايين يهودي... وراحوا يعلنون أن ما ارتكب بحقهم «هو أكبر عملية إبادة للجنس البشري عرفها التاريخ». والحق أن الكثيرين يتحملون مسؤولية ارتكاب مثل هذه العملية: فالأمريكيون قد ارتكبوا جريمة إبادة أكثر من عشرين مليوناً من الهنود الحمر؛ وكانت محصلة التصفيات الستالينية في روسيا عشرة ملايين ضحية؛ وأما الاستعماريون الأوربيون من فرنسيين وانكليز وغيرهم فإن (تجارتهم) بالزنوج التي نقلت إلى أمريكا ما يقرب من عشرين مليوناً من (العبيد) قد كلفت مئة مليون ضحية من جراء عمليات المطاردة الدموية بغية أسرهم ونقلهم. نعم إن إبادة ستة ملايين يهودي كادت أن تطمس كل عمليات الإبادة السابقة. وقد اتخذ الصهاينة من ذلك ذريعة لتبرير وجود دولة اسرائيل ولتسويغ أية عملية اغتصاب في المستقبل: فهم يرون في

(تضحياتهم) تحقيقاً للفداء والخلاص وتتويجاً لتاريخ دولة اسرائيل. إن كلمة (القربان) أو (الضحية) قد اختيرت بمهارة لما لها من دلالة قدسية؛ فالضحية أو القربان هي ما يقدم إلى الآلهة من ذبائح... وهكذا صارت الدولة الصهيونية فوق كل نقد وكأنها (مرحلة) مقدسة اختصر الله فيها التاريخ.

«إن دولة اسرائيل هي رد الله على محارق أوشفيتز» هذا ما يقوله هرشل في هذا التعبير ذي الدلالة. لكن التاريخ ــ ليس التاريخ الصهيوني ولا التاريخ الأسطوري ــ برهن على أن دولة اسرائيل الصهيونية لم توجد على أثر هبة من الله، ولا بقرار من هيئة الأمم؛ وإنما شأنها شأن كل دول العالم... قد وجدت بطريق العنف المسلح وسياسة (الأمر الواقع)... وهذا ما يؤسف له أشد الأسف.

لقد تبنت الهيئة العامة للأمم المتحدة في التاسع والعشرين من تشرين الثاني عام ١٩٤٧ قرار تقسيم فلسطين؛ وكان اليهود حينذاك يشكلون ٣٢٪ من مجموع السكان ويملكون ٥ر٥٪ من الأرض. وهكذا مُنحت الدولة الصهيونية ٥٦٪ من مساحة فلسطين مع أجود الأراضي وأخصبها.

وقد شهد التصويت على مشروع التقسيم مناورات جشعة. أتى على ذكر ذلك لورنس سميث عضو الكونغرس الأمريكي إذ قال في الكونغرس: «لنر إلى ما حدث في هيئة الأمم المتحدة إبان اجتماعها الذي سبق التصويت على التقسيم. كان لا بد من تأمين ثلثي الأصوات لتصديق القرار. وقد أجل التصويت مرتين... كي يمارس الضغط على مندوبي ثلاث دول صغيرة هي هايتي وليبيريا والفيلبين التي صوتت بالموافقة فتم بذلك تأمين أغلبية الثلثين اللازمة... وكانت هذه الدول الثلاث قد عارضت مشروع التقسيم؛ ولكن الضغوط التي مورست عليها من قبل مندوبينا ومسؤولينا ومواطنينا الأمريكيين كانت تصرفاً ذميماً يستوجب العقاب».

أما الرئيس ترومان فقد مارس ضغطاً لم يسبق له مثيل على أعضاء الدولة الأمريكية كي يعملوا على تأمين الأغلبية اللازمة للاقتراع النهائي على التقسيم. وأما وزير الدفاع فورستال فقد أكد «أن الطرق التي استخدمت في الضغط بغية إرغام باقي الدول في هيئة الأمم على التصويت كانت أقرب ما تكون إلى الفضيحة».

وترومان نفسه يعترف أمام فريق من الدبلوماسيين عام ١٩٤٦ بوقائع الضغط الموجه من اللوبي الصهيوني[1] فيقول: «أنا أسِفٌ ياسادة. ولكن علي أن ألبي رغبة مئات آلاف الأشخاص الذين ينتظرون نجاح الصهيونية... وهذه الألوف المؤلفة من الناخبين الأمريكيين ليسوا عرباً».

ويشهد رئيس مجلس الوزراء البريطاني السابق (أتلي) في مذكراته على «أن سياسة الولايات المتحدة في فلسطين كانت توجهها أصوات الناخبين اليهود والمعونات المالية التي تقدمها عدة شركات يهودية كبيرة».

وفيما بين قرار التقسيم في التاسع والعشرين عام ١٩٤٧ وبين الخامس عشر من أيار عام ٥٩٨. - موعد انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين، احتلت القوات الصهيونية مساحات من الأرض الخاصة بالعرب كيافا وعكا.

في مثل هذه الظروف تُرى من يستطيع لوم الفلسطينيين والدول العربية المجاورة على عدم قبولهم بهذا الظلم الرهيب المتجسد في سياسة (الأمر الواقع)، وعلى رفضهم الاعتراف بالدولة الصهيونية؟

ولكن الدولة الصهيونية لم تكتف بالأرض... فلا بد من (تفريغها) من سكانها لا ليجعلوا منها مستعمرة تقليدية تستثمر اليد العاملة للسكان، بل لتحويلها إلى مستعمرة استيطانية تُحل المهاجرين الغرباء محل السكان الأصليين.

ولكي تصل الدولة الصهيونية إلى هدفها قامت بتنظيم إرهاب حقيقي تشرف عليه الدولة، يعني إنجاز مذابح حقيقية في صفوف الجماهير الفلسطينية.

أما المثال الصارخ على هذا فكان ما حدث في دير ياسين إذ تم قتل ٢٥٤ من سكان القرية شيوخاً ونساء وأطفالاً وشباباً في التاسع من نيسان عام ١٩٤٨ بأسلوب نازي نموذجي... على يد عصابة الأرغون التي يرئسها مناحيم بيغن.

---

١ ــ اللوبي: كلمة انكليزية تعني مجموعة بشرية تمارس الضغط الانتخابي وغيره على الحكومة. وقد اكتسبت مدلولاً خاصاً بالتنظيم اليهودي في الولايات المتحدة.

(المترجمان)

يقول بيغن في كتابه (تاريخ منظمة الأرغون): إن دولة اسرائيل ما كان لها أن توجد لولا «انتصار» دير ياسين؛ ثم يقول: «كانت الهاغانا تقوم بهجمات مظفرة على سائر الجبهات... وكان العرب الذين استولى عليهم الذعر يهربون وهم يصرخون: دير ياسين... دير ياسين».

هذا ولم يبلغ الأمين العام للجامعة العربية الأمين العام للأمم المتحدة إلا في الخامس عشر من أيار عام ١٩٤٨ بأن الدول العربية مضطرة للتدخل بغية حماية الجماهير الفلسطينية.

وفي عام ١٩٤٩ وبعد أول حرب عربية اسرائيلية كان الصهاينة يسيطرون على ٨٠٪ من فلسطين وتم طرد ٧٧٠ ألف لاجىء فلسطيني... وقامت هيئة الأمم بتعيين الكونت برنادوت وسيطاً دولياً. وقد كتب في أول تقرير له يقول: «إن منع الضحايا الأبرياء من العودة إلى منازلهم هو انتهاك لأبسط مبادىء العدالة... بينما يتدفق المهاجرون اليهود إلى فلسطين ويهددون على نحو دائم بالحلول محل اللاجئين العرب ذوي الجذور العميقة في أرض فلسطين منذ قرون عديدة». ويصف برنادوت «عمليات السلب والنهب الكبيرة وهدم القرى دون مبررات عسكرية واضحة». وقدم برنادوت تقريره في السادس عشر من ايلول عام ١٩٤٨ ... وفي اليوم التالي قتل الكونت برنادوت ومساعده الفرنسي في المنطقة التي يحتلها الصهاينة من القدس.

وتجاه الاستنكار العالمي أوقفت الحكومة الاسرائيلية رئيس عصابة شتيرن ناتان فريدمان فحكم عليه بالسجن خمسة أعوام ثم أفرج عنه... ثم انتخب عضواً في الكنيست عام ١٩٥٠. وفي عام ١٩٧٠ تبنى (شرف) الأمر باغتيال برنادوت (باروخ نادل) أحد قادة عصابة شتيرن.

إن القادة الصهاينة لدولة اسرائيل كانوا يستطيعون بكل سهولة الاستهانة بهيئة الأمم مادامت أغلبية أعضاء هذه المؤسسة قد أسهمت في جريمة اغتصاب فلسطين من قبل الصهاينة.

كانت منظمة الأمم المتحدة عام ١٩٤٨ وقبل رحيل البريطانيين عن فلسطين

تسيطر عليها دول الغرب؛ وقد انتهكت هي ميثاقها حينما رفضت منح العرب حق تقرير المصير وكانوا يشكلون حينذاك ثلثي سكان فلسطين.

وهاهنا لا بد من طرح بعض التساؤلات من وجهة النظر القانونية البحتة:

— إن قرار التقسيم قد تبنته الجمعية العمومية للأمم المتحدة، لا مجلس الأمن؛ وهكذا فإن القرار لا يتعدى أن يكون (توصية)، فهو على هذا ليس قراراً تنفيذياً.

— لم يكن الفلسطينيون وحدهم هم الذين رفضوا التقسيم؛ فلقد أعلنت حينذاك عصابة الأرغون بقيادة مناحيم بيغن أن هذا التوزيع غير عادل ولن تعترف به أبداً. ولم تدعُ (الأرغون) إلى طرد العرب فحسب بل دعت إلى الاستيلاء على فلسطين كلها. كتب بن غوريون نفسه يقول: «حتى رحيل البريطانيين لم يستطع العرب أن ينفذوا إلى أية مستعمرة يهودية أو يستولوا عليها مهما كانت بعيدة... بينما احتلت الهاغانا بهجماتها العنيفة المتتابعة عدة مواقع عربية وحررت طبريا وحيفا ويافا وصفد».

وهكذا اتسعت رقعة الأرض التي منحتها هيئة الأمم المتحدة للصهاينة من ٥٧٪ إلى ٨٠٪ من مساحة فلسطين.

خلاصة الأمر أن من الخطأ القول بأن دولة اسرائيل قد خلقتها الأمم المتحدة، بل خلقتها سلسلة من عمليات فرض (الأمر الواقع) قوامها أعمال العنف التي قامت بها عصابات الأرغون والهاغانا وشتيرن.

وهكذا خُتم تاريخ (الحقوق التاريخية) لليهود بسجل حافل بالأكاذيب والدم... وما كان له أن يتم إلا على هذا النحو.

ونحن إذا رحنا نعمم هذا النموذج (الصهيوني) من المطالبة باسترداد (الأرض) القائم على (حقوق تاريخية) كهذه فإن كوكبنا سيقع فريسة للفوضى: فلماذا إذن لا يطالب الإيطاليون (بحقوق تاريخية) في فرنسا لأن الرومان منذ يوليوس قيصر قد حكموا بلاد الغال (فرنسا) مدة أطول من حكم ملوك اسرائيل على فلسطين؟ ولماذا لا يطالب السويديون باسترجاع النورمانديا (في فرنسا) وانكلترة وصقيلية باسم

أجدادهم النورمانديين؟

ولنرجع إذن بالتاريخ إلى سقوط الامبراطورية الرومانية منذ خمسة عشر قرناً! فما الذي تراه يحدث؟ إن كل الدول والحدود الخاصة بها قد نجمت عن المجابهات وتحكيم القوة حيث صنعت سياسة فرض (الأمر الواقع) تاريخ تلك المرحلة.

ولعل ما جرى في أمريكا يقدم لنا مثالاً على هذه اللامعقولية. يقول اللاهوتي ألبرت دوبيري من جامعة جنيف: «إن استعمار أمريكا اعتمد على ذلك الاغتصاب المخزي لممتلكات قبائل الهنود الحمر... ولكننا لا نستطيع اليوم أن نعتمد مثل ذلك السلوك لننفي شرعية (الدول) التي تشكلت في هذه القارة».

ومع ذلك فالحقوق التاريخية للهنود الحمر هي أكثر صدقاً وشرعية من حقوق الصهاينة في فلسطين؛ فالهنود ليسوا أول من شغل أرض أمريكا وإنما هم الوحيدون الذين شغلوها منذ آلاف السنين إلى أن جاء الإسبان والبرتغاليون والانكليز وسائر الأمم الأوروبية لإبادتهم وسرقة أراضيهم... فماذا لو راح الهنود اليوم يطالبون بحقهم في العيش ــ وهو حق مشروع ــ على أنهم الأسياد الوحيدون للبلاد فقاموا يطردون أو يضطهدون الأجناس الأوروبية في أمريكا؟

لكن هل يعني ذلك أن نخضع ونستسلم ــ بين مرحلة وأخرى استسلام كلب نافق يطفو على الماء ــ لسطوة القوة ولسياسة (الأمر الواقع)؟ كلا أبداً! إن دوام الظلم واستمراره لا يعطي الظالم الشرعية والحق. إن اختفاء بولونيا من خارطة أوروبا على مدى قرن ونصف (١٧٦٤ ــ ١٩١٤) لم يؤد إلى موت تاريخ هذا البلد؛ وانبعاث بولونيا لم يكن ممكناً إلا بفضل الرفض القاطع لدى شعبها للاضطهاد الخارجي. وقل الشيء نفسه عن الشعب الفلسطيني الذي انتزعت منه أرضه منذ أكثر من ثلث قرن ــ أرضه التي عاش عليها وعمل فيها منذ آلاف السنين ــ ليطرد ويعيش غريباً عن بلده. إن المقاومة لدى هذا الشعب ليست مطالبة (بحق تاريخي) غامض أو بعيد وإنما هي رفض جوهري حق لذلك العنف الدائم المستمر المسلط على جذور حياته ووجوده.

ب ــ دور «اللوبي» الصهيوني في الولايات المتحدة والغرب

إن دولة أوجدتها الإيديولوجية الصهيونية التي صاغها هرتزل في كتابه (الدولة اليهودية) انطلاقاً من أطروحة تقول (بشعب يهودي) يتوزع في أنحاء العالم وبمجتمعات يهودية لا تقبل الاندماج مع سائر الأمم... إن ولادة مثل هذه الدولة لا بد أن تطرح بعض القضايا الجديدة.

ومفهوم (الشعب اليهودي)ــ بمعزل عن المعنى الديني الذي لا يثير أية مشكلةــ انطلاقاً من ولادة (دولة) قائمة يخلع على هذه الدولة طابع المفارقة والتناقض: فإما أن تنجح هذه الدولة في جمع يهود العالم على أرضهاــ وهذا ما يتبناه بن غوريون ــ ولكن ذلك لن يكتب له النجاح فعشرون في المئة فحسب من يهود العالم قدموا إلى فلسطين... أو أن تدّعي هذه الدولة أنها تحتل مكان الصدارة بين يهود الشتات لتكون لهم وكيلاً وممثلاً في أنحاء العالم. إن هذه الدولة (المصنوعة) سينجم عنها مشكلات ذات طابع دولي.

يصرح بن غوريون في المؤتمر الصهيوني العالمي الخامس والعشرين عام ١٩٦١ قائلاً: «منذ أن قامت دولة اسرائيل وفتحت أبوابها لكل اليهود الراغبين في القدوم إليها... فكل يهودي متدين يعصي كل يومــ ببقائه بعيداً في الشتاتــ تعاليم يهوديته وتوراة اسرائيل». ويتهم بن غوريون اليهود خارج اسرائيل بأنهم «لا رب لهم».

كانت أطروحة بن غوريون فيما يخص العلاقة بيهود الشتات تقول: «إن دولة اسرائيل هي جزء من الشرق الأوسط من الناحية الجغرافية... وهذا عنصر سكوني جامد؛ ولكن إذا انطلقنا من وجهة نظر حركية إبداعية تنموية فإسرائيل جزء من الشعب اليهودي في العالم. ومن يهود الشتات سنستمد كل الروافد والوسائل اللازمة لبناء الأمة الاسرائيلية وتطوير أرضها، وذلك بفضل إمكانات اليهود في العالم... فإلى مزيد من البناء والبناء...».

وفي المؤتمر الثالث والعشرين للمنظمة الصهيونية العالمية عام ١٩٥١ لا يكتفي رئيس الدولة الصهيونية بن غوريون بقوله: «إن على الصهيوني أن يهاجر إلى اسرائيل» بل يحدد في الخطاب نفسه واجبات الصهاينة المقيمين في الخارج بأنها «التزام جماعي من قبل المنظمات الصهيونية في جميع البلاد بمساعدة الدولة اليهودية في كل الظروف ودون قيد أو شرط، ولو أدى ذلك إلى التناقض فيما بين اليهود وبين سلطات الدول التي يعيشون فيها».

وفي المؤتمر اليهودي العالمي نفسه احتج بعض المعارضين بأن هذا السلوك الصادر عن ميثاق المنظمة الصهيونية العالمية يعرّض اليهود لإثارة العداء في وجههم لدى الآخرين ويضع اليهود خارج اسرائيل في موقف حرج يُخشى معه أن يُتهموا بالولاء المزدوج. إن هذا المسلك لدى بن غوريون ليس مسلكاً شخصياً فموضوع (الولاء المزدوج) وإعطاء الأولوية لواجب خدمة مصالح الدولة الاسرائيلية ناجم بالضرورة عن المنطق الجوهري للصهيونية.

وفي المؤتمر العالمي للشبيبة اليهودية عام ١٩٦٣ يدين ناحوم غولدمان رئيس المؤتمر اليهودي العالمي أولئك اليهود الذين يرون «أن الدولة التي يعيشون فيها يحق لها أن تطلب منهم ولاءهم المطلق»... وهو يؤكد أن مشكلة (ازدواجية الولاء) تطرح نفسها على كل يهود الشتات «على الرغم من أن كثيرين لا يريدون أن يقبلوا بتلك الازدواجية ويعتبرون الانتماء إلى شعب يهودي عالمي منافياً للوطنية».

إن مثل هذه المزاعم تهدد ـ ولاشك ـ الأمة الأمريكية بالتفكك، هذه الأمة

التي هي مزيج من المهاجرين... حينما نعمم ذلك الموقف حيث يتبنى المواطنون الأمريكيون من ذوي الأصول الإيطالية والألمانية والصينية مبدأ (ازدواجية الولاء).

ومن المهم هنا أن نشير إلى أنه وفق المبدأ الصهيوني القائل بأن مهمة اسرائيل هي تجميع اليهود في العالم... تكون المنظمة الصهيونية العالمية جزءاً لا يتجزأ من الدولة الصهيونية وكأنها وزارة تمارس عملها في الخارج. وقد أُقر نظام المنظمة وصوت عليه من قبل الكنيست الاسرائيلي عام ١٩٥٢. وتحدد الفقرتان الخامسة والسادسة المهمات الرسمية للمنظمة:

تقول الفقرة الخامسة: إن مهمة تجميع اليهود المنفيين على أنها المهمة الرئيسية للدولة الإسرائيلية وللحركة الصهيونية في وقت واحد تتطلب جهداً مستمراً من يهود العالم ومن كل المنظمات اليهودية من أجل بناء دولة اسرائيل... ولا بد من الاعتراف بالحاجة إلى توحيد كل الطوائف اليهودية للوصول إلى هذه الغاية.

وتقول الفقرة السادسة: إن دولة اسرائيل تعتمد على المنظمة الصهيونية العالمية لتحقيق هذا التوحيد.

والمنظمة الصهيونية في أي بلد كانت ليست وكيلاً لدولة اسرائيل في بلد أجنبي، وإنما هي جزء لا يتجزأ من هذه الدولة؛ وهي مؤسسة رسمية يرعاها القانون الاسرائيلي. وتتمتع المنظمة الصهيونية أي (الوكالة اليهودية) في الولايات المتحدة بكل ما تتمتع به الجمعيات الخيرية من امتيازات كالإعفاء من الضرائب على الأموال المجبية بالتبرعات.

وفي عام ١٩٥٧ كان السناتور رالف فلاندرز قد أعلن في مجلس الشيوخ الأمريكي قائلاً: «ما دامت سياسة الهجرة إلى اسرائيل تستهدف استقبال اللاجئين اليهود فمن الطبيعي أن تدعم الحكومة الأمريكية هذه الأنشطة بمساعدات مالية معفاة من الضرائب. ولكن السياسة الحالية للمنظمة ما عادت تهتم بموضوع اللاجئين بل أصبحت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالبرنامج الصهيوني القائم على تجميع كل يهود العالم سواء كانوا مسحوقين معوزين أم لم يكونوا... المهم أن يكونوا يهوداً فحسب... لجلبهم إلى

صهيون الجديدة دون الاكتراث بما يلحق بالسكان الأصليين من مظالم؛ ولذا يجب أن لا يعفى من الضريبة أي مبلغ أمريكي مخصص لهذا المشروع».

إن التوجه الجديد في حركة الهجرة أكد عليه مسؤولون اسرائيليون رسميون؛ فوزير العمل الاسرائيلي (ييغال آلون) يقدّر «أن حركة الهجرة إلى اسرائيل ستصل إلى حدها الأقصى بعد ثلاثة أعوام وأن المخصصات الاحتياطية المرصودة للهجرة قد نفدت؛ فيهود شمالي افريقية ــ على سبيل المثال ــ يجب أن يلبثوا حيث هم لأن أوضاعهم حسنة».

أما موشي دايان ــ حينما كان وزيراً للزراعة ــ فيوجه نداءه إلى المؤتمر السنوي الثالث عشر للمهاجرين الانكليز ليقول: «إن حركة هجرة اليهود القادمين من بلاد كانوا مضطرين إلى مغادرتها قد وصلت الآن إلى نهايتها؛ وعلى اسرائيل أن تقنع اليهود الغربيين بالقدوم إلى اسرائيل بأعداد كبيرة... إن مفتاح هذه القضية في يدكم».

وفي التاسع والعشرين من عام ١٩٦٣ دلت شهادات لجنة التحقيق التابعة لمجلس الشيوخ الأمريكي في موضوع تصرفات المنظمة الصهيونية العالمية على أن الأمر لم يعد موضوع هرب من دفع الضرائب: فالمنظمة الصهيونية لم تعد تكتفي بأن تعدّ نفسها مؤسسة خيرية فتعفى أموالها من الضرائب، بل صارت تقوم بنشاط سياسي لمصلحة دولة أجنبية... وهكذا أصبحت طبيعة نشاط هذه المنظمة موضعاً للريبة.

لقد كشفت لجنة التحقيق عن وجود (لوبي) اسرائيلي قوي في الولايات المتحدة وعن حركته وأساليبه المالية والسياسية.

سأل السناتور فولبرايت رئيس لجنة التحقيق السيد إيزادور هاملين مدير الفرع الأمريكي للوكالة اليهودية قائلاً:

ــ أيها المدير. أريد أن أطلعك على نسخة من مذكرة لا تاريخ لها بعنوان: (مجلس صهيوني أمريكي. معلومات وعلاقات سياسية) وفيها خطوط عريضة للنظام المالي لجمعيتكم لعام ١٩٦٢ ــ ١٩٦٣ فهل لديكم نسخة منها في ملفاتكم؟

ــ نعم لدينا نسخة منها في ملفاتنا.

وإليكم نص المذكرة:

أولاً: على صعيد المجلات:

تثقيف المحررين. العمل على نشر المقالات في المجلات الواسعة الانتشار. إعادة طبع كل النصوص المؤيدة لنا وتوزيعها أينما ظهرت.

ثانياً: على صعيد الإذاعة والتلفاز والسينما:

يقوم فرع المنظمة بتنظيم لقاءات وحوارات في الإذاعة والتلفاز، وباستخدام الأفلام السينمائية و (تثقيف) الشخصيات التي توجه وسائل الإعلام، وتشجيع الإذاعات وتغذيتها بالبرامج المتعلقة بإسرائيل.

ثالثاً: على صعيد التنظيمات الدينية المسيحية:

(تثقيف) القادة الرئيسيين والجمعيات. إقامة لقاءات وحلقات بحث حول اسرائيل لرجال الدين المسيحي. التحريض على نشر مقالات متعاطفة في الصحافة البروتستانتية والكاثوليكية. الرد بسرعة على أية مقالة معادية في الصحافة.

رابعاً: على صعيد الأوساط الجامعية:

تقديم العون للجمعية الأمريكية للدراسات حول الشرق الأوسط... (تثقيف) زعماء الأوساط الجامعية. تنظيم (يوم لإسرائيل) في المدن الجامعية. التعاون مع المعاهد والجامعات لإقامة ندوات ومناظرات عن الشرق الأوسط. توجيه النصوص في الصحافة الجامعية أو محاربتها... توجيه الطلاب الصهاينة وسائر الطلاب اليهود حول القضايا القائمة بين العرب والاسرائيليين.

خامساً: على صعيد الصحافة اليومية:

(تثقيف) المحررين. تشجيع المقالات المؤيدة عبر وكالات الصحافة والصحفيين. الرد السريع على المقالات المعادية. إعادة طبع وتوزيع المقالات الملائمة.

سادساً: على صعيد الكتب:

تقديم العون للناشرين لإخراج الكتب ذات القيمة. توزيع الكتب على المكتبات العامة أو المدرسية.

سابعاً: على صعيد المحاضرين:

يستمر مكتب المحاضرات في استخدام الاسرائيليين والمسيحيين الأمريكيين واليهود في معالجة موضوعات جامعية ودينية ووطنية في أنحاء البلد لتقديم صورة إيجابية عن اسرائيل.

ثامناً:

إقامة علاقات مع المنظمات القومية أو المحلية ولاسيما تلك التي تهتم بالعلاقات الدولية. إقامة علاقات خاصة مع مجتمعات السود.

تاسعاً: على صعيد المشاريع والمنشورات:

تنظيم جهاز خاص لتوجيه المناقشات الخاصة بقضايا اللاجئين العرب والنزاعات بين سورية وإسرائيل.

عاشراً: على صعيد الرحلات إلى اسرائيل:

تقديم العون إلى أولئك الذين يقومون بالدعاية لاسرائيل في الرأي العام بغية زيارتها والتعرف إليها. تنظيم رحلات للمتعاطفين مع اسرائيل.

نعم ياله من برنامج مدروس لخداع الرأي العام... ينص عليه نظام مؤسسة خيرية (إنسانية) تعفى من الضرائب!

وهكذا كشفت لجنة التحقيق التابعة للكونغرس الأمريكي عن وجود (اللوبي) ذي الشبكة المعقدة من التنظيمات يمارس عبرها الضغوط لتوجيه السياسة الأمريكية وفق مصالح اسرائيل. وهذه الشبكة لها أقنيتها المنوعة الكثيرة التي تعد بالمئات. نذكر منها:

الوكالة اليهودية للبرقـــ وتمولها الاتحادات اليهودية الأمريكية المسماة (بالجمعيات الخيرية) التي تعفى من الضرائب... وهي تغذي مئات الصحف بالبرقيات الصادرة عن الحكومة الاسرائيلية وعن المنظمة الصهيونية العالمية.

مجلس المعابد اليهودية في أمريكا ـــ وهو المسؤول عن إعداد نصوص (توجيهية) تتعلق بإعمار اسرائيل.

هيئة الرؤساء ـــ وهي تتألف من رؤساء المنظمات الصهيونية الأمريكية المختلفة التي تعمل في الحقل السياسي.

المؤسسة الثقافية العبرية ـــ وهي مختصة بإنشاء الخلايا الأولى للجامعات.

وحول موضوع المعونات المالية المخصصة لمركز دراسات الشرق الأوسط في جامعة هارفارد توجه رئيس لجنة التحقيق إلى السيد هاملين مدير القسم الأمريكي في الوكالة اليهودية قائلاً: «أمن الطبيعي أن تقوم جهة أجنبية بتمويل جامعة هارفارد أو غيرها من الجامعات؟».

ويختصر رئيس اللجنة السناتور فولبرايت ثلاثمئة صفحة من الوثائق التي تغص بمثل هذه المعلومات بقوله: «يشرف الاسرائيليون على سياسة الكونغرس ومجلس الشيوخ». نعم فهم يملكون ٧٠٪ من أصوات مجلس الشيوخ كما تشهد بذلك كل عمليات التصويت المطروحة المخصصة للمساعدات العسكرية والاقتصادية التي ماتنفك تتزايد. وحينما علق السيد هاملين بأن في ذلك «اتهاماً خطيراً» أجابه السناتور فولبرايت: «حقاً إنه اتهام خطير حينما نشير إلى أن زملاءكم في مجلس الشيوخ الذين يشكلون ٧٠٪ يتخذون قرارهم بوحي من ضغط (اللوبي) لا بوحي آرائهم التي تمليها عليهم مبادىء الحق والحرية»... وهكذا خسر السناتور فولبرايت مقعده في مجلس الشيوخ في الانتخابات اللاحقة! هذا ومازال نفوذ (اللوبي) الصهيوني ومنذ التحقيق الذي قام به فولبرايت يتزايد في السياسة الأمريكية.

يصف (بول فندلي) عضو الكونغرس في الولايات المتحدة في كتابه (من يجرؤ على الكلام) الصادر عام ١٩٨٥ المهمة الحالية للوبي الصهيوني وقوته بقوله: إن اللوبي ماهو إلا فرع حقيقي من فروع الحكومة الاسرائيلية، وهو يشرف على الكونغرس ومجلس الشيوخ وعلى رئاسة الجمهورية والبنتاغون ومجلس الولاية ووسائل الإعلام كما يمارس تأثيره في الجامعات والكنائس.

إن الأدلة والأمثلة الغزيرة تظهر بوضوح أن رغبات الاسرائيليين تتحقق أولاً على حساب مصالح الولايات المتحدة: ففي عام ١٩٨٤ قرر مجلس الفعاليات الاقتصادية بأغلبية ٩٨٪ إلغاء تحديد التبادل التجاري بين اسرائيل والولايات المتحدة على الرغم من معارضة وزير التجارة واستنكار كل النقابات.

وفي كل عام تزداد الاعتمادات المالية لمساعدة اسرائيل على الرغم من كل القيود التي تفرض على سائر قطاعات الميزانية العامة.

ولقد بلغ التجسس حداً عظيماً بحيث اطلعت الحكومة الاسرائيلية على أكثر الملفات سريةً. كتب أدلاي ستيفنسون المرشح السابق للرئاسة عام ١٩٧٦ في إحدى المجلات يقول: «من الناحية العملية ليس هناك قرار خاص بإسرائيل يتخذ أو يناقش على مستوى السلطة التنفيذية إلا تعلم به الحكومة الاسرائيلية».

وعلى الرغم من رفض وزير الدفاع المعتمد على القانون الأمريكي تسليم اسرائيل في عز عدوانها على لبنان القنابل الانشطارية — وهي سلاح لقتل المدنيين — حصل الاسرائيليون عليها من ريغن واستخدموها مرتين في بيروت لذبح السكان.

وفي الثامن من حزيران عام ١٩٦٧ قصف الطيران مع السفن الحربية الاسرائيلية السفينة الأمريكية (ليبرتي) المجهزة بأحسن الرادارات المتطورة كيلا تكشف عن خططهم لاجتياح الجولان، فقتل من جراء ذلك أربعة وثلاثون بحاراً وجرح مئة وواحد وسبعون. وقد استمر التحليق فوق السفينة ست ساعات، أما قصفها فدام سبعين دقيقة ... وقد اعتذرت الحكومة الاسرائيلية عن هذا (الخطأ) وطويت القضية. ولم يتم الكشف عن حقيقة الموضوع إلا عام ١٩٨٠ من قبل أحد شهود العيان وهو أحد ضباط السفينة ويدعى (إينز) حينما كذب الرواية (الرسمية) عن (الخطأ) الذي صدقته لجنة التحقيق الأمريكية حينذاك. إن شهادة الضابط إينز تثبت أن الهجوم كان جاداً ومتعمَّداً.

وقد فضح هذه الجريمة الأميرال مورر بقوله: لقد أخفى اللوبي الصهيوني كتاب الضابط الأمريكي إينز ومرت الجريمة بصمت لأن «الرئيس جونسون كان يخشى رد

الفعل لدى الناخبين اليهود... فالشعب الأمريكي سيصيبه الجنون لو عرف حقيقة ما وقع».

إن كل الوسائل لها ما يبررها لدى (اللوبي) الصهيوني... بدءاً بالضغط المالي إلى الحرب النفسية، ومن مقاطعة أجهزة الإعلام والناشرين إلى التهديد بالموت(١)

ويخلص بول فندلي إلى القول: «إن كل من يجرؤ على انتقاد سياسة اسرائيل عليه أن يتوقع إجراءات رادعة خطيرة متكررة؛ وقد يصل به الأمر إلى حد فقدان مورد رزقه بفعل ضغط (اللوبي الاسرائيلي). فرئيس الولايات المتحدة يخشى (اللوبي)، والكونغرس يستجيب لكل ما يطلب، أما أكثر الجامعات شهرة فتحرص في برامجها على إبعاد كل ما يمت إلى معارضة (اللوبي) بصلة: نعم إن كبار رجال الإعلام والقواد العسكريين يستجيبون لضغوطه».

إن الكتاب الجريء لمؤلفه بول فندلي غني بالوقائع الجديدة المسرودة بقالب جذاب... ففي عام ١٩٨٥ أوقف (بولار) أحد (المناضلين) الصهاينة الأمريكيين الذي يعمل محللاً في رئاسة أركان البحرية وهو يحمل بعض الوثائق السرية. وحينما سئل عن ذلك اعترف بأنه تلقى خمسين ألفاً من الدولارات منذ عام ١٩٨٤ لينقل هذه المعلومات إلى اسرائيل. ويستشهد بول فندلي بما جاء في جريدة الواشنطن بوست «إن قضية بولار لم تأت من العدم؛ فهي تدخل في سياق النظام القائم ـــ المغرق في الضلال ـــ الخاص بالعلاقات الأمريكية ـــ الاسرائيلية المتميزة بالإفراط في التبعية المؤدية إلى المواقف الصفيقة... لقد نشأ هذا الوضع عام ١٩٨١ حينما منحت إدارة ريغان إسرائيل (بطاقة بيضاء) مفتوحة في وجه مغامراتها العسكرية؛ وذلك بحجة الدفاع عن النفس... وكان النتاج الأول لهذا اجتياح لبنان الذي كان بإشراف أرييل شارون وإخراجه».

---

١ ـــ أستطيع أن أشهد شخصياً على جدوى هذه الأساليب التي مورست علي كما مورست في الولايات المتحدة على تشومسكي وعلى كل أولئك الذين أرادوا أن يقولوا الحقيقة عن فلسطين يهوداً كانوا أو غير يهود. (المؤلف)

وتقول جريدة (هاآرتز) في هذا الصدد: «إن الإساءة التي لحقت بالطائفة اليهودية في الولايات المتحدة من جراء قضية بولار كانت خطيرة خطورة التوتر الذي نجم عنها بين الحكومتين الأمريكية والاسرائيلية. فمنذ عشرات السنين يحاول اليهود الأمريكيون إقناع الرأي العام في بلدهم بأن دعمهم غير المشروط لاسرائيل لا يمكن أن يؤذي ولاءهم للولايات المتحدة. ويبدو أنه سيكون من الصعب أن نثق بولائهم، وأن يجد المتحدثون عن إمكانية ازدواجية الولاء آذاناً صاغية».

ج ــ تمويل دولة اسرائيل

إن هذه الدراسة حول (اللوبي) الأمريكي ومهماته تنسحب على البلدان الغربية الأخرى. وهذه الدراسة لا تخرج في سياقها عن تاريخ فلسطين؛ فمنذ ولادة الصهيونية الميسيحية في القرن السادس عشر ومنذ تكوين الصهيونية السياسية على يد هرتزل... وصدور وعد بلفور كان مصير فلسطين يقرر خارج أرضها.

ونحن لا يمكننا أن نفصل تاريخ دولة اسرائيل عن كل ما فُرض على فلسطين من خارجها، أسوة بما فعلنا حينما عرضنا لدراسة مملكة الفرنجة في القدس زمن الصليبيين فلم نهمل الإشارة إلى أسس مزاعم الصليبيين في فلسطين، وأشرنا إلى تحضير النفوس لهذا الغزو والتبرعات المالية والإمدادات الحربية الأوروبية التي أمدت في حياة مملكة الفرنجة.

ليست ولادة دولة اسرائيل وحدها هي المتصلة بتاريخ (الغرب)... إن مهمة هذه الدولة وتطورها ــ على أنها إسفين للغرب في الشرق الأدنى ــ لا يمكن فهمها إذا لم نبين المصادر التي تستقي قوتها منها. إن اسرائيل ــ بتبعيتها للولايات المتحدة بماليتها واقتصادها وسلاحها ــ تثقل كاهل الشرق الأدنى بكل ما للولايات المتحدة من ثقل.

وبعد ضم الجولان إلى اسرائيل وجهت إدارة ريغان إنذاراً (شكلياً) إلى

اسرائيل... فسلم مناحيم بيغن إلى السفير الأمريكي مذكرة جوابية جاء فيها: «مرة أخرى تعلنون عن نياتكم على معاقبة اسرائيل... ما الذي يعنيه ذلك؟ هل نحن أتباع للولايات المتحدة؟ أم نحن من تلك الجمهوريات المنتجة للموز؟ لن تنجحوا في تخويفنا... وسنصم آذاننا عن التهديدات أياً كان مصدرها... لقد عاش شعب اسرائيل على مدى ثلاثة آلاف وسبعمئة من السنين دون هذه العلاقة مع أمريكا... ولسوف يستغني شعبنا عنها مدة ثلاثة آلاف أخرى من السنين...».

وواضح أن هذا الصلف من قبل بيغن لن يجر عليه أي خطر؛ فالسياسة الاسرائيلية تتفق تمام الاتفاق مع السياسة العالمية للولايات المتحدة وتلعب فيها دوراً لا بديل له... وهذا ما يدفع بحكومة اسرائيل إلى أن تجيز لنفسها كل شيء وهي واثقة من أنها لن تعاقب.

على هذا... إن تمويل دولة اسرائيل يكشف عن طبيعة هذه الدولة.

كشف السيد (بنحاس سابير) حينما كان وزيراً للمالية في (مؤتمر أصحاب المليارات اليهود)! المنعقد في القدس عام ١٩٦٧ عن أن اسرائيل قد تلقت بين عامي ١٩٤٩ــ١٩٦٩ سبعة مليارات دولار. ولكي نقدر دلالة هذا الرقم حق التقدير يكفي أن نذّكر القارىء بأن تمويل مشروع مارشال لأوروبا الغربية بين عامي ١٩٤٨ــ١٩٥٤ قد رصد له مبلغ ١٣ ملياراً من الدولارات. أي أن دولة إسرائيل ذات المليونيْ نسمة قد تلقت أكثر من نصف ما تلقته كل شعوب أوروبا التي كانت تعد آنذاك مئتي مليون نسمة.

ولكي تكون الموازنة أوضح نقول: إن سبعة المليارات من الدولارات التي تلقتها اسرائيل هبة لها في ثمانية عشر عاماً هي أكثر من مجموع الدخل القومي السنوي لكل الدول العربية المجاورة لها (مصر وسورية ولبنان والأردن) وهو ستة مليارات من الدولارات عام ١٩٥٦. بل يمكن القول: إن نصيب الفرد الاسرائيلي من المعونات الأمريكية وحدها بين عامي ١٩٤٥ــ١٩٦٧ قد بلغ ٤٣٥ دولاراً بينما كان نصيب الفرد العربي ٣٦ دولاراً فحسب.

والمعروف أن دولة اسرائيل الصهيونيية هي أكثر بلدان العالم اعتماداً على العون الخارجي ؛ ولكي تعمل اسرائيل على ترميم هذا العوز دعا القادة الصهاينة في اسرائيل بعد حرب ١٩٦٧ إلى مؤتمر سنوي لأصحاب المليارات من يهود الشتات . وقد حدد الدكتور ياكوف حرزوك المدير العام لمكتب رئاسة الوزراء الهدف من هذه الاجتماعات بقوله : «علينا أن ندرس أحسن الوسائل لاجتلاب أفضل الاستثمارات إلى اسرائيل وأن نشرك أصحاب الرساميل اليهود المقيمين في الخارج في الإسهام في الاقتصاد الاسرائيلي . ونحن نخطط الآن لأمر آخر وهو إقامة ضرب من الحوار البالغ الأهمية حول موضوع (توحيد) يهود الشتات مع اسرائيل للنضال في سبيل منع ذوبان اليهود في المجتمعات الأخرى» .

وكان نتاج هذه العملية رابحاً ؛ فالمنظمات اليهودية الأمريكية راحت ترسل كل عام حوالي مليار دولار إلى اسرائيل... وهذه الهبات المعدودة أعمالاً خيرية هي معفاة من الضرائب... ولكنها تنعكس على وضع المواطن الأمريكي (دافع الضريبة) لتسهم في بناء المجهود الحربي لاسرائيل وتمويل عمليات عدوانها . ولكن الأهم من كل ذلك ما تقدمه الحكومة الأمريكية — على نحو مباشر — من معونات بلغت في مطلع الثمانينات أكثر من ثلاثة مليارات من الدولارات في العام الواحد .

إن ما يقرب من نصف هذه المعونة (الرسمية) يدخل في باب الهبات و (القروض) التي سرعان ما (تُنسى) ؛ أما النصف الباقي فيسجل على اسرائيل ديناً يتنامى بسرعة ليبلغ اليوم ما يقرب من عشرين مليوناً من الدولارات... وهو معدل للديون لم يسبق له مثيل... فكل مواطن يترتب عليه من هذه الديون ما يقرب من خمسة آلاف دولار .

وقد بلغت المساعدة العسكرية الأمريكية لإسرائيل إبان عدوانها على مصر عام ١٩٥٦ حداً أسطورياً . يقول الصهيوني ميكاييل بار زوهار : «منذ شهر حزيران راحت كميات ضخمة من الأسلحة تتدفق على اسرائيل بموجب اتفاق بالغ السرّية... دون أن تعلم بذلك انكلترة وفرنسا وأمريكا ، وهي دول البيان الثلاثي المتعلق بضمان أمن الشرق الأوسط» .

ويكفينا أن نشير إلى هذا الرقم كي نحدد طبيعة الدولة الصهيونية في اسرائيل: إن مجمل المساعدة الرسمية الأمريكية التي تتلقاها اسرائيل وحدها يعدل أكثر من ألف دولار للشخص الواحد تضاف إلى حصته من الدخل القومي. وهذا المبلغ يفوق ثلاثة أضعاف الدخل القومي للفرد في مصر وفي معظم الدول الافريقية.

وهكذا تتبدد كثير من الأساطير ولاسيما الأسطورة الخطيرة القائلة بأن اسرائيل دولة صغيرة ضعيفة مهددة على الدوام باكتساح العرب لها، محكوم عليها بأن تقاتل في سبيل البقاء... بينما تمتلك بفضل الولايات المتحدة وسائل تمكّنها من الوصول إلى دمشق أو بغداد أو عمان أو القاهرة في ثمان وأربعين ساعة مثلما فعلت في بيروت... والأخطر من ذلك تلك الأسطورة القائلة بأن اسرائيل مهددة دائماً بالإفناء بينما تشكل هي — في واقع الأمر — التهديد الدائم لجاراتها. إن الأسطورة التي بموجبها يسكت الرأي العام الغربي عن كل جرائم اسرائيل تقوم على أن (اسرائيل) (معجزة) تمثل (داوود الصغير) الذي يتحدى (جوليات) العربي المفترس... بينما يقوم داوود الصغير هذا بتعبئة مقلاعه بكل أنواع السلاح والمال من الولايات المتحدة[1].

نعود هنا إلى التذكير بأن تلك الأرقام التي أتينا على ذكرها فيما سبق لا تتضمن ما يقدمه يهود الشتات ولا يدخل فيها (القروض) الحكومية الأمريكية التي سرعان ما (تُمحى).

وقد قدم السيد بنديلاك منذ فترة قريبة أطروحة للدكتوراه في جامعة باريس الثانية موضوعها «المساعدات المالية الخارجية لدولة اسرائيل»؛ وفيها يوازن بالأرقام بين المساعدات التي يقدمها يهود الشتات والمساعدات الحكومية الأمريكية المباشرة ما عدا القروض الطويلة الأجل. إن النتائج التي استخلصها السيد بنديلاك — على ما فيها من محاباة لإسرائيل — ذات أهمية كبرى لأنها تعتمد على وثائق وأرقام مستقاة من مصادر اسرائيلية.

---

١ — يستعير المؤلف حكاية النبي داوود الذي تصدى لخصمه العملاق جوليات ورماه بحجر من مقلاعه فارداه قتيلاً.

(المترجمان)

إن سياسة دولة اسرائيل منذ نشوئها لايمكن أن تفهم إلا في سياق الأوضاع الدولية التي سمحت لها بأن تتوطد. أما المعونات غير المشروطة وغير المحدودة من قبل الولايات المتحدة فتتيح لنهج النظام الصهيوني أن يمتد وينتشر دون عائق ليعمل على:

١ — جلب اليهود إلى فلسطين مهما كان الثمن.

٢ — طرد العرب من فلسطين.

٣ — إنجاز الدور الذي أوكله هرتزل إلى الدولة اليهودية، وهو أن تكون قلعة أمامية للحضارة الغربية في الشرق الأوسط.

٢

السياسة الداخلية للدولة الصهيونية

إذن يمكن القول إن السياسة الاسرائيلية تقوم على ركيزتين أساسيتين: العرقية والتوسع. أما المبدأ الأساسي الذي يوحد بين هذين المنطلقين فقد صاغه هرتزل بوضوح تام في (يومياته). يقول في حوار له مع مستشار الامبراطورية الألمانية عام ١٨٩٨: «سألني المستشار عن أي منطقة نريد الحصول عليها... هل تريدون أن تمتد إلى الشمال بحيث تصل إلى بيروت أو إلى ما فوقها؟ أجبته: سوف نطلب ما نحتاج إليه... وكلما ازداد عدد المهاجرين ازدادت حاجتنا إلى الأرض».

وقد سبق لهرتزل أن استخدم في كتابه (الدولة اليهودية) هذا التعبير الذي لا يقل خطورة عن سابقه: «فليؤمّنوا لنا السيادة على جزء من هذه الأرض يكفينا لإنجاز مطالبنا المشروعة كأمة... أما الباقي فسنتدبر أمره بأيدينا».

وكتب أحد الأصدقاء المقربين إلى هرتزل: «أود أن أذّكرك بأن تعود من حين إلى آخر إلى مشروع (فلسطين الكبرى) أو (اسرائيل الكبرى) قبل فوات الأوان. لا بد لبرنامج مؤتمر بال أن يضع ذلك في حسبانه فلا ينسى (اسرائيل الكبرى) أو فلسطين مع المناطق المجاورة لها... وإلا فلا جدوى ولا غَناء... إذ لا يمكن استقبال عشرة ملايين يهودي على أرض مساحتها ٢٥٠٠٠ من الكيلومترات المربعة».

نعم إن كل ماقامت به دولة اسرائيل من ألوان العدوان وعمليات الضم والإلحاق ناجم من هذا المنطق الصارم المتشدد للصهيونية السياسية.

بعد إقامة دولة اسرائيل يحدد بن غوريون القضية الأولى الملحة بأنها جلب المزيد من المهاجرين فيصرح عام ١٩٤٩ أمام وفد من السياح الأمريكيين بقوله: «لقد تحقق حلمنا بإنشاء دولة يهودية؛ ولكننا مازلنا في البداية فليس هناك إلا ٩٠٠,٠٠٠ يهودي في اسرائيل، أما الأغلبية الساحقة من الشعب اليهودي فماتزال خارج اسرائيل... ومهمتنا جلب كل هؤلاء إلى الوطن».

كان هدف بن غوريون جلب ٤ ملايين يهودي فيما بين ١٩٥١ ــ ١٩٦١؛ ولكن لم يأت سوى ٨٠٠,٠٠٠. وفيما بين ١٩٧٥ ــ ١٩٧٦ كان عدد المهاجرين من اسرائيل يفوق عدد المهاجرين إليها على الرغم من كل الضغوط التي مورست في ظروف ملائمة لجلب المهاجرين، وهي ضغوط سبق أن أشرنا إليها ونعني بها تلك التي مورست على الدول المستعدة لاستقبال اللاجئين اليهود.

وتمكن الإشارة ــ على نحو إجمالي ــ إلى أنه من جملة اليهود الهاربين من النازية البالغ عددهم ٢,٥ مليون نسمة لم يفد إلى فلسطين إلا ٨,٥٪ بين عامي ١٩٣٥ ــ ١٩٤٣.

ومن المفيد هنا أن نشير إلى الطابع العرقي للدعاية المسعورة للحركة الصهيونية التي جرى التنسيق فيها مع الولايات المتحدة والدول الأخرى حول مصير اليهود في الاتحاد السوفياتي البالغ عددهم مليونين ونصف المليون... والجدير بالذكر أن اليهود في الاتحاد السوفياتي الذين يشكلون ١٪ من مجموع السكان يمارسون شتى المهن ويتبوؤون مراكز ذات شأن في شتى المجالات العلمية والأدبية والفنية دون النظر إلى انتمائهم الديني. أما قضية السفر خارج الاتحاد السوفياتي فليست القيود المفروضة على السفر خاصة باليهود وحدهم وإنما تشمل المواطنين السوفييت جميعاً... ولكن الصهيونية تصر على (حقوق) اليهود في هذا الصعيد وكأنهم يعاملون معاملة خاصة.

هذا ولم يكتف القادة الصهاينة بالدعاية في موضوع الهجرة إلى اسرائيل بل

لجؤوا إلى خطوات أخرى تجلت في تقرير الحاخام (كلاوسنر) إلى المؤتمر اليهودي الأمريكي. يقول التقرير: «علينا أن نُلزم اليهود بالعودة إلى فلسطين ما داموا غير قادرين على الاقتناع بمنافع الهجرة ومستقبلها الطيب... ومن الضروري أن تتبنى الطائفة اليهودية في العالم مبدأ ضرورة سفر اليهود إلى فلسطين... أما الذين يرفضون السفر فيجب أن نكفّ عن النظر إليهم على أنهم (قاصرون) يحتاجون إلى المعونة والرعاية... بل إنه يجب الانتقال إلى خطوة جديدة وهي الاستنجاد بمنظمة صهيونية كالهاغانا لإزعاج الذين يرفضون الهجرة وتنكيد حياتهم...».

وإذا كان هذا البرنامج لم يقدّر له أن يلقى القبول فيمكن اللجوء إذن إلى افتعال (بعض الأحداث) المعادية للسامية التي قد ترغم اليهود على الهجرة. ولذا راح الصهاينة أنفسهم ينظمون هذه الأحداث باللجوء إلى الاستفزازات ذات الطابع المعادي للسامية؛ ففي عام ١٩٤٠ عندما قرر الانكليز إنقاذ اليهود المهددين من قبل النازية بنقلهم إلى جزيرة (موريس) عمد قادة (الهاغانا) الصهاينة بزعامة بن غوريون حينذاك ــ إلى تفجير السفينة (باتريا) المحملة باليهود حينما رست في ميناء حيفا؛ وكان ضحية ذلك ٢٥٢ يهودياً أضف إليهم بحارة السفينة الانكليز... كل هذا بغية إثارة روح العداء لبريطانيا التي لم تسمح بتحقيق رغبة اليهود في النزول إلى (أرض الأجداد)... وبعد ثمانية عشر عاماً يكتب موشي شاريت رئيس مجلس الوزراء ورئيس الوكالة اليهودية معلقاً على هذه الكارثة: «من الضروري في بعض الأحيان أن نضحي ببعض الأشخاص في سبيل إنقاذ الأغلبية».

وهاك مثالاً آخر من يهود العراق الضاربين بجذورهم العميقة في هذا البلد منذ ٢٥٠٠ عام أي منذ النفي إلى بابل على يد نبوخذ نصر. كان عدد اليهود في العراق ١١٠,٠٠٠ نسمة عام ١٩٤٨. وقد صرح كبير الحاخامات هناك بأن «اليهود والعرب قد تمتعوا معاً بكل الحقوق والامتيازات منذ ألفي عام، وهم يعتبرون أنفسهم أبناء وطن واحد»... ثم بدأت الأعمال الإرهابية الصهيونية في بغداد عام ١٩٥٠: فتجاه تردد بعض اليهود العراقيين في تسجيل أسمائهم في قائمة المهاجرين إلى اسرائيل لم تتورع المخابرات الاسرائيلية ــ بغية إقناع اليهود بأنهم في خطر ــ عن أن ترمي بالمتفجرات على

المعبد اليهودي فتقتل ثلاثة أشخاص وتجرح العشرات.

وفي صبرا وشاتيلا مارس الصهاينة الإرهاب المتعمد المدروس. يقول طاهر بن جلون ــ الكاتب المغربي ــ في هذا الصدد: «هناك أحداث متفقة متماثلة... تتكرر وتتكرر حتى تصبح ذات دلالة هامة. نحن نعرف الآن دوافع عمليات الاغتيال ذات الطابع المعادي للسامية في أوروبا... كما نعرف المستفيد من هذه الجرائم:

إن هذه العمليات تستخدم لتغطية مذبحة متعمدة مدروسة للجماهير الفلسطينية واللبنانية؛ وقد سبقت هذه الاغتيالات أو تزامنت مع (الحمّام) الدموي في بيروت... وقد دبرت هذه العمليات الإرهابية أحسن تدبير ونفذت أكمل تنفيذ بحيث حققت ــ على نحو مباشر أو غير مباشر ــ الهدف السياسي الذي صممت من أجله وهو صرف أنظار الرأي العام عن القضية الفلسطينية كلما نجحت هذه القضية في اكتساب شيء من التفهم أو التعاطف... وهكذا يمكن عبر هذه الاغتيالات قلب الحقيقة رأساً على عقب على نحو مدروس ليصبح الضحايا (إرهابيين) أو (جلادين)... ويسمى الفلسطينيون (إرهابيين) كي يُنبذوا ويحرموا من كل الحقوق.

ترى ألم تسبق العملية الإرهابية المنفذة في باريس في التاسع من آب ببضع ساعات فقط قصف بيروت بأنواع القنابل المختلفة؟ ألم يكن اغتيال (بشير الجميل) قبل ساعتين من دخول الجيش الاسرائيلي بيروت الغربية؟ ألم تنفذ عملية تفجير السيارة الملغومة في شارع كارديني في باريس، وعملية إطلاق النار العشوائي في اليوم التالي على كنيس بروكسل في الوقت نفسه الذي كانت تنفذ فيه مذابح الفلسطينيين العجيبة في مخيمات صبرا وشاتيلا؟».

لقد كانت اللاسامية منذ هرتزل ــ وما تزال ــ أفضل عنصر داعم للصهيونية. أعلن رئيس المنظمة الصهيونية العالمية عام ١٩٥٨ في المؤتمر اليهودي في جنيف يقول: «إن التراجع الملحوظ في الحركة اللاسامية من شأنه أن يشكل خطراً على بقاء اليهود... إن لليهود حقوقاً اقتصادية وسياسية متساوية مع حقوق سائر المواطنين في كل دول العالم على وجه التقريب... فاختفاء العداء للسامية ــ بالمعنى التقليدي ــ له آثار

سلبية في حياة حركتنا الداخلية وإن كانت له فوائده السياسية والاقتصادية لأوضاع الطوائف اليهودية في المجتمعات المختلفة».

وهكذا راح القادة الصهاينة ــ خوفاً من اندماج اليهود بغيرهم وحرصاً على بقاء الشخصية اليهودية ــ يعتمدون على اللاسامية أكثر من اعتمادهم على تنمية القيم اليهودية الأصيلة؛ وهذه التنمية صعبة التحقيق مادام اليهودي يعرَّف (بعرقه) لا بدينه.

وهذه الصعوبة في تعريف اليهودي بمعزل عن المعيار الديني تراها في صميم التشريع الاسرائيلي الذي يتذبذب دائماً بين المعيار العرقي والمعيار الديني.

وهناك كتاب له دلالته للأستاذ كلاين مدير معهد الحقوق المقارنة في الجامعة العبرية في القدس ظهر عام ١٩٧٧ بعنوان (الطابع اليهودي لدولة اسرائيل). وفي الفصل الخاص بقانون العودة ١٩٥٠ ورد مايلي:

«المادة الأولى ــ لكل يهودي الحق في الهجرة إلى اسرائيل».

إذن لا بد من تعريف (اليهودي).

«المادة الرابعة ــ يعتبر يهودياً كل مَنْ ولد من أم يهودية أو أم اعتنقت اليهودية».

وهكذا ــ ما دام اعتناق الديانة اليهودية نادراً جداً ــ يكون معيار الولادة من أم يهودية معياراً عرقياً بحتاً. وهذا الاعتناق لليهودية كان نادراً أيام مرحلة الانحطاط في عهد عزرا ونحميا... وكان أندر أيام قوانين نورمبرغ النازية.

ويعلق رئيس المحكمة العليا الاسرائيلية حايم كوهين بمرارة على (قانون العودة) بقوله: «إن من سخرية القدر أن تكون الأطروحات البيولوجية العرقية لدى النازيين هي الأساس في التعريف الرسمي (لليهودي) في دولة اسرائيل».

ومن المؤسف حقاً أن القضية لا علاقة لها بسخرية القدر أو بسخرية التاريخ؛ ولكنها مرتبطة بمنطق الصهيونية الذي يأخذ بخرافة (العرق) والعرقية.

وفي أثناء محاكمة مجرمي الحرب في نورمبرغ طرح على المنظّر العرقي شترايخر

السؤال التالي: لقد أعلنت عام ١٩٣٥ (القوانين العرقية) في مؤتمر الحزب النازي في نورمبرغ. وفي أثناء تحضير مشروع هذا القانون هل دعيت للاستشارة وأسهمت على نحوٍ ما في صياغة هذه القوانين؟

أجاب المتهم شترايخر قائلاً: نعم أظن أني قد أسهمت في هذا الاتجاه فكتبت منذ سنوات أن علينا أن نمنع في المستقبل كل اختلاط في الدم بين الألمان واليهود. لقد نشرت مقالات في هذا المعنى وكررت دعوتي إلى وجوب اتخاذ (العرق) اليهودي أو الشعب اليهودي نموذجاً نقتدي به... وكنت أقول دائماً إن اليهود يجب أن يعتبروا نموذجاً لسائر العروق لأنهم جعلوا من شريعة موسى قانوناً عرقياً لهم، شريعة موسى القائلة: «إذا دخلتم بلداً أجنبياً فلا تتزوجوا بنساء أجنبيات». وهذا أمر هام جداً لتقييم قوانين نورمبرغ؛ إنها قوانين يهودية اتخذناها قدوة لنا. وبعد قرون عديدة من موسى حينما لحظ المشرع عزرا أن هناك زواجاً بغير اليهوديات على نحو واسع اعتبر هذا التزاوج غير شرعي وتم فسخه. وهذا هو الأساس في عملية الاحتفاظ والاستمساك باليهودية التي دامت على مدى قرون بفضل قوانينها العرقية بينما بادت سائر العروق والحضارات الأخرى».

وهكذا صاغ المستشارون القانونيون في وزارة الداخلية النازية (قوانين نورمبرغ) الخاصة «بحقوق شعب الرايخ وحماية الدم الألماني والشرف الجرماني».

ويفسر المستشارون القانونيون نصوص هذه القوانين بقولهم: «إن القضية اليهودية في ألمانيا قضية عرقية بحتة. وحل هذه القضية مطروح الآن، وهو شرط لازم وضروري لبناء دولة الرايخ الجديد. واستجابة لإرادة هتلر لم يرد في قوانين نورمبرغ أية إجراءات تعمل على تصعيد العداء العرقي بين الشعب اليهودي والشعب الألماني. وإذا حصل اليهود على دولة خاصة بهم فيمكن أن يكون ذلك حلاً للمشكلة اليهودية بالنسبة لليهود والألمان على حد سواء؛ ولهذا لم يُبد الصهاينة المتشددون أي احتجاج على قوانين نورمبرغ لأنهم يعلمون علم اليقين أن هذه القوانين تيسر لهم الحل الوحيد لمشكلتهم كما يعلمون أن الشعب الألماني بعد أن وعى ذاته قد تبنى هذه القوانين التي

تبناها الشعب اليهودي منذ آلاف السنين فجعلت منه شعباً قوياً وأتاحت له أن يحتفظ بنقاء دمه وصفائه على مدى أجيال متعاقبة...».

إن إحدى النتائج المأساوية للمفهوم القائل بأن لجميع يهود العالم (الحق) في أن يستقبلوا في اسرائيل هي أن الصراع على (المدى الحيوي) سيشتد ويقوى حينما تصل الصهيونية إلى أهدافها، وهي ـــ كما يحددها بن غوريون ـــ قدوم ١٣ مليوناً من يهود العالم للإقامة في اسرائيل.

وقد طرحت هذه القضية بوضوح قبل نشوء دولة اسرائيل. كتب يوسف (ويتز) مدير الصندوق القومي اليهودي منذ عام ١٩٤٠: «يجب أن يكون واضحاً لدينا أنه لا مكان لشعبين في هذا البلد؛ فإذا غادر العرب فلسطين فإنها تكفينا... وليس هناك وسيلة أخرى سوى تهجيرهم جميعاً. يجب أن لا نرحم أية قرية أو عشيرة... علينا أن نشرح للرئيس روزفلت ولكل قادة الدول الصديقة أن أرض اسرائيل ليست صغيرة علينا إذا غادرها العرب ودفعنا بحدودنا قليلاً نحو الشمال على طول نهر الليطاني ونحو الشرق إلى مرتفعات الجولان».

إذن نحن مازلنا مع المنطق الصهيوني المغرق في التشدد الذي يريد أن يؤمّن أكثرية يهودية في بلد يسكنه أصحابه من العرب الفلسطينيين.

إن الصهيونية قد طرحت الحل الوحيد المستوحى من برنامجها الاستعماري: إنه إنجاز استعمار استيطاني بطرد الفلسطينيين، ودفع عملية هجرة اليهود إلى الأمام؛ فطرد الفلسطينيين والاستيلاء على أراضيهم كان مشروعاً متعمداً ومبرمجاً.

أما الوسائل المتبعة في تجريد السكان الأصليين من أرضهم فهي وسائل الاستعمار المغرقة في الشراسة مضافاً إليها لون عرقي متميز ذو نكهة صهيونية.

وهاهنا لا بد لنا أن نميز بين مرحلتين في مسيرة الاستعمار الصهيوني:

أما المرحلة الأولى فكانت ذات طابع استعماري تقليدي قوامه استثمار اليد العاملة المحلية... وهو أسلوب البارون روتشيلد؛ ومثاله ما كان يتبع في الجزائر حينما كان

روتشيلد يستغل في كرومها اليد العاملة الرخيصة للفلاحين... ثم مد نشاطه إلى فلسطين ليستثمر كذلك كرومها وفلاحيها من العرب.

وحوالي عام ١٩٠٥ كان انعطاف جديد بوصول موجة جديدة من المهاجرين من روسيا على أثر سحق ثورة ١٩٠٥. وعوضاً عن أن يتابع هؤلاء الانهزاميون القتال إلى جانب إخوانهم الثوار الروس وصلوا إلى فلسطين حاملين معهم «اشتراكية صهيونية» عجيبة: فلقد شكلوا تعاونيات حرفية فلاحية تدعى (الكيبوتز) بإبعاد الفلاحين الفلسطينيين بغية خلق اقتصاد يعتمد على الطبقة العاملة والفلاحية اليهودية.

وفي المرحلة الثانية جرى الانتقال من استعمار تقليدي كالنمط الانكليزي والفرنسي إلى استعمار استيطاني يستوحي منطق الصهيونية السياسية ويقتضي المزيد من المهاجرين الذين تُرصد لهم الأرض والمهن... فلا بد إذن من إحلال شعب آخر محل الشعب الفلسطيني والاستيلاء على أرضه.

إن نقطة الانطلاق لهذه العملية الكبيرة كانت في إنشاء (الصندوق القومي اليهودي) عام ١٩٠١ الذي امتاز بطابع فريد في نوعه من بين سائر الطرائق الاستعمارية: فالأرض التي يمتلكها هذا الصندوق لا يجوز بيعها أو تأجيرها لغير اليهود.

أفيمكن إذن بعد هذا إنكار التمييز العرقي الذي يتجلى في مثل هذا التوجه؟ وهكذا تقوم السياسة الزراعية لدى قادة اسرائيل على نهب منظم مبرمج لأرض الفلاحين العرب ووجودهم.

أما القانون العقاري لعام ١٩٤٣ الخاص بمصادرة الممتلكات في سبيل المصلحة العامة فموروث عن مرحلة الانتداب البريطاني. وهذا القانون الشرعي ـــ بحد ذاته ـــ قد حُرف عن جوهره حينما طُبق بروح عنصرية متعصبة... ففي عام ١٩٦٢ طرد ٥٠٠ مواطن عربي من قريتين عربيتين باسم (المصلحة العامة) بغية إنشاء مدينة (كرمئيل) المخصصة لليهود وحدهم.

وهناك أسلوب آخر وهو اللجوء إلى استخدام (قانون الطوارىء) الذي أعلنه الانكليز عام ١٩٤٥ في وجه اليهود والعرب. إن هذا القانون يخول الحكومة

العسكرية ـــ بحجة الدفاع عن الأمن ـــ (تعليق) كل حقوق المواطنين، ومنها حق التنقل: فيكفي مثلاً أن يعلن الجيش عن منطقةٍ ما بأنها محرمة بحجة أمن الدولة ليتعذر على العربي دخول أرضه إلا بإذن من الحكومة العسكرية... وإذا لم يسمح له بذلك سميت أرضه أرضاً (بوراً) فيحق حينذاك لوزير الزراعة امتلاك هذه الأرض البور ليتم استثمارها.

وقد أعلن السيد (شابيرا) في اجتماع نظم للاحتجاج على هذه القوانين في تل أبيب عام ١٩٤٦ قائلاً: «إن الوضع الناجم عن هذا التشريع لا مثيل له في البلدان المتمدنة. حتى في ألمانيا النازية لا وجود لمثل هذه القوانين»... ولكن (شابيرا) هذا الذي أصبح فيما بعد محامياً عاماً ثم وزيراً للعدل سيطبق هذه القوانين على العرب. ولكي يبرِّر استمرار العمل بهذه التشريعات الإرهابية بقي (قانون الطوارىء) ساري المفعول منذ عام ١٩٤٨ في دولة اسرائيل.

كتب شمعون بيريز عم ١٩٧٢ في جريدة (دافار) يقول: «إن استخدام القانون ١٢٥ (قانون الطوارىء) الذي تعتمد عليه الحكومة العسكرية مسخر لاستمرار النضال في سبيل توطين اليهود وتوسيع الهجرة».

إن القرار الخاص بزراعة الأراضي البور لعام ١٩٤٨ المعدل عام ١٩٤٩ يأخذ بالتوجه نفسه، ولكن بطريق أقرب وأسرع؛ فيمكن لوزير الزراعة أن يصادر كل أرض مهجورة دون التذرع بحجة المصلحة العامة أو الأمن العسكري.

وهكذا كان النزوح الجماعي للسكان العرب تحت سيف حملات الإرهاب (دير ياسين ١٩٤٨ ـــ كفر قاسم ١٩٥٦ ـــ مخيم الوحدة ١٠١ التي نفذها موشي دايان وأشرف عليها أرييل شارون) هو الذي (حرر) أراضي واسعة وأفرغها من مالكيها العرب أو من العاملين فيها لتعطى للمحتلين اليهود.

وقد استكملت حركة نزع أملاك الفلاحين أبعادها بقانون عام ١٩٥٠ الخاص باستملاك أراضي (الغائبين)، وبمجموعة من الإجراءات المشابهة الهادفة إلى إضفاء

الشرعية على عمليات السرقة، وذلك بطريق إرغام العرب على مغادرة أرضهم كي تقام عليها مستعمرات يهودية.

وبغية محو أي أثر لوجود الفلاح الفلسطيني، وبغية توكيد خرافة (الأرض الخلاء) تم هدم القرى العربية ببيوتها وأسوارها بل بمقابرها وأضرحتها. ويقدم لنا الأستاذ اسرائيل شاحاك عام ١٩٧٥ قائمة بـ ٣٨٥ قرية عربية تم هدمها بالجرارات من مجموع ٤٧٥ قرية كانت قائمة عامرة عام ١٩٤٨.

هذا وما تزال المستعمرات الاسرائيلية تقام وتنمو منذ عام ١٩٧٩ في الضفة الغربية، وهي مأهولة بالمستوطنين المسلحين وفق التقاليد المعهودة في المستعمرات اليهودية.

تلك هي السياسة الاستعمارية العرقية للصهيونية السياسية فيما يخص قانون الأحوال الشخصية وقانون الأرض. على هذا من السهل علينا الآن أن نفهم ماذا يعني لدى قادة اسرائيل مشروع (الحكم الذاتي) الذي ينادي به مناحيم بيغن... وواقع الحال أنه لا يعني إلا الاستمرار في سياسة الإلحاق والإتباع التي يتبناها الاستعمار الصهيوني.

ولكن ترى مع أية جهة يمكن لقادة اسرائيل أن يتفاوضوا حول المشروع؟ مع منظمة التحرير الفلسطينية؟ إنهم يرفضونها كل الرفض... أم يفاوضون ممثلي الشعب الفلسطيني في المجالس والبلديات؟ لقد أقالوهم جميعاً من مناصبهم.

وإليكم التنظيمات الرئيسية التي خططت لهذا (الحكم الذاتي) الكاريكاتوري: في عام ١٩٧٩ قدم بيغن إلى لجنة الأحد عشر وزيراً مشروعه حول (الحكم الذاتي) فأقرته اللجنة ثم صدقته الحكومة.

يقوم المشروع المصدق من قبل الحكومة على تعداد المبادىء التي تكرس سياسة الإلحاق والتوسع التي تنتهجها الدولة الصهيونية. ويؤكد المشروع على أنه بعد فترة انتقالية مدتها خمس سنوات من (الحكم الذاتي) تعود اسرائيل إلى استرجاع حقها المزعوم في السيادة على الضفة الغربية وقطاع غزة. وهذا المبدأ يلقي الضوء على سائر

المبادىء. «فالمستعمرات اليهودية وسكانها سيكونون تابعين للتشريعات الاسرائيلية والإدارة الاسرائيلية». أما (الحق) في استمرار عملية الاستيطان في المناطق الخاضعة لنظام الحكم الذاتي فيظل مضموناً؛ وأما الأراضي الأميرية والأراضي غير المزروعة فتكون تحت يد المحتل... وتنتشر قواه المسلحة في المناطق المحددة الخاضعة لنظام الحكم الذاتي... وتعمل قوى الأمن على حفظ الأمن الداخلي في الأراضي المحتلة. أما المجلس الإداري فالمشروع ينص على أن الحكومة العسكرية ستسلم سلطاتها إلى الإدارة الذاتية. وهناك مفاوضات ستجري حول عدد أعضاء المجلس الإداري الذين سيتم انتخابهم. وينص الملحق على أن الحكام الصهاينة لا يسمحون أبداً بقيام دولة فلسطينية في الضفة الغربية وغزة.

ويتضمن المشروع قيوداً تبدأ بطريقة انتخاب المجلس الإداري للحكم الذاتي فلا يحق لأي عضو معارض للاحتلال أن يُرشَّح للانتخابات. وعلى الصعيد الاقتصادي لا يحق لمجلس الإدارة الذاتية إنشاء مصرف مركزي أو إصدار النقود أو فرض الضرائب غير المباشرة أو مراقبة الصادرات والواردات. أما على صعيد الأمن الداخلي فيوضع المعتقلون السياسيون في سجون تابعة للقوانين والتشريعات الاسرائيلية. أما عملية الاستيلاء على الأراضي فتستمر... فهناك ٢٢٧٫٠٠٠ دونم ستحجز بحجة إقامة مناطق ومعسكرات للجيش، أضف إليها الأرض التي ستشق فيها الطرق العريضة الحديثة في الضفة الغربية وقطاع غزة. ويحق للمحتل إنشاء شرطة محلية مسلحة في كل مناطق الحكم الذاتي.

أما القانون المتعلق بالجنسية فتقول المادة الثالثة منه: «كل شخص كان فلسطينياً قبل الاحتلال مباشرة ولم يكتسب الجنسية الاسرائيلية عليه أن يتقدم بوثائق تثبت ملكيته لأرض ما في فترة ما لكي يحصل على جنسية اسرائيلية... وإلا عُدَّ مشرداً لا وطن له». أما إجراءات اكتساب الجنسية فقد تقبل وقد ترفض من قبل وزير الداخلية... وهكذا يمكن لأي يهودي من (بتاغونيا) مثلاً أن يعتبر مواطناً اسرائيلياً حينما تطأ قدمه أرض المطار في تل أبيب؛ أما الفلسطيني المولود في فلسطين فيمكن أن يعتبر مشرداً بلا وطن!

إي نعم... ليس في هذا أي تعصب عرقي أو تمييز عنصري يمارَس على الفلسطينيين... وإنما هي إجراءات (لمصلحة) اليهود!

وهكذا يبدو قرار الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة عام ١٩٧٥ محقاً حينما عرَّف الصهيونية بأنها «شكل من أشكال التفرقة العنصرية والتمييز العرقي».

٣

السياسة الخارجية للدولة الصهيونية

إن سياسة اسرائيل الخارجية في التوسع والعدوان تنبع من المبادىء الأساسية للصهيونية ومن ممارساتها العرقية.

وطبيعي أن تثير إجراءات الطرد والنهب والذبح الواقعة على الجماهير الفلسطينية بغية إحلال مجموعات بشرية غريبة على أرضها غضب السكان الأصليين الفلسطينيين الذين عاشوا على أرضهم منذ أكثر من أربعة آلاف عام كما تثير مخاوف العالم العربي تجاه مشروع استعماري من هذا القبيل.

وواقع الأمر أن الشرق الأدنى منذ ولادة اسرائيل الصهيونية صار عرضة للنار والدم... وكان من جراء ولادة هذه الدولة أن قامت خمس حروب: ١٩٤٨ ــ ١٩٥٦ ــ ١٩٦٧ ــ ١٩٧٣ ــ ١٩٨٢.

وهاهنا لا بد من العودة إلى الاستشهاد بالأطروحة الأولى عن (الوعد) التوراتي القائلة: «من الفرات إلى النيل». وهذا يعني عدم الاكتفاء بفلسطين كاملة بل احتلال الأردن وجنوبي لبنان وأجزاء من سورية والعراق والعربية السعودية.

وتشهد عمليات (القضم) المستمرة للقدس العربية وللجولان في سورية وجنوبي لبنان بأن التهديد القائم ليس وهماً من الأوهام. وليس وهماً أيضاً ذلك الانتهاك الدائم

من قبل اسرائيل للقانون الدولي وعدم الالتزام به.

إن دولة اسرائيل هي الدولة الوحيدة التي كان قبولها عام ١٩٤٩ عضواً في الأمم المتحدة قبولاً مشروطاً بعد أن تعهدت بتحقيق الالتزامات التالية:

١ ــ عدم الإخلال بوضع القدس الراهن.
٢ ــ السماح للعرب الفلسطينيين بالعودة إلى ديارهم.
٣ ــ احترام الحدود التي عينها قرار التقسيم.

ولكن كل قرارات الأمم المتحدة وكل الالتزامات لدى الدولة الصهيونية منذ قيامها كانت حبراً على ورق!

يصرح بن غوريون وهو يتحدث عن قرار (التقسيم) أي عن وثيقة ولادة دولة اسرائيل قائلاً: «إن دولة اسرائيل ترى أن قرار الأمم المتحدة في التاسع والعشرين من تشرين الثاني عام ١٩٤٧ قرار باطل وكأنه لم يكن».

وهناك مرحلتان في تطور السياسة الخارجية للصهيونية يمكن التمييز بينهما:

أ ــ فقبل الحرب العالمية الثانية كان تقدم الصهيونية بفضل خدمتها لأهداف القوى الاستعمارية المختلفة وفق مناورات هرتزل القائلة: «سنكون في آسيا قلعة متقدمة للغرب».

ب ــ وبعد الحرب العالمية الثانية تنمو دولة اسرائيل الصهيونية لأنها جعلت من نفسها أداة في يد الولايات المتحدة، أكبر قوة امبريالية... وستعمل اسرائيل ــ بفضل موقعها الستراتيجي المتميز في فلسطين ــ على تأمين المصالح الأمريكية في قناة السويس بل في مضيق الدردنيل ومنطقة الخليج العربي... وفق تصريحات شارون.

إن هذا الدور الستراتيجي العالمي الهام على صعيد صراع القوى الكبرى يفسر لنا قدرة اسرائيل على إعلان مطامعها التوسعية غير المحدودة تحت (قناع) توراتي دون أن تخشى حساباً أو عقاباً.

أما خرافة (اسرائيل الكبرى) التي وعد بها الأجداد فإن قادة اسرائيل ما انفكوا

يبررون باسم هذه الأوهام التوراتية سياستهم في التوسع والعدوان والضم والإلحاق. وانطلاقاً من هذه (المبادىء) صارت حدود اسرائيل حدوداً (مطّاطية). كتبت صحيفة جيروزاليم بوست عام ١٩٦٧ تقول: «تأملوا وثيقة الاستقلال الأمريكية فلن تجدوا فيها ما ينص على حدود إقليمية ... ونحن كذلك لسنا ملزمين بتحديد حدود ثابتة لدولتنا».

وبكل وضوح وصراحة يقول بن غوريون في هذا الصدد: «لسنا معنيين بالثبات على الوضع الراهن. لا بد لنا أن ننشىء دولة ديناميكية متأهبة للتوسع المستمر».

إن السياسة العملية تتفق تمام الاتفاق مع هذه النظرية الفريدة في نوعها، سياسة الاستيلاء على الأرض وطرد السكان... وتلك هي شريعة الغاب التي أقامتها الدولة الصهيونية منذ البداية انطلاقاً من طبيعتها نفسها: نعم لم يلتزم قادة اسرائيل قط بقرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة... ففي الفترة الواقعة بين صدور قرار التقسيم عام ١٩٤٧ وبين انتهاء مدة الانتداب البريطاني قام رجال الكومندس الصهاينة باحتلال مناطق خاصة بالعرب كيافا وعكا.

وكان تدخل الدول العربية بغية حماية الفلسطينيين من المذابح كمذبحة دير ياسين فرصة للقادة الصهاينة لضم أراض جديدة؛ لقد منحتهم الأمم المتحدة بموجب قرار التقسيم ٥٦٪ من مساحة فلسطين... فصاروا يحتلون ٨٠٪ في نهاية أول حرب اسرائيلية ــ عربية.

أما أسطورة (الشعب الصغير) المهدد بالعملاق العربي، أسطورة الشعب الصغير الذي لم يستمر في الحياة إلا بفعل الضربات العسكرية الصاعقة، فلم تثبت أمام الوقائع. حسبنا أن نشير إلى الوضع الراهن حيث يمتلك الجيش الاسرائيلي كمياً ونوعياً من أدوات الحرب وعتادها ما لا تمتلكه كل جيوش الدول العربية مجتمعة... وفي عام ١٩٨٤ كانت الجيوش العربية، المصرية والسورية والأردنية واللبنانية والعراقية، تعد ٢٢،٠٠٠ مقاتل في مواجهة ٦٠،٠٠٠ جندي اسرائيلي.

بل إن هذه الهجمة الأولى بدت في أعين قادة اسرائيل غير كافية؛ ففي عام

١٩٦٤ قال بن غوريون في مقابلة له في مجلة نيويورك تايمز: «لو أن الجنرال موشي دايان كان رئيساً للأركان في حرب ١٩٤٨ لكسبت اسرائيل رقعة أوسع من الأرض». أما الجنرال آلون الذي شغل مهمات ذات شأن في حرب ١٩٤٨ فيقول: «لو لم يصدر رئيس الوزراء بن غوريون ووزير الدفاع الأمر بإيقاف تقدم الجيش الاسرائيلي لأوشكنا أن ننتصر... وأن نصل إلى نهر الليطاني في لبنان وصحراء سيناء في الجنوب الغربي... ولاكتفينا بعدة معارك على مدى أيام لتحرير البلاد كلها».

ولكن ذلك لم يكن إلا البداية؛ فحينما أمم الرئيس عبد الناصر قناة السويس رأى القادة الصهاينة في ذلك فرصة لتوسع إقليمي جديد وذلك بالتحالف مع الانكليز الذين كانوا يشرفون على القناة، ومع الحكومة الفرنسية التي كانت في عز الحرب الجزائرية وكانت تأمل أن تضرب قادة جبهة التحرير الجزائرية مع حلفائها في مصر. وقد قام موشي دايان وشمعون بيريز عن الصهاينة بالتنسيق مع الجنرال شال والحكومة الفرنسية لتنظيم الهجوم على مصر... ولكن الإنذار الأمريكي السوفيتي المشترك أوقف هذه الحملة الجديدة... وظل (الهدف الكبير) لإسرائيل معلقاً إذ كتب مناحيم بيغن حينذاك: «إن أرض اسرائيل ستعود إلى الشعب الاسرائيلي كاملة وإلى الأبد».

وفي عام ١٩٦٧ قرر قادة اسرائيل القيام بقفزة جديدة إلى الأمام... فالحرب هي وسيلتهم لحل مشكلاتهم: كان في اسرائيل عام ١٩٦٧ ٩٦،٠٠٠ عاطل عن العمل من مجموع ٩٥٠،٠٠٠ نسمة من العاملين، وكانت الهجرة من اسرائيل تفوق الهجرة إليها إذ كان ١٠،٠٠٠ مواطن يغادرون اسرائيل كل عام. أما عائدات المعونات الواردة من يهود الشتات ــ ولاسيما من أمريكا ــ فقد بلغت حدها الأدنى... إذن لعل حرباً مظفرة تنجح في حل هذه المشكلات في آنٍ معاً... فلتعلن التعبئة العامة لاحتلال أراض جديدة بغية امتصاص البطالة، ولتجهَّز حملة دعائية تقول بأن أمن اسرائيل مهدد بغية الحث على جمع التبرعات، وليؤمَّنْ نصر عسكري يعيد الثقة إلى نفوس المهاجرين.

إن (الحرب الوقائية) هي من صميم منطق النظام الصهيوني. صرح مناحيم بيغن عام ١٩٥٥ في الكنيست قائلاً: «أعتقد جازماً بوجوب شن حرب وقائية على

الدول العربية دون تردد كي نصل إلى تحقيق هدفين بهذه الطريقة: تدمير قدرات الدول العربية أولاً وتوسيع مساحة أرضنا ثانياً».

لقد بدأت الحرب الوقائية أو (حرب الأيام الستة) عام ١٩٦٧ بعملية شبيهة بتلك العملية التي قام بها الفاشيون اليابان عام ١٩٤١ في (بيرل هاربر) دون إعلان للحرب إذ باغتوا الأسطول الأمريكي في المحيط الهادي ودمروه تدميراً كاملاً. وهكذا قام الطيران الاسرائيلي في الخامس من حزيران عام ١٩٦٧ ـــ دون إعلان للحرب ـــ فدمر الطيران المصري وهو على الأرض.

وفي الثاني عشر من حزيران عام ١٩٦٧ صرح رئيس الوزراء ليفي أشكول في الكنيست «بأن وجود دولة اسرائيل كان معلقاً بشعرة... ولكن آمال القادة العرب في إبادة اسرائيل قد تبخرت». هذا ولم يصدق أي مسؤول اسرائيلي هذه الكذبة الساذجة المستخدمة للدعاية في الداخل والخارج. وقد فضح وزير سابق يدعى (مردخاي بنتوف) هذه الكذبة بقوله: «إن كل ما قيل عن خطر الإبادة المحدق باسرائيل قد اخترع وضخم ـ بعد فوات الأوان ـــ لتبرير ضم أراض عربية جديدة». وقد أكد ذلك من جانب العسكريين عازر وايزمن بقوله: «لم يكن هناك تهديد بالإبادة أو أي خطر». أما الجنرال ماتتياهو فيقول: «إن الأطروحة القائلة بخطر الإبادة الجاثم فوق رؤوسنا في حزيران عام ١٩٦٧ وبأن اسرائيل تقاتل بغية الدفاع عن وجودها المادي ليست إلا خدعة ولدت ونمت بعد الحرب».

والجنرال رابان يكتب قائلاً: «لا أظن أن عبد الناصر كان يريد الحرب؛ فالفرقتان العسكريتان اللتان أرسل بهما إلى سيناء لا تكفيان لشن حرب هجومية على اسرائيل. وهو يعرف ذلك كما نعرفه نحن».

لقد تآمر العدوان والكذب فأتاحا لإسرائيل احتلال سيناء. نعم إنه الكذب؛ فالممثلون الرسميون للدولة الصهيونية ما انفكوا يؤكدون أنهم لا يريدون ضم أراض جديدة خلافاً لما يفعلون.

يصرح مندوب اسرائيل في الأمم المتحدة عام ١٩٦٦ بقوله: «إن اسرائيل

لا تطمع في أي أرض من أراضي جيرانها». أما موشي دايان فيصرح في الخامس من حزيران عام ١٩٦٧ قائلاً: «نحن لا نهدف إلى أي اجتياح عسكري» بينما يصرح الجنرال هود قائد سلاح الطيران الاسرائيلي بقوله: «إن ستة عشر عاماً من الإعداد والاستعداد قد جنينا ثمارها في ثمانين دقيقة فقط. نعم كنا نعيش مع هذا المخطط ونعمل على تطويره دائبين».

وهكذا كان جزاء المكر والخديعة وافراً موفوراً فقد احتل الصهاينة بعد ١٩٦٧ مساحة من الأرض تفوق ثلاثة أضعاف المساحة التي منحهم إياها قرار التقسيم عام ١٩٤٧. ولكن المطامع في اجتياحات جديدة سرعان ماراحت تطل برأسها؛ فمنذ عام ١٩٦٨ يصرح موشي دايان قائلاً: «إن شعبنا طوال مئتي عام مضت قد عمل على بناء وتطوير هذا البلد وهذه الأمة بجلب المزيد من اليهود وبإنشاء المزيد من المستعمرات بغية توسيع رقعة أرضنا. علينا أن لا نوحي لأي يهودي بأن مسيرتنا قد بلغت غايتها وأننا قد وصلنا إلى نهاية الشوط». وموشي دايان نفسه يقول عام ١٩٦٧: «لقد تحقق حلم آبائنا في الوصول إلى الحدود التي منحنا إياها قرار التقسيم. أما جيلنا فقد وصل إلى حدود عام ١٩٤٩. وأما جيل حرب الأيام الستة فقد وصل إلى حدود قناة السويس والأردن ومرتفعات الجولان... ولكن الشوط لم ينته هاهنا فنحن سنتخطى الحدود التي رسمها قرار وقف إطلاق النار لنصل إلى الأردن، وقد نصل إلى لبنان ووسط سورية».

وحينما سئلت غولدا مائير عام ١٩٧٢م في مقابلة صحفية: «ما الحدود التي ترين أنها ضرورية لأمن اسرائيل؟» أجابت بقولها: «إذا كنت تريد بسؤالك أن هناك حدوداً رسمناها لدولتنا فهذا ما لم نفعله بعد... وسنفعله عندما يؤون الأوان. ولكن من الثوابت في السياسة الاسرائيلية أننا لن نرجع إلى حدود عام ١٩٦٧ في حالة عقد اتفاق للسلام؛ فلا بد من تعديل في الحدود. نريد تغييراً للحدود بل لكل الحدود بغية الحفاظ على أمننا».

وبعد التوقف الفجائي لإطلاق النار عام ١٩٧٣ استمر تصعيد سياسة اسرائيل

الاستعمارية دون هوادة ولاسيما بعد اتفاقيات كامب ديفيد في ايلول عام ١٩٧٨ التي سهلت عملية بناء المستعمرات الجديدة واستيطانها في الأراضي المحتلة وضم القدس والجولان ومهدت لغزو لبنان عام ١٩٨٢.

إن ما يلفت النظر في عملية اجتياح لبنان أنها ليست شاذة أو غريبة أو غير متوقعة؛ فالعملية قد جرى التحضير لها منذ عشرات السنين. إنها من صميم الصراع الفاشي الاستعماري الاسرائيلي بغية تحقيق (المجال الحيوي). ولكن الجديد في غزو لبنان أن عدداً كبيراً من يهود العالم وعدداً من يهود اسرائيل وملايين الناس في الغرب راحوا يعون — أول مرة — أنهم ضحايا الخداع والمكر منذ أكثر من ثلث قرن... أما المؤلم والمحزن فهو أنه كان لابد من ذبح عشرات الألوف من النساء والأطفال والشيوخ وتدمير بيروت وارتكاب الجرائم الشائنة في صبرا وشاتيلا... لكي يظهر الوجه الحقيقي الاستعماري العرقي المغرق في الفاشية للعقيدة الصهيونية السياسية ولممارسات دولة اسرائيل، ولكي ينكشف زيف الخرافات التي كان الاسرائيليون يذرّون رمادها في عيون الناس.

لقد كانت الأكذوبة صارخة حتى بات من الصعب أن لاتنكشف الحقيقة المرعبة على الرغم من كل ألوان التمويه ومحاولات التخفيف في الصحافة والتلفزة.

ولقد وضحت حرب لبنان هذه الحقيقة الأساسية؛ وهي أن كل حرب تقوم بها دولة اسرائيل منذ نشأتها تندرج في نطاق جوهر منطق العقيدة الصهيونية.

نعم لم تكن أية حرب من حروب اسرائيل رداً على (التهديد الخارجي)، تهديد (جوليات العربي) لـ (داوود الصغير) الاسرائيلي... وسنرى ذلك لدى دراستنا التي نوازن بها بين القوى العسكرية.

وهكذا تذرع قادة اسرائيل — أول الأمر — بغية تبرير شن عدوانهم على لبنان بعملية اغتيال أحد الدبلوماسيين الاسرائيليين في لندن، هذا الاغتيال الذي سرعان ما اتهمت به منظمة التحرير الفلسطينية. وقد قدمت السيدة تاتشر نفسها في مجلس العموم البريطاني البرهان على أن هذه الجريمة من صنع عدو صريح لمنظمة التحرير

الفلسطينية . ولدى اعتقال المجرمين وبدء التحقيق صرحت السيدة تاتشر بقولها : «لقد وجدنا لدى منفذي جريمة الاغتيال قائمة بشخصيات سيجري اغتيالها ومنها أحد المسؤولين في منظمة التحرير في لندن ... وهذا مايجعلنا نؤكد أن المهاجمين لم يكونوا مدفوعين من قبل منظمة التحرير كما تدعي اسرائيل . وأنا لا أرى أن الهجوم الاسرائيلي على لبنان كان عملاً ثأرياً يرد على الاغتيال : لقد وجد الاسرائيليون في هذه العملية ذريعة لفتح باب العداء ثانية مع العرب» .

وقد مر تكذيب الادعاء الاسرائيلي من قبل تاتشر في فرنسا مرور الكرام ، بينما هدم الأسطورة القائلة (بالدفاع المشروع) عن النفس لتبرير هذا العدوان الجديد .

أطلقت الحكومة الاسرائيلية على غزو لبنان اسم (السلام في الجليل) وأتت على ذكر انتهاك مزعوم لاتفاقية وقف إطلاق النار من قبل الفلسطينيين . وكانت الشهادة التي نشرها مراسل واشنطن بوست في تل أبيب قاطعة واضحة . يقول المراسل : «إن السفارة الاسرائيلية في واشنطن قدمت لائحة تزعم فيها أن هناك اثنين وثلاثين انتهاكاً لوقف إطلاق النار . وبعد تدقيق اللائحة تبين أن هذه العمليات قد جرت كلها داخل المنطقة الحدودية التي يشرف عليها (سعد حداد) التي سماها (لبنان الحر) . أما أول خرق اسرائيلي لوقف إطلاق النار فكان بفعل هجوم قامت به طائرات حربية اسرائيلية قتل من جرائه عشرون قتيلاً وستون جريحاً ... وكانت حجة الهجوم أنه ثأر لمقتل ضابط اسرائيلي في منطقة تقع خلف شريط سعد حداد وتشرف عليها قوات الأمم المتحدة . هذا ولم تقم منظمة التحرير بأي رد على الهجوم . صحيح أن منظمة التحرير قد وجهت في التاسع من أيار من قرب صور وبمساعدة حلفائها اليساريين اللبنانيين ثلاثين قذيفة صوب اسرائيل ؛ ولكن ذلك لم يكن إلا بعد أن قام الطيران الاسرائيلي بتدمير الدامور والزهراني تدميراً وحشياً دون أي سبب ظاهر . وقد عرفت واشنطن حقيقة المبالغات الاسرائيلية بطريق سفارتها في بيروت ولكنها لم تحرك ساكناً» .

وفي السادس من حزيران عام ١٩٨٢ وبعد قصف مكثف على جنوبي لبنان دام يومين أعلنت الحكومة الاسرائيلية أن هدف عملية (السلام في الجليل) يقتضي إقامة

منطقة خالية من السلاح يمتد عمقها أربعين كيلو متراً (أي ما يقرب من ثلث مساحة لبنان)، وذلك بغية حماية حدود اسرائيل الشمالية.

ونحن لكي ندرك أن اجتياح لبنان لا علاقة له باغتيال الدبلوماسي الاسرائيلي في لندن ولا يمت بصلة إلى أي تهديد مزعوم للجليل... يكفي أن نشير إلى أن (لبنان) يدخل في حساب المشروع الصهيوني، مشروع (اسرائيل الكبرى). نعم في الوقت الذي لم يكن فيه أي دبلوماسي إسرائيلي قد هوجم، وفي الوقت الذي لم تكن منظمة التحرير قد أنشئت بعد ولم يكن هناك أي (إرهاب) يهدد الجليل... كان غزو لبنان قد دخل منذ زمن طويل جدول برنامج الضم والإلحاق الصهيوني. وقد سبق لبن غوريون أن كتب منذ خمسة وثلاثين عاماً في مذكراته سنة ١٩٤٨ يقول: إن لبنان هو (عقب أخيل[1]) أي نقطة الضعف ــ في الحلقة العربية. إن التفوق العددي للمسلمين في هذا البلد تفوق مصطنع ويمكن أن تنعكس الآية. وهكذا يجب أن تقام دولة مسيحية في لبنان تكون حدودها عند نهر الليطاني. وسنوقع معاهدة تحالفية مع هذه الدولة. وحينما نقضي على قوة الدول العربية وندمر عمان سننظف الضفة الغربية وبعد ذلك ستسقط سورية. وإذا تجرأت مصر على إعلان الحرب فسوف نقصف بورسعيد والاسكندرية والقاهرة... وهكذا سننهي الحرب ونثأر لأجدادنا من مصر وأشور وكلدة».

وحينما شكل بيغن حكومته عام ١٩٨١ حدد وزير الحرب أرييل شارون أهدافه التي لا تمت بصلة إلى مشروع (السلام في الجليل). وكان قد كتب عام ١٩٧٤ قائلاً: «يجب أن نضرب ونضرب دون انقطاع! يجب أن نضرب الإرهابيين في كل مكان: في اسرائيل وفي البلدان العربية وخارجها. أنا أعرف ما يجب أن أفعل وقد فعلته. يجب أن لا نكتفي بضرب الإرهابيين بعد عملياتهم بل لا بد من ضربهم كل يوم وأينما كانوا. وإذا علمنا بوجود إرهابي في بلد عربي أو في أوروبا فلا بد من الوصول إليه

---

١ ــ (أخيل) هو البطل اليوناني الذي خاض حرب طروادة. وكان سر قوته يكمن في عقب قدمه، ولم يتمكن منه الأعداء إلا بإصابته في هذه المنطقة.

(المترجمان)

لا في وضح النهار بل يجب أن يختفي بغتة أو أن يوجد ميتاً على حين غرة ... أو أن يطعن في أحد النوادي الليلية » ... وهاهو ذا الآن وقد أصبح وزيراً للدفاع يستطيع أن ينفذ ما يقول!

ولدينا الآن شهادتان متفقتان مفحمتان: شهادة الصحفي الاسرائيلي (راندال)، وشهادة سفير فرنسا في بيروت أثناء حرب لبنان ... وهما تشهدان على بطلان التذرع (بسلام الجليل) والمطالبة بمنطقة أمنية تمتد أربعين كيلو متراً:

كان شارون بعد عدة أشهر من تسلمه وزارة الدفاع يؤكد علانية أن منطقة النفوذ العسكري لإسرائيل في الثمانينات يجب أن تمتد إلى ما وراء العالم العربي لتشمل تركيا وإيران والباكستان كما تمتد إلى افريقية الوسطى والشمالية. كان شارون يهتف بأعلى صوته بأن اسرائيل هي القوة العسكرية الرابعة في العالم. وكان شارون ــ شأنه شأن من أتى قبله ــ يتبنى سياسة هجومية ويفضل أن تكون المعارك داخل أراضي العدو. ولكي يؤمن لإسرائيل تفوقاً في الشرق الأوسط كله كان يحدد أهدافه بوضوح. كان ينوي سحق منظمة التحرير الفلسطينية ما دامت تشكل قوة عسكرية وسياسية في لبنان. وهو يطمح إلى ضم الضفة الغربية وقطاع غزة المحتلين. أما الملك حسين فيخلع عن عرشه كي تعطى الأردن للفلسطينيين الذين يشكلون ثلثي سكان هذا البلد... وأما سورية والعراق فيجب أن تنتشر فيهما الفوضى وعدم الاستقرار؛ وأما الممالك المحافظة الموالية لأمريكا في منطقة الخليج فسيوحى إليها بأن تشعر بمزيج من الرعب والامتنان لأن ذلك سيخلصها من ابتزاز منظمة التحرير ويحميها من تهديدات الثورة الإيرانية.

ويشير السفير الفرنسي في بيروت إلى ناحية تدل بوضوح على أن العملية تدخل في إطار المشروعات الصهيونية الأمريكية المدروسة الخاصة بالشرق الأدنى ولاسيما لبنان؛ وهي مشروعات باركها القادة الصهاينة. يقول السفير: «إن مشروع كيسنجر يرى ــ على وجه التحديد ــ أن حل أزمة الشرق الأوسط يكون بطريق تغيير جديد في خارطة المنطقة».

إن غزو لبنان على يد بيغن وشارون وعصابتهما ليس إلا فصلاً في مشروع تقطيع أوصال كل البلدان في الشرق الأوسط ... وكأن ذلك استمرار (لبلقنة) المنطقة على يد المستعمرين الانكليز والفرنسيين والأمريكيين والاستعمار الصهيوني العرقي الذي يلعب دوره الواضح في المخطط.

أما عن هدف التحضير لحرب ١٩٨٢ فيكتب السفير الفرنسي قائلاً: «إن عصبة القادة الإسرائيليين هم خريجو مدرسة الحرب الدائمة. وهذه العصبة مقتنعة بأن أمن اسرائيل لا يمكن أن يتحقق بضمان من المجتمع الدولي وإنما بإنجاز مشروع (اسرائيل الكبرى) المحمية بحزام أمني في الجنوب والشرق والشمال».

والحق أن عام ١٩٨١ لم يكن على الرغم من الهدنة التي تمت بإشراف فيليب حبيب ــ إلا تحضيراً طويلاً للحرب العلنية عام ١٩٨٢ ... فقد أنزلت قوات محمولة بالطائرات الحوامة بالقرب من النبطية وصحب ذلك هجوم اسرائيلي على مخيمات جنوبي لبنان وضاحية بيروت الجنوبية والبقاع، ثم وقعت أزمة الصواريخ التي كانت بداية المواجهة المباشرة بين سورية واسرائيل في لبنان ... ثم تفجرت الأزمة في الغارة الجوية العنيفة يومي ١٦ و ١٧ تموز عام ١٩٨١. ولقد دمرت خمسة جسور تصل جنوبي لبنان بشماله وقصفت بيروت الغربية وأحياؤها الشعبية.

إن هذا التخطيط المحضر النابع من صميم منطق الصهيونية يؤكده شاهد موثوق آخر وهو الصحفي الاسرائيلي شمعون شيفر الذي أحدث ظهور كتابه ضجة كبيرة ولم يكذِّب أي شيء مما جاء فيه. يقول: «كانت حرب لبنان أمراً لا مفر منه لأنها نابعة من المبادىء الأساسية العميقة لصانعيها وهم: بيغن وشارون وإيتان؛ وقد نجمت هذه الحرب عن الأوضاع السياسية في المنطقة منذ اتفاقيات كامب ديفيد بين مصر واسرائيل.

وكان موقف بيغن ينبع من فكرة ثابتة تقول بالحرب الوقائية لإبادة منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان؛ فلا حرب استنزافية بعد اليوم كما فعل من سبقه من الحكام. إنه يبرر رأيه بقوله: «كانت اسرائيل قد دمرت عام ١٩٨١ المفاعل النووي

العراقي ولم يعقب ذلك أي (رد فعل) دولي، وهذا ما لم تتوقعه اسرائيل».

وكانت اسرائيل تتذرع بحجة لا تقل زيفاً عن الحجج السابقة وهي (الدفاع عن المسيحيين) المهددين (بالمذابح)؛ بينما يشهد السيد (راندال) نفسه بأن المذابح التي نظمت كانت على يد (الكتائب) عامي ١٩٧٥ و ١٩٧٦. يقول: «قامت فصائل مسيحية بقتل مئات المدنيين من الفلسطينيين واللبنانيين المنتمين إلى طوائف متعددة ومعظمهم عزل من السلاح. لقد تمت مذبحة الكرنتينا بالقرب من البناء الذي كانت فيه (القوات اللبنانية) تعقد مجالسها العسكرية. كانت مذبحة الكرنتينا أول مذبحة لبنانية شهدتها... فلقد راح أفراد الميليشيات يتلذذون بقتل الناس وهم يضعون الصلبان الخشبية الكبيرة على صدورهم وقد خدرهم (الحشيش) أو الكوكائين... ومنذ عام ١٩٧٥ كان معظم الضحايا من غير المسيحيين، وفي عام ١٩٨٢ لم يقتل من المسيحيين إلا عدد قليل بينما كان عدد ضحايا العدوان وفق الإحصاء اللبناني الرسمي ١٩ ألف ضحية معظمهم من المدنيين».

نعم إن كل الحجج والأكاذيب التي وردت لتبرير العدوان عام ١٩٨٢ ظهرت على حقيقتها؛ فنحن نعلم أن التحضير لهذا العدوان كان منذ ثلاثين عاماً.

... وهكذا بدأت مذبحة بيروت فلنستمع إلى رواية الصحفي الاسرائيلي يوناثان راندال: «إذا أدخلنا في حسابنا رحيل مقاتلي منظمة التحرير عن الجنوب، وإزالة الألغام عن الطرق الرئيسية في لبنان على يد الجنود الفرنسيين، وإزالة معظم المتاريس الرملية فيمكن القول إن اجتياح بيروت لم يكن يتطلب أية عبقرية عسكرية؛ والخسائر البشرية الاسرائيلية لم تكن كثيرة على الرغم من التوقعات المتشائمة في هذا الصعيد».

أما المقاومة فكانت عنيفة بطولية إذ كانت بعض المواقع الفلسطينية التي لا تضم إلا اثني عشر فدائياً تقف في وجه ١٢٠٠ مهاجم اسرائيلي.

«وليس هناك من تعليل لتلك الهجمات الرهيبة المتتابعة التي شنها شارون على بيروت إلا أن يكون الثأر والانتقام. وكان يحرص — على كل حال — على تمويه الحقيقة وإخفاء ما يحدث على أرض الواقع. كانت المدفعية الثقيلة تدك أحياء كاملة لم يكن فيها

إلا القليل القليل من الفدائيين. إن التفسير الوحيد المعقول هو أنه يحاول إفراغ بيروت الغربية من ساكنيها اللبنانيين».

أما السفير الفرنسي في بيروت (بول مارك هنري) فيصف ميزان القوى في بيروت على النحو التالي:

«كان هناك تكثيف حربي مسلح لم يسبق له مثيل. لقد زج (شاحال) في أوج المعركة بمئة ألف جندي وبأكثر من ألف مدرعة وألف عربة مصفحة. وكانت الأرتال المدرعة موزعة وقد خصص لها آلاف السيارات لتأمين الذخيرة والمؤونة والوقود. وكانت الوحدات العسكرية تتصل فيما بينها بنظام من الاتصالات الألكترونية يعد من أرقى الأنظمة المتطورة في العالم وفق رأي الخبراء... كان هدف الجيش السيطرة المطلقة على الأرض بإبادة كل مقاومة بشرية... أما التغطية الجوية فتكاد تكون تامة، وأما سلاح البحرية الاسرائيلية فكان مسيطراً على الأجواء البحرية كلها؛ فهو مجهز بزوارق حربية سريعة ذات أسلحة متطورة... وكان سلاح البحرية قادراً على أن يمنع كل إمداد خارجي ويرد كل محاولات للإنزال ويستطيع أن يغطي عملية قصف المدن المحاصرة كبيروت والدامور».

ويستمر السيد راندال في شهادته على استخدام هذه القوى فيقول: «لاشك في أن الاسرائيليين كانوا متفوقين على المقاتلين اللبنانيين ذوي الأسلحة اليدوية، بما لديهم من تكنولوجيا عصرية وسلاح متطور مجرب وطائرات الـ (ف ١٦) وصواريخ موجهة وقنابل فوسفورية ودبابات ثقيلة وقنابل يدوية ومدفعية حربية للسفن.

ولعل أكثر ما يدمي القلب ذلك المنظر الذي لم أشهد له مثيلاً وهو إحراق أحد المستشفيات في بيروت على نحو وحشي. كان ذلك بعد أن بدأ رجال المدفعية الاسرائيليين البارعين في التصويب يوجهون القنابل على مؤسسات ترفع راية الصليب الأحمر الدولي ومنها الحي الذي تقوم فيه جمعية الصليب الأحمر الدولية، وعلى المستشفيات الميدانية التي تمركزت في الأقبية ومرائب السيارات. وقد اضطر الجراحون إلى أن يرموا بأنفسهم تحت الخطر لإجراء عمليات بتر الأعضاء المهشمة بفعل القنابل والصواريخ».

وهكذا إذن لم يبق إلا ذبح الفلسطينيين في المخيمات.

هذه هي شهادة عيان وهو السفير الفرنسي في بيروت يرويها على هذا النحو المؤثر:

«إن الأمر الذي تلقاه الجيش الاسرائيلي بالدخول إلى بيروت الغربية في الصباح الباكر للخامس عشر من ايلول لا يشير إلى دخول مخيمات اللاجئين لأن (تمشيط) المخيمات و (تنظيفها) سيتم على يد الكتائب والجيش اللبناني. والحق أن دخول الكتائب ـــ وفق ما جاء في تقرير كاهاني ـــ قد تم الاتفاق عليه بين شارون وزير الدفاع والجنرال (دروري) عشية العدوان.

وفي اليوم الخامس عشر من ايلول كان الجيش الاسرائيلي قد ضرب طوقاً محكماً على منطقة المخيمات... وهذا ما شاهدناه بأعيننا حينها انطلقنا من قصر الصنوبر».

ترى ما مبررات ذلك؟

«إن ذريعة دخول القوات الاسرائيلية ومساعديها من الكتائب إلى بيروت الغربية هي تدارك أعمال العنف وسفك الدم والفوضى من جراء وجود ألفي (إرهابي) مسلحين بالأسلحة الثقيلة والعتاد المتطور كانوا ما يزالون في بيروت».

وإليكم وقائع المذبحة مفصلة يوماً فيوماً وفق تحليل شمعون شيفر:

الأربعاء ١٥ ايلول عام ١٩٨٢

«إنها الساعة الثامنة. وصل وزير الدفاع إلى مركز متقدم للقيادة أقامه (شاحال) في بيروت. أطلعه رئيس الأركان على ما جرى بينه وبين الكتائب من اتفاقات. وهي تنص على تعبئة عامة ومنع للتجول ودخول الكتائب مخيمات اللاجئين. وافق شارون على هذه الخطة ثم اتصل هاتفياً برئيس مجلس الوزراء وأبلغه بأنه ليس هناك مقاومة وأن كل شيء يجري على ما يرام.

الساعة الحادية عشرة. الناطق العسكري يعلن: بعد قتل الرئيس بشير الجميل

دخل (شاحال) بيروت الغربية هذه الليلة حتى يعمل على إحلال النظام وتجنب الاضطرابات الخطيرة.

ظهراً. اجتمع وزير الدفاع برئيس الكتائب في بيروت الشرقية. قال له شارون: إن الوضع حرج وعلينا الآن أن نتخذ القرارات المناسبة. نحن معكم وسنزودكم بكل العون اللازم.

الخميس ١٦ ايلول عام ١٩٨٢

الساعة العاشرة. صرح إيتان بقوله: المدينة كلها في يدنا. الهدوء يسود. المخيمات معزولة ومحاصرة. ستدخلها الكتائب فيما بين الحادية عشرة والظهر.

ظهراً. وصل قادة الكتائب ليجتمعوا بشاحال قبل دخول المخيمات في صبرا وشاتيلا. كان المخطط أن يدخل مئة وخمسون منهم أول الأمر.

الساعة السابعة مساءً. التقط الملازم (علول) المسؤول عن مركز القيادة في بيروت مخابرة بجهازه بين ضابط كتائبي دخل مخيم اللاجئين وبين رئيس العمليات الكتائبي في المخيم. ويسأل الضابط رئيسه عما يجب أن يفعل بخمسين امرأة وطفلاً قد احتجزهم. ويجيبه رئيسه: يجب أن يكون هذا آخر سؤال تسأله بهذا الصدد. أنت تعرف حق المعرفة ما الذي يجب أن تفعله بهم... وعلى سطح مركز قيادة الكتائب في المخيمات انطلقت ضحكة معربدة فاجرة. وفهم من ذلك أن مصير النساء والأطفال هو الذبح.

الجمعة ١٧ ايلول عام ١٩٨٢

الساعة الثالثة بعد الظهر. وصل رئيس الأركان إلى مطار خلدة قرب بيروت. استقبله قائد القطاع الشمالي وصحبه إلى القيادة العامة للكتائب. أخبره (دروري) بما فعل الكتائب. أصغى دون أي تعليق.

الساعة الرابعة والنصف مساء. عقد اجتماع في مركز القيادة العامة للكتائب. عبر رئيس الأركان للقوات اللبنانية عن رضاه عما قامت به وحققته. وصرح لهم بأنه يمكن أن يتابعوا عملياتهم في (تنظيف المخيمات) التي أخليت من المقاتلين في جنوبي

الفاكهاني وذلك حتى الساعة الخامسة من صباح اليوم التالي إذ لا بد أن يتوقفوا بسبب الضغط الأمريكي. طلب زعماء الكتائب جرارات لهدم الأبنية غير المرخصة في المخيمات الفلسطينية. قبل إيتان بتزويدهم بها».

وقد تذرعت لجنة (كاهان) المكلفة بالتحقيق في هذه المذابح بذريعة (غياب) الجيش الاسرائيلي عن مسرح الأحداث فاستنتجت عدم مسؤولية اسرائيل المباشرة!

ولكن بيغن كان صريحاً حينما أعلن قائلاً: «لقد قتل جماعة من غير اليهود جماعة من غير اليهود، ومع هذا يتهموننا!».

إن تقرير لجنة (كاهان) الرامي إلى تمويه الإرهاب أمام الرأي العام الاسرائيلي والدولي بادعائه أنه يتمتع (بديمقراطية) تستطيع التحقيق في تلك الجرائم... هذا التقرير يهدف إلى هدفين:

أولاً ـــ تبرئة النظام الصهيوني والممارسات الدموية لدولة اسرائيل وتوجيه التهم إلى أفراد.

ثانياً ـــ إيهام الرأي العام أن القضية قضية أخطاء وزلات بينما كانت التصفية الجسدية للفلسطينيين مبرمجة من قبل الإسرائيليين والمتعاونين معهم.

إن المشاريع والمخططات المجهزة منذ سنوات، والعلاقات الدائمة بين الصهاينة والكتائب، أضف إليها المعرفة التامة بالأحداث لدى المسؤولين والقادة السياسيين والعسكريين كافة... يجعل من هذا التهريج في ادعاء العدالة أمراً مضحكاً؛ فهذه التمثيلية لا تتورع عن سرد الأكاذيب المتعمدة في تقريرها عن الأحداث. يقول راندال: «إن تقرير كاهان يؤكد أن الجنود الاسرائيليين لم يكونوا قادرين على رؤية ما يحدث في أزقة المخيمات على الرغم من امتلاكهم المناظير المكبرة التي أقيمت على سطح مركز القيادة؛ بينما كان الصحفيون الذين صعدوا إلى الطابق السادس للمركز يرون بالعين المجردة كل ما كان يجري».

وهكذا خرج مجرمو الحرب من كل ذلك غانمين إذ عين شارون وشامير وزراء

مرة ثانية ؛ أما بيغن فقد تخلى عن المسرح السياسي طواعية ؛ وأما رافائيل إيتان فقد أخلد إلى (تقاعد) مريح.

وطبيعي أن اسرائيل لم تكن تستطيع أن تفعل ما فعلت لو لم يفتح قادة الولايات المتحدة (الضوء الأخضر) في وجهها ولولا ذلك الصمت المتآمر الذي مارسه ساسة أوروبا.

وفي العشرين من أيار عام ١٩٨٢ توجه شارون وزير الدفاع إلى واشنطن حيث قابل ألكسندر هيغ الذي لم يخفِ تعاطفه مع اسرائيل والذي أنكر أنه شجع مشاريع الغزو التي تقدم بها إليه الوزير الاسرائيلي. وقد أعلن شارون أن المقابلة تهدف إلى إعلام هيغ بأن اسرائيل تنوي اجتياح لبنان سواء أرادت الولايات المتحدة ذلك أم لم ترد؛ ولذا يجب أن لا تفاجأ الولايات المتحدة بذلك كما فوجئت بعد ضرب المفاعل النووي العراقي. وقد صرح شارون لهيغ قائلاً: «إن الوضع في لبنان ما عاد يسمح بالإمساك عن التدخل». وقد أكد الرئيس السابق كارتر أن هيغ قد فتح (الضوء الأخضر) أمام اسرائيل للقيام بعملية غزو لبنان، ولكن هيغ قد نفى ذلك بشدة.

إذن كانت اسرائيل على أبواب بيروت حينما سافر رئيس الوزراء مناحيم بيغن إلى الولايات المتحدة في ١٥ حزيران عام ١٩٨٢ ومعه مساعده ورئيس المخابرات العسكرية الاسرائيلية. وهكذا يمكن أن يستنتج راندال ما يلي:

«كل البراهين المتوفرة تدل على أن حكومة ريغان لم تحرك ساكناً لمنع العمليات العسكرية في مراحلها الأولى، خلافاً لموقف كارتر الصلب تجاه غزو جنوبي لبنان عام ١٩٧٨. وفي عام ١٩٨٢ رفضت الولايات المتحدة مرات عديدة أن توافق على مشروع قرار مجلس الأمن الدولي الذي يطلب إلى اسرائيل الانسحاب الفوري من لبنان؛ بل إن الولايات المتحدة قد صوتت بحماسة وإلحاح إلى جانب الاسرائيليين مما جعل كل سياسيي الشرق الأوسط على اقتناع بأن هيغ كان ضالعاً مع اسرائيل».

وهكذا يتضح المغزى الحقيقي لحرب لبنان وتنكشف أكذوبة (أمن اسرائيل) وما سمي (سلام الجليل)... وهذا ما كشف عنه الوزير الجديد لدى بيغن وهو الأستاذ

نعمام ــ من الحزب الوطني الديني المتطرف ــ بقوله: «إنها فرصة طيبة أتيحت لإسرائيل كي تقيم وضعاً جديداً في لبنان... وعلى الجيش الاسرائيلي أن يوطن نفسه على الإقامة هناك مدة طويلة. وفي أثناء هذه المدة ستتمكن اسرائيل من تحسين وضعها الاقتصادي والتقني في المنطقة التي ترى فيها اسرائيل ــ تاريخياً ــ جزءاً لا يتجزأ من (أرض اسرائيل)... وستتمكن من أن تدخل في مشروع تنميتها الجزء الجنوبي من لبنان حتى نهر الليطاني...».

والمعروف أن القادة الصهاينة ــ بعد كل عملية امتداد لبلابي ــ يذّكرون بأن عليهم أن يتجاوزوا هذه الخطوة لتحقيق المشروع الطويل النفس للصهيونية السياسية. وهاهو ذا أرييل شارون يقول: «إننا لم ننجز إلا مرحلة صغيرة من مراحل العمل».

نعم إن هذه الحرب ــ شأنها شأن حروب اسرائيل السابقة ــ ليست إلا تحضيراً لحرب قادمة وفق ما جاء على لسان الأستاذ (لايبوانز) في مؤتمره الصحفي في الرابع عشر من حزيران عام ١٩٨٢. وهكذا تجري الأمور على هذا النحو وكأن القادة الصهاينة يطبقون حرفياً ما ورد في سفر يشوع القائل: «كل مكان تطؤه أقدامكم أهبه لكم».

إن مفهوم (اسرائيل الكبرى) ذلك الهدف الدائم للصهيونية السياسية الذي يذّكر به الجنرال غازيت ــ وهو اليوم رئيس جامعة بن غوريون في بير سبع ــ مستعرضاً القضايا الأساسية حول النزاع العربي الاسرائيلي بقوله: «يجب أن تصبح أرض اسرائيل ذات يوم كلها تحت السيطرة الاسرائيلية، بل يجب أن تُلحق بالدولة اليهودية. يجب على اسرائيل أن تعترف بالضرورة الملحة لحل جذري لمشكلة الوجود العربي على أرض اسرائيل التاريخية».

إن طرد العرب من فلسطين إلى خارجها والعمل على إحلال التفسخ والتجزئة في البلاد العربية هما قوام المشروع الصهيوني.

وهناك مقالة نشرت في مجلة (كيفونيم) التي تصدرها المنظمة الصهيونية العالمية في القدس تعرض استراتيجية اسرائيل الخاصة بالثمانينات. وتكشف المقالة بوضوح

تلك الأساليب العملية التي ترمي بها الدولة الاسرائيلية إلى تدخل منهجي شامل في (تركيبة) كل الدول العربية المجاورة بغية إفسادها... عدا ألوان العدوان التي مارستها فيما سبق.

إن مشروعاً بهذا الاتساع، وبهذا الدعم غير المشروط وغير المحدود من قبل الولايات المتحدة، سيثير الاضطراب في البلاد العربية وفي البلاد الإسلامية بل في كل بلدان العالم الثالث. ولا بد للاتحاد السوفياتي من أن يتدخل في مجرى هذه الأحداث؛ وهكذا سيكون المخطط الصهيوني أخطر لغم قد يعمل على تفجير حرب عالمية ثالثة تؤدي إلى كارثة كونية.

وسنورد المقاطع ذات المغزى في هذه المقالة الصادرة عن المنظمة الصهيونية والتي تكشف عن الأبعاد التي تعتبر الآن امتداداً للحلم القديم في (اسرائيل الكبرى) الذي تخطط له الصهيونية السياسية:

«إن استعادة سيناء بما فيها من موارد مالية هو الهدف الأول... ولكن اتفاقيات كامب ديفيد منعت من تحقيق هذا الهدف... ونحن ــ المحرومين من البترول وعائداته ــ نتكبد نفقات باهظة في هذا المجال؛ ولذا يترتب علينا قطعاً أن نعمل على الرجوع إلى الوضع الذي كان قائماً في سيناء قبل زيارة السادات للقدس وقبل الاتفاق المشؤوم الذي جرى التوقيع عليه عام ١٩٧٩.

إن الوضع الاقتصادي في مصر وطبيعة نظامها وسياستها العربية ستؤدي بنا إلى ظروف توجب تدخل اسرائيل. إن مصر بحكم ظروفها الداخلية لا تشكل لنا مشكلة ستراتيجية؛ ومن الممكن ــ في أقل من أربع وعشرين ساعة ــ أن نعود بمصر إلى الحالة التي كانت عليها بعد حرب حزيران عام ١٩٦٧. إن الأسطورة القائلة بأن مصر (زعيمة العالم العربي) قد ماتت. ولقد فقدت مصر خمسين في المئة من قوتها. ويمكن لمصر أن تنتفع ــ على المدى القصير ــ باسترجاع سيناء؛ ولكن هذا لن يغير من ميزان القوى. علينا أن نرفض مشروع (الحكم الذاتي) للفلسطينيين وكل مشروع آخر يؤدي إلى الوصول إلى تفاهم ومشاركة في الأرض مما يعوق عملية الفصل بين الشعبين، هذا الفصل الذي هو الشرط الضروري لتعايش سلمي حقيقي.

إن على العرب الاسرائيليين (أي الفلسطينيين) أن يدركوا أنه لا وطن لهم في المستقبل إلا في الأردن ... وأنهم لن يعرفوا الأمن والطمأنينة إلا بالاعتراف بالسيادة اليهودية على ما بين البحر المتوسط والأردن ... هذا ولم يعد من الممكن في هذا العصر أن نقبل بأن يتجمع ثلاثة أرباع اليهود في البلد على الشريط الساحلي المكشوف المزدحم بالسكان ... إن توزيع السكان اليهود أمر ملح وقضية أساسية من قضايا سياستنا الداخلية. إن مناطق اليهودية والسامرة والجليل هي الضمان الوحيد لوجودنا القومي. ونحن إذا لم نصبح أغلبية ساحقة في هذه المناطق الجبلية فإن مصيرنا سيكون مصير الصليبيين الذين خسروا هذا البلد.

يجب أن يكون مطمحنا الأساسي إعادة التوازن في المنطقة على الصعيد السكاني والستراتيجي والاقتصادي. وهذا يقتضي الإشراف على منابع المياه في المنطقة الممتدة من بير السبع إلى الجليل الأعلى، وهي منطقة تخلو من اليهود اليوم».

إن المشروع الاستعماري العنصري للصهيونية السياسية يشكل من الآن تهديداً للسلام العالمي بعد أن مارس عملية الطرد والنهب وقمع الفلسطينيين وشن سلسلة من الحروب العدوانية في الشرق الأدنى وعمل على إضعاف كل الدول العربية.

ولعل من المفارقات أن يلعب هذا الدور الكبير على مسرح السياسة الدولية بلدٌ بهذه المساحة الصغيرة وبهذا العدد من السكان. والحق أنه لكي نفهم هذا الدور لا يكفي أن نشير إلى وضعه الستراتيجي على ماله من أهمية بحكم كونه ملتقى للقارات الثلاث... لقد كان وايزمن ذا نظرة صائبة حينما أشار إلى أهمية هذا البلد في محادثاته مع البريطانيين وقال: «إن فلسطين يهوديةً ستكون حارساً لانكلترة ولاسيما في قناة السويس».

وواقع الحال أن اسرائيل تمسك بيدها (مفاتيح) أكبر طريق تجاري وعسكري بين الغرب والشرق... وقد صارت هذه (المفاتيح) اليوم ذات أهمية لا لإنكلترة فحسب بل للولايات المتحدة بعد أن انتقل إليها مركز السيادة. إن دور اسرائيل — على أنها شرطي في الشرق الأوسط — لا يمكن الاستغناء عنه لدى الولايات المتحدة بعد أن

خف اعتمادها على قواعدها في إيران بعد الإطاحة بالشاه؛ فاسرائيل تستطيع أن تشرف على السويس كما تشرف على المناطق البترولية وتؤمن قواعد ثابتة في شرقي منطقة البحر المتوسط. وهذه المهمات لا تستطيع الولايات المتحدة أن تنفذها بنفسها... فلقد عانت الأمرّين في تجربتها في فيتنام على صعيد التدخل المباشر في العالم الثالث؛ ولذا تنفذ ماتريد بتسخير اسرائيل وتقدم لها العون دون شروط أو حدود.

وهكذا يمكن أن توصف هذه العلاقة باسرائيل بأنها مريحة: فما أسهل على الولايات المتحدة أن تدين اسرائيل بين حين وآخر بالكلام... ثم تحميها في الوقت نفسه بلعبة (الفيتو) لترد عنها كل عقوبة فعلية تعوق نشاطها... وهي تدعمها بالمال والسلاح الضروري لإنجاز مهماتها الحيوية فتبقي على موقع الولايات المتحدة في التوازن الدولي. ومما يلفت النظر أن الولايات المتحدة تزود اسرائيل بأكثر الأسلحة تطوراً. تقول صحيفة الهيرالد تريبيون الدولية في ٢٢ تموز عام ١٩٨٢: «إن الحكومة الاسرائيلية قد أنفقت في ذلك العام خمسة مليارات ونصف المليار من الدولارات على التسليح والإعداد الحربي؛ ولكن ثلث هذا المبلغ يأتي من الخزينة الأمريكية».

إن معظم تجهيزات الجيش الاسرائيلي مصدرها (برنامج المساعدة العسكرية الأمريكية الخارجية)؛ فلقد حصلت اسرائيل على ١٥ مليار دولار من مجموع ٢٨ مليار وزعت على العالم منذ عام ١٩٥١. وقد تم شراء ٤٥٧ طائرة من الولايات المتحدة بفضل الهبات والقروض التي وهبتها واشنطن إلى اسرائيل من مجموع ٥٦٧ طائرة كانت تمتلكها اسرائيل عشية غزو لبنان.

وإذا استثنينا تأجيل تسليم القنابل الانشطارية إلى اسرائيل التي تستطيع اليوم صنعها فإن إمداد اسرائيل بالسلاح الأمريكي لم ينقطع قط. ويؤخذ من تصريحات المسؤولين الرسميين أنفسهم في البنتاغون وفي اسرائيل أن الصفقة المتفق عليها لبيع إحدى عشرة طائرة من طراز (ف ١٥) تمشي تلقائياً؛ وقل الشيء نفسه عن التسليم المبرمج للطائرات والصواريخ الموجهة ذاتياً والشاحنات وسائر الآليات المدرعة.

إن التعاون الوثيق فيما بين القوات المسلحة والصناعات الحربية في البلدين يجعل

أي مشروع أمريكي (تأديبي) لإسرائيل غير مقبول على الصعيد الشعبي في الولايات المتحدة.

والبنتاغون يتلقى معلومات مفصلة من اسرائيل عن فاعلية بعض النماذج من الأسلحة التي تتلقاها من الولايات المتحدة والتي لم تجرَّب بعد من قبل الجيش الأمريكي. ومثال ذلك طائرات الاستطلاع الأمريكية التي استخدمت للكشف عن أهداف بعيدة في عمق سورية في المرحلة الأولى من حرب لبنان[1].

وهكذا يستطيع الجيش الأمريكي أن يجرب على مدى واسع أسلحته الجديدة المتطورة على يد الجيش الاسرائيلي الذي يمكن أن يقوم بما لا يمكن أن تقوم به حملات عسكرية أمريكية. هذا ويمكن القول من وجهة نظر الجغرافية السياسية إن نظام جنوبي افريقية هو الذي يشرف وحده على الطريق الآخر إلى آسيا ــ طريق رأس الرجاء الصالح ــ ويمارس ضغطه على افريقية ويؤدي لأمريكا خدمات مماثلة لخدمات اسرائيل، ولكنها أضأل وأهون شأناً.

إن هذا التكامل والتماثل بين النظامين في السياسة العرقية وإثارة النزاعات الدائمة في افريقية السوداء وفي العالم العربي عملية واعية مدروسة في كل من اسرائيل ونظام جنوبي افريقية وهي تترجم إلى صيغة تعاون وثيق بين الدولتين.

وعلى أثر المباحثات الأولى التي أجراها عام ١٩٧٠ شمعون بيريز مع وزير الدفاع في نظام جنوبي افريقية راحت العلاقات بين البلدين تزداد التحاماً؛ فالشركات في جنوبي افريقية راحت تستخدم اسرائيل كي تخفف من أثر العقوبات الاقتصادية المطبقة عليها... أما الاتفاق بين اسرائيل والشركة الأوروبية الاقتصادية على المستوى الاقتصادي والصناعي والعلمي فقد أتاح للدولتين أن تصرفا ما لديهما من إنتاج في بلدان السوق الأوروبية المشتركة.

أضف إلى هذه العلاقات بين البلدين تلك العلاقة الوثيقة على الصعيد

١ ــ جدير بالذكر أن قوات دفاعنا الجوي قد أسقطت عدداً من هذه الطائرات الاسرائيلية التجسسية.
(المترجمان)

العسكري الذي يفوق كل صعيد. تقول جريدة التايمز اللندنية في الثالث من نيسان عام ١٩٦٧ : «إن نظام جنوبي افريقية يعاني بعض الصعوبات في الحصول على عتاد عسكري عصري من جراء القطيعة المطبّقة عليه؛ ولكن اسرائيل هي من البلدان القليلة التي تزود نظام جنوبي افريقية بالسلاح ثم تصدر له تجاربها العسكرية التي اكتسبتها في حروبها مع العرب... وفي السنوات الأخيرة توطدت علاقة نظام جنوبي افريقية باسرائيل إلى حد الالتحام... ويؤكد المعلقون اليوم على ذلك التشابه العجيب في عملية التطور لدى النظامين».

ويعلن رئيس المؤتمر اليهودي الأمريكي عام ١٩٧٦ في رسالة إلى الأمين العام للأمم المتحدة «أنه يأسف لأن اسرائيل هي في عداد الدول التي تزود نظام جنوبي افريقية بالأسلحة».

إن (العملة) الرئيسية المعتمدة في التبادل لدى نظام جنوبي افريقيـة هي الأورانيوم، وهو ما تطمع فيه اسرائيل التي تمتلك منذ عام ١٩٧٦ مخزوناً من السلاح النووي وهو ثلاث عشرة قنبلة نووية من معيار قنبلة هيروشيما.

وفي التاسع والعشرين من حزيران عام ١٩٧٥ نشرت جريدة (هاأرتيز) مقالة بقلم شلومو أحارنسون يؤكد فيها «ضرورة إعادة النظر في الوضع الستراتيجي — السياسي لاسرائيل». وهو يكتب قائلاً: «إن السلاح النووي هو إحدى الوسائل التي يمكن أن تبدد آمال العرب في انتصار حاسم على اسرائيل... وهكذا فإن عدداً كافياً من القنابل النووية يمكن أن يحدث خسائر فادحة في كل العواصم العربية ويؤدي إلى تحطيم سد أسوان. ويمكن لنا بكمية إضافية من هذه القنابل أن نصل إلى المدن المتوسطة والمرافق النفطية... إن في العالم العربي مئة هدف إذا تم تهديمها وصلنا إلى طمس كل الفوائد التي جناها العرب من حرب عام ١٩٧٣ ...».

والآن يمكن لنا أن نجيب على السؤال القائل: كيف أتيح لدولة اسرائيل الصهيونية أن تكتسب هذه الأهمية في ميزان الستراتيجية الشاملة للقوى في العالم... مما يشكل تهديداً للسلام العالمي؟ إن اسرائيل لم تعد (وكيلاً) للاستعمار الغربي في

الشرق الأوسط فحسب ... بل إنها قد أصبحت ــ بالنسبة للولايات المتحدة على وجه الخصوص ــ (حجراً) أساسياً على رقعة الشطرنج في ميزان القوى العالمي .

٤
المقاومة الفلسطينية

إن للشعب الفلسطيني الذي عانى الاحتلال على مدى قرون طويلة تقاليد راسخة قديمة في مقاومة المحتل:

وعلى أثر سقوط الامبراطورية العثمانية راح الشعب الفلسطيني يقاوم استعماراً مزدوجاً: الاستعمار الانكليزي والصهيوني في الحين نفسه. وهذه المقاومة ــ شأنها شأن ألوان المقاومة السابقة ــ ليست إلا جانباً من جوانب المعركة التي تخوضها الشعوب العربية في مواجهة الاستعمار.

ومنذ عام ١٩١٩ طالب المؤتمر الشعبي الفلسطيني المنعقد في القدس ــ مثلما طالبت الشعوب العربية ــ بالاستقلال الذي وعد به الحلفاء إبان الحرب العالمية الأولى مقابل إسهام العرب في سحق الامبراطورية العثمانية المتحالفة مع ألمانيا.

وحينما انكشف تواطؤ المستعمرين الأوروبيين على يد النظام الثوري السوفيتي، هذا التواطؤ المتضمن اتفاقات سرية معقودة فيما بين روسيا القيصرية وانكلترة وفرنسا على اقتسام العالم العربي ... وحينما انكشف التناقض الصارخ بين الوعود التي قطعها ماكماهون في مراسلاته مع الشريف حسين وبين الالتزامات التي تعهد بها البريطانيون لليهود بعد وعد بلفور بإقامة «وطن قومي يهودي» في فلسطين، بل بتأسيس دولة

صهيونية تفرض سلطانها السياسي بدعم من القوى الغربية... بعد هذا وذاك لم تعد المقاومة تكتفي بالاحتجاجات الكلامية من قبل الزعماء... بل أصبحت حركة شعبية، حركة فلاحين يدافعون عن أرضهم في وجه غزاة مستعمرين جدد. وهكذا تجلى غضب أولئك الذين كان وعد بلفور يطلق عليه اسم «سكان فلسطين من غير اليهود» الذين كانوا يمثلون في واقع الحال ٩٢٪ من مجموع السكان. وكان وعد بلفور يدعي أنه يحرص على حقوق هؤلاء السكان بينما الاستعماريون الانكليز والصهاينة المحميون بسلطانهم ما ينفكون يضربون علناً بهذه الحقوق عرض الحائط.

ومنذ عام ١٩٢٠ وحتى ١٩٢٩ راحت الانتفاضات تتكاثر؛ أما الأسباب فكانت واحدة وفق ما تعترف به كل لجان التحقيق البريطانية في أسباب تلك (الاضطرابات). وقد تبين للجنة (شو) بعد أن قامت بإحصاءٍ تناول عشر سنوات عن (حرب الفلاحين) في فلسطين، وبعد أن انتفعت بشهادة الطرفين المتنازعين «أن العرب واليهود قبل الحرب كانوا يعيشون جنباً إلى جنب في وئام أو في جو يسوده التسامح».

وفي عام ١٩٣٧ راحت لجنة (شو) الجديدة تبحث مرة ثانية المشكلة ذاتها بعد ثورة عام ١٩٣٦ فحللت الأسباب الجذرية لهذا التغيير في العلاقات بين الطائفتين. وقد ورد في تقريرها قولها: «إن خيبة الأمل التي شعر بها العرب تجاه نقض العهود التي قطعتها بريطانيا للعرب بالاستقلال، واقتناع العرب بأن وعد بلفور يحرمهم من حقهم في تقرير المصير، وخوفهم من إقامة (وطن قومي يهودي) يفتح باب الهجرة اليهودية على مصراعيه ويؤدي إلى خضوع العرب لليهود اقتصادياً وسياسياً... إن كل هذا وذاك كان عاملاً أساسياً في انتفاضة عام ١٩٣٦».

ومن الواضح الجلي أن «العلاقات» لم تشهد نزاعاً خطيراً بين الطائفتين اليهودية والإسلامية، وإنما كان الموضوع موضوع مجابهة عنيفة بين مستوطنين صهاينة وسكان عرب أصليين من مسلمين ومسيحيين.

وكانت اللجنة التنفيذية التي تألفت في كانون الأول عام ١٩٢٠ على أثر المؤتمر

الفلسطيني الشعبي الثالث المنعقد في حيفا مؤلفة من مجموعة من الوجهاء أرسل وفد منهم إلى انكلترة تقدم بمطالب ونادى بالتظاهر والإضراب ولكن دون جدوى.

ومنذ عام ١٩٢٢ وحتى ١٩٣١ تضاعفت الهجرة الصهيونية في ظل الانتداب البريطاني: فارتفع عدد المهاجرين من ٨٣٫٧٩٠ مهاجراً عام ١٩٢٢ إلى ١٧٤٫٦٠٦ عام ١٩٣١. أما نشاط المنظمة الصهيونية التي سميت (الوكالة اليهودية) على صعيد امتلاك الأراضي فقد ازداد كثافة فارتفعت مساحة الأراضي الممتلكة عام ١٩٢٠ من ٦٥٠ ك م٢ إلى ١٢٠٠ ك م٢. وأما القوانين العرقية القائلة بأن هذه الأراضي ملك أبدي للشعب اليهودي فقد جعلت من المستحيل إعادة تمليكها لغير اليهود. ولكن النتيجة الخطيرة لهذه العملية أن ٩٨٪ من هذه الأراضي قد تم شراؤها من ملاكين كبار كان معظمهم يقيم خارج فلسطين؛ وحينما أصبحت هذه الأراضي ملكاً أبدياً للشعب اليهودي وقرر الصهاينة عدم السماح بالعمل فيها إلا لليهود... وجد الفلاحون الفلسطينيون الذين كانوا يعملون في هذه الأراضي أنفسهم مبعدين عن أرضهم فاضطروا للهجرة إلى المدن لينضموا إلى زمرة العاطلين عن العمل.

في عام ١٩٣٠ كتب الدكتور (روبن) الخبير لدى الوكالة اليهودية في شؤون الزراعة والمستعمرات في تقرير سري يقول: «إن الأرض هي العنصر الأساسي لتثبيت جذورنا في فلسطين. ولما كانت كل الأراضي الصالحة للزراعة مشغولة بالعمال فلا بد من شراء هذه الأراضي كي نتمكن من طرد هؤلاء العمال الزراعيين فهم كأنهم يملكونها ما داموا يعملون فيها».

وهكذا كانت المرحلة الأولى من المقاومة الفلسطينية ـــ في جوهرها ـــ «حرب فلاحين» انتزعت منهم أراضيهم ووسائل عيشهم.

أما المرحلة الثانية من هذه المقاومة فقد بدأت حينما اقتضى الاضطهاد النازي لليهود مزيداً من الهجرة اليهودية بل تغيراً في طبيعة هذه الهجرة. لقد كان المهاجرون حتى الآن عمالاً وفلاحين؛ ولكن الاتفاقات المعقودة بين القادة الصهاينة والنازيين أدت إلى تغيير نوعية المهاجرين إذ كان يدفع لكل مهاجر ألف جنيه استرليني مقابل

هجرته من ألمانيا؛ وهكذا راح يتوافد على فلسطين رجال أغنياء يحملون الرساميل، وصناعيون وفنيون مؤهلون أحسن تأهيل، فكان ذلك عاملاً في تطوير القطاع المصرفي والاستثمارات الصناعية للصهاينة في فلسطين. وقد طبق العمال اليهود القدامى وأبناؤهم في المعامل المبدأ نفسه الذي يحرم على الفلاحين من غير اليهود العمل في الأرض وفقاً لتوجه المنظمة الصهيونية... فالتنظيم النقابي المعروف بـ (الهستدروت) الذي يتبنى التمييز العنصري نفسه قد عمم الشعار القائل: «العمل لليهود» لكي يبقي على احتكار العمل لليد العاملة اليهودية في المشاريع ويبعد بذلك العمال العرب عن العمل في مجال الصناعة والزراعة.

إذن راحت المقاومة العربية تشتد وتترسخ؛ فلم تعد المسألة مسألة (حرب فلاحين) لا أرض لهم بل امتدت إلى صفوف العمال المهددين بحرمانهم من العمل في القطاع الصناعي.

وهكذا اتخذت المقاومة طابعاً جديداً... فلقد كان تمرد الفلاحين حتى الآن محدوداً موضعياً عشوائياً يتوجه إلى الغاصب الواضح، وهو المستوطن الصهيوني. وحينما امتدت الحركة إلى العمال والقطاعات المدنية اتخذت طابعاً أكثر تمركزاً ونضجاً فصار يهجم على أصل الداء أي على الاحتلال الاستعماري البريطاني الذي لولا وجوده لما كان للتسلل الصهيوني أن يتحقق.

نعم لم تعد القضية قضية تمرد موضعي محدود، بل تطورت إلى حركة شاملة؛ فمن عام ١٩٣٣ إلى عام ١٩٣٥ تجسد هذا الإطار الجديد للمقاومة في ثورة الشيخ عز الدين القسام، وهو أول رائد للصراع المسلح المدعوم من قبل الجماهير الشعبية. ولم تعد الأمور تنتهي بمفاوضات كلامية يجريها (الوجهاء) في لندن وإنما تطورت إلى (فعل) جماهيري يواجه المستوطنين وله أهدافه المحددة... لقد كانت ثورة تهدف إلى وضع حد للانتداب البريطاني كما تهدف إلى منع انتقال السلطة إلى الصهاينة.

لقد نظم القسام عام ١٩٣٣ عملية استنفار العمال والفلاحين في ضواحي حيفا التي طردوا منها على أثر تهجير الفلاحين من أراضيهم وحرمان العمال من أعمالهم

من جراء السياسة العنصرية للصهاينة والهستدروت.

وفي عام ١٩٣٥ بعد أن جند القسام حركة ثورية حقيقية نقل مركز قيادته من حيفا إلى الريف حيث بدأت (حرب العصابات) المعتمدة على الفلاحين والتي كانت أكثر جدوى من الحرب في المدن حيث تتمركز الحاميات البريطانية.

وفي التاسع عشر من تشرين الثاني عام ١٩٣٥ استشهد القسام وسلاحه في يده في معركة ضمت ستمئة جندي بريطاني حاصروا مركز قيادته العامة الذي كان يضم خمسة وعشرين مقاتلاً... ثم تجمع رجال (القسام) الذين تضعضعوا بعض الشيء بعد مقتل زعيمهم ليعلنوا الثورة الشاملة عام ١٩٣٦ التي دامت حتى بداية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩.

ولقد شل الإضراب العام كل القطاعات الحيوية، تدعمه مقاومة مسلحة راحت تزعج القوات البريطانية ومراكز الشرطة والمستوطنات الصهيونية.

وكان القمع البريطاني وحشياً؛ فلقد تعاونت القوات الانكليزية مع منظمة الهاغانا وسائر المنظمات الصهيونية الإرهابية على مطاردة الثوار العرب من مسلمين ومسيحيين فكان الاعتقال الجماعي وكانت الإعدامات الفورية والزج بالمواطنين في معسكرات الاعتقال. وقد أسهم في قمع الثورة عشرون ألف جندي بريطاني وثلاثة آلاف شرطي يعاونهم حلفاؤهم الصهاينة. ويرى المؤرخ الأمريكي اليهودي نورثون ميزفنسكي أن نتاج ذلك كان ثلاثة آلاف قتيل وستة آلاف معتقل وإعدام مئة وعشرة من قادة الثورة.

أما خسائر الانكليز فكانت مئة وخمسة وثلاثين قتيلاً وسبعة وستين جريحاً؛ وقد قتل من الصهاينة ثلاثمئة وتسعة وعشرون قتيلاً وجرح ثلاثمئة وستة وثمانون.

إن هذا القمع الدموي لم يضع حداً للانتفاضات التي لم تتوقف إلا في بداية الحرب العالمية الثانية؛ وذلك حينما أصدر الانكليز — حرصاً على توفير قواتهم — (الكتاب الأبيض) الذي يعدون فيه الفلسطينيين بالاستقلال وبالحد من الهجرة الصهيونية. أما الدعوة إلى وقف المعارك التي وجهها رؤساء الدول العربية المجاورة الذين

صدقوا أو تظاهروا بتصديق هذه الوعود فلقد عملت على (تأجيل) القتال.

ثم دعت الحكومة البريطانية بعد الحرب إلى مؤتمر يعقد في لندن من ايلول عام ١٩٤٦ إلى شباط ١٩٤٧ بغية إيجاد حل سياسي للمشكلة الفلسطينية. وتقدمت اللجنة العربية العليا إلى المؤتمر بإعلان استقلال فلسطين الذي تم الوعد به منذ عام ١٩٣٩ ... وتوصي اللجنة العربية بأن جميع اليهود المقيمين الذين قدموا إلى فلسطين بعد الاضطهاد النازي الهتلري يمكن لهم أن يختاروا الجنسية الفلسطينية ويتمتعوا بالحقوق نفسها التي يتمتع بها المواطنون وبتشريع يضمن لهم حقوقهم الدينية. أما توزيع السلطات على الصعيد التشريعي والتنفيذي بين العرب مسلمين ومسيحيين وبين اليهود فسيحسب حساب النسبة العددية لكلتا الطائفتين.

ولكن القادة الصهاينة رفضوا هذا الاقتراح لأنهم كانوا يعلمون أن ملكية السلاح محرمة على العرب منذ انتفاضة عام ١٩٣٦ـ١٩٣٩ بينما كانت التنظيمات العسكرية الصهيونية والميليشيات التابعة لها تتلقى من الغرب كمية هائلة من السلاح.

وراح الصهاينة ينشرون الذعر مستغلين وضع أعدائهم العزل من السلاح فنظموا المذابح الجماعية في قرى كاملة منها قرية دير ياسين ليرغموا الفلسطينيين على هجر ديارهم... وكانت هناك مقاومة عسكرية محدودة حول القدس بقيادة عبد القادر الحسيني الذي استشهد حينما احتلت القوات الصهيونية (القسطل) عام ١٩٤٨.

وأخيراً... وتجاه هذه المذابح قررت الدول العربية المجاورة التدخل بعد أن بخلت على المقاومين الفلسطينيين بالأسلحة الدفاعية. ولقد حشد العرب في مواجهة ٦٠ ألف مقاتل صهيوني منظم ٢٢ ألف مقاتل ينقصهم التدريب والتنظيم. وقد وصلوا بعد فوات الأوان أي بعد حصول المذابح واغتصاب الأراضي العربية في فلسطين... أما النتيجة فكانت الانكسار وسيطرة الصهاينة على ٧٨٪ من أرض فلسطين.

وهكذا من الآن فصاعداً سيرتبط تقرير مصير فلسطين من خارج حدودها بهذا الإيمان العميق لدى شعب حكم على معظمه بالنفي والتشريد على يد الاستعمار الصهيوني الاستيطاني... وهكذا لم يكن للقتال أن يستمر إلا انطلاقاً من البلاد التي

استقبلتهم. كان ذلك من مصر أولاً حينما بدأت مجموعات صغيرة من المقاتلين الفلسطينيين تتسلل عام ١٩٥٠ إلى اسرائيل من غزة لتقاتل المحتل داخل البلاد.

ثم تجسدت هذه المحاولة لتحرير فلسطين بالقتال المسلح عام ١٩٥٧ في ولادة أول حركة منظمة للمقاومة الفلسطينية منذ إعلان دولة اسرائيل... إنها حركة (فتح) التي دعت الفلسطينيين إلى تحمل مسؤولياتهم في تقرير مصيرهم.

وفي عام ١٩٦٢ عمل تحرير الجزائر بعد قتال مسلح طويل على ترسيخ اليقين بأن الاستعمار يمكن أن يُقهر على الرغم من عدم التكافؤ في القوة العسكرية؛ وذلك حينما يشترك الشعب كله في معركة الحرية.

ولقد لعبت تجربة الجزائر دورها الكبير في تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية في الأول من حزيران عام ١٩٦٤، وذلك على أثر اجتماع المجلس الوطني الفلسطيني المنعقد في القدس والذي صاغ ميثاق هذه الحركة.

ولابد من الإشارة إلى أن هذا الميثاق ــ خلافاً للأكاذيب التي روجتها الدعاية الصهيونية ــ لايدعو إلى الوقوف في وجه اليهود ــ ديناً وشعباً ــ بل إلى الوقوف في وجه الاحتلال والاضطهاد السياسي الذي تمارسه الدولة الصهيونية.

تنص المادة الأولى من هذا الميثاق على «أن الشعب الفلسطيني جزء لا يتجزأ من الأمة العربية».

وتنص المادة الثانية على «أن اليهود الذين عاشوا في فلسطين على نحو دائم حتى بداية الاحتلال الصهيوني سيعتبرون فلسطينيين».

وهكذا ليس في منطلقات الميثاق أي تمييز ديني أو عرقي. إن الميثاق يشير من حيث المبدأ والواقع إلى (أن تقسيم فلسطين عام ١٩٤٧ وإقامة دولة اسرائيل يناقضان ميثاق هيئة الأمم الذي ينص على حق الشعوب في تقرير مصيرها».

ولابد من الإشارة هاهنا إلى أن المشكلة الناجمة عن الاستعمار الأوروبي وعن القرار الظالم للأمم المتحدة لا يجوز أن ينظر إليها على أنها قضية قومية محدودة بل على أنها

قضية تخص منطقة الهلال الخصيب الذي تشكل فلسطين مع العالم العربي كله أهم مقوماته .

ومن المهم كذلك أن نشير إلى أن الهدف المحدد لميثاق منظمة التحرير لم يكن « رمي اليهود في البحر » كما روجت ذلك الدعاية الصهيونية الكاذبة في أوساط الغرب . إن الفلسطينيين ــ مسيحيين ومسلمين ــ لا يقاتلون ديناً أو (شعباً) بل يقاتلون اضطهاداً استعمارياً ويناضلون الإيديولوجية السياسية التي تحاول تبرير الصهيونية السياسية .

إن ما أعلنته اللجنة المركزية لحركة فتح (وهي أهم فصائل المقاومة الفلسطينية) عام ١٩٦٩ يؤكد على «أن حركة التحرير الوطني الفلسطينية ــ فتح ــ لا تقاتل اليهود على أنهم مجموعة عرقية أو دينية ، بل تقاتل اسرائيل التي ليست إلا شكلاً من أشكال الاستعمار المبني على نظام ثيوقراطي عرقي توسعي ؛ إنه النظام الصهيوني الاستيطاني .

إن شبكة الدعاية الصهيونية العالمية وتشويه الإعلام عبر الهيمنة على الوسائل الرئيسية للإعلام في الولايات المتحدة والدول الغربية قد بلغت حداً من التنظيم والمركزية والقوة بحيث صارت الصحافة والإذاعات والتلفزة والسينما تجعل الأسود أبيض في نظر الرأي العام الأوروبي ، وتجعل أهون أعمال المقاومة الفلسطينية عملاً (إرهابياً) ؛ أما الإرهاب الدولي للصهيونية واعتداءاتها فتجعل منها « دفاعاً مشروعاً » . وهكذا كانت نسبة الضحايا منذ قيام دولة اسرائيل مئة ضحية عربية مقابل ضحية اسرائيلية واحدة . ومع ذلك فالرأي العام الغربي الذي توجهه الدعاية الصهيونية يسمي الفلسطينيين « إرهابيين » !

يقابل ذلك أن تأثير وكالات الأنباء وأجهزة الإعلام العربية لا شأن له ولا جدوى منه على الصعيد العملي ... فكل بلد عربي يمارس الدعاية الخاصة به دون مراعاة للمصلحة العامة ودون أن تطوّع هذه الدعاية أسلوبها في العمل والتوعية لما يلائم العقلية الغربية .

نعم ليس هناك في العالم العربي ــ وليس بين الفلسطينيين كذلك ــ من يعي أن القوة الأساسية للصهيونية ليست قوة عسكرية فحسب بل هي في خداع الرأي العام الغربي. إن تنظيم شبكة مركزة موحدة للإعلام والدعاية تلائم العقلية الغربية تستطيع أن تكشف عن الوجه الحقيقي للصهيونية فتعمل على تخفيض المساعدات المالية والعسكرية الغربية والأمريكية لإسرائيل. إن هذا التنظيم سيكون ذا أهمية كبيرة تفوق أهمية مئة عملية عسكرية ناجحة... وسيصيب الذعر القادة الصهاينة الذين يعلمون حق العلم ــ على الرغم من تبجحاتهم ــ أنهم لن يتماسكوا أكثر من أشهر ثلاثة من الناحية الاقتصادية والعسكرية دون تلك الهبات التي يتلقونها من الغرب، وأنهم سيضطرون إلى شيء من التنازل.

جاء في خطاب ياسر عرفات في الأمم المتحدة عام ١٩٧٤ قوله: «إن القدس بتاريخها الديني وقيمها الروحية هي الشاهد للأجيال القادمة على وجودنا الخالد وحضارتنا وقيمنا الإنسانية؛ وليس غريباً أن ولدت تحت سمائها الديانات الثلاث التي أضاءت للإنسانية دروبها». وحينما عرض تاريخ التضحيات الطويلة لدى الشعب الفلسطيني أضاف يقول: «كل هذا لم يجعلنا عنصريين... ولهذا نحن ندين كل الجرائم المرتكبة على اليهود... وأنا أدعو اليهود باسم منظمة التحرير الفلسطينية إلى أن يعيدوا النظر في مواقفهم تجاه تلك الطريق المؤدية إلى نزيف دموي دائم تسببه الحروب المستمرة التي تجعل من أجساد اليهود طعاماً لنيران المدافع... إننا ندعوكم إلى سلوك طريق أخرى تتحرر من محاولات قادتكم الذين يدفعون بكم إلى الانتحار. إننا نوجه إليكم هذا النداء النبيل لكي نعيش معاً في ظل سلام عادل في فلسطين ديمقراطية. وأنا أعلن لكم أننا لا نرغب أبداً في إراقة نقطة واحدة من دم العرب أو اليهود، وأننا لا نهدف أبداً إلى استمرار الحرب لحظة واحدة حينما نصل إلى سلام عادل مبني على ضمان حقوق شعبنا العربي ومطامحه وآماله».

وواقع الحال أن دعم العرب للمقاومة الفلسطينية دعم محدود إن لم يكن معدوماً، وذلك بسبب اهتمامات أخرى... وهكذا يكشف وضع فلسطين عن مساوىء غياب الوحدة في العالم العربي؛ فلو كان العالم العربي موحداً ويقظاً لما اتخذت

قضية الصهيونية في فلسطين هذا المسار الراهن. إن فلسطين تؤرق ضمير الدول العربية؛ أما المقاومة الفلسطينية فتشكل أوضح اتهام للوضع العربي الراهن؛ فهي تحمل معها الأمل في تغييرات جذرية على الصعيد العربي لا على صعيد فلسطين وحدها. ومنذ عام ١٩٦٨ أعلن الميثاق الوطني الفلسطيني في المادة الرابعة عشرة ما يلي: «إن مصير العالم العربي بل وجوده يتعلق بمصير فلسطين... والشعب الفلسطيني ليس إلا طليعة النضال العربي...».

ويعلن قرار اللجنة المركزية لحركة فتح في عام ١٩٦٩ أن «الثورة الفلسطينية بتجاوزها النطاق الإقليمي وبتوسيع مؤسساتها الاقتصادية والاجتماعية ستكون حتماً خميرة تعمل على إنضاج وضع ثوري في العالم العربي. إن الثورة الفلسطينية تشكل — في واقع الحال — بؤرة التمرد على المؤسسات الاقتصادية والإيديولوجية والسياسية التي تجاوزها الزمن».

إن المطالبة الشرعية لدى الفلسطينيين بالعودة إلى أرضهم التي عملوا فيها منذ قرون والتي طردوا منها على يد مستعمرين أجانب تعبر تعبيراً عميقاً عن المطامح الكامنة لكل الفلاحين الذين يشعرون بأن الأرض لمن يعمل فيها. ولقد قدمت التجربة الجزائرية في هذا المجال درساً مفيداً إذ عاشت ودامت حركة الصراع في سبيل طرد المستوطنين الغرباء حينما وضعت نصب عينيها إنجاز إصلاح زراعي شامل يتناول الامتيازات الإقطاعية لدى كبار ملاكي الأراضي ولو كانوا من (الوطنيين).

لقد حددت منظمة التحرير الفلسطينية منذ عام ١٩٦٩ هدفها القائل بإنشاء دولة ديمقراطية في فلسطين. وهكذا كان لهذا الانفتاح ولهذه الرغبة في الديمقراطية أصداء عميقة لدى الجماهير الشعبية التي أصبحت فلسطين لديها رمزاً عالمياً والتي تفتح المقاومة الفلسطينية لها باب الأمل.

ولكن إشعاع حركة المقاومة وقدرتها على النمو كان عاملاً في إيقاظ القلق بل العداء لدى بعض القادة السياسيين الحراص على تماسك سلطتهم وثباتها وعلى الاحتفاظ بمنافعهم الخاصة المحدودة بحدودهم الإقليمية ولو كان ذلك على (حساب) الوحدة العربية.

أما على الصعيد الديني فإن الفلسطينيين يحرصون على الوحدة الأخوية بين الديانات السماوية الثلاث ويفرقون بين اليهودية على أنها دين وبين الصهيونية السياسية ذات الإيديولوجية العنصرية. جاء في خطاب ياسر عرفات عام ١٩٧٤ في الأمم المتحدة قوله: «إننا نميز بين اليهودية والصهيونية. ونحن نعارض الاستعمار الصهيوني ولكننا نحترم العقيدة اليهودية لأن هذا الدين جزء من تراثنا الروحي».

ولقد خلق ضم الضفة الغربية إلى الأردن بعد حرب عام ١٩٤٨ جواً من عدم الثقة بين الأردن والفلسطينيين تجلى ـ على نحو خاص ـ بعد أن قبل الأردن بالقرار (٢٤٢) الصادر عن مجلس الأمن الدولي، وبمشروع (روجرز) الذي لا يعترف أبداً بحق الفلسطينيين في إقامة دولة مستقلة في فلسطين ولا ينظر إلى القضية إلا على أنها قضية (حدود) بين اسرائيل والدول المجاورة... وبهذا ينظر إلى قضية فلسطين على أنها قضية (لاجئين).

ومع هذا كان العمل المشترك بين الفلسطينيين والأردن قد كشف عن جدواه وفاعليته؛ وقد تجلى ذلك على أروع صورة في معركة (الكرامة)، تلك المدينة الصغيرة في وادي الأردن التي كانت تعتبر منذ عام ١٩٦٧ من أهم القواعد الأساسية للمقاومة الفلسطينية؛ ففي الحادي والعشرين من آذار عام ١٩٦٨ قام عشرة آلاف جندي اسرائيلي بالهجوم على المدينة التي تبعد أربعة كيلو مترات عن خط وقف إطلاق النار. وقد قرر (الفدائيون) الذين لا يتجاوزون الثلاثمئة بدعم من الجنود الأردنيين ألا يتراجعوا: وهكذا انهزم الاسرائيليون بعد قتال دام خمس عشرة ساعة تكبدوا فيه خسائر فادحة.

وقد عمل هذا النصر على دعم المقاومة وتشجيعها؛ ففي كانون الثاني عام ١٩٦٩ تحققت وحدة فصائل المقاومة في جبهة واحدة وهي منظمة التحرير الفلسطينية. وحتى عام ١٩٧٠ نجحت المقاومة في تنظيم عمليات يومية لضرب المحتل الصهيوني في الأراضي العربية المحتلة وفي قلب دولة اسرائيل نفسها.

وفي عام ١٩٧٤ في القمة العربية المنعقدة في الرباط اعترفت الأردن مع سائر

الدول العربية بمنظمة التحرير على أنها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني... ولكن المقاومة الفلسطينية بعد الضربة التي تلقتها عام ١٩٧٠ فقدت قاعدتها الستراتيجية الرئيسية التي كانت تمتد حدودها مع اسرائيل على مسافة كبيرة... وهكذا اضطرت المقاومة إلى نقل مركز نشاطها. إذن لم يبق للفلسطينيين إلا حدود متاخمة لتلك الأرض التي عاش فيها آباؤهم منذ أربعة آلاف عام... إنها الحدود اللبنانية الفلسطينية.

إن تجربة المقاومة في الأردن قادتها إلى أن تدرك الشرط الضروري لنجاح عملياتها الفدائية: إنه التلاحم فيما بينها وبين الجماهير التي تقوم عليها قواعدها.

إنه قانون عام شامل؛ فقراءة الصفحات المأساوية الأخيرة من يوميات (تشي غيفارا) في بوليفيا تدل على أن كل عمل ثوري ــ مهما كان بطولياً ــ محكوم عليه بالإخفاق والمواجهة الفردية للموت حينما لا يكون ضارباً بجذوره في قلب الجماهير ومندمجاً فيها ومجسداً لآمالها. إن الفكرة القائلة بأن (أقلية نشيطة) مفعمة بالعطاء والشجاعة ــ ومثالها الحي مثال غيفارا ــ يمكن أن تكون عامل تفجير في كل زمان ومكان... تبقى فكرة انتحارية لا تصلح لحركة ثورية أو حركة تحريرية.

يقابل ذلك أن تجربة (المسيرة) التاريخية لماوتسي تونغ التي كانت تتخذ من (الإصلاح الزراعي) أكبر سلاح لها، وأن تجربة (مسيرة) فيديل كاسترو في كوبا حيث كان كاسترو وغيفارا ورفاقهما يعيشون بين فلاحي السييرا ماسترا كالسمكة وسط الماء ليجدوا أخيراً سلاحهم القاطع في إضراب هافانا العام... وأن تجربة حرب التحرير في فيتنام وحرب الجزائر ونيكارغوا... قد دللت على أن الالتحام بالشعب هو سر النصر مهما كان سلاح العدو ماضياً وعتاده قوياً؛ فالسلاح مهما كان متطوراً يحتاج إلى رجال يحملونه... وحينما تموت العقيدة والحماسة في العقول والقلوب لدى الرجال فسرعان ما يتهاوى السلاح من بين أيديهم.

إن حالة المقاومة الفلسطينية حالة فريدة خاصة... فلقد نجح الاستعمار الاستيطاني الصهيوني بمساعدة شركائه الغربيين في جعل سكان البلاد الأصليين أقلية في بلدهم وجعل من الأكثرية مشردين خارج وطنهم.

لقد نجحت المقاومة على مدى أعوام في الاندماج في الحياة الاجتماعية والسياسية اللبنانية وحققت تحالفاً وثيقاً مع الجماهير المحرومة من حقوقها الاقتصادية والسياسية. وقد وجدت هذه الجماهير في المقاومة صدى عميقاً لمطامحها: وهي التحرر من الاستغلال الاقتصادي والسيطرة السياسية لطبقة بورجوازية لبنانية تمسك بمقاليد الأمور[1].

وحينما انفجرت الأزمة الأولى بين المقاومة والحكومة اللبنانية وقفت القاعدة الشعبية اللبنانية إلى جانب المقاومة وأجبرت الحكومة على الاعتراف الشرعي بالمقاومة الفلسطينية في لبنان. وجاء اتفاق القاهرة في عام ١٩٦٩ ليكرس هذا الاعتراف.

وقد نجحت منظمة التحرير الفلسطينية بفضل هذا الالتحام بكل القوى التقدمية اللبنانية في أن ترسخ على نحو قوي كيانها في لبنان، لا كيانها العسكري فحسب وإنما رسخت تنظيمها السياسي ولاسيما نشاطها الثقافي؛ فلقد أنجز مركز الدراسات الفلسطينية في بيروت إنجازات كبيرة على صعيد الدراسات والأبحاث جعلته في الصف الأول من المؤسسات الثقافية في العالم العربي. لقد صارت الثقافة لدى الفلسطينيين وطناً لهم. وعلى أكتاف كثير من الفلسطينيين تقوم في كثير من البلدان العربية أرقى الأطر في مجال البحث العلمي والتعليم والمهن الحرة والفنون.

وفي حرب تشرين التحريرية عام ١٩٧٣ بين مصر وسورية وبين اسرائيل جند جيش التحرير الفلسطيني كل قواته على الجبهتين الشمالية والجنوبية. أما الإضراب

---

١ ـــ لا بد من التنبيه إلى أن تعبير (مسيحيي لبنان) المستخدم غالباً في الصحافة الغربية هو تعبير مضلل؛ فهو يوحي بأن هناك طائفة دينية مسيحية تعارض طائفة دينية مسلمة. وإذا صدقنا الصحافة الغربية كان معنى ذلك أن كل المسيحيين اللبنانيين هم من الموارنة وأن كل الموارنة (كتائبيون).
ولكن الحقيقة ليست كذلك؛ فهناك مسيحيون أرثوذكس شرقيون، وهناك روم كاثوليك؛ وكلهم من العرب وهم متضامنون متآخون مع العرب المسلمين؛ بل إن من بين الموارنة من يناضل الاستغلال والاضطهاد. إذن لا بد أن يلغى من الصحافة الغربية تعبير (مسيحيي لبنان) لأن الطائفتين المسيحية والإسلامية عبر قرون تضربان المثل الرائع على التعايش السلمي.

(المؤلف)

الذي أعلنه العمال الفلسطينيون في الأرض المحتلة فقد شل جانباً من الاقتصاد الاسرائيلي.

وفي أثناء الحرب وبعد عبور (خط بارليف) من قبل القوات المصرية تبددت أسطورة الجيش الاسرائيلي الذي لا يُقهر؛ ولكن الجسر الجوي الذي أقامته الولايات المتحدة بينها وبين اسرائيل أنقذ اسرائيل من ذلك الوضع الصعب.

وفي عام ١٩٧٧ كانت زيارة السادات لاسرائيل وأعقبتها اتفاقيات كامب ديفيد عام ١٩٧٨ برعاية الولايات المتحدة... وهكذا قطع الحاكم المصري تأييده للقضية الفلسطينية مقابل تعديل طفيف في الحدود على سيناء، وقبل بما يدعى (مشروع الحكم الذاتي) لبيغن الذي لم يكن إلا مقدمة لضم الضفة الغربية إلى اسرائيل والذي لم يقدم لإدارة الحكم الذاتي إلا صلاحيات وهمية عن طريق التعاون مع بعض العرب المؤيدين للدولة الصهيونية . وهكذا تكون القدس كلها في يد الصهاينة. وهكذا تعطى لهم التسهيلات للاستمرار في سياستهم بإقامة المستوطنات في الأراضي المحتلة وفرض الإرهاب بحجة الحفاظ على الأمن.

إن خيانة السادات سمحت للصهاينة الذين اطمأنوا إلى الجبهة الجنوبية بأن يكثفوا قواهم على لبنان، وعملت على تثبيت التدخل الأمريكي في الشرق الأوسط وانتصار سياسة كيسنجر الرامية إلى (تمرير) السياسة الصهيونية خطوة فخطوة، وذلك بالإضعاف التدريجي لإمكانيات الفلسطينيين ومجموعة دول المنطقة.

وهكذا كرس الصهاينة جهودهم بالتعاون مع شركائهم الغربيين لهدم قواعد المقاومة الفلسطينية في لبنان وتحقيق أهداف الصهيونية في هذا البلد، تلك الأهداف السابقة لولادة دولة اسرائيل، وهي مد حدود هذه الدولة إلى نهر الليطاني إما بطريق الإلحاق المباشر أو بطريق إقامة دولة (كراكوزية) توصف بأنها مسيحية تكون (محمية) اسرائيلية وفقاً لما خطط له موشي دايان منذ عام ١٩٤٥.

ولكي يثير القادة الصهاينة الرأي العام اللبناني على المقاومة الفلسطينية ضاعفوا من تحليق طيرانهم ومن قصفهم جنوبي لبنان وبيروت. وراح اليمين اللبناني ينسق سياسته مع

الصهاينة ويعلن للجماهير أن هذه الإجراءات الزجرية من قبل اسرائيل هي بسبب وجود الفلسطينيين.

لقد كان الإلحاح على سحق المقاومة شديداً بعد أن بدأت شهرتها تزداد على الصعيد الدولي. وحتى ذلك الحين كانت الدعاية الناجعة للصهاينة ومؤيديهم الغربيين قد نجحت بإقناع الرأي العام العالمي بأن دولة اسرائيل لها شرعيتها التاريخية بل (الدينية)، هذه الشرعية التي لا تتمتع بها أية دولة أخرى... وبأن المشكلة الفلسطينية على هذا مشكلة (لاجئين) يمكن حلها بطريقة (إنسانية).

ولكن مع ازدياد عدد الدول المتحررة التي دخلت هيئة الأمم المتحدة راح العالم الثالث يؤيد المقاومة الفلسطينية في نضالها الاستعمار... وهكذا لم يبق في الميدان من يصدق الأسطورة الصهيونية سوى الاستعماريين الغربيين والولايات المتحدة.

ثم أصبحت منظمة التحرير عضواً في مؤتمر دول عدم الانحياز. وفي عام ١٩٧٤ دعي ياسر عرفات على أنه ممثل رسمي لمنظمة التحرير لإلقاء كلمته على منبر الأمم المتحدة فدلل على عدم جدوى الدعاية الصهيونية القائلة بتهديدات عربية مزعومة تهدف إلى «رمي اليهود في البحر» تلك المزاعم التي سبق أن رأينا أنها لا تمت بصلة إلى ميثاق المنظمة. وقد أعلن ياسر عرفات على نحو رسمي قائلاً: «عندما نتحدث عن آمالنا المشتركة من أجل فلسطين الغد فنحن نعني كل اليهود المقيمين في فلسطين الذين يقبلون بالتعايش معنا في سلام دون أي تفرقة عنصرية».

وفي عام ١٩٧٧ لخص المؤتمر الوطني الفلسطيني الثالث عشر برنامجه في ثلاث نقاط:

حق العودة، حق تقرير المصير، وحق إقامة دولة فلسطينية مستقلة... وقد اعترف بهذه الحقوق على نحو صريح القرار (٣٢٣٦) الصادر عن الجمعية العمومية للأمم المتحدة. وفي عام ١٩٧٥ كانت الأمم المتحدة قد شكلت «لجنة لمتابعة الحقوق الخاصة بالشعب الفلسطيني»؛ وقد أكدت الجمعية العمومية عام ١٩٨٠ على هذا القرار حينما عقدت جلسة خاصة بهذا الموضوع فصوت إلى جانبه ١١٢ مندوباً ولم

يوافق عليه سبعة مندوبين منهم مندوب الولايات المتحدة، واستنكف عن التصويت سبعة وعشرون.

وحينما اتسع التأييد العالمي لمنظمة التحرير على نحو واضح في عام ١٩٧٤ صار من الضروري لدى القادة الصهاينة أن يضربوا ضربتهم.

وهكذا شاء (حسن حظ) الصهاينة أن تنفجر (حرب أهلية) في لبنان تخدم مصالحهم؛ وكانت هذه الحرب تختمر منذ أن بدأت الأقلية البورجوازية المتعاونة مع الاستعمار الفرنسي تغتني على حساب الشعب بعد أن تسلمت مقاليد السلطة في البلاد.

وفي ايلول عام ١٩٧٥ حصلت الولايات المتحدة من مصر على وعد بأن تحل نزاعها مع اسرائيل بالطرق السلمية دون اللجوء إلى السلاح... وهكذا حينما وُضعت مصر خارج الساحة تفرغ الصهاينة للبنان فبدؤوا يكثفون حملاتهم على الفلسطينيين والقوى التقدمية اللبنانية. وقام الكتائب بتنظيم مذبحة تل الزعتر في آب عام ١٩٧٦ لأنهم تخوفوا من تحالف الفلسطينيين مع قوى اليسار اللبناني... ولم يبق من سكان هذا المخيم البالغ عددهم ٣٥٫٠٠٠ نسمة إلا الرماد.

وهكذا وصل لبنان إلى حالة من التفكك تتيح للصهاينة أن ينجحوا في اجتياحه. وفي الرابع من حزيران عام ١٩٨٢ قامت سبعة أسراب من القاذفات الاسرائيلية تحلق فوق بيروت وتقصف مخيمات الفلسطينيين في صبرا وشاتيلا وتحوم فوق منطقة الزهراني قرب صيدا.

وكان آرييل شارون قد أعلن في الثالث من حزيران قائلاً: «إن الوزن السياسي لمنظمة التحرير قد تم إضعافه على نحو جزئي بفعل اتفاقيات كامب ديفيد، ولكن ذلك لا يكفي، فعلينا أن نزيله إلى الأبد».

ثم تابع الاسرائيليون اجتياحهم باتجاه نهر الأولي وصيدا؛ وذلك وفقاً للمخطط القديم القاضي بضم جنوبي لبنان. وفي السادس من حزيران تبنى مجلس الأمن الدولي بالإجماع اقتراح إيرلندا القاضي بأن تسحب اسرائيل كل قواتها العسكرية؛ ولكن القادة

الصهاينة كانوا مطمئنين إلى أن الفيتو الأمريكي كفيل بتجنيبهم أية عقوبة. وفي اليوم التالي دافعت مندوبة الولايات المتحدة في مجلس الأمن عن موقف اسرائيل.

وقد سبق أن أشرنا إلى هذا العدوان الجديد لدولة اسرائيل التي ما انفكت منذ قيامها تغرق الشرق الأوسط في النار والدم... وهو سلوك ينبع بالضرورة من صلب منطق الصهيونية. ونحن لا نعود إلى هذا الموضوع إلا بغية دراسة ما نجم عن ذلك فيما يخص المقاومة الفلسطينية.

لقد نجحت المقاومة الفلسطينية ـــ مع ذلك ـــ في البرهنة على بطولتها كلما عجز عامل السلاح عن التفوق على العامل البشري: وهكذا لم تسقط قلعة الشقيف إلا بعد قتال دموي بالسلاح الأبيض حيث قاتل الفلسطينيون إلى أن استشهدوا جميعاً. وفي بيروت نفسها مني شارون بالإخفاق؛ فعلى الرغم من القصف المدمر بالمدفعية والطيران لم تستسلم المقاومة. ولم يكن أمام شارون سوى أن يختار أحد حلين: أن يدمر بيروت تدميراً كاملاً (وكان يملك الوسائل العسكرية اللازمة ولكن سمعة اسرائيل المعنويةالمنهارة في العالم جعلت هذا الحل مستبعداً)، أو أن يلجأ شارون إلى (حرب الشوارع)؛ وهذا ما لا يغامر به شارون؛ فالتفوق المادي لا يلعب في هذه الحالة أي دور حاسم والقرار الباسل الذي اتخذته المقاومة الفلسطينية بالثبات والقتال لا بد له أن يكلف الاسرائيليين ثمناً غالياً... ومن الصعب أن يتحمل ذلك الرأي العام الاسرائيلي. ولذا اكتفى شارون بإشباع حقده وشفاء ثأره بتنظيم مذابح صبرا وشاتيلا.

لقد دافعت المقاومة الفلسطينية عن شرفها حتى النهاية؛ وقد تنامت سمعتها المعنوية بعد أن خاضت هذه المحنة الرهيبة بينما انحطت سمعة اسرائيل في العالم كله.

وفي لبنان بعد عامين من ممارسة المذابح والهدم اضطر الجيش الاسرائيلي الغازي إلى الانسحاب. ولم يبق أمام هذا الجيش ـــ شأنه شأن الجيش النازي المنهزم عام ١٩٤٥ ـــ إلا أن يقوم بأعمال الثأر والانتقام وذلك بهدم القرى بالجرافات وبممارسة الإرهاب على شعب راح يزعج فلوله المنسحبة.

* * *

إن الشعب الفلسطيني الذي يعد أربعة ملايين نسمة ــ عشرون في المئة منهم مسيحيون ــ هو حتى اليوم شعب بلا أرض.

ويعيش ٥٥٠ ألفاً من هذا الشعب في اسرائيل محرومين من كل الحقوق السياسية؛ وهم يمارسون على الصعيد الاقتصادي أردأ المهن وأسوأ الأعمال... إنهم مواطنون من الدرجة الثالثة في المجتمع الاسرائيلي الذي يتربع على قمته يهود الأشكناز من ذوي الأصول الأوروبية (من روس وبولونيين وألمان...)، ويلي هذه الطبقة طبقة اليهود (السفارديم) القادمين من البلاد العربية. وفي مواجهة هاتين الطبقتين تقف طبقة الفلسطينيين من السكان الأصليين الذين يعاملون معاملة عنصرية فينظر إليهم على أنهم (مهاجرون) في بلدهم الذي اغتصبه منهم الاستعمار الصهيوني.

ويعيش في الضفة الغربية المحتلة ٨٣٠ ألفاً من الفلسطينيين وفي قطاع غزة ٤٥٠ ألفاً؛ وهم يتعرضون لأقسى ألوان القهر المفروض عليهم من قبل المحتل في ظل الأحكام العرفية. وهم يطردون شيئاً فشيئاً من أراضيهم على يد المستوطنين الجدد الذين يحق لهم حمل السلاح وسط هذا الشعب الأعزل. ولقد شُقت في هذه المناطق طرق حديثة عريضة تتيح للإمدادات العسكرية أن تصل على وجه السرعة لدى أول بادرة للعصيان. أما المستعمرات الحصينة فقد أقيمت على المراكز الحساسة في هذه الطرق كي تكون قواعد ستراتيجية جاهزة. وهذا التقسيم الهندسي المنظم لأراضي المنطقة يجعل ــ كل مقاومة عسكرية مهما كانت ناجعة ــ ضرباً من المستحيل، مهما كان الرفض الذي تبديه الجماهير عنيفاً، هذا الرفض الذي يتجلى في الولاء المستمر لمنظمة التحرير على الرغم من عزل رؤساء البلديات وممارسة الإرهاب البوليسي. وهكذا فالمقاومة الفلسطينية داخل اسرائيل لا يمكن أن تتخذ لها تنظيماً عسكرياً في ظل هذه الظروف حيث الطرد والنهب والإرهاب وحيث صار الفلسطينيون أقلية عددية.

إن القوة الحقيقية للمقاومة الفلسطينية هي في قوة (اللاجئين) الذين يعدون أكثر من ثلاثة ملايين؛ منهم مليون فلسطيني في الأردن و ٣٥٠ ألفاً في لبنان و ٣٠٠ ألف في الكويت و ٢٢٠ ألفاً في سورية و ٢٠٠ ألف في السعودية ودول الخليج ومئة ألف في أمريكا.

وإن ما يميز هؤلاء (اللاجئين) ذلك المستوى الثقافي العالي الذي يتمتعون به؛ فنسبة المتعلمين من الفلسطينيين هي أكبر نسبة في العالم العربي، بل إن عدد المجازين وخريجي الدراسات العليا يبلغ ١٣٠ ألفاً أي ٣٥ في الألف؛ وهي نسبة تفوق النسبة نفسها في اسرائيل وانكلترة. أضف إلى ذلك عشرات الآلاف من المهندسين والأطباء والمدرسين.

ولكن مستقبل المقاومة الفلسطينية رهن بتلك الإرادة العنيدة التي يمتلكها المقيمون في فلسطين والتي ترفض كل أشكال التعاون مع المحتل الصهيوني... ورهن بجهود المقاومة الجبارة في توحيد شمل (اللاجئين) خارج فلسطين. وهي تمتلك وسائل مالية هامة؛ فهناك عدد كبير من الفلسطينيين يملكون ثروات طائلة في البلدان الغربية والعربية.

وقد سبق أن رأينا كيف استطاع الاسرائيليون أن ينتفعوا بثروات أصحاب المليارات ليسخروا استثمارها على نحو منظم مجدٍ على صعيد وسائل الإعلام، مما أتاح لهم في الغرب إمكانية الإشراف الصارم على الصحافة والنشر والإذاعة والتلفزة والسينما والإعلان.

إن الإيمان بقوة وسائل الإعلام وأهميتها في كسب الرأي العام للضغط على الحكومات لا نراه لدى الدول العربية ولا لدى الفلسطينيين أنفسهم. نعم لم يدرك هؤلاء ــ كما أدرك الصهاينة منذ زمن طويل ــ أن هذا هو السلاح الحاسم في النصر أي في (العودة).

وإن قضية العودة لدى الفلسطينيين لا ترتبط بأي تفسير أسطوري كما يرتبط مفهوم العودة لدى الصهاينة... وإنما هي عودة إلى أرض طردوا منها منذ عام ١٩٤٨ وكان أجدادهم يزرعونها دون انقطاع منذ أربعة آلاف عام.

وهكذا فنجاح المقاومة الفلسطينية مرهون بتحقيق هدف أولي: إنه تنظيم مركزي منهجي متعدد الوجوه للسيطرة على وسائل الإعلام بغية (تغيير) الرأي العام المضلَّل ــ في مواجهة قرن كامل من أكاذيب الصهيونية المدروسة الذكية ــ كي يتضح

لهذا الرأي العام مدى الخداع الذي كان فريسة له ويكتشف الحقيقة الناصعة.

وحينئذ... وهاهنا سيحكم على الصهيونية السياسية بالموت، وسترى نفسها ملزمة بالخضوع إلى العرف الدولي دون أي ممارسة للتفوق والامتياز. وحينذاك سيدرك الرجال والنساء من اليهود أو من أصل يهودي — وقد تحرروا من الوباء الإيديولوجي للصهيونية السياسية — المعنى الحقيقي للمقاومة الفلسطينية وهدفها الأول والأخير: إنه التعايش على أرض فلسطين، أرض الرسالات السماوية فيما بين المسلمين والمسيحيين واليهود على قدم المساواة حيث توحد فيما بينهم العقيدة الابراهيمية المشتركة.

إن فلسطين وعاصمتها القدس ستصل بذلك إلى ذروة مجدها التاريخي. نعم ما الذي يمنع أن تكون القدس — أي دار السلام — التي كانت المدينة المقدسة للكنعانيين واليبوسيين قبل أن يجعل منها داوود عاصمة له بألف سنة، وقبل يسوع بألفين من الأعوام، وقبل أن يدخلها الخليفة عمر بألفين وستمئة من الأعوام... ما الذي يمنع القدس هذه أن تصبح (المدينة المقدسة) والعاصمة العالمية للديانات السماوية الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلامية؟

حينذاك ستصل فلسطين إلى أوج تاريخها على أنها مركز للتبادل واللقاء... فيحمل (الهلال الخصيب) مرة ثانية رسالته التاريخية التي تعود إلى آلاف السنين، رسالة التبادل المخصب والتلاقح المثمر في عالم الثقافة والإبداع.

نعم حينما تصبح القدس مرة ثانية موئلاً للتبادل واللقاء يمكن لكل الشعوب أن تردد مع أشعيا النبي قوله: إن القدس الجديدة ستنير العالم وإنها أمل البعث والخلاص وسط الظلام:

قومي استنيري يادار السلام الجديدة.
لأن مجد الرب قد أشرق عليك.
وتستنير الأمم بنورك.
...سأخلق منك سماوات جديدة.
وأرضاً جديدة.

وستكون السيوف محاريث.
والرماح مناجل.
ولن ترفع أمة على أمة سيفاً.
ولن يتعلم أبناؤنا الحرب أبداً.

* * *

خاتمة

كتب بول فاليري يقول: «إن التاريخ هو أخطر ما أنتجه الفكر... فهو الذي يرمي بنا في أحضان الحلم فيثمل الشعوب ويولد لديها ذكريات زائفة... ويقودها إلى جنون العظمة أو إلى جنون الاضطهاد... إنه يجعل الشعوب عظيمة أو رهيبة أو هامشية...».

وليس في تاريخ العالم مثال يصدق عليه هذا القول كما يصدق على تاريخ فلسطين... نعم لم يكن التاريخ — وفقاً لمقولة فاليري — إلا إيديولوجية لتبرير التعصب القومي في القرن التاسع عشر أو خرافة تحل — على الأغلب — محل التاريخ.

إن كتابنا هذا لا يدعي أنه يضع نفسه فوق التاريخ وفوق ما فيه من خصومات ونزاعات... بل إن هذا الكتاب — على نقيض ما طرحه فاليري — محاولة للتساؤل من منظور مستقبلي؛ فالتاريخ الإنساني الحق ليس ذاك الذي يُكتب وإنما هو الذي يُصنع: إنه تاريخ المستقبل.

والمستقبل لا يولد من العدم؛ فبناؤه يقتضي أن نتوجه إلى الماضي بالسؤال، لا لنأخذ منه الدروس والعبر بل لنقرأ فيه الاستمرارية والديمومة... وهي استمرارية تتسم بالخصب والحيوية حيناً، وباليبوسة والجفاف حيناً آخر... وبين أوان وأوان قفزات مبدعة (ثورية)

أصيلة تتخللها عمليات نفي غير ثورية تقودنا إلى الماضي أو إلى أحضان العدمية لا تبشر بأي مستقبل ذي ملمح إنساني.

إن هذا البحث الطويل في تاريخ فلسطين قد حاول أولاً أن يحل التاريخ محل الأسطورة، وأن يكشف عن الأسباب التي ولّدت هذه الأسطورة، وأن يفسر سبب تداخل الأسطورة بالتاريخ، وكيف وجهت مسيرته أو عملت على حرفه عن مساره. ولهذا لم نكتف بسرد الأحداث المتتابعة التي توالت على قطعة من الأرض بل رحنا نتتبع فلسطين تاريخاً وأسطورة في مخيلة الشعوب.

وقد كان دون كيشوت على حق حينما اعتقد أن المثالي أكثر صدقاً من الواقع؛ فواقع الأمر أن الأسطورة تفرض على التاريخ شكلاً ما وتحرف مسيرته نحو الأفضل أو نحو الأسوأ فإذا نحن أمام أحلام مبدعة خلاقة أو أمام إيديولوجية مسخرة للتبرير.

وهذه الدراسة عن فلسطين عبر التاريخ ليست إلا محاولة لدحض كل خرافة مغرضة، ولتسليط الأضواء على المسيرة التاريخية لهذه المنطقة بغية التمييز بين ما فيها من استمرارية وما فيها من انقطاع.

* * *

أ ــ الاستمرارية

لم تكن فلسطين قط كياناً منعزلاً.

إن ما جعل تاريخها مستمراً هو ــ على وجه الدقة ــ أنها كانت موئلاً للتلاقي والتقارب فيما بين الشعوب، ما عدا بعض فترات الانقطاع التي سنشير إليها.

لقد تمت في هذه البقاع عملية (التركيب) أو الانصهار فيما بين معطيات الحضارات. وكان ذلك منذ أن راحت قوافل التجار القادمة من آسيا تتجه إلى البحر المتوسط كي تصل إلى أوروبا والمغرب... ومنذ أن قام المبشرون البوذيون الذين أرسلهم

الامبراطور الهندي آسوكا في القرن الثالث ق.م عبر العالم والذين وصل قسم منهم إلى فلسطين ومكثوا فيها.

إن فلسطين التي لم تنفصل عن مجموعة الهلال الخصيب كانت عامل استمرار للحوار بين الحضارات.

وكان ذلك أول الأمر عن طريق الهجرات الدائمة للرحل الذين كانوا يجوبون الأرض فيما بين الجزيرة العربية وبلاد ما بين النهرين وسورية وفلسطين ومصر؛ هذه الهجرات التي عملت على التفاعل الخصب الخلاق بين أعظم وأقدم حضارتين في العالم: حضارة الهلال الخصيب، والحضارة المصرية.

في هذا الموقع الممتاز الذي تم فيه لقاء الحضارات حيث عبرت منه كل نفحات آسيا من الهند إلى فارس وإلى افريقية بطريق مصر ... في هذا الموقع كانت ترن أصداء أسمى القيم الروحية: إنها أصداء ملحمة جلجامش مع أصداء نشيد التوحيد الحالم لأخناتون.

وهكذا أصبحت فلسطين أرض الرسالات السماوية حيث ترددت فيها أصوات أنبياء بني اسرائيل وظهرت على أرضها رسالة المسيح ووصل إليها الإسلام ليتبنى كل الأنبياء السابقين الذين قالوا بالتوحيد، عقيدة ابراهيم وموسى والمسيح ومحمد.

نعم على هذه الأرض انعقدت الروابط والصلات مع الغرب المتوسطي: فالفلستيون والفينيقيون قد انتشروا في كل أرجاء شواطىء المتوسط ... من قرطاجة إلى مرسيليا التي ستزهو فيما بعد بأنها «بوابة الشرق».

وعرفت هذه الأرض كذلك تدفق الغزوات الغربية المتتابعة: من فرس إلى مصريين، ومن يونان ورومان، ومن مغول إلى صليبيين، ومن انكليز إلى صهاينة.

ب ـــ فترات الانقطاع

إن فترات الانقطاع الرئيسية كانت في تلك المحاولات التي فرض فيها الغرب عزلة

خانقة على فلسطين بغية جعلها منغلقة على نفسها وحرمانها من دورها الوسيطي منذ أربعة عشر قرناً بين آسيا وافريقية، وبين الشرق والغرب ليزرعوا فيها دولة غربية صرفة لايمكن لحياتها المصطنعة أن تستمر إلا بتبعيتها للغرب على صعيد المال والسلاح.

ولعل خير مثالين نموذجيين على ما نقول، الغزوات الصليبية لفلسطين التي بلغت ثماني حملات فيما بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر، والموجات الست من الهجرة الاستيطانية الصهيونية منذ قرن مضى.

كانت تجربة الحملات الصليبية تجربة حرب مستمرة دامت مئتي عام انتهت بهزيمة الصليبيين وبرفض شامل لهذه الغزوات. إن الجيوش ـــ مهما بلغت من القوة ومهما كان تجهيزها وإعدادها ـــ لاتقدر أن تفرض نفسها إلى الأبد على إرادة الشعوب. نعم إن الانهيار النهائي لكل المستعمرين من فيتنام إلى الجزائر يدل تمام الدلالة على أن المواجهة بين الجيش والشعب منتهية حتماً ـــ على الرغم من المجازر والفظائع ـــ إلى هزيمة الجيش.

إن الصهيونية لم تتمكن من احتلال فلسطين إلا بفضل حربين عالميتين، ولم تترسخ على أرضها حتى الآن إلا بفعل خمس حروب... وهي لم تصل إلى انتصارها الأول (وهو صدور وعد بلفور عام ١٩١٧) إلا بعد دخولها لعبة الخصومات بين القوى الاستعمارية الهادفة إلى تقطيع أوصال الامبراطورية العثمانية وتقسيمها؛ ولم تستطع الحصول على حصتها من الغنائم إلا بفضل الحرب العالمية الأولى حينما حاولت بريطانيا أن تسبق ألمانيا فحصلت على دعم الصهاينة بغية جر الولايات المتحدة إلى جانبها في الحرب.

لقد أتاحت الهجرة الصهيونية الثالثة إلى فلسطين (١٩١٩ ـــ ١٩٢٣) تقدير عدد اليهود في فلسطين بـ ٨٥ ألف نسمة.

أما الهجرة الرابعة (١٩٢٤ ـــ ١٩٣٢) فجلبت ٥٩ ألف مهاجر؛ وأما الذين جذبتهم العقيدة إلى أحضان الصهيونية وأغرتهم المنافع المادية بفضل التبرعات الصهيونية في العالم وحماية بريطانيا لهم... فكانوا أقلية محدودة؛ حتى إن عام ١٩٢٧

شهد ــ أول مرة ــ زيادة عدد المهاجرين من فلسطين على عدد المهاجرين إليها وفقاً لما جاء في الكتاب اليهودي السنوي الأمريكي. وهذا ما كان يهدد المشروع الصهيوني حينذاك بالإخفاق.

ولكن السياسة الهتلرية المعادية لليهود قد (أنقذت) المشروع الصهيوني حينما أتاحت لهم هذه السياسة أن يوجهوا بالقوة عملية هجرة أعداد كبيرة من اليهود إلى فلسطين: فالمكتب المركزي لتوطين اليهود الألمان في فلسطين راح يرفض كل طالب للهجرة إذا لم يكن صهيونياً؛ فمصلحة فلسطين وحاجاتها لدى الصهاينة هي فوق الخطة الموضوعة لإنقاذ اليهود وخلاصهم.

وبهذا «كان اليهود الألمان أمام المعضلة التالية: فهم إما أن يلتزموا بالالتحاق بمعسكر الإعداد المذهبي المنظم من قبل الصهاينة ليتوجهوا بعد ذلك إلى فلسطين... أو أن يكون مصيرهم في معسكرات الاعتقال النازية».

ولقد كانت حصيلة هذا (التجميع) مثمرة؛ فمن عام ١٩٢٩ إلى ١٩٣٣ دخل فلسطين ١٨٨ ألفاً من اليهود؛ وقد عمل وصول هتلر إلى السلطة على دفع هذه الحركة إذ بلغ عدد المهاجرين إلى فلسطين من عام (١٩٣٣ إلى ١٩٣٩) ٢١٥ ألف يهودي. أما تحديد هجرة اليهود المضطهدين في ألمانيا إلى البلدان الغربية بتوجيه من القادة الصهاينة فقد أتاح لعدد اليهود في فلسطين أن يقفز إلى ٦٠٨ آلاف يهودي عام ١٩٤٦ حيث كان يعيش فيها مليون و ٢٣٧ ألف عربي.

إن الدولة الصهيونية التي ولدت من جراء حربين عالميتين راحت تتماسك وتضرب بجذورها بفضل خمس حروب: أولها حرب ١٩٤٨ وثانيها حرب ١٩٥٦ بالتآمر مع بريطانيا وفرنسا، وثالثها عدوان ١٩٦٧ الذي نجم عنه الضم والإلحاق والذي جعل من حرب تشرين عام ١٩٧٣ أمراً لا مفر منه، وخامسها اجتياح لبنان عام ١٩٨٢.

وعلى الرغم من هذا النشاط العسكري وصلت الصهيونية الاسرائيلية مرة ثانية ــ كما وصلت عام ١٩٢٧ ــ إلى مرحلة الإنهاك؛ لأن الهجرة إلى اسرائيل لا تعدل

الهجرة منها. وهذا يعود إلى أسباب جوهرية منها أن دولة اسرائيل هي أقل بلاد العالم طمأنينة وأمناً من جراء السياسة العدوانية الحربية التي ينتهجها القادة الصهاينة؛ ومنها أن أمن يهود الشتات وطمأنينتهم مهددة على المدى البعيد من جراء ما تسببه سياسة القادة الصهاينة القائمة على الابتزاز، وبسبب الإتاوات المالية الباهظة المفروضة على اليهود من قبل دولة تخصص أكبر قسم من ميزانيتها للحرب على حساب اقتصاد مهدد بالانهيار على الرغم من الدعم المتزايد لهذا الاقتصاد من قبل الدولار.

وهكذا يتماسك — على نحو مصطنع — الاستعمار الاستيطاني الذي لم يبق من نماذجه إلا (اسرائيل) ونظام (جنوبي افريقية).

وهكذا يشجَّع ويُدعم — على نحو مصطنع — كذلك التعصب القومي المرتبط بالقوى الاستعمارية في زمن لم يعد فيه التعصب مقبولاً.

إن هذه (القومية) الاسرائيلية هي مصطنعة أيما اصطناع؛ فمن الناحية التاريخية لم تكن هناك (أمة) يهودية في فلسطين حتى في عهد مملكة داوود... فالشريط الساحلي كان في يد الفلسطيين ولم يكن قط جزءاً من هذه المملكة؛ أما أورشليم (مدينة داوود) التي سيطر عليها مرتزقة من غير العبريين فقد كانت همزة وصل بين دولتي يهودا واسرائيل.

لقد كان البناء السياسي لمملكة داوود هشاً غير مستقر فلم يتح لثقافة أصيلة أن تنمو وتتطور: وحينما بنى الملك سليمان (الهيكل) استعان بفلستيين أرسلهم إليه حيرام ملك صور لتصميم الهيكل وبنائه وزخرفته[1]... نعم على مدى أربعة آلاف

---

١ — إن هذا يكشف عن عدم جدوى (التنقيبات الأثرية) التي يقوم بها الصهاينة بحجة الكشف عن (الهيكل)... ومهما تفاءلنا فلن يعثر من الهيكل إلا على بقايا لا قيمة لها... ولو حدث أن اكتشفت هذه البقايا فلن تكون إلا شاهداً على المستوى الثقافي لدى الفلستيين الذين سميت فلسطين باسمهم.

وقد يكشف عن بقايا الجدار الروماني الذي بناه هيرودوس والذي يسمى اليوم (حائط المبكى). إن السبب الحقيقي لتلك التنقيبات هو زعزعة أساس المسجد الأقصى وقبة الصخرة بل هدمهما؛ وهما الشاهدان العظيمان على إبداع الحضارة الإسلامية.

(المؤلف)

عام لم تعش دولة عبرية إلا ثمانية وسبعين عاماً في ظل داوود وسليمان، ومئة عام أخرى في ظل المكابيين.

هذا ومن الخطأ أن نتحدث عن (قومية فلسطينية)؛ فالصراع المشروع للشعب الفلسطيني ليس صراعاً عرقياً؛ وإنما يهدف إلى العودة إلى أرض أجداده والاندماج في إطار الأمة العربية.

* * *

إن موقف الأوروبيين (ماعدا النمسا واليونان) من (القومية) الاسرائيلية يعارض منطق التاريخ ومصالح أوروبا الاقتصادية ومقتضيات السلام العالمي ومستقبل الإنسانية.

أ ـ إن هذا الموقف يعارض منطق التاريخ... فلقد سبق أن أظهرنا في القسم الأول من هذا الكتاب الدور التاريخي لهذا المهد الحضاري العظيم، مهد الهلال الخصيب. ويكفينا أن نشير إلى مثالين بارزين لهذا الدور: لقد كانت بيروت على مدى قرون إحدى المحطات على (طريق الحرير) الوارد من الصين. ولم تكن بيروت مشهورة بمشاغل الحرير فيها فحسب بل بكل ما كانت تسهل مروره من ثقافات عريقة، وذلك حينما كانت امبراطورية الرومان وامبراطورية الصين لا تعرف إحداهما الأخرى... إنها مجتمعات (منغلقة) لامبراطوريات تقف على النقيض من مجتمعات (منفتحة) في عالم تؤسّس فيه شبكات التبادل الإنساني على صعيد التجارة والثقافة.

أما تدمر فقد سبق أن أشرنا إلى الدور الحاسم الذي لعبته في تنظيم الشبكة الهائلة للمواصلات من البحر المتوسط إلى الهند، هذه الشبكة التي عملت على إغناء التبادل المثمر في الاقتصاد والحضارة.

لقد هدم الرومان تدمر وأتى العرب بعد ألف عام فبنوا قرطبة... إنهم ورثة (الهلال الخصيب) وروحه الحضارية... لقد أقاموا مع جامع قرطبة جامعتها التي كانت مركزاً ثقافياً شع على الغرب على مدى ثلاثة قرون بعلوم الشرق وحكمته وفلسفة

اليونان والهند؛ لا بترجمة الآثار العلمية والفلسفية فحسب بل بإبداع (تركيبة) جديدة وتطوير خلاق مارسه الإسلام.

وعلى الطرف الآخر من العالم الإسلامي... من بغداد إلى جند يسابور قرب الخليج العربي كان الأطباء والحكماء من يونان وهنود وغيرهم يتعاونون في ظل الحضارة الإسلامية. كان العالم الإسلامي يلعب دوره الحضاري في تمدين الإنسان وتطوير إنسانيته عبر هذه الطريق التي شقتها له شعوب الهلال الخصيب منذ ثلاثة آلاف عام.

ولكن هانحن أولاء — أول مرة منذ خمسة آلاف عام — أمام محاولة لتشويه هذه الحركة الهادفة إلى تطوير الإنسان وإنسانيته... فلقد عرفت هذه المنطقة عبر التاريخ اجتياحات وغزوات خارجية؛ ولكن لم تهدف أي منها إلى طرد السكان الأصليين أو إبادتهم؛ فالرومان والصليبيون والمستعمرون الانكليز أنفسهم كانوا يكتفون بإقامة محميات لهم واحتلال البلاد للسيطرة عليها واستثمار سكانها. أما المخطط الصهيوني فلا نظير له: إنه يقوم على إحلال شعب محل شعب، وحضارة محل حضارة. وقد مورس هذا المخطط بدءاً من هرتزل الذي يعلن في كتاب (الدولة اليهودية) قائلاً: «سنشكل في فلسطين حصناً لأوروبا في وجه آسيا، وسنكون حصناً أمامياً متقدماً للحضارة الغربية في وجه البربرية» — وهذا يعني نفي حضارة فلسطين —... وانتهاءاً بغولدا مائير التي أعلنت في السانـدي تايمز عام ١٩٦٩ قائلة: «ليس هنـاك فلسطينيون. نحن لا نقر بوجود شعب فلسطيني أتينا لنطرده ونستولي على أرضه... نعم لا وجود لمثل هذا الشعب» — وهذا نفي لوجود الشعب الفلسطيني —.

وقل الشيء نفسه على صعيد القوانين التي طبقت في الدولة الاسرائيلية منذ عام ١٩٥٣ والتي تنص على منع بيع الأراضي أو تأجيرها لغير اليهود — وهذا نفي عرقي يتناول الأرض —.

نعم مع هذه الحالات الثلاث نجد أنفسنا أمام مشروع جديد كل الجدة في التاريخ: إنه إحلال حضارة محل حضارة (حضارة الغرب التي تنفي حضارة الهلال الخصيب وتهدمها)، وإحلال شعب محل شعب (غزاة قادمون من أرجاء العالم بغية

إلغاء السكان العرب الأصليين)، وفرض المعيار العرقي شرطاً لملكية الأرض بغية انتزاعها من أولئك الذين عملوا فيها طوال أربعة آلاف عام وتمليكها أزلياً لمهاجرين ليس لهم أجداد عاشوا على هذه الأرض وذلك بالاعتماد على خرافات تاريخية وعرقية.

إن هذا الموقف الذي بدأه الصهاينة برفضهم كل ألوان الاندماج (أي برفضهم إقامة حضارة مشتركة مع السكان الذين ليسوا من دينهم) والذي انتهى بالعدوان الاسرائيلي على الشعب العربي وأرضه وحضارته... ظاهرة مدروسة مخططة لم تحدث في التاريخ إلا مرة واحدة ماعدا عملية طرد الهنود الحمر وإبادتهم في أمريكا على يد الغربيين، وماعدا محاولات هتلر النابعة من هلوسات تاريخية تحلم بإبادة السلافيين ومعهم اليهود باسم الأسطورة القائلة بالتفوق الدموي والعرقي للعنصر الآري.

لقد كانت نتائج تلك المواقف دامية قتالة انعكست على الإنسانية كلها. إن هذه المحاولة الهادفة إلى طمس كامل لثقافة أعرق بؤرة حضارية منفتحة في الهلال الخصيب، تحول دون انبعاث هذه الحضارة ودون إسهامها في بناء مستقبل بناء إنساني أفضل؛ أضف إلى ذلك أن عدواناً بهذا الحجم يغذي المتعصبين من كل الطوائف ولاسيما متعصبي الدولة الصهيونية حيث (الأحزاب الدينية) ومجالس الحاخامات تلعب دوراً واسعاً على الرغم من قلة عددها؛ فهي تقدم الحجج الأسطورية والإيديولوجية لتبرير ذلك العدوان.

إن المثال المأخوذ من سلوك الحاخام (مائير كاهان) ذو دلالة كافية: فالقادة الصهاينة لا يستطيعون أن يتبنوا ممارساته الهستيرية الدموية المخربة فهم يكتفون بلومه على تطرفه في إساءاته لأنهم معه من حيث المبدأ، هذا المبدأ الذي ينبع من صميم منطق الصهيونية السياسية الموصل إلى تلك النتائج المتطرفة... وعلى هذا فقد تم انتخاب الحاخام مائير نائباً في الكنيست حيث يتمتع بالحصانة السياسية.

إن المقاومة الفلسطينية ــ مهما كانت النكسات العسكرية التي واجهتها ــ تحمل عبء رسالة عالمية: إنها رسالة تاريخية تقوم بالدفاع عن الحضارة بحضارة تمتد بجذورها إلى الهلال الخصيب عبر آلاف السنين.

ولن يكون حل القضية الفلسطينية حلاً جزئياً إقليمياً. إن الحل الوحيد الممكن لن يكون إلا في إطار النظر إلى فلسطين على أنها جزء من الهلال الخصيب لم تنفصل عنه قط عبر التاريخ.

ولن يستطيع العالم العربي أن يعيش ويبعث حياته بعثاً جديداً إلا بتبني ذلك التراث الروحي الغني للهلال الخصيب، هذا التراث بانفتاحه وعالميته خلافاً لانغلاق الغرب الامبريالي وتعصبه مع حليفته الصهيونية في فلسطين.

ب ــ إن اتصال الأوروبيين بالشرق العربي وارتباطهم به هو موقف ثابت في تاريخ أوروبا (ماعدا الحملات الصليبية وحركة الاستعمار وصنيعته الصهيونية)... وهذا الموقف لا يعود إلى الموقع الجغرافي للشرق العربي فحسب بل لأن الغرب يستمد جذوره الروحية من الشرق.

إن الفلسفات التي سبقت سقراط قد نمت وتطورت في آسيا الصغرى حيث ولد تاليس وبارمينيد وزينون وهيرقليط وغيرهم. أما الانحسار فكان بسبب الحروب الميدية... ثم راحت آسيا تمد ثانية العالم الهلنستي ليعطي ماأعطى من ديانات خلاصية بينما كانت افريقية ومصر على وجه الخصوص توحيان إلى فيثاغورس وأفلاطون ماتوحيان؛ أما الاسكندر في عبوره إلى الهند فقد تابع حلمه بأن يربط الهلنستية بحضارة آسيا. وكان زواج ضباطه وجنوده بنساء فارسيات تتويجاً عظيماً لهذا الحلم؛ أما فن (الغاندارا) القائم على التزاوج فيما بين الفنون اليونانية والإيرانية والهندية فهو الشاهد الأكثر دلالة على ذلك.

وحينما كان العالم الهلنستي يُحتضر في قوقعة (المدينة) الآيلة إلى الانهيار حاول الاسكندر أن يبدع عالماً جديداً... وهكذا تلاقت ــ في أثناء عبوره الهند ــ فلسفة اليونان بحكمة الهند بينما راحت الاسكندرية في افريقية تتحول إلى أكبر مركز للإشعاع الروحي في كل منطقة البحر المتوسط على مفترق الطرق فيما بين آسيا وافريقية وأوروبا المتوسطية.

وانطلاقاً من القدس في فلسطين وأنطاكية في سورية والاسكندرية في مصر

راحت تنتشر صوب الغرب الموجات المسيحية الأولى محملة برسالة عالمية شاملة. وفي الشرق الأدنى انطلق (آباء الكنيسة) من كابادوقية (في تركيا اليوم) ومن أنطاكية (في لواء اسكندرون) يبشرون بالعقيدة الجديدة كما بشر آباء الكنيسة من الاسكندرية (في مصر اليوم) ومن قرطاجة (في تونس اليوم) حيث عاش القديس أوغسطين.

وبعد ذلك قام شارلمان عام ٧٩٧ وقبل أن يصبح امبراطور الغرب بالتحالف مع خليفة المسلمين هارون الرشيد، كما عقد فرنسوا الأول عام ١٥٥٣ حلفه مع سليمان القانوني سلطان الامبراطورية العثمانية.

ثم جاءت الفصول المرة التي مثلها الصليبيون والاستعماريون والصهاينة بمزاعمهم في التفوق وممارساتهم الدموية... لتكون نقيضاً لتلك التقاليد العريقة التي عملت على التبادل المثمر فيما بين الشرق والغرب... كان ذلك كله نقيضاً للمصالح الاقتصادية والسياسية والروحية لأوروبا.

أما على الصعيد الاقتصادي فأوروبا اليوم تعتمد في نصف ما تحتاجه من النفط على الشرق الأوسط وتستورد ٧٠٪ مما تحتاجه من العالم العربي... وكذلك تحتاج فرنسا إلى النسبة نفسها من غاز الجزائر. إن حجم علاقة فرنسا التجارية بالجزائر وحدها يفوق أربعة أضعاف حجم علاقتها التجارية بإسرائيل.

وقل الشيء نفسه عن أوروبا كلها؛ فنصف صادرات الدول العربية تتجه صوب أوروبا التي تصدر إلى العالم العربي ١٢٪ من صادراتها أي ما يعدل صادراتها إلى الولايات المتحدة. إن الدول العربية سواء كانت مصدرة أو مستوردة هي أفضل شريك تجاري لأوروبا.

نعم يمكن لهذه العلاقات الاقتصادية القائمة اليوم أن تتسع وتزدهر وتصبح أشد التحاماً بين أوروبا والعالم العربي وبلدان العالم الثالث غير المنحازة.

ويتجلى انحياز أوروبا إلى اسرائيل بوضوح في موقفها من القضية الفلسطينية؛ فالتصريحات دائماً مترددة، وبينها وبين الممارسات الفعلية هوة كبيرة.

إن المجتمعين في مؤتمر القمة الأوروبي في البندقية عام ١٩٨٠ يصرحون بقولهم: «إن الشعب الفلسطيني يجب أن يمارس حقه في تقرير مصيره» ويعلنون أنهم يخالفون كل مبادرة أحادية الجانب تهدف إلى تغيير وضع القدس؛ أما فيما يخص لبنان فقد نادى المؤتمرون بوضع حد لكل عمل يلحق الضرر بوحدة أرض لبنان.

ولكن سرعان ما نرى أن أول زيارة رسمية يقوم بها رئيس فرنسا الجديد (ميتران) كانت لإسرائيل. وقد جاء على لسان (الشيخ زايد) رئيس الإمارات العربية المتحدة ــ وهو مسؤول عربي معتدل ــ أن (ميتران) في خطابه في الكنيست لم يكن حازماً فيما يخص القضية الفلسطينية ولم يدنْ اسرائيل على ضمها الجولان؛ بل إنه اعترف ــ ضمناً ــ بضم القدس حينما قبل زيارتها.

ثم طلب زعيم الصهاينة الفرنسيين (ألان دي روتشيلد) عام ١٩٨١ إلى رئيس وزراء فرنسا (بيير موروا) أن يفي بالوعود التي قطعها (ميتران) والقاضية بإلغاء إجراءات مقاطعة اسرائيل المقررة في حزيران وتموز من عام ١٩٧٧ وأيار عام ١٩٨٠.

وهكذا بعد أن كسرت اسرائيل طوق العزلة كانت على ثقة من أنها تستطيع أن تجتاح لبنان دون أي عقاب؛ وذلك بفضل الدعم غير المشروط من قبل الولايات المتحدة وشركائها المطيعين في أوروبا.

ومنذ غزو لبنان في الثامن من حزيران عام ١٩٨٢ كان الاستنكار العالمي شاملاً فدفع ذلك بمجلس الأمن إلى اتخاذ قرار يطلب فيه إلى بيغن سحب قواته من لبنان... وكان القرار إجماعياً ما عدا صوتاً واحداً، إنه صوت الفيتو الأمريكي! أي إشارة (الضوء الأخضر) لممارسة المذبحة!

ومرة أخرى هاهو ذا الغرب... وأوروبا التابعة المطواعة للولايات المتحدة يتحديان (العالم الثالث) بالموافقة على العدوان الاسرائيلي.

إن هذا التضامن مع الصهيونية الاسرائيلية يرجع إلى سبب جوهري: وهو أن اسرائيل ليست إلا (وكيلاً) لاستعمار جماعي في الشرق الأوسط؛ فهي تمسك في يدها ــ لحساب الولايات المتحدة ــ بمفتاح بوابتين كبيرتين تقفان في وجه العلاقات

المتبادلة بين الشرق والغرب: قناة السويس ومضيق الدردنيل... أما البوابة الثالثة فمفتاحها في يد نظام جنوبي افريقية، المحمية الأخرى التابعة للولايات المتحدة.

إن هذا الحجز الذي يحول دون التبادل الحضاري المثمر بين الشرق والغرب له نتائجه الخطيرة كذلك على صعيد العلاقات الروحية في العالم كله.

ولقد عمل دعم (القومية) الصهيونية المتعصبة على طمس التقاليد النبوئية السامية وحجبها عن اليهود أنفسهم: إن الدين اليهودي لم يعد يُستخدم اليوم لدى الصهاينة إلا ذريعة لسياستهم؛ ولقد حلت (دولة اسرائيل) ـــ على أنها صنم للعبادة ـــ محل إله بني اسرائيل.

نعم إن الصهيونية السياسية بما صنعته من تشويه جذري لمعنى (الوعد الإلهي) قد خانت جوهر العقيدة الابراهيمية الصافية.

أما المغزى الروحي المستمد من جوهر العقيدة الابراهيمية فقد أضاعه الغرب الذي يوشك أن يموت من جراء سكره بقوته المادية العمياء ونزعته العرقية وادعائه التفوق.

ولا بد لنا بعد أن انتهينا من عرض المسيرة الفلسطينية الرائعة في إطار الملحمة الإنسانية من أن نعي قيمة بل ضرورة (لقاء) جديد في (القدس) بين الشرق والغرب... إنه لقاء بين تقنية الغرب التي يجب ألا تسخَّر لتدمير الإنسان، وبين المعاني الروحية التي هبت أنفاسها من آسيا، أي من الشرق... وذلك بغية تسخير قوى الغرب العجيبة وتقدمه العلمي في خدمة الإنسان لا في تدميره.

* * *

وثائق أصلية

١ ــ الخطة الاستراتيجية الحربية للصهيونية الإسرائيلية في الشرق الأوسط في الثمانينيات

النص الكامل باللغة العبرية لمقطع أوديد اينون حول «استراتيجية حرب إسرائيل في الثمانينيات» من بحث كيفونيم «اتجاهات مشرقية» الذي نُشر في القدس من قبل «المنظمة الصهيونية العالمية» في شباط ١٩٨٢.

אסטראטגיה לישר:ל בשנות השמונים

מאת

עודד ינון

במיתחם של שנות השמונים נחוצה למדינת־ישראל ראיה חדשה לגבי מקומה, יעדיה, ומטרותיה הלאומיות מבית ומחוץ. הדבר נעשה חיוני עוד יותר עקב מספר תהליכים מרכזיים העוברים על המדינה, על האיזור ועל העולם. אנו חיים כיום בשלביו המוקדמים של עידן חדש בהיסטוריה האנושית שאינו דומה כלל לקודמו, ומאפייניו שונים תכלית שינוי ממה שהכרנו עד כה. לכן דרושה לנו הבנה לתהליכים המרכזיים המאפיינים עידן היסטורי זה מחד גיסא, ומאידך גיסא השקפת־עולם ואסטראטגיה אופראטיבית בהתאם לתנאים החדשים. קיומה, שיגשוגה ועמידתה של המדינה היהודית, יהיו תלויים ביכולתה ל־אמץ לעצמה דרך חדשה, ומתכונת חדשה לחייה הפנימיים והחיצוניים.

עידן זה מאופיין במספר קווי אופי שאנו יכולים לאבחן אותם כבר עתה, והם מסמלים מהפכה ממשית באורח חיינו הנוכחי. התהליך הדומינאנטי הינו עצם התמוטטותה של ההשקפה ההומאנית הרציונאליסטית כנידבך העיקרי לחייה ולהשגיה של הציוויליזאציה המערבית מאז הרנסאנס. השקפת העולם הפוליטית, החברתית, והכלכלית שנבעה ממאפיין זה של עולמנו, גרסה כמה "אמיתות" שכיום נעלמות. כך, התפיסה שהאדם כמרס הוא מרכז היקום, והכל בו נועד למלא את צרכיו החומריים בעיקרם. השקפה זו מתבטלת בעידן הנוכחי, כאשר ברור שכמות המשאבים ביקום אינה עונה על ציפיותיו של האדם, ועל צרכיו הכלכליים והאילוצים הדמוגראפיים שלו.

בעולם שבו ארבע מיליארד בני־אדם, ומשאבים כלכליים ואנרגאטיים שאינם גדלים ביחס לצורכי האנושות, לא ניתן ריאלית, לענות על התנאי העיקרי של החברה המערבית [1], היינו, הרצון והשאיפה לצריכה ללא גבול. ההשקפה שאין למוסר כל תפקיד

עודד ינון הוא עתונאי ועובד משרד־החוץ לשעבר

1 American Universities Field Staff, Report No. 33, 1979. לפי מחקר זה הרי שאוכלוסיית העולם תהיה 6 מיליארד בשנת 2000. כיום מתחלקת אוכלוסיית העולם כדלקמן: סין, 958 מיל.; הודו 635 מיל.; ברה"מ, 261 מיל.; ארה"ב, 218 מיל.; אינדונזיה, 140 מיל.; ברזיל ויפן, 110 מיל. כ"א. לפי נתונים של קרן האו"ם לענייני אוכלוסיה לשנת 1980, הרי בשנת 2000 יהיו [illegible] 50 ערים שאוכלוסייתן מעל 5 מיליון נפש. אוכלוסיית העולם

בקביעת דרכו של האדם, אלא רק לצרכיו החומריים, מתמוטטת כיום כאשר רואים אנו עולם שמעט ערכיו נעלמים והולכים. אנו מאבדים כל קנה־מידה בדברים הפשוטים ביותר, בעיקר במה שכרוך בשאלה הפשוטה — מה טוב ומה רע.

ההשקפה שאין גבול לשאיפותיו ויכולתו של האדם מתגמדת מול עובדות החיים העצובות, כשאנו רואים את התמוטטות הסדר העולמי סביבנו. ההשקפה שגורסת לא רק חירות וחופש לכל אדם, נראית כיום מגוחכת לאור העובדה העצובה, ששלושת־רבעי האנושות חיה במשטרים טוטאליטארים נעלמת ביחד עם ההשקפה של השוויון והצדק החברתי, שהסוציאליזם, ובייחוד הקומוניזם הפכו אותם ללעג ולקלס. אין עוררין על החיוב שבשני הרעיונות הללו. אך ברור שהם לא עלו יפה ורובה של האנושות איבד את החירות, החופש, והסיכוי לשיוויון ולצדק. בעולם הגרעיני שבו אנו חיים (עדיין) בשקט יחסי זה שלושים שנה, אין למושג של אחוות עמים, שלום, ודו־קיום כל משמעות ברגע שמעצמת־על כברה"מ גורסת בדוקטרינה הצבאית והמדינית שלה; לא רק שמלחמה גרעינית אפשרית ונחוצה כדי להשיג את יעדי המארקסיזם, אלא שניתן לשרוד לאחר מלחמה כזו, שלא לדבר על כך שניתן לנצח בה.

המושגים הבסיסיים של החברה האנושית, זו המערבית בעיקר, משתנים כיום עקב שינויים פוליטיים, צבאיים, וכלכליים מהפכניים. כך, העוצמה הגרעינית והלא־גרעינית של ברה"מ הופכת את העידן שהיה, לאחרון שלפני הסערה הגדולה העומדת להרוס ולהחריב חלק ניכר מעולמנו במלחמה גלובאלית רחבת מימדים, אשר מלחמות העולם של העבר היו רק משחק־ילדים לעומתה. עוצמת הנשק הגרעיני והלא־גרעיני, מימדיו, דיוקו, ואיכותו יהפכו את רוב עולמנו על פיו, בכל המובנים, תוך שנים ספורות, ועלינו להיערך לכך במהרה גם בישראל. זהו גם האיום המרכזי על קיומנו אנו, וכלל העולם המערבי [3].

מלחמת המשאבים בעולם, ולא רק המונופול של הערבים על הנפט, אלא הצורך של המערב כולו לייבא את רוב חומרי הגלם שלו מן העולם השלישי, הופכים את עולמנו

השלישי תהיה אז 80% מכלל אוכלוסיית העולם. לדעת ג'סטין בלקוולדר מנהל המשרד למירשם התושבים של ארה"ב לא תגיע אוכלוסיית העולם אז לשש מיליארד עקב רעב.

2 הדוקטרינה הגרעינית הסובייטית סוכמה היטב בספרם של שני סובייטולוגים אמריקאנים, Joseph D. Douglas, Amoretta M. Hoeber, *Soviet Strategy for Nuclear War* (Stanford, Calif. Hoover Inst. Press, 1979). בברה"מ יוצאים מאות מאמרים ועשרות ספרים כל שנה המפרטים את הדוקטרינה הסובייטית למלחמה גרעינית וכן ישנו תיעוד רב המתורגם כבר לאנגלית ומוצא ע"י חיל האויר של ארה"ב; USAF, Marxism *Leninism on war and the Army A Soviet view*, Moscow, 1972. USAF, *The Armed Forces of the Soviet state*, Moscow, 1975 by Marshall A. Grechko. הגישה הבסיסית הסובייטית לנושא מוצגת בספרו של המרשל סוקולובסקי שיצא בשנת 1962 במוסקבה; Marshall V.D. Sokolovskii, *Military Strategy*, Soviet doctrine and concepts (New York, Praeger, 1963).

3 ניתן לבנות תמונת מצב של כוונות סובייטיות באזורים שונים לפי ספרם של Douglas and Hoeber, *Ibid.* וכן חומר נוסף, ראה: Michael Morgan, "USSR's Minerals as Strategic Weapon in the Future", *Defense and Foreign Affairs*, Wash. D.C., Dec. 1979.

לשונה מזה שהכרנו. כאשר מתחוור לנו שיעדיה העיקריים של ברה"מ הינם בין השאר להכניע את המערב ע"י השתלטות על משאבי ענק במפרץ־הפרסי, ובדרומה של יבשת אפריקה, בהם מצויים רוב המינראלים בתבל כיום. אנו יכולים לתאר ולדמיין את מימדיו של העימות הגלובאלי העומד בפיתחנו בעתיד.

הדוקטרינת גורשקוב הגורסת השתלטות ימית סובייטית על אגני האוקינוסים, ואזורי העולם השלישי העשיר במשאבים. לצד הדוקטרינה הגרעינית הסובייטית הנוכחית, הגורסת שניתן לנהל, לנצח, ולשרוד במלחמה גרעינית שבה יחוסל כוחו הצבאי של המערב, ותושביו ישועבדו למטרות המארקסיזם־לניניזם, הם הסכנות העיקריות של שלום העולם ועל קיומנו אנו.

הסובייטים הפכו מאז 1967 את סיסמתו של קלאוזוביץ: "המלחמה היא המשך המדיניות באמצעים גרעיניים", למוטו המכתיב את כל מדיניותם. וכבר כיום הם מבצעים את השגת יעדיהם בסביבתנו ובעולם כולו, והצורך לעמוד מולם הופך להיות למרכיב העיקרי בכל מדיניות ביטחון של מדינתנו, וכמובן של שארית העולם החופשי. זהו האתגר החיצוני העיקרי לנו [4].

העולם הערבי־המוסלמי איננו אם־כן הבעייה האסטראטגית העיקרית שבפניה נעמוד בשנות השמונים, אך גם לו החלק הנכבד באיום על ישראל, וזאת עקב עוצמתו הצבאית המתגברת והולכת. ועולם זה על עדותיו, מיעוטיו, פלגיו וסיכסוכיו הפנימיים, היוצרים הרס פנימי מדהים, כפי שאנו רואים כבר בלבנון ואיראן הלא־ערבית, וכעת גם בסוריה, איננו מסוגל להתמודד עם בעיות היסוד הכוללית שלו, ולכן אין בו איום ממשי על מדינת־ישראל לטווח הארוך, אלא רק לטווח הקצר שבו יש משמעות רבה לעוצמה הצבאית המיידית שלה. בטווח הארוך אין עולם זה מסוגל להתקיים במתכונתו הנוכחית באזורים שמסביבנו, ללא תהפוכות ממשיות. העולם הערבי־המוסלמי בנוי כמיגדל־קלפים ארעי, שהוקם ע"י זרים (צרפת ובריטניה בשנות העשרים), ללא התחשבות ברצונה של התושבים ושאיפותיהם. הוא נחלק ל־19 מדינות שכולן מורכבות מצירופים של מיעוטים ועדות שונות, ועויינות אחת לחברתה, כך שכל מדינה ערבית־מוסלמית נתונה כיום לסכנת התפוררות אתנית־חברתית מבית, עד כדי מלחמת אזרחים הקיימת בחלקן [5].

רובם של הערבים, 118 מיליון מ־170, חי באפריקה, רובם במצרים (45 מיליון כיום). זולת מצרים, כל ארצות המגרב בנויות מתערובת של ערביים וברבארים לא־ערבים. באלג'יריה כבר ישנה למעשה מלחמת־אזרחים בהרי הקביליה בין שני העמים בארץ זו; מארוקו ואלג'יריה נלחמות ביניהן על סהרה הספרדית, לצד המאבק הפנימי בקרב כל

Admiral of the Fleet Sergei Gorshkov, *The Sea Power and the State*, London, 1979. Morgan, *loc. cit.*; General George S. Brown (USAF) C-J CS, *Statement to the Congress on the Defense Posture of the United States for fiscal year 1979*, p. 103.; National Security Council, *Review of Non-Fuel Mineral Policy*, .Wash. D.C., 1979; Drew Middleton, *New York Times*, 15.9.79. *Time*, 21.1.80

Elie Kedourie, "The End of the Ottoman Empire", *Journal of Contemporary History*, Vol. 3, No. 4, 1968

אחת מהן. האיסלאם המיליטאנטי מאיים על שלמותה של תוניסיה, וקדאפי מנהל את מלחמותיו ההרסניות לערבים עצמם, מארץ שאין בה כמעט אוכלוסיה ממשית שניתן להופכה ללאום חזק ובעל עוצמה, ולכן גם נסיונות האיחוד שלו עם מדינות ממשיות יותר כמצרים בעבר, וסוריה כיום. סודאן המפוצלת ביותר בעולם המוסלמי־ערבי, בנויה על ארבע קבוצות אוכלוסיה זרות זו לזו; מיעוט ערבי־מוסלמי־סוני שולט על רוב של לא־ערבים־אפריקניים, פגניים, נוצריים, במצרים ישנו רוב סוני־מוסלמי, מול מיעוט גדול של נוצרים הדומינאנטים בכל מצרים עלית, 7 מיליון כמעט. שאף סאדאת בנאום במאי 80, הביע חשש שהללו ירצו מדינה משלהם, מעין לבנון נוצרית "שניה" במצרים.

כל מדינות ערב ממזרח לישראל מפולגות, חצויות, ומפוררות פנימית, עוד יותר מאילו שבמגרב. סוריה אינה שונה מהותית מלבנון העדתית, זולת המישטר הצבאי החזק שבה; אך מלחמת האזרחים הממשית כיום בין הרוב הסוני, למיעוט השליט השיעי־עלוי (12% בלבד מהאוכלוסיה), מעידה על חומרת הבעייה הפנימית.

עיראק אינה שונה מהותית משכנתה, אך בה הרוב הם שיעים, והמיעוט השליט סוני. 65% מהאוכלוסיה חסרים כל השפעה על המדינה, בה שולטים 20%, נוסף למיעוט הכורדי העיכר שבצפון, ואלמלא עוצמת השילטון, הצבא, וכספי הנפט — לא יכול היה להיות עתידה של עיראק שונה בחומרתו מזה של לבנון בעבר, וסוריה כיום. ניצני הפירוד ומלחמת האזרחים נראים בה כבר כיום, בייחוד לאחר עליית חומייני לשילטון, שהשיעים בעיראק רואים בו, ולא בצדאם חוסיין, את מנהיגם הטבעי.

כל נסיכויות המפרץ וסעודיה בנויות על בניין־חול עדין שבו רק נפט. בכווית, הכוויתים הם רבע מכלל התושבים, בבחריין השיעים הם הרוב אך חסרי שילטון. במאע"מ השיעים הם הרוב, והסונים שולטים, וכן גם בעומאן, בתימן־הצפונית, ואפילו בדר"ת המארקסיסטית ישנו מיעוט שיעי גדול. בסעודיה מחצית מהתושבים הם זרים־מצריים, תימנים, ואחרים, ומיעוט מקרב הסעודים בשילטון.

ירדן הינה פלסטינאית למעשה, כשמיעוט בידואי עבר־ירדני שולט, אך רוב הצבא כבר פלסטינאי, וכמובן הביורוקראטיה. למעשה רבת־עמון הינה פלסטינאית כשכם. בכל המדינות הללו צבאות חזקים ובעלי ערצמה יחסית גדולה, אך אליה וקוץ בה. כיום הצבא הסורי ברובו סוני והפיקוד עלווי, והצבא העיראקי שיעי ברובו והפיקוד סוני; לכך משמעות רבה לטווח ארוך, ומשום כך לא יהיה ניתן לשמור על נאמנות הצבא לזמן רב, זולת סביב המכנה־המשותף המלכד היחידי — האיבה לישראל, וכיום גם זה לא מספיק [6].

לצד הערבים, החצויים בינם־לבין־עצמם, כך גם כל שאר המדינות המוסלמיות; איראן בנויה ממחצית דוברת פרסית, וממחצית תורכית במוצאה האתני, לשונה וטבעה. תורכיה המפורדת כל־כך בין חצי מוסלמי־סוני־תורכי במוצאו ולשונו, ושני מיעוטים גדולים, 12 מיליון שיעים־עלווים, ו־6 מיליוני כורדים־סונים. באפגניסטן — 5 מיליון שיעים, כשליש מהאוכלוסיה; ובפאקיסטן הסונית, כ־15 מיליון שיעים המסכנים את קיומה של מדינה זו [7].

6 נאום סאדאת, 1.5.80 *Arab Press Service*, Beirut, Nicosia, 25.6—2.7
7 *loc. cit.*

תמונת־מצב לאומית־אתנית־עדתית זו, ממארוקו ועד הודו, ומסומאלי עד תורכיה, מראה על חוסר יציבות, והתפוררות מהירה בכל רחבי האיזור מסביבנו. כאשר מצרפים לכך את התמונה הכלכלית, רואים אנו כמה בנוי כל האיזור כמגדל־קלפים למעשה, חסר סיכויים להתמודד עם בעיותיו החמורות.

בעולם ענק ומפורד זה יש מעט קבוצות עשירות מאד, ומסה עצומה של עניים. רוב הערבים — הכנסתם הממוצעת כ־300 דולר לשנה, כך במצרים ורוב ארצות ערב במגרב זולת לוב, ובמזרח זולת עיראק. לבנון מפוצלת ומתמוטטת כלכלית, כמדינה שאין בה שלטון אחד, אלא חמש רשויות ריבוניות למעשה. (נוצרית בצפון, הנתמכת ע״י הסורים בשליטת משפחת פראנג׳יה, במזרח איזור כיבוש סורי ישיר, במרכז מדינה נוצרית בשליטת הפלאנגות, מדרום לה ועד לליטאני מדינה של אש״ף ברובה פלסטינאית, ומדינתו של רס״ן חדד עם הנוצרים, וחצי מיליון שיעים). סוריה במצב חמור עוד יותר, ואף הסיוע שיוגש לה בעתיד לאחר האיחוד עם לוב, לא יספיק להתמודד מול בעיות קיום, והחזקת צבא גדול ממדים, וכלכלה ממוטטת. מצרים היא המקרה החמור מכל; מיליונים על סף רעב, מחציתם מובטלים, ללא דיור כלשהו, עם צפיפות הגדולה בעולם. זולת הצבא, אין אף סקטור אחר העומד ומתפקד בצורה יעילה, והמדינה במצב תמידי של פשיטת רגל, ללא סיוע חוץ אמריקאני בעקבות השלום [8].

במדינות המפרץ, סעודיה, ולוב, מצרים מיצבורי הנפט והממון הענקיים ביותר בעולם, אך הנהנים מהם הם אליטות צרות, החסרות בסיס רחב, וביטחון עצמי, שאף צבא לא יכול להבטיח את קיומם, והצבא הסעודי על כל ציודו לא יבטיח את השילטון מפני סכנות ממשיות מבית ומבחוץ, ומה שארע במכה בשנת 1980 הינו רק דוגמא. וזוהי תמונת מצב עגומה וסוערת מאד מסביב לישראל, והיא יוצרת לישראל אתגרים, בעיות, סיכונים, אך גם סיכויים מרחיקי לכת לראשונה מאז מלחמת 1967 [9]. הזדמנויות ואפשרויות שהוחמצו אז, ניתנות להשגה בשנות השמונים, בהיקף ובמימדים שאיננו מסוגלים לשער לעצמנו כיום.

מדיניות ״השלום״ והחזרת שטחים, תוך תלות בארה״ב, מונעת את מימוש האופציות החדשות שנוצרות מולנו. מאז 1967 שיעבדו כל ממשלות ישראל את מטרותינו הלאומיות לצרכים שילטוניים צרים מחד, ולהלכי רוח הרסניים מבית, שגיסרלו את יכולתנו כלפי חוץ ופנים. אי־נקיטת צעדים כלפי האוכלוסייה הערבית בשטחים החדשים תוך כדי המלחמה שנכפתה עלינו, היא הטעות האסטראטגית העיקרית של ישראל למחרת ששת הימים. לעומת קו זה שהיה חוסך מאתנו את כל הסיכסוך החריף והמסוכן מאז ועד היום, יכולנו כבר אז לסיימו ע״י מתן ירדן לפלסטינאים שגרו ממערב לירדן. בכך היינו מנטרלים את הבעיה הפלסטינאית שמולה אנו עומדים כיום, ושלה מצאנו פתרונות שאינם

8 א־תיורה, סוריה, 20.12.79; אל־אהראם, 30.12.79; אל־בעת׳, סוריה, 6.5.79. 55% מהערבים הינם בני 20 ומטה; 70% מהערבים חיים באפריקה; 55% מהערבים מעל גיל 15 מועסקים; 33% חיים באזורים עירוניים. Oded Yinon, "Egypt's Population Problem", *The Jerusalem Quarterly*, No. 15, Spring 1980.

9 E. Kanovsky, "Arab' Haves and Have-Nots", *The Jerusalem Quarterly*, No. 1, Fall 1976. אל־בעת׳, סוריה, 6.5.79.

פתרונות כמו פשרה טריטוריאלית, או אוטונומיה, שהיא היינו הך למעשה[10]. כיום נפתחות מול עינינו אפשרויות עצומות לשנות את מצב העניינים מן היסוד, ואת זאת עלינו לבצע בפועל בעשור הקרוב, לולא כן לא נשרוד כמדינה.

בשנות השמונים תאלצן ״ינת־ישראל לעבור שינויים מרחיקי לכת במשטרה הפוליטי הכלכלי הפנימי, לצד שינויים רדיקאליים במדיניות החוץ שלה, כדי שתוכל לעמוד מול האתגרים הגלובאליים, הכלכליים, והאזוריים של עידן חדש זה. אובדן שדות הנפט של מפרץ סואץ, לצד אובדן הפוטנציאל העצום של נפט, גז, ומשאבים טבעיים של חצי האי סיני, שהרכבו הגיאולוגי זהה לזה של ארצות נפט עשירות באזורנו, יביא אותנו למחנק אנרגאטי כבר בעתיד הקרוב, ולהרס הכלכלה מבית, כיוון שרבע מהתל״ג, ושליש מהתקציב יוצאו לרכישת נפט למשקנו[11]. מציאת משאבים גולמיים, נפט וגז, בנגב ובשפלת החוף לא יוכלו בעתיד הקרוב לשנות מצב עניינים זה.

החזרת חצי־האי סיני על משאביו בפועל, ובפוטנציה, הינה לכן מטרה מדינית

10 בספרו אומר רוה״מ לשעבר, יצחק רבין, שממשלת־ישראל היא למעשה אחראית לעיצוב המדיניות האמריקאנית במזה״ת, לאחר יוני 67 עקב חוסר יכולת ההחלטה שלה עצמה, לגבי עתיד השטחים והאי־עקביות בעמדתה, מאז שיצרה את הרקע להחלטה 242, ובהכרח תריסר שנים אחרי־כן להסכמי קאמפ־דויד וחוזה השלום עם מצרים. לדבריו ב־19 ליוני 1967, שלח הנשיא ג׳ונסון שדר לרוה״מ אשכול, בו לא דיבר כלל על נסיגה מהשטחים החדשים, אך בדיוק באותו יום החליטה הממשלה להחזיר שטחים עבור שלום. לאחר החלטות הערבים בחרטום (1.9.67), שינתה הממשלה את עמדתה, אך בניגוד להחלטתה מה־19 ליוני, לא הודיעה על שינוי זה לארה״ב, וזו לכן תמכה באישור החלטה 242 במועב״ט, לאור הבנתה הקודמת, המוטעית בדיעבד שממשלת ישראל מוכנה להחזיר שטחים. אך אז היה זה כבר מאוחר מדי כדי לשנות את הקו של ממשלת ארה״ב, ואת מדיניותה של ישראל. מכאן הובילה הדרך להסכמי שלום על בסיס 242 כמו שהושג הכן בקאמפ־דויד. ראה, יצחק רבין, פנקס שירות, (מעריב, 1979) ע״ע 226—227.

11 יו״ר ועדת החוץ והביטחון של הכנסת הפרופ׳ משה ארנס טען בראיון, (מעריב, 3.10.80), שממשלת ישראל לא הכינה כל תוכנית כלכלית לפני המו״מ על הסדרי קאמפ־דויד, והיא הופתעה בעצמה ממחירו הכלכלי של ההסכם על כל הכרוך בכך. העתונות הישראלית מלאה נתונים, עובדות ומספרים על מחירו הכלכלי של השלום, אך כבר בעת המו״מ עצמו ניתן היה לעמוד על המחיר הכבד ועל הטעות הכבדה שנעשתה באי הכנת הרקע הכלכלי לשלום.

שר־האוצר בממשלת־ישראל בזמנו מר יגאל הורוביץ, אמר שלולא נסיגתנו משדות הנפט היה לישראל מאזן מסחרי חיובי (17.9.80), אותו אדם אמר שנתיים לפני כן שממשלת־ישראל (ממנה פרש אז), כרכה חבל תלייה על צווארה, בהתכוונו להסדרי קאמפ־דויד, והממשלה איננה יכולה להשתחרר מחבל זה (הארץ, 3.11.78). בכל המו״מ על השלום לא שותף ולו מומחה או יועץ־כלכלי אחד, ורוה״מ עצמו החסר כל ידע או גישה לנושא הכלכלי, מיוחמתו המוטעית, ביקש מארה״ב שיתנו לנו הלוואה ולא מענק, עקב רצונו לשמור על כבודנו וכבוד ארה״ב כלפינו, ראה: הארץ, 5.1.79; ג׳רוזלם פוסט, 7.9.79; פרופ׳ אסף רזין לשעבר יועץ כלכלי בכיר במשרד האוצר ביקר את ניהול המו״מ בנושא זה באופן חריף ביותר, הארץ, 5.5.79. מעריב, 7.9.79; לגבי נושא הטיפול בשדות הנפט ומשבר האנ. גיה של ישראל, ראה ראיון עם מר איתן איזנברג, מיועצי הממשלה בתחום זה, מעריב של שבת, 12.12.78. שר־האנרגית בעצמו שחתם על הסדרי קאמפ־דויד ופינוי שדה עלמה, הדגיש את חריפות מצבנו מבחינת אספקת נפט לא פעם אחת מאז. ראה, ידיעות אחרונות, 20.7.79.

ראשו ית ימעלה כבר כיום, והסדרי קאמפ־דויד וחזוה השלום עומדים בדרך להגשמתם, באשמתה של מכשלת ישראל כמובן, זו הניכחית, ואלו שסללו את הדרך למדיניות החזרת השטחים, בממשלות המערך מאז 1967. המצרים לא יצטרכו לקיים את חזוה השלום לאחר החזרת סיני, והם יעשו הכל כדי לחזור לחיק העולם הערבי וברה"מ, עקב חיוניות העולם הערבי, ועזרתה הצבאית של ברה"מ. הסיוע האמריקאני הוא לטווח קצר, טווח השלום, והיחלשותה של ארה"ב עצמה מבית ומחוץ, תביא לכך. ללא נפט וה־הכנסות ממנו, עם ההוצאה העצומה על כך כיום, לא נוכל לעמוד מעבר ל־1982 במצב הנוכחי, ונצטרך לפעול להחזרת הסטטוס קוו ששרר בסיני עד בואו של סאדאת והסכם השלום המוטעה שנחתם עימו במרץ 1979 [12].

בפני ישראל שתי דרכים עיקריות להגשמת המטרה הזו, אחת ישירה ואחת עקיפה; האופציה הישירה היא הפחות ריאלית עקב אופייה של ישראל וממשלתה וחוכמתו עד כה, של סאדאת שנסיגתנו מסיני היתה הישגו העיקרי מאז עלייתו לשלטון, זולת מלחמת 1973. ישראל מאידך, לא תיזום הפרה של ההסכם, לא כיום, ולא ב־82' אלא אם כן תהיה לחוצה כל כך כלכלית ופוליטית, ומצרים תתן לה את האמתלה לקחת את סיני ברביעית בהיסטוריה הקצרה שלנו. נותרת איפוא, האופציה העקיפה. המצב הכלכלי במצרים, המישטר במהותו, ומדיניותו הפאן־ערבית יביאו למצב כזה, לאחר אפריל 82', שישראל תצטרך לפעול בדרך ישירה או עקיפה להחזרת סיני לחיקה של ישראל כרזרבה האסטראטגית, הכלכלית, והאנרגאטית לטווח־ארוך. מצרים אינה מהווה בעייה צבאית אסטראטגית לטווח ארוך, עקב חולשתה הפנימית מבית, וניתן להשיבה למצבה, ששרר לאחר מלחמת יוני 67' בדרכים רבות [13].

המיתוס של מצרים; החזקה והמנהיגה במדינות ערב, התנפץ כבר ב־56' ובהחלט ב־67', אך המדיניות שלנו, כמו החזרת סיני, גרמה להפיכת המיתוס ל"עובדה" כיום. אך,

שר־האנרגיה, מודעי, אף הודה שהממשלה לא התייעצה איתו כלל בנושא הנפט, בעת המו"מ עצמו בקאמפ־דויד ובבליייר־האוז לאחר מכן. הארץ, 22.8.79.

12 הרבה מקורות מדווחים על עליית תקציב החימוש הצבאי במצרים, ועל כוונות להעדפת הצבא בתקציב עידן השלום דווקא, על צורכי פנים שלמענם כביכול הושג השלום. ראה רוה"מ לשעבר ממדוח־סאלם בראיון 18.12.77; שר־האוצר עבד־אל־סאית בראיון 25.7.78, והעיתון אל־אחבאר, 2.12.78 הדגישו במפורש שהתקציב הצבאי יהיה בראש סולם העדי־פויות למרות השלום. כך גם רוה"מ לשעבר מוצתפא חליל במיסמך פרוגראמטי של ממשלתו שהוצג בפני הפרלאמנט, 25.11.78. ראה תרגום לאנגלית ICA, *FBIS*, Nov. 27, 1978 pp. D 1—10. לפי מקורות אלו, עלה התקציב הצבאי המצרי ב־10% משנת התקציב 1977 לשנת 1978, והתהליך נמשך כיום. מקור סעודי מסר שהמצרים מתכננים להגדיל את תקציבם הצבאי ב־100% תוך השנתיים הקרובות, הארץ, 19.2.79. ג'רוזלם פוסט, 14.1.79.

13 רוב ההערכות הכלכליות ספקניות לגבי סיכויי שיקומה של כלכלת מצרים בשנים הקרובות ובוודאי שעד 1982. ראה *Economic Inteligence Unit*, 1978 Suppliment, The Arab Republic of Egypt; E. Kanovsky, "Recent Economic Developements in the Middle East", *Occasional Papers*, The Shiloh Institution, June 1977; Kanovsky, "The Egyptian Economy Since the Mid-Sixties — The Micro Sectors", *Occasional Papers*, June 1978. Robert McNamara, President of World Bank, as reported in *Times*, London, 24.1.78.

ריאלית, עוצמתה של מצרים יחסית הן לישראל לבדה, והן יחסית לכלל העולם הערבי ירדה מאז 67׳ בכמעט 50%. מצרים אינה כבר הכוח המוביל, מדינית, בעולם הערבי, וכוחה הכלכלי עומד על כרעי תרנגולת, ללא כספי סיוע החוץ תתמוטט מחר [14]. לטווח קצר, עקב החזרת סיני, צוברת מצרים נקודות על חשבוננו, אך רק לטווח קצר עד 1982, הדבר לא ישנה את יחסי הכוחות לטובתה, ואולי יגרום לחורבנה. מצרים בציביונה, דמותה הפוליטית הפנימית הקיימת, הינה כבר כיום פגר מת למעשה עקב התמוטטותה, והפירוד המוסלמי־נוצרי שיחריף ויקצין בעתיד. שבירתה של מצרים, טריטוריאלית, לפילכי משנה גאוגראפיים נפרדים הינה המטרה המדינית של ישראל בשנות השמונים בחזית המערבית שלה

מצרים מפולגת ומפוררת לגורמים שלטוניים רבים, ולא כמו כיום, אין בה כל איום לישראל, אלא ערובה לביטחון ושלום לזמן רב, והדבר כיום בהישג ידנו. מדינות כלוב, סודאן, והרחוקות מהן, לא יתקיימו בצורתן הנוכחית, ויצטרפו לנפילתה ולהתפוררותה של מצרים, אם מצרים תתפורר, יתפוררו גם כל היתר. החזון של מדינה קופטית־נוצרית במצרים־עילית, לצד מספר מדינות חלשות בעלות שלטון אזורי־מצרי, ולא שלטון ריכוזי כמו עד כה, הם המפתח להתפתחות היסטורית זו שחוזה השלום רק עיכב אותה, אבל נראה כבלתי נימנע בטווח הארוך [15].

החזית המערבית, שהיא הבעייתית כביכול ממבט ראשון, הינה סבוכה פחות מזו ממזרח לנו. שבה כל ההתרחשויות, שהינם מבחינת משאלת נפש במערב, כבר קורים כיום מול עינינו. ההתפוררות המוחלטת של לבנון לחמש איפרכיות אזוריות הינה התקדים לכל העולם הערבי כולל מצרים, סוריה, עיראק, וחצי־האי ע״ב בדרך דומה כבר כיום. התפרקותה של סוריה ועיראק מאוחר יותר לאזורים בעלי ייחוד אתני, דתי, אחד כדוגמת לבנון, הינם המטרה הראשונה במעלה של ישראל בחזית המזרחית בטווח הארוך, כאשר פירוק העוצמה הצבאית של מדינות אלו כיום הינה המטרה לטווח קצר, סוריה תתפורר לפי ההרכב האתני והעדתי למדינות מספר כלבנון של ימינו, כך שבחופה

14 ראה את ההשוואה לפי מתקרי המכון ללימודים אסטראטגיים בלונדון; ומחקר שנערך במרכז למחקרים אסטראטגיים של אוניברסיטת תל־אביב; וכן מחקר של חוקר בריטי זה, Dennis Chaplin, *Military Review*, Nov. 1979. IISS, *The Military Balance*, 1979—1980, London, 1980. CSS, *Security Arrangements in Sinai*... by Brig. Gen. (Res. A. Shalev, No. 3,0 CSS, *The Military Balance and the Military Options after the Peace Treatment with Egypt*, by Brig. Gen. (Res.) Y. Raviv. No. 4, Dec. 1978. וכן דוחי עתונות רבים; אל־חוודאת׳, לונדון, 7.3.80; אל וטן אל־ערבי, פריז, 14.12.79.

15 על התסיסה הדתית במצרים ויחסי קופטים־מוסלמים, ראה סדרת מחקרים שפורסמה בעיתון הכוויתי, אל קבס, 15.9.80. על התסיסה על־רקע כלכלי וחברתי, מדוות העיתון הסעודי, אל־ריאד בסדרת מאמרים, 20—24.4.80, 17—13. הסופרת הבריטית אירין ביסון מדווחת על הקרע בין המוסלמים לקופטים, ראה: Irene Beeson, *Guardian*, London, 24.6.80. וכן: Desmond Stewart, *Middle East International*, London, 6.6.80. דווחים נוספים ראה: Pamela Ann Smith, *Guardian*, London, 24.12.79 Anna Jerrome, *The Christian Science Monitor*, 27.12.79. וכן: אי־דסתור, לונדון, 15.10.79, אל־כפאח אל־ערבי, 15.10.79.

תתקיים מדינה עלווית־שיעית, באזור חלב מדינה סונית, ובאזור דמשק מדינה סונית נוספת עוינת לצפונית, והדרוזים שירכיבו מדינה, אולי גם בגולן שלנו, ובוודאי בחוראן וצפון ירדן, זו תהיה הערובה לבטחון ושלום בכל האזור בטווח הארוך, והדבר הוא בהישג יד כבר כיום [16].

עיראק עשירת הנפט מחד, ורבת הפיצול והשנאה הפנימית היא מועמדת בטוחה להשגת יעדיה של ישראל, פירודה של עיראק חשוב עוד יותר מפירודה של סוריה. עיראק חזקה מסוריה. לטווח קצר עוצמתה של עיראק היא המסכנת את ישראל יותר מכל. מלחמה עיראקית־סורית, או עיראקית־איראנית תפורר את עיראק ותביא אותה להתמוטטות מבית עוד לפני שתוכל לארגן מאבק בחזית רחבה מולנו. כל עימות בין־ערבי יעזור לנו לעמוד בטווח הקצר, ויקצר הדרך למטרה העליונה, פירוקה של עיראק לגורמים כמו סוריה ולבנון. בעיראק תתאפשר חלוקה אזורית, עדתית כבסוריה בעידן העות'מאני, כך יתקיימו שלוש מדינות (או יותר) סביב הערים העיקריות; בצרה, בגדאד, ומוצול, כאשר אזורים שיעים בדרום יתפרדו מהצפון הסוני והכורדי ברובו. ייתכן כי העימות האיראני־עיראקי יחריף, קיטוב זה כיום [17].

חצי האי ערב כולו הוא מועמד טבעי וקרוב יותר להתמוטטות עקב לחץ פנימי וחיצוני, והדבר הוא בלתי נמנע ברובו, בעיקר בסעודיה, בין אם תישאר העוצמה הכלכלית של הנפט, או בין אם תפחת בטווח הארוך; המהומה וההתמוטטות מבית הם תהליך ברור וטבעי לאור הרכב המדינות הקיימות, שאין להם קיום.

ירדן הינה מטרה אסטראטגית מיידית לטווח קצר, אך לא לטווח ארוך, כיוון שאין בה כל איום ממשי לטווח ארוך לאחר פירורה וחיסול שילטונו ארוך הימים של המלך חוסיין, ומעבר השילטון לידי הפלסטינאים בטווח הקצר [18].

אין כל אפשרות שירדן תתקיים בצורתה ובמבנה הנוכחי שלה לטווח ארוך, ומדיניותה של ישראל הן במלחמה והן בשלום צריכה להביא לחיסולה של ירדן במישטרה הנוכחי ולהעברת השילטון לרוב פלסטינאי. החלפת השילטון ממזרח לנהר, תביא גם לחיסולה של בעיית השטחים המאוכלסים ערבים בצפיפות ממערב לירדן, הן במלחמה והן בתנאי שלום; ההגירה מהשטחים והקפאון הכלכלי־דמוגראפי בהם, הם הערבות לשינוי הקרב ובא משני צידי הנהר, ועלינו להיות פעילים כדי להמריץ שינוי זה במהרה, בזמן הקרוב ביותר. אין גם להסכים לתוכנית האוטונומיה, או כל פשרה וחלוקה בשטחים, כיוון שלאור

16 *Arab Press Service, Beirut*, 6—13.8.80; *The New Republic*, 16.8.80; *Der Spiegel* as cited by *Ha'aretz*, 21.3.80 and 30.4—5.5 80; *The Economist*, 22.3.80, Robert .Fisk, *Times*, London, 26.3.80. Ellsworth Jones, *Sunday Times*, 30.3.80

17 J.P. Peroncell Hugoz, *Le Monde*, Paris, 28.4.80; Dr. Abbas Kelidar, *Middle East Review*, Summer 1979; *Conflict Studies*, ISC, July 1975; Andreas Kolschitter, *Die Zeit*, (*Ha'aretz*, 21.9.79) *Economist Foreign Report*, 10.10.79. *Afro .Asian Affairs*, London, July 1979

18 Arnold Hottinger, "The Rich Arab States in Trouble" *The New York Review of Books*, 15.5.80; *Arab Press Service*, Beirut, 25.6—2.7.80. *U.S. News and World Report*, 5.11.79; וכן: אל־אהראם, 9.11.79; אל־נאהר אל־ערבי ואל־דולי, פריז, 7.9.79. אל־חוואדת, 9.11.79; דוד חכם, סקירה חודשית, צה"ל, ינו', פבר' 79.

תוכנית אש"ף ותוכנית ערביי ישראל עצמם, תוכנית שפרעם מספטמבר 1980, לא ניתן לחיות יותר בארץ הזו במצב הנוכחי ללא הפרדת שני העמים, הערבים לירדן והיהודים לשטחים ממערב לנהר. דו־קיום ושלום אמיתי ישררו בארץ רק כשהערבים יבינו שללא שלטון יהודי בין הירדן לים לא יהיה גם להם כל קיום וביטחון, לאום ובטחון מדינה יהיו להם אך ורק בירדן [19].

בתחומי ישראל ההבחנה בין השטחים של '67 והשטחים מעבר להם, אילו של '48, הינה חסרת משמעות לערביי הארץ מאז ומתמיד, וכיום גם לנו. צריך להתייחס לבעיה כגוללת, וללא כל חלוקה, כמו מאז '67. בכל מצב מדיני או צבאי בעתיד צריך להיות ברור שפתרון הבעיה של ערביי הארץ יבוא רק עם קבלתם את קיומה של ישראל בגבולות ביטחון עד לירדן ומעבר לו, לפי צרכי קיומנו בעידן הקשה — העידן הגרעיני הצפוי לנו כבר במהרה. לא ניתן יותר לחיות עם שלושת רבעי האוכלוסיה היהודית במישור החוף הצפוף והמסוכן כל כך בעידן הגרעיני.

פיזור האוכלוסיה הוא, איפוא, יעד אסטראטגי פנימי ראשון במעלה; ללא כן, לא נתקיים בעתיד בכל גבול שהוא. יהודה, שומרון, והגליל, הם הערבות היחידה לקיום המדינה, ואם לא נהפוך לרוב באזורי ההר, לא נישלוט בארץ, ונהיה כצלבנים, שאיבדו ארץ זו שלא היתה שלהם ממילא, וזרים היו בה מלכתחילה. החזרת האיזון הדמוגראפי־האסטראטגי, והכלכלי־קיומי לאוכלוסיית הארץ היא היעד המרכזי והעליון כיום. תפיסת כל ציר פרשת המים מבאר שבע ועד הגליל העליון הוא היעד הלאומי המשתמע מהיעד האסטראטגי העיקרי, יישוב הארץ ההררית, הריקה מיהודים כיום [20].

הגשמת כל מטרותינו בחזית המזרחית תלויה בהגשמת יעד אסטראטגי פנימי זה, ושינוי המיבנה הפוליטי והכלכלי הפנימי שיותאם להשגת המטרות האסטראטגיות הוא המפתח להשגת כל השינוי כולו. דרוש מעבר ממשק ריכוזי שבו מעורבות ממשלה יתירה, למשק פתוח וחופשי, לצד מעבר מתלות כספית במשלם המסים של ארה"ב לפיתוח תשתית

19 לגבי מדיניותה ובעיותיה של ירדן ראה, אל־נאהר אל־ערבי ואל־דולי, 30.4.79, 2.7.79. פרופ' אלי כדורי, מעריב, 8.6.79; פרופ' טאנטר, דבר, 12.7.79. ע. ספאדי, ג'רוזלם פוסט, 31.5.79. אל־וטן אל־ערבי, 28.11.79. אל־קבס, 19.11.79. Rami Huri, *The Middle East*, Aug. 80, *Strategic M.E. and Africa*, 7 1 79. *Economist Foreign Report*, 31.10.79; לגבי עמדת אש"ף ראה: החלטות הוועידה הרביעית של הפת"ח, דמשק, אוגוסט 1980. תוכנית שפרעם של ערביי־ישראל פורסמה בהארץ, 24.9.80. printed by *Arab Press Report* 18.6.80. נתונים ועובדות על הגירה ערבית מהשטחים לירדן, עמוס בן ורד, הארץ, 16.12.77. יוסף צוריאל, מעריב, 12.1.80. לגבי עמדת אש"ף כלפי ישראל ראה שלמה גזית, סקירה חדשית, יולי 1980. האני אל חסן בראיון, אל־ראי אל־עאם, כווית, 15.4.80. Avi Plaskov, "The Palestinian Problem", *Survival*, IISS, London, Jan—Feb. 78. David Gutmann, "The Palestinian Myth", *Commentary*, Oct. 75. Bernard Lewis, "The Palestinians and the PLO", *Commentary*, Jan, 75. *Monday Morning*, Beirut, 18—21.8.80; *Journal of Palestine Studies* Winter 1980.

20 פרופ' יובל נאמן, "השומרון — מסד לביטחון ישראל", מערכות, 272—273, מאי יוני 1980. יעקב חסדאי, "השלום, הדרך, והזכות לדעת", דבר השבוע, 23.2.80. אהרן יריב, "עומק אסטראטגי — השקפה ישראלית", מערכות, 270—271. אוקטובר 1979. יצחק רבין, "בעיות הביטחון של ישראל בשנות השמונים", מערכות, אוקטובר 1979.

כלכלית אמיתית ויצרנית מבית, בכחותינו אנו. אם לא יהיה ניתן להשיג שינוי זה רק מרצון חופשי ויוזמה, הרי המאורעות, ובעיקר תהליכים כלכליים אנרגאטיים ופוליטיים, ובידודנו בעולם יביאו אותנו לכך [כב].

מבחינה צבאית ואסטראטגית, אין המערב בכלל, וארה״ב בראשו, מסוגלים לעמוד מול הלחץ הגלובאלי מצד ברה״מ בכל רחבי העולם, ועל ישראל לכן לעמוד לבדה בשנות השמונים, ללא כל עזרה מבחוץ, צבאית וכלכלית, וזה בכוחנו כיום, ללא פשרות [כב]. שינויים מהירים בעולם יביאו גם לשינוי במצבם של יהודי התפוצות, שישראל תהיה להם לא רק הביפלט האחרון, אלא גם האופציה הקיומית היחידה כיום. אין להניח שיהודי ארה״ב, קהילות אירופה, ואמריקה הלטינית יוכלו להתקיים באותה מתכונת בעתיד [כג].

קיומנו בתוך הארץ עצמה מובטח, ואין כוח היכול להוציאנו מכאן בכוח, או בעורמה (שיטת סאדאת). למרות הקשיים של מדיניות ״השלום״ המוטעית, ובעיית ערביי ישראל והשטחים, ניתן להתמודד אפקטיבית עם הקשיים הללו כבר בעתיד הנראה לעין.

21 עזרה זהר, כצבת המשטר (שקמונה, תשל״ד); מוטי היינריך, האם יש לנו סיכוי — ישראל, אמת מול אגדה (רשפים, תשמ״א).

22 Henry Kissinger, The Lessons of the Past, "*The Washington Review*, Vol. 1, Jan. 1978; Arthur Ross, "Opec's Challange to the West", *The Washington Quarterly*, Winter 1980; Walter Levy, "Oil and the Decline of the West, "*Foreign Affairs*, Summer 1980; Special Report-Our Armed Forces-Ready or Not" *US News and World Report*, 10.10.77; Stanley Hoffman, Reflections on the Present Danger", *The New York Review of Books*, 6.3.80; *Time*, 3.4.80; Leopold Lavedez, "The Illusions of Salt", *Commentary*, Sept. 79; Norman Podhoretz, The Present Danger, *Commentary*, March 80; Robert Tucker, "Oil and American Power-Six Years Later", *Commentary*, Sept. 79; Norman Podhoretz, The Abandonment of Israel", *Commentary*, July 1976; Elie Kedourie, ."Misreading the Middle East", *Commentary*, July 1979

23 לפי נתונים שפורסמו ע״י יעקב ברוז, ידיעות אחרונות, 17.10.80, הרי סך הגילויים האנטישמיים שנרשמו בעולם בשנת 1979, היה כפול מאלו שנרשמו ב־1978. בגרמניה, צרפת, ובריטניה רבו גילויים אנטישמיים בעשרות כ״א בשנת 1979 בלבד. גם בארה״ב יש עליה חדה באירועים אנטישמיים שדווח עליה בכתבה זו. על האנטישמיות החדשה, ראה מאמריהם של: L. Talmon, The New Anti-Semitism, *The New Republic*, 18.9.1976. Barbara Tuchman, "They Poisened the Wells", *Newsweek*, 3.2.75

٢ ـ رسم شعبي للاسطورة الصهيونية

مقالة سيغسموند غورين (تل أبيب) نشرت في جريدة (جنيف) في ٢٣ كانون الثاني ١٩٨٣ .

Israël : Josué, aïeul d'Ariel Sharon

Il est curieux de relire, en 1983, le Livre de Josué, véritable recueil de «reportages» dans lesquels le maître-chroniqueur décrit la longue et sanglante guerre pour la conquête de la Terre promise quelque treize siècles avant l'ère chrétienne.

TEL AVIV: SIGISMOND GOREN

Notre curiosité a été éveillée par trois timbres, émis dernièrement par l'administration des PTT pour commémorer Josué, conducteur d'hommes, chef militaire, stratège et tacticien, qui dirigea la campagne pour une terre qui devait devenir par la suite la Judée et la Samarie, le berceau des royaumes hébreux, puis la Palestine (déformation du nom de Philistin) et, enfin, la Cisjordanie.

Un timbre de 5.50 chekels, gris-violet-bleu-rose-turquoise, est consacré au prélude de l'invasion – les Enfants d'Israël traversent le Jourdain avec, à leur tête, les sacrificateurs portant l'Arche de l'Alliance, tandis que Josué, le commandant en chef, surveille le cortège. Voilà qui rappelle la «méthode d'action indirecte» appliquée par les forces israéliennes contemporaines, entre autres, au Sinaï en 1956 et sur trois fronts en 1967, mais innovée il y a 3300 ans déjà par leur ancêtre biblique, puisque les Hébreux contournèrent le pays de Canaan pour attaquer de l'est, à partir du territoire qui est actuellement le royaume de Jordanie.

Un second timbre, de 7.50 chekels, gris-violet-rose-turquoise-noir, nous montre Josué dirigeant les opérations pour la prise de Jéricho, tandis que les sacrificateurs sonnent la trompette et les murs de la célèbre ville s'écroulent après (ce qui semble avoir été) une «guerre des nerfs» qui s'est prolongée pendant sept jours.

«Lorsque le peuple entendit le son de la trompette, il poussa de grands cris et la muraille s'écroula» écrit le «reporter» biblique. Les Hébreux s'emparèrent de Jéricho et «dévouèrent par interdit, au fil de l'épée, tout ce qui était dans la cité, hommes, femmes, enfants et vieillards, jusqu'aux bœufs, aux brebis et aux ânes...». Puis «ils brûlèrent la ville et tout ce qui s'y trouvait» quoique Josué laissât la vie à Rahab, la prostituée, parce qu'elle avait accueilli et abrité ses émissaires secrets, venus en mission de reconnaissance avant l'attaque.

Le troisième timbre, de 9.50 chekels, gris-orange-jaune-violet-noir, décrit un autre épisode célèbre – Josué arrêtant la course du soleil et de la lune afin de pouvoir terminer la bataille de Gabaon contre les cinq rois cananéens qui s'étaient coalisés pour le combattre et dont, selon le livre, les rois de Jérusalem et de Hébron. «Le soleil s'arrêta au milieu du ciel et ne se hâta point de se coucher presque tout un jour.» Les cinq monarches furent capturés et Josué commanda à ses hommes: «Approchez-vous, mettez vos pieds sur les cous de ces rois.» Puis «il les fit mourir» et leurs cadavres furent suspendus à cinq arbres.

Israël, aujourd'hui, doit affronter un ennemi non moins dangereux que les rois cananéens du passé: c'est l'inflation (environ 125% pour l'année écoulée). Comme les tarifs postaux doivent, forcément, se conformer à la courbe des prix, les PTT ont émis un timbre spécial sur lequel aucune valeur n'est indiquée. Le public peut s'en procurer aux offices postaux contre paiement du prix qui change périodiquement. Il est utilisable exclusivement pour le courrier local.

La conquête de la Terre promise par Josué: l'histoire se répète.

المترجمان في سطور

قصي أتاسي

★ ولد عام ١٩٣١
★ يحمل إجازة في الأدب ودبلوماً في التربية
★ يعمل مدرساً للغة العربية

ميشيل واكيم

★ ولد عام ١٩٣٢
★ يحمل إجازة في الأدب الفرنسي ودبلوماً في الترجمة
★ يعمل مدرساً للغة الفرنسية

صدر لهما:

١ ـــ كيف أدرك العالم: أولغا سكوروكودوفا — وزارة الثقافة
٢ ـــ ما يعدُ به الإسلام: روجيه غارودي — دار الوثبة
٣ ـــ تولستوي: ستيفان زفايغ — دار طلاس
٤ ـــ كازانوفا: ستيفان زفايغ — دار طلاس
٥ ـــ فلسطين أرض الرسالات السماوية: روجيه غارودي — دار طلاس
٦ ـــ الرحيل إلى أرض الجدة: وليم كامو
مراجعة عبود كاسوحة — وزارة الثقافة
٧ ـــ فوضى المشاعر: ستيفان زفايغ — دار طلاس
٨ ـــ أهواك ياماما الحبيبة: وليم سارويان — دار طلاس

توضيح

أصدرت دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر في عام ١٩٨٨ هذا الكتاب مترجماً من قبل السيدين: قصي أتاسي — ميشيل واكيم. وبما أن موضوعه (فلسطين — أرض الرسالات السماوية) يتناول قضية من أهم القضايا المعاصرة ذات الصلة المباشرة بالصراع العربي — الصهيوني فإن المؤلف قد بذل فيه جهداً متميزاً في تقصي الحقائق عن الجذور التاريخية للعرب واليهود في فلسطين.

ولكن للأمانة التاريخية لا بد من توضيح بعض النقاط التالية:

١ — إن فلسطين لم تكن أرض الرسالات فقد دلت المكتشفات وأجمع المؤرخون أن أبا الأنبياء إبراهيم العربي الكلداني ولد في أوراوكنا من أعمال بابل وليس بفلسطين. فهو عربي الجنسية كلداني الهوية عراقي المنشأ إذا جاز لنا هذا التعبير، وأن أولاده ومنهم اسحق قد ترعرع في حران وليس بفلسطين وموسى ولد وترعرع بمصر وليس بفلسطين كما أن محمداً ولد وترعرع في الجزيرة العربية وليس بفلسطين. ولم تكن فلسطين موجودة في زمن إبراهيم واسحق ويعقوب وموسى بل كانت كنعان.

مما تقدم نرى أن الأنبياء جميعهم وجدوا ضمن حدود المنطقة التي ندعوها اليوم (الهلال الخصيب) الذي يشمل فلسطين ولكن ليس فلسطين بالتحديد. على أنه يمكن أن يكون بعض الأنبياء من أحفاد إبراهيم قد نشأوا وترعرعوا بفلسطين بعد أن عُمِّمَ اسمها على كنعان كالسيد المسيح، العربي غير اليهودي.

٢ — إن فلسطين لم تلعب الدور الحضاري الرائد منذ ٤٠٠٠ عام لسبب بسيط هو أن فلسطين أو الفلسطينيين كانوا يشكلون جزءاً بسيطاً من الكنعانيين ولم يُعمم اسمهم على فلسطين إلا بعد

★ نص المقال الذي نشر في مجلة المنارة عدد تشرين الثاني ١٩٩٠.

عام ١٠١٠ ق. م إثر المعركة الفاصلة بينهم وبين شاؤول. فالدور الحضاري كان لكنعان وليس لفلسطين، ولما كانت كنعان وفي كل تاريخها تحت السيطرة العربية النهرية (مصر والفرات) فإن كل ما انتجته كان انتاجاً عربياً يتسم بمسحة خاصة بها، فالأبجدية واللغة والفن والكتابة لم تكن إلا عربية لا فلسطينية ولا كنعانية.

مما تقدم نرى أن الحضارة التي أشار إليها المؤلف ليست فلسطينية ولا كنعانية بل عربية في سداها ولحمتها ولن تكون غير ذلك ولا يمكن أن تسترجع فلسطين هذا الدور إلا ضمن البوتقة العربية، فهذا الطريق هو الأول والأخير والوحيد الذي يقف سداً أمام دعاة التجزئة اعتباراً من عهود الظلام التي انبثقت فيها النزعات الإقليمية وحتى عصرنا الحاضر.

٣ ــ إن الكلام عن (إسرائيل) كما أورده المؤلف وسها عنه الدارسون والمترجمون غير مستند على حقائق تاريخية، فاسرائيل هو يعقوب حفيد إبراهيم وإبراهيم عربي كلداني غير يهودي، وأحفاده عرب كلدانيون وأحفاد أحفاده (بنو إسرائيل) عرب وليسوا يهوداً فلا يجوز لمؤرخ أو كاتب أن يبحث في التاريخ ويخرج عن الحقائق التاريخية، فليس لاسرائيل تاريخياً علاقة باليهود واليهودية.

إن المؤلف يستمد معلوماته من التوراة المشكوك في صحتها للأسباب التالية:

١ ــ أنها كتبت في بابل عام ٥٣١ ق. م أي بعد إبراهيم بـ ١٢٠٠ عام وبعد موسى بـ ٨٠٠ عام، وإن إبراهيم وموسى لا يعرفان شيئاً عن مضمونها فليس لهما علم بكورش واستير والرومان واليونان وليس لهما علم باليهود واليهودية وفلسطين والخزر.

٢ ــ إن كتبة التوراة هودا في كتبهم إبراهيم وأحفاده بني إسرائيل وسرقوا ديانتها ووهبوها للمتهودين من الشعوب الأخرى وهكذا أصبحت اليهودية اعتباراً من عام ٥٣١ ق. م دين انتسب إليه كثير من البشر والشياطين بمعرفة الفرس المحتلين وانتسب إليه فيما بعد الخزر الروس والذين يدعون أنهم من بني اسرائيل. وأصبحت اليهودية بموجب تعاليم التوراة هي الإسرائيلية بعد عملية التزوير الكبرى هذه.

٣ ــ إني لم أكن أتوقع أن **يستعمل** المؤلف ويصمت المترجمون والدارسون مصطلح (إسرائيل) بمعنى (يهودي) إن هذا **الاستعمال هو** ما يجعل اليهود يرقصون ويطبّلون لأنه اعتراف صريح من أصحاب البلاد الأصليين الذين هم نحن بإسرائيلية كافة الشعوب المتهودة وبصورة خاصة أهل (الخزر) الذين تهودوا في العصر العباسي والذين يشكلون ٨٥٪ من المحتلين. وبعد ذلك يفدون إلينا باسم إسرائيل ومن نسل يعقوب. إن هذا المنحى يشعرني بالأسى لعدم تفهم كاتب وفيلسوف أفنى زهرة شبابه في البحث عن الحقيقة يسير بركاب الدعاية اليهودية دون أن يشعر وعن غير قصد.

٤ ـــ لم يكن للإسرائيليين أي حضارة بفلسطين فقد انقطعت أخبارهم بمجرد هجرتهم إلى مصر عام ١٧٢٠ ق . م واندماجهم في الشعب العربي العموري هناك من عام ١٧٢٠ إلى عام ١٢٨٢ ق . م بحدود ٤٠٠ عام كانت كافية لاندماج هذه القبيلة أو العشيرة كما اندمج ما تبقى من الموسويين بالعرب الكنعانيين وأن كل ما هنالك هو انتشار الديانة الإبراهيمية التي بشر بها إبراهيم وأصبحت النبع الذي يستمد منه الكنعانيون تطلعاتهم الدينية . أما معبد سليمان فقد بناه العرب الصوريون لسليمان العربي ، وعندما جدد هيرودوت هذا المعبد جدد معه بناء حائط المبكى ، فحائط المبكى لم يكن من بقايا معبد هيميروس لأن هذا المعبد مذكور بسفر استير المكتوب عام ٥٣١ ق . م فكيف تحتفل استير بتدشين هذا الحائط وتذبح عليه ٣٠,٠٠٠ ألف عربي احتفاءً بالتدشين قبل أن يبنى في عام ٥٣١ ق . م أي قبل ذكره في التوراة بـ ٥٠٠ عام تقريباً ؟ ! . إن الفرس الأخمينيين هم الذين بنوا هذا الجدار بتكريم كورش لعيون استير ابنة الملك بوكاهين التي تزوجها الملك الأخميني وتوّجها ملكة لبلاد فارس .

٥ ـــ إن الأسطورة التاريخية لم تخترعها الصهيونية التي ولدت في العصر الحديث ولكنها حطت بيد الكهنة اليهود في بابل بمعرفة الفرس اعتباراً من عام ٥٣١ ق . م .

وإن التوراة وتفسيرها التلمود وجدت قبل ظهور الصهيونية في روسيا بآلاف السنين فمن غير المعقول أن يتبنى اليهود المفهوم الصهيوني قبل وجود اليهودية لأن ذلك مخالف للتاريخ والعقل السليم .

٦ ـــ لقد أورد المؤلف مصطلح (عبراني) بمعنى (يهودي) وخلق من هذا المصطلح شعباً أو فئة ذات تاريخ والحقيقة تقول :

ـــ لا توجد في اللغة الآرامية التي كتبت فيها التوراة في بابل كلمة (عبراني) بمعنى (يهودي) أو شعب أو قبيلة .

ـــ لا يوجد في اللغة العربية هذا المصطلح بهذا المعنى باستثناء المصدر (عبر) بنت الآرامية .

ـــ لم يرد هذا المصطلح في القرآن (معجم اللغة العربية) إطلاقاً .

إننا نجد هذا المصطلح في كتاب وحيد يتيم كتب ببابل عام ٥٣١ ق . م ، ويقول هد الكتاب «نحن اليهودية سمينا عبرانيين لأننا عبرنا النهر مع إبراهيم» . إن تزوير التاريخ واضح ، إذ كيف يعبر اليهود النهر مع إبراهيم في القرن التاسع عشر ق . م علماً أنهم لم يظهروا على مسرح الأحداث إلا في القرن الثالث عشر ق . م بزمن موسى وبعد موسى ؟ والحقيقة التاريخية تقول «إن

الذين عبروا النهر مع إبراهيم هم العرب الكلدانيون ولم يرد في التاريخ أن الآرامي الكلداني هو يهودي. ومن هنا نستطيع القول: لا يوجد شعب (عبري) بمعنى (يهودي) إلا إذا كان الآرامي يهودي لذلك نهيب بالكتاب والفلاسفة والمؤرخين عدم استخدام مصطلح (عبراني) بمعنى (يهودي) على الإطلاق لأننا في هذه الحالة نكون قد وقعنا في الفخ اليهودي.

إن التاريخ المصري والكنعاني والآشوري وحتى التاريخ الإسلامي المتمثل في القرآن لم يتعرض ولم تذكر هذا المصطلح إطلاقاً، وتعرض إليه المؤرخون بعد كتابة التوراة في بابل عام ٥٣١ ق.م، وبقي القرآن هو الكتاب الوحيدالذي لا تمسه يد التزوير التوراتي. لقد تمكن اليهود من تزوير التاريخ فهودوا إبراهيم وبني إسرائيل وأصبح إبراهيم رئيس الشجرة اليهودية وأحفاده بنو إسرائيل يهوداً لا غبار عليهم. وعجزنا نحن عن كشف هذا التزوير بل أيدناه ومشينا في ركابه.

٧ ــ يركز الكتاب على سامية اليهود أي أنهم خرجوا من الجزيرة على حد تعبير شلوتزر. لقد أورد شلوتزر نظريته عام ١٧٨١ م دون أن يستند إلى أي مرجع تاريخي، وقد تبنى اليهود هذه النظرية واعتبروا أنفسهم ساميين، ولما كان الآراميون ساميين فهم بالطبع أولاد عم العرب وأن هذه الأرض هي ملك الساميين وأن الرب أعطاها لشعب من الساميين. فهم دعاة سلام ويودون العيش مع أبناء عمومتهم من الساميين بسلام ووئام ناسين مجازرهم في القرن الثالث عشر. م التي تحدثت عنها توراتهم ووصفتها بأنها شعاراً وأمراً ربانياً، ومجازرهم في بابل وعلى حائط المبكى وتعليماتهم التوراتية بإفناء جميع الشعوب وأخيراً مجازرهم التي تحدّت الإنسانية في فلسطين.

وهكذا لم يستطع شلوتزر والعلماء التوراتيون تجاوز التوراة، لقد تمكن اليهود خلال مسيرتهم التاريخية من الحبشة إلى مصر فكنعان فآشور أن يقتبسوا كثيراً من العادات والتقاليد بما في ذلك اللغة وأن ينسبوها لأنفسهم وينشرونها بشكل (كتاب مقدس). لقد ناقش موضوع (السامية) علماء كبار أمثال جواد علي وكشفوا خطر هذا التعبير وقرروا استبدال كلمة (سامي) بـ(عربي) أينما وجدت.

إن علم الاجتماع لم يستطع حتى الآن معرفة هذه التسمية الفريدة الغريبة من نوعها، وكذلك فإن العقل السليم لا يمكن أن يقبل بأن ينفرد أحد أشقاء أولاد نوح بلغة خاصة به ضمن عائلة واحدة ربما كانت هي الوحيدة التي نجت من الطوفان وبقيت على قيد الحياة مما جعل أفرادها يُرغمون على العيش متراضين مترابطين في المجتمع الجديد.

٨ ــ لم يكن للعبريين أو الإسرائيليين أو اليهود دولة لا في زمن يشوع ولا في زمن دواود ولا في زمن

سليمان. فيشوع وشاؤول موسويان وليسا يهوديين. ودواود وسليمان عربيان من سلالة إبراهيم. وإن ما يسمى بدولة (اسرائيل) ودولة (يهودا) لا أثر لهما في التاريخ. وإنما كان هناك منطقتان عربيتان (بالعهد المصري. وبعد موت سليمان) إحداهما تسمى (إسرائيل) والثانية (يهودا) ولم يكن لهاتين المنطقتين أي نفوذ سياسي إلا ضمن نظرة السيادة المصرية، وكل ما جاء في التوراة غير مؤكد حتى الآن؟ وحتى إذا أطلقنا عليهما (دولتان اسرائيليتان) فإن بني إسرائيل هم من العرب وليسوا يهوداً وكذلك كان أبناؤهم العرب من بني إسرائيل.

إن العبريين لم يكونوا موجودين تاريخياً حتى يكون لهم أنبياء. وأن النبوة والرسالة كانت وقفاً على الشعب العربي. فإبراهيم واسحق واسماعيل ويعقوب (بني إسرائيل) لم يكونوا يهوداً وقد أوضح القرآن ذلك بقوله (ما كان إبراهيم يهودياً) وقوله (وما أنزلنا عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم).

٩ ــ إن التحول الديني وجد بعد كتابة التوراة عام ٥٣١ ق.م بمعرفة الفرس الأخمينيين الذين وجهوا اليهود لتهويد إبراهيم وذريته ظلماً وبهتاناً لأغراضهم السياسية فكان لهم ما أرادوا ومن ثم انتقلوا إلى الإدعاء بأن كافة الأنبياء من هذه الذرية اليهودية فهم جميعاً إسرائيليون وعبريون ويهوداً على حد زعمهم. وقد اشتدت هذه الحملة بعد ظهور الكتاب المقدس بزمن طيطس.

١٠ ــ لم تكن فلسطين مسيحية بل كانت عربية محتلة من قبل الرومان واليونان وقد أثّرت فيهم التوراة التي أصبحت فيما بعد جزءاً من الكتاب المقدس فأصبح اسمها أرض الميعاد لسببين: أن مسيح اليهود سيأتي حتماً وأن المسيح المنتظر مخلّص البشرية من الآلام عند المسيحية سيأتي. أي شعب الكون كله لا ينتظر مخلصاً ومحرراً؟.

١١ ــ إن العرب حملوا راية الإسلام، والإسلام تشريع عربي، وفلسطين عربية فلم تكن في يوم من الأيام غير ذلك وأن هذه التسميات أتت عن طريق التخلف عبر العصور. وهذا ما نشهده اليوم فالشعب العربي اليوم يناضل للتحرر تحت شعار العروبة وليس تحت أي شعار آخر.

١٢ ــ إن العرب لم يدخلوا فلسطين فاتحين بل دخلوها محررين فلا يجوز إنكار الحقائق التاريخية.

١٣ ــ تعرض الكتاب في الصفحة ٤٦ إلى الفلسطينيين زاعماً أنهم نزلوا إلى الشاطئ الفلسطيني في القرن الثالث عشر ق.م وهم من شعوب البحر الغازية المدمرة.

إن هذا الزعم هو توجيه توراتي أورده (لودز) و(اولبريت) و(جورج باراطون) ممن يمثلر الفكر التوراتي بنظرية اخترعوها مفادها (أن أول وجود للفلسطينين كان في عام ١١٩١ ق.م على

أثر المعركة التي دارت بين شعوب البحر ورعمسيس الثالث تحول فيها الفلسطينيون من الانهزام إلى الهجوم ضد الكنعانيين واحتلالهم الأرض بعد طرد أهلها الحوويين) والحقيقة التاريخية تقول:

ـــ إن رعمسيس وصف الفلستو بأنهم قوة لا تقهر ولقد استطاع كما هو منقوش على حائط معبد امون أن يقهرهم.

ـــ أن رعمسيس لم يذكر من أين جاء الفلستو علماً أن المعركة كانت في المنطقة الواقعة بين مصر وكنعان وإن كنعان كانت تحت السيطرة المصرية.

ـــ إن سنفروا الفاتح المصري العظيم احتل أرض كنعان ذاكراً الغنائم التي استولى عليها من الفلستو عام ٢٧٠٠ ق.م.

ـــ أن بيبي الأول احتل أرض كنعان ذاكراً الفلستو عام ٢٥٠٠ ق.م (الكرنك).

ـــ إن تحوطمس الثالث احتل أرض كنعان عام ١٥٨٠ ق.م ذاكراً الغنائم الفلسطينية ومنها عربات ملكية مطعمة بالذهب وغرف نوم من خشب الابينوس وخيام أوتادها من الفضة و ٢٧٠٠ شوال من الحنطة.

ـــ إن أحوسى احتل أرض الفلستو عام ١٤٨٠ ق.م ذاكراً أرض الفلستو.

ـــ ظهرت مستندات سومرية تطلق على الفلستو (البيت التجاري المشهور).

ـــ احتل الآشوريون فلسطين واحتل الاخمينيون فلسطين قبل عام ١١٩١ ق.م.

ـــ تغريب إبراهيم لدى ملك الفلسطينيين في جرار عام ١٩٥٠ ق.م وقال له ملك الفلسطينيين أبي مالك (مبارك أنت يا إبراهيم من الإله العلي القدير) سفر الخروج.

وهكذا نرى أن فلسطين كانت موجودة عند البابليين والكنعانيين والمصريين وفي التوراة المشكوك بصحتها قبل عام ١١٩١ ق.م مما يدل على خطر ما أورده علماء الغرب والتوراة التي تقول في موضع آخر أن أول وجود للفلسطينيين في جزيرة كفتور وقد دمرهم الرب هناك لأنهم سيعتدون على شعب الله المختار، سفر الخروج.

١٤ ـــ ولقد تعرض الكتاب في الصفحة ٤٦ إلى العبيرو وخلط بينهم وبين العبرانيين غير الموجودين أصلاً فمصطلح عبيرو كان يطلق في الألف الثالثة ق.م على العشائر العربية المتجولة في شمال جزيرة العرب ومنهم العموريين والآراميين والكلدانيين ويمكن أن يكون إبراهيم من سلالتهم فهم من أهل الوبر وهذه العشائر كانت وما زالت حتى اليوم بحرب دائمة مع سكان الحضر. ورسائل تل

العمارنة تذكرهم قبل خروج موسى وجماعته من مصر بوقت طويل. إن مصطلح عبراني بمعنى يهودي لم يظهر إلا في القرن السادس ق.م وليس له أي علاقة في العبيرو الذين وجدوا في الألف الثالث ق.م.

١٥ ــ وأخيراً فإن المؤلف يتهم الصهيونية بأنها خرجت أو خانت الإبراهيمية وقد بيّنا أن الصهيونية هي وليدة اليهودية وأن اليهودية ليست لها علاقة بالموسوية أو الإبراهيمية حتى تقترف هذه الخيانة المفتعلة.

وخلاصة لهذا التوضيح فإن الكتاب قيّم ويحتاج إلى حوار لأن الحوار كما تفضل الناشر هو المطلوب للوصول إلى الحل القريب من الحقيقة. وشكراً.

د. حسن حده

الفهرس

كلمة الناشر ٧
مدخل (ماذا تعني «فلسطين»؟) ٩
تمهيد (فلسطين فيما قبل التاريخ) ٢٣

القسم الأول

تاريخ أرض

○ الحضارة الكنعانية ٣٣

١ ــ المنابع ٣٣
٢ ــ التشكيل ٤٠
٣ ــ ماأسهمت به هذه الحضارة ٤٨

○ العبريون ٦٥

١ ــ أول ظهور تاريخي للعبريين ٦٥
٢ ــ من الحلف الديني إلى حكم الملوك ٧١
٣ ــ ولادة التوراة ٧٧
٤ ــ تفسخ دولة العبريين وسقوط اسرائيل ٨٤

٥ ــ كبار الأنبياء العبريين ٨٨
٦ ــ من النبوئية إلى اليهودية ٩٤

○ فلسطين المسيحية ١٠٧

١ ــ ظهور يسوع ١٠٧
٢ ــ المسيحية في فلسطين ١١٤

○ فلسطين المسلمة ١١٩

١ ــ المرحلة العربية من القرن السابع حتى العاشر الميلادي ١١٩
٢ ــ مرحلة الغزوات من البيزنطيين حتى الصليبيين من القرن العاشر حتى الثالث عشر ١٢٧
٣ ــ السيطرة التركية من القرن الثالث عشر إلى القرن التاسع عشر ١٣٢

القسم الثاني

تاريخ أسطورة

مدخل (فلسطين في مخيلة الغرب) ١٣٧

١ ــ العهد القديم وولادة الصهيونية المسيحية ١٣٩

أ ــ قراءة التوراة على هذا النحو المتعصب ــ ضرب من التجديف لدى المسيحي الحق ١٤٩
ب ــ هذه القراءة الاصطفائية المتعصبة للتوراة لم تعد مقبولة لدى اليهودي والمسيحي على السواء ١٥٣

٢ ــ من اليهودية إلى القومية الصهيونية ١٦٣

أ ــ النهضة الأوروبية والتحولات في اليهودية ١٦٣
ب ــ نزعة قومية في أوروبا وقومية صهيونية ١٦٧
ج ــ المعارضة الدينية تتهم الصهيونية السياسية بأنها كفر باليهودية ١٨٣

د ــ ولادة الصهيونية السياسية ١٨٧

٣ ــ أسباب نجاح الصهيونية السياسية ١٩٣

١ ــ الصهيونية والخلافات الاستعمارية في المسألة الشرقية ١٩٣
٢ ــ الحركة الصهيونية واللاسامية ٢٢٥

القسم الثالث

تاريخ غزو

مدخل ٢٥١
١ ــ كيف ولدت واستمرت دولة اسرائيل ٢٦١
أ ــ « التقسيم » وسياسة « الأمر الواقع » ٢٦١
ب ــ دور « اللوبي » الصهيوني في الولايات المتحدة والغرب ٢٦٧
ج ــ تمويل دولة اسرائيل ٢٧٧

٢ ــ السياسة الداخلية للدولة الصهيونية ٢٨٣
٣ ــ السياسة الخارجية للدولة الصهيونية ٢٩٥
٤ ــ المقاومة الفلسطينية ٣١٩

خاتمة ٣٤١

وثائق أصلية ٣٥٥

تصويب

وردت في الكتاب بعض الأخطاء والتي لا تُخفى عن قارئنا الكريم نوردها فيما يلي:

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٨	٣٤/١٠	بابرهيم	بابراهيم
٢٩	٩	المشتجرة	المتشجرة
٣٦	٢	١٢٠٠ عاماً	١٢٠٠ عام
١٩٠	٧	الصيونية	الصهيونية
١٨٠	١٥	يهودياً	يهودي
٢٥٩	١٠	١٩٨٥	١٩٨٢
٢٧٩	١٨	عشرين مليوناً	عشرين ملياراً
٢٩٧	٢٢	١٩٨٤	١٩٤٨

فلسطين أرض الرسالات السماوية/ تأليف روجيه غارودي؛ ترجمة قصي أتاسي، ميشيل واكيم. ــ ط. ١ . ــ دمشق: دار طلاس، ١٩٨٨ . ــ ٣٧٢ ص. ؛ ٢٥ سم .

بآخره مجموعة وثائق باللغة العبرية .

١ ــ ٩٥٦٫٤ر غار ف ٢ ــ العنوان ٣ ــ غارودي
٤ ــ أتاسي ٥ ــ واكيم

مكتبة الأسد

رقم الإيداع ــ ١٩٨٧/١١/٨٨٨

رقم الاصدار ٣٠٩



هــذا الكتــاب

- هذا الكتاب محاولة لإنقاذ تاريخ فلسطين من الأسطورة التي اخترعها الصهاينة ليقنعوا العالم بأن هذه الأرض (هبة) من الله لهم.
- وفي هذا الكتاب دراسة لتاريخ نشوء العقيدة الصهيونية ومنطقها القائم على التميز العنصري.
- ويفضح الكتاب (الصهيونية السياسية) على أنها خيانة صريحة لجوهر الدين اليهودي.
- أما (اسرائيل) التي ولدت على أثر حربين عالميتين، والتي توسعت بفعل خمس حروب فليست إلا قنبلة موقوتة قد تعمل على تفجير حرب عالمية ثالثة.
- وفي الكتاب عرض تاريخي موضوعي منهجي للدور الحضاري الرائد الذي لعبته فلسطين على مدى أربعة آلاف عام من تاريخها.
- وفيه دعوة إلى أن تسترجع فلسطين رسالتها العالمية ودورها الحضاري المتميز.